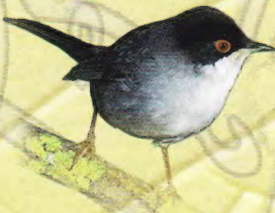


جَوَافِحُ السَّعَادَاتِ

لِلشَّيْخِ الْإِسْلَامِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو
وَلِقَوْلِي مُحَمَّدٍ بَحْرِيٍّ فِي التَّوْحِيدِ



دَارُ الْإِسْلَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جَامِعُ السَّعَادَاتِ
(المجلد الثاني)



جامع السعادات

للسيخ الجليل جد عالم الحرمين

المولى محمد مهدي الزليقي (رحمه الله)

(المجلد الثاني)

انتشارات اسماعيليان

نراقى، مهدي بن أبي ذر. ١١٢٨-١٢٠٩ق.
جامع السعادات : مؤلف محمد مهدي النراقي.-
قم: انتشارات اسماعيليان، ١٣٧٩.

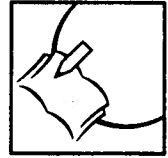
ج ٢
(ج ١) ISBN 964-6397-20-4.- (دوره) ISBN 964-6397-19-0
(ج ٢) ISBN 964-6397-21-2

فهرست نویسی بر اساس اطلاعات فیبا.
چاپ قبلی: دارالتفسیر، ١٣٧٥
کتابنامه.

١. اخلاق اسلامی. الف. عنوان
ج ٢ ن ٤٧٠٧٠ BP ٢٩٧ ٦١
١٣٧٩

٣٥٨٤-٧٩م

کتابخانه ملی ایران



اسم الكتاب:.....	جامع السعادات (ج ٢)
المؤلف: الشيخ الجليل محمد مهدي النراقي	
الناشر: اسماعيليان.....	٠٢٥١-٧٧٤٤٢١٢
تاريخ النشر:.....	١٤٢٨ هـ. ق- ١٣٨٦ هـ. ش
الطبعة:.....	السابعة
المطبعة:.....	سرور
عدد المطبوع:.....	١٠٠٠ مجلد
القطع:.....	وزيری
عدد الصفحات:.....	٥٦٠ صفحة
شابك مجلد الثاني:.....	٢-٢١-٦٣٩٧-٩٦٤
شابك الدورة:.....	٠-١٩-٦٣٩٧-٩٦٤
سعر المجلدين:.....	٥٥٠٠ تومان

المقام الرابع

فيما يتعلق بالقوى الثلاث من العاقلة وقوى الغضب
والشهوة، أو باثنتين منها من الرذائل والفضائل.

الحسد وذمه - الغبطة - بواعث الحسد - لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين -
علاج الحسد - القدر الواجب في نفى الحسد - النصيحة - الأيذاء والاهانة - كف
الأذى - ذم الظلم - العدل - اخافة المؤمن - ادخال السرور على المؤمن - ترك اعانة
المسلمين - قضاء حوائج المسلمين - المداينة في الأمر بالمعروف - السعى فيه -
وجوبه وشروطه - لا تشترط العدالة فيه - مراتبه - ما ينبغي في الأمر والنهي - انواع
المنكرات - الهجران - التآلف - قطع الرحم - صلة الرحم - المراد منه - عقوق الوالدين -
برهما - حق الجوار - حدود الجوار وحقه - طلب العثرات - ستر العيوب - افشاء السر -
كتمان السر - النيمة - السعاية - الافساد بين الناس - الاصلاح - الشماتة - المرء
علاجه - طيب الكلام - السخرية - المزاح - المذموم منه - الغيبة - لا تنحصر الغيبة
باللسان - بواعثها - ذمها - مسوغاتها - كفارتها - البهتان - المدح - الكذب - ذمه -
مسوغاته - التورية - المبالغة - شهادة الزور - علاج الكذب - الصدق ومدحه - انواعه -
اللسان اضر الجوارح - الصمت - حب الجاه - ذمه - الجاه احب من المال - لا بد
للانسان من جاه - دفع اشكال - الكمال الحقيقي في انعلم والقدرة والجاه والمال -
علاج حب الجاه - الخمول - مراتب حب المدح - اسبابه - علاجه - صد حب المدح -
الرياء - ذمه - اقسامه - تأثير الرياء على العبادة - سرور بالانسان على العبادة -
متعلقات الرياء - بواعثه - الرياء الجلى والخفى - كيف يفسد الرياء العمل - شوائب

الرياء المبطله للعمل - علاجه - الوسوسة بالرياء - الاخلاص - مدحه - آفاته - النفاق.
فمنها:

الحسد

وهو تمنى زوال نعم الله تعالى عن أخيك المسلم مما له فيه صلاح، فإن لم ترد زوالها عنه ولكن تريد لنفسك مثلها فهو (غبطة) ومنافسة، فإن لم يكن له فيها صلاح وأردت زوالها عنه فهو (غيرة). ثم إن كان باعث حسدك مجرد الحرص على وصول النعمة إلى نفسك، فهو من رداء القوة الشهوية، وإن كان باعته محض وصول المكروه إلى المحسود، فهو من رذائل القوة الغضبية، ويكون من نتائج الحقد الذي هو من نتائج الغضب، وإن كان باعته مركباً منهما، فهو من رداء القوتين. وضده (النصيحة)، وهى ارادة بقاء نعمة الله على أخيك المسلم مما له فيه صلاح.

ولا ريب في أنه لا يمكن الحكم على القطع بكون هذه النعمة صلاحاً أو فساداً. فربما كانت وبالأعلى صاحبه وفساداً له، مع كونها نعمة وصلاحاً في بادى النظر. فالمناط في ذلك غلبة الظن، فما ظن كونه صلاحاً فارادة زواله حسد واردة بقاءه نصيحة، وما ظن كونه فاسداً فارادة زواله غيرة. ثم إن اشتبه عليك الصلاح والفساد، فلا ترد زوال نعمة أخيك ولا بقاءها إلا مقيداً بالتفويض وشرط الصلاح، لتخلص من حكم الحسد ويحصل لك حكم النصيحة. والمعيار في كونك ناصحاً: أن تريد لأخيك ما تريد لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. وفي كونك حاسداً: أن تريد له ما تكره لنفسك وتكره له ما تريد لنفسك.

فصل

(ذم الحسد)

الحسد أشد الأمراض واصعبها، وأسوأ الرذائل وأخبثها، ويؤدى بصاحبه إلى

عقوبة الدنيا وعذاب الآخرة، لأنه في الدنيا لا يخلو لحظة عن الحزن والألم، إذ هو يتألم بكل نعمة يرى لغيره، ونعم الله تعالى غير متناهية لا تنقطع عن عباده، فيدوم حزنه وتألمه. فوبال حسده يرجع إلى نفسه، ولا يضر المحسود اصلاً، بل يوجب ازدياد حسناته ورفع درجاته من حيث أنه يعيبه، ويقول فيه ما لا يجوز في الشريعة، فيكون ظالماً عليه، فيحمل بعضاً من أوزاره وعصيانه، وتنقل صالحات أعماله إلى ديوانه، فحسده لا يؤثر فيه إلا خيراً ونفعاً، ومع ذلك يكون في مقام التعاند والتضاد مع رب الأرباب وخالق العباد، إذ هو الذي أفاض النعم والخيرات على البرايا كما شاء وأراد بمقتضى حكمته ومصلحته، فحكمته الحققة الكاملة أوجبت بقاء هذه النعمة على هذا العبد، والحاسد المسكين يريد زوالها، وهل هو إلا سخط قضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وتمنى انقطاع فيوضات الله التي صدرت عنه بحسب حكمته وإرادة خلاف ما أراد الله على مقتضى مصلحته؟! بل هو يريد نقصه سبحانه، وعدم اتصافه بصفاته الكمالية. إذ إفاضة النعم منه سبحانه في أوقاتها اللائقة على محالها المستعدة من صفاته الكمالية التي عدمها نقص عليه تعالى، وإلا لم يصدر عنه، وهو يريد ثبوت هذا النقص، ثم لتمنيه زوال النعم الإلهية التي هي الوجودات ورجوع الشرور إلى الاعدام يكون طالباً للشر ومحباً له. وقد صرح الحكماء بأن من رضى بالشر، ولو بوصوله إلى العدو، فهو شرير. فالحسد أشد الرذائل، والحاسد شر الناس. وأى معصية أشد من كراهة راحة مسلم من غير أن يكون له فيها مضرة؟ ولذا ورد به الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه في معرض الإنكار:

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١). وقال: ﴿وَدَكْثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ

الْكُتْبِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِمَّنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ^(١). وقال: إِنْ تَمَسَّسَكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب». وقال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يا بن عمران، لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلى، ولا تمدن عينيك إلى ذلك، ولا تتبعه نفسك، فإن الحاسد ساخط لنعمى، صاد لقسمى الذي قسمت بين عبادى. ومن يك كذلك، فلست منه وليس منى». وقال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله اخوانا». وقال رسول الله ﷺ: «دب اليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضة هي الحالقة، لا أقول حالقة الشعر، ولكن حالقة الدين. والذي نفس محمد بيده! لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا. ألا انبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ افشوا السلام بينكم!». وقال رسول الله ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كفراً، وكاد الحسد أن يغلب القدر». وقال رسول الله ﷺ: «سيصيب أمتى داء الأمم، قالوا: وما داء الأمم؟ قال: الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد والتحاسد، حتى يكون البغى ثم الهرج». وقال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى أن يكتر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون». وقال رسول الله ﷺ: «إن لنعم الله أعداء. فقيل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله». وورد في بعض الأحاديث القدسية: «أن الحاسد عدو لنعمتى، متسخط لقضائى. غير راض بقسمتى التي قسمت بين عبادى». وقال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إن الرجل ليأتى بأدنى بادرة فيكفر^(٣)، وأن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب». وقال أبو عبد الله عليه السلام: «آفة الدين، الحسد والعجب

(١) بقره الآية ١٠٥

(٢) أن عمران، الآية ١٢٠

(٣) في بعض نسخ (الكافي)، لينأدى وفي نسخ (جامع السعادات): «ليأنى بأى». ورجحنا نسخة (الوسائل) و(البحار) كما في المتن.

والفخر». وقال ﷺ: «إن المؤمن يغبط ولا يحسد، والمنافق يحسد ولا يغبط»^(١). وقال ﷺ: «الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود، كابليس أورت بحسده لنفسه اللعنة، ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء. فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقل ميزان المحسود، البراق مقسوم. فما ذا ينفع الحسد الحاسد، وماذا يضر المحسود الحسد. والحسد أصله من عمى القلب والجحود بفضل الله تعالى، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً، ولا توبة للحاسد، لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه، يدوبلاً معارض به ولا سبب، والطبع لا يتغير عن الأصل، وإن عولج»^(٢). وقال بعض الحكماء: «الحسد جرح لا يبرأ». وقال بعض العقلاء: «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه». وقال بعض الأكابر: «الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمة وذلاً، ولا من الملائكة إلا لعنة وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزعاً وغمماً، ولا ينال عند النزاع إلا شدة وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً». والأخبار والآثار في ذم الحسد أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه يكفي لطالب الحق. ثم ينبغي أن يعلم أنه إذا أصاب النعمة كافر أو فاجر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإيذاء الخلق وفساد ذات البين. فلا مانع من كراهتها عليه بحسب رواها منه. من حيث أنها آلة للفساد، لا من حيث أنها نعمة.

(١) صحاح أحاديث هذا الفصل على (تبخار): ٣ مج ١٥ - ١٣١ - ١٣٢، باب الحسد وعلى (الكافي):

باب الحسد. وعلى (سفينة البحار): ١ - ٢٥٠ - ٢٥١. وعلى (الحياة العلوم): ٣ / ١٦٢ - ١٦٤ وعلى

(النوائل): أبواب جهاد النفس. الباب ٥٤.

(٢) هذا الخبر في (مصباح الشريعة): الباب ٥١. وصححه عليه.

فصل

(المنافسة والغبطة)

قد علمت أن المنافسة هي تمنى مثل ما للمغبوط، من غير أن يريد زواله عنه، وليست مذمومة، بل هي في الواجب واجبة، وفي المندوب مندوبة، وفي المباح مباحة. قال الله سبحانه:

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(١).

وعليها يحمل قول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على ملكه في الحق. ورجل آتاه الله علماً، فهو يعمل به ويعلمه الناس»: أى لا غبطة إلا في ذلك، سميت الغبطة حسداً كما يسمى الحسد منافسة، اتساعاً لمقارنتهما. وسبب الغبطة حب النعمة التي للمغبوط، فإن كانت أمراً دينياً فسببها حب الله وحب طاعته، وإن كان دنيوية فسببها حب مباحات الدنيا والتنعم فيها. والأول لا كراهة فيه بوجه، بل هو مندوب اليه. والثاني وإن لم يكن حراماً، إلا أنه ينقص درجته في الدين، ويحجب عن المقامات الرفيعة، لمنافاته الزهد والتوكل والرضا.

ثم الغبطة لو كانت مقصورة على مجرد حب الوصول إلى مثل ما للمغبوط، لكونه من مقاصد الدين والدنيا، من دون حب مساواته له وكراهة نقصانه عنه، فلا حرج فيه بوجه، وإن كان مع حب المساواة وكراهة التخلف والنقصان، فهنا موضع خطر. إذ زوال النقصان أما بوصوله إلى نعمة المغبوط أو بزوالها عنه، فإذا انسدت إحدى الطريقتين تكاد النفس لا تنفك عن شهوة الطريقة الأخرى. إذ يبعد أن يكون إنسان مريداً لمساواة غيره في النعمة فيعجز عنها، ثم لا ينفك عن ميل إلى زوالها، بل الأغلب ميله اليه، حتى إذا زالت النعمة عنه كان ذلك عنده أشهى من

(١) المطففين، الآية: ٢٦.

بقائها عليه، إذ بزوالها يزول نقصانه وتخلفه عنه. فإن كان بحيث لو ألقى الأمر إليه ورد إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه، كان حاسداً حسداً مذموماً. وإن منعه مانع العقل من ذلك السعى، ولكنه وجد من طبعه الفرح والارتياح بزوال النعمة عن المغبوط، من غير كراهة لذلك ومجاهدة لدفعه، فهو أيضاً من مذموم الحسد، وإن لم يكن في المرتبة الأولى. وإن كره ما يجد في طبعه من السرور والانبساط بزوال النعمة بقوة عقله ودينه، وكان في مقام المجاهدة لدفع ذلك عن نفسه، فمقتضى الرحمة الواسعة أن يعفى عنه، لأن دفع ذلك ليس في وسعه وقدرته إلا بمشاق الرياضات. إذ ما من إنسان إلا ويرى من هو فوقه من معارفه واقاربه في بعض النعم الإلهية، فإذا لم يصل إلى مقام التسليم والرضا، كان طالباً لمساواته له فيه، وكارهاً عن ظهور نقصانه عنه. فإذا لم يقدر أن يصل إليه، مال طبعه بلا اختيار إلى زوال النعمة عنه، واهتز وارتاح به حتى ينزل هو إلى مساواته. وهذا وإن كان نقصاً تنحط به النفس عن درجات المقربين، سواء كان من مقاصد الدنيا أو الدين، إلا أنه لكرهته له بقوة عقله وتقواه، وعدم العمل بمقتضاه، يعفى عنه إن شاء الله، وتكون كراهته لذلك من نفسه كفارة له.

وقد ظهر من تضاعيف ما ذكر: أن الحسد المذموم له مراتب أربع:

الأولى - أن يحب زوال النعمة عن المحسود وإن لم تنتقل إليه، وهذا أخبث المراتب وأشدّها ذمّاً.

الثانية - أن يحب زوالها لرغبته في عينها، كرهته في دار حسنة معينة، أو امرأة جميلة بعينها، ويحب زوالها من حيث توقف وصوله إليها عليه، لا من حيث تنعم غيره بها. ويدل على تحريم هذه المرتبة وذمها قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(١).

الثالثة - ألا يشتهى عينها، بل يشتهى لنفسه مثلها، إلا أنه إن عجز عن مثلها أحب زوالها عنه، كيلا يظهر التفاوت بينهما، ومع ذلك لو خلى وطبعه، اجتهد وسعى في زوالها.

الرابعة - كالثالثة، إلا أنه إن اقتدر على ازالته منعها قاهر العقل أو غيره من النسي فيه، ولكنه يهتز ويرتاح به من غير كراهة من نفسه لذلك الارتياح. والغبطة لها مرتبتان:

الأولى - أن يشتهى الوصول إلى مثل ما للمغبوط، من غير ميل إلى المساواة وكراهة للنقصان، فلا يحب زوالها عنه.

الثانية - أن يشتهى الوصول إليه مع ميله إلى المساواة وكراهته للنقصان، بحيث لو عجز عن نيئه، وجد من طبعه حباً خفياً لزوالها عنه، وارتاح من ذلك ادراكاً لمساواة ودفعاً للنقصان، إلا أنه كان كارهاً من هذا الحب، ومغضباً على نفسه لذلك الارتياح، وربما سميت هذه المرتبة بـ (الحسد المعفو عنه) وكأنه المقصود من قوله ﷺ: «ثلاث لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد، والظن، والطيرة... ثم قال: وله منهن مخرج، إذا حسدت فلا تبغ - أى إن وجدت في قلبك شيئاً فلا تعمل به، وكن كارهاً له - وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

فصل

(بواعث الحسد)

بواعث الحسد سبعة:

الأول - خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله. فانك تجد في زوايا العالم من يسر ويرتاح بابتلاء العباد بالبلايا والمحن، ويحزن من حسن حالهم وسعة عيشهم. فمثله إذا وصف أنه اضطراب أمور الناس وادبارهم، وفوات مقاصدهم وتنقص عيشهم. يجد من طبعه الخبيث فرحاً وانبساطاً، وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة ولا رابطة، ولم

يوجب ذلك تفاوتاً في حاله من وصوله إلى جاه أو مال أو غير ذلك. وإذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله وانتظام اموره، شق ذلك عليه، وإن لم يوجب ذلك نقصاً في شيء مما له. فهو يبخل بنعمة الله على عباده من دون قصد وغرض، ولا تصور انتقال النعمة اليه، فيكون ناشئاً عن خبث نفسه ورذالة طبعه. ولذا يعسر علاجه، لكونه مقتضى خباثة الجبلة، وما يقتضيه الطبع والجبلة تعسر ازالته، بخلاف ما يحدث من الأسباب العارضة.

الثاني - العداوة والبغضاء. وهي أشد أسبابه، إذ كل احد - إلا أوحدي من المجاهدين - إذا أصابت عدوه بلية فرح بذلك، إما لظنها مكافأة من الله لأجله، أو لحبه طبعاً ضعفه وهلاكه. ومهما أصابته نعمة ساء ذلك، لأنه ضد مراده، وربما تصور لأجله أنه لا منزلة له عند الله، حيث لم ينتقم من عدوه وأنعم عليه، فيحزن لذلك.

الثالث - حب الرئاسة وطلب المال والجاه. فإن من غلب عليه حب التفرد والثناء، واستقره الفرح بما يمدح به من أنه وحيد الدهر وفريد العصر في فنه، من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو غير ذلك. لو سمع بنظير له في أي شيء العالم ساء ذلك، وارتاح بموته أو زوال النعمة التي يشاركه فيها، ليكون فائزاً على الكل في فنه، ومتفرداً بالمدح والثناء في صفته.

الرابع - الخوف من فوت المقاصد. وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد، فإن كل واحد منهما يحسد صاحبه في وصوله هذا المقصود، طلباً للتفرد به. كتحاسد الضرات في مقاصد الزوجية، والأخوة في نيل المنزلة في قلب الابوين توصلاً إلى مالهما، والتلامذة لأستاذ واحد في نيل المنزلة في قلبه، وندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة والكرامة عنده، والوعاظ والمنعهم المتزاحمين على أهل بلدة واحدة في نيل القبول والمال عندهم. إذ إن عريضهم ذلك

الخامس - التعزز: وهو أن يثقل عليه أن يتفرد به بعض اقاربه. ويعلم أنه لو

أصاب بعض النعم يستكبر عليه ويستصغره، وهو لا يطيق ذلك لعزة نفسه، فيحسده لو أصاب تلك النعمة تعزراً لنفسه. فليس غرضه أن يتكبر، لأنه قد رضى بمساواته، بل غرضه أن يدفع كبره.

السادس - التكبر: وهو أن يكون في طبعه الترفع على بعض الناس، ويتوقع منه الانقياد والمتابعة في مقاصده، فإذا نال بعض النعم خاف الا يحتمل تكبره ويطرف عن خدمته، وربما اراد مساواته أو التفوق عليه، فيعود مخدوماً بعد ان كان خادماً، فيحسده في وصول النعمة لأجل ذلك. وقد كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ

من هذا القبيل، حيث قالوا: كيف يتقدم علينا غلام فقير يتيم؟

﴿لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾^(١).

السابع - التعجب: وهو ان يكون المحسود في نظر الحاسد حقيراً، والنعمة عظيمة، فيعجب من فوز مثله بمثلها، فيحسده ويحب زوالها عنه ومن هذا القبيل حسد الأمم لأنبيائهم، حيث قالوا:

﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾^(٢). ﴿فَقَالُوا: أَتُؤْمِنُ بِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا؟﴾^(٣). ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾^(٤).

فتعجبوا من فوز من هو مثلهم برتبة الوحي والرسالة، وحسدوه بمجرد ذلك، من دون قصد تكبر أو رئاسة أو عداوة أو غيرها من أسباب الحسد.

وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد، فيعظم لذلك حسده، وتقوى قوة لا يقدر معها على المجاملة، فتظهر العداوة بالمكاشفة. وربما قوى الحسد بحيث يتمنى صاحبه أن يزول عن كل أحد ما يراه له من النعمة، ويتنقل اليه.

(١) الزخرف، الآية: ٣١.

(٢) يس، الآية: ١٥.

(٣) المؤمنون، الآية: ٤٧.

(٤) المؤمنون، الآية: ٣٤.

ومثله لا ينفك عن الجهل والحرص، إذ هو يتمنى استجماع جميع النعم والخيرات الحاصلة لجميع الناس له، ولا ريب في استحالة ذلك، ولو قدر امكانه لا يمكنه الاستمتاع بها، فلو لم يكن حريصاً لم يتمن ذلك أصلاً، ولو كان عالماً لدفع هذا التمنى بقوته العاقلة.

(تنبيه) بعض الأسباب المذكورة، كما يقتضى أن يتمنى زوال النعمة والسرور به كذلك يقتضى تمنى حدوث البلية والارتياح منه. إلا أن المعدود من الحسد هو الأول، والثاني معدود من العداوة. فالعداوة اعم منه، إذ هي تمنى وقوع مطلق الضرر بالعدو، سواء كان زوال نعمة أو حدوث بلية. والحسد تمنى زوال مجرد النعمة.

فصل

(لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين)

الأسباب المذكورة إنما تكثر بين أقوام تجمعهم روابط يجتمعون لأجلها في مجالس المخاطبات ويتواردون على الأغراض، فإذا خالف بعضهم بعضاً في غرض من اغراضه، أبغضه وثبت فيه الحق، فعند ذلك يريد استحقاره والتكبر عليه، ويكون في صدد مكافاته على المخالفة لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى اغراضه، فيتحقق الحسد. ولذا ترى أنه لا تحاسد بين شخصين في بلدين متباعدين، لعدم رابطة بينهما، إلا إذا تجاوزا في محل واحد، وتواردا على مقاصد تظهر فيها مخالفة بينهما، فيحدث منهما التباغض، وتثور منه بقية اسباب الحسد. وترى كل صنف يحسد مثله دون غيره، لتواردهما على المقاصد، وتزاحمهما على صنعة واحدة. فالعالم يحسد العالم دون العابد، والتاجر يحسد التاجر دون غيره، إلا بسبب آخر سوى الاجتماع على الحرفة، وهكذا يغم من اشتد حرصه على حب الجاه وأحب الصيت والاشتهار في جميع اطراف العالم وشاق التفرد بما هو فيه. فانه يحسد كل من في العالم ممن يشاركه في الفن الذي يتفاخر به.

ثم منشأ جميع ذلك حب الدنيا، إذ منافعتها لضيقها وانحصارها تصير محل التزاحم والتعارك، بحيث لا يمكن وصول منفعة منها، كمنصب أو مال، إلى أحد إلا بزوالها عن الآخر. وأما الآخرة، فلا ضيق فيها. فلا تنازع بين أهلها. ومثالها في الدنيا العلم، فانه منزّه عن المزاحمة. فمن يحب العلم بالله وصفاته وفعاله ومعرفة النظام الجملى من البدوالى النهاية، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً. إذ العلم لا يضيق عن كثرة العانمين. والمعلوم الواحد يعرفه الف الف عالم، ويفرح كل واحد منهم بمعرفته ويلتذ به، ولا ينقص ما لديه بمعرفة غيره، بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الانس وثمره الافادة والاستفادة. إذ معرفة الله بحر واسع لا ضيق فيه، وكل علم يزيد بالانفاق وتشريك غيره من ابناء النوع. يصير منشأ لزيادة اللذة والبهجة، وقس على العلم التقرب والمنزلة عند الله وغيرهما من النعم الأخروية. فان أجل ما عند الله من النعم وأعلى مراتب المنزلة والقرب عنده تعالى لذة لقائه، وليس فيها ممانعة ومزاحمة، ولا يضيق بعض أهل اللقاء على بعض، بل يزيد الأنس بكثرتهم.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا تحاسد بين عماء الآخرة. لأنهم يلتذون ويبتهجون بكثرة المشاركين في معرفة الله وحبه وأنسه، وإنما يقع التحاسد بين علماء الدنيا، وهم الذين يقصدون بعلمهم طلب المال والجاه. إذ المال أعيان وأجسام، إذا وقعت في يد واحد خلت عنها أيدي الآخرين. والجاه ملك القلوب. وإذا امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم، انصرف عن تعظيم الآخر، أو نقص عنه لا محاله، فيكون ذلك سبباً للتحاسد. وأما إذا امتلأ قلبه من الابتهاج بمعرفة الله، لم يمنع ذلك من أن يمتلىء غيره به. فلو ملك انسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعده مال يملكه غيره لضيقه وانحصاره. وأما العلم فلانهاية له، ومع ذلك لو ملك انسان بعض العلوم، لم يمنع ذلك من تملك غيره له.

فظهر أن الحسد انما هو في التوارد على مقصود مضيق عن الوفاء بالكل. فلا حسد بين العارفين ولا بين العليين. لعدم ضيق ومزاحمة في المعرفة ونعيم

الجنة، ولذا قال الله سبحانه فيهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾^(١).

بل الحسد من صفات المسجونين في سجن السجين.

فيا حبيبي، إن كنت مشفقاً على نفسك، طالباً لعمارة رمسك، فاطلب نعمة لا مزاحمة فيها، ولذة لا مكدر لها. وما هي إلا لذة معرفة الله وحبه وانسه، والانقطاع إلى جناب قدسه، وإن كنت لا تلتذ بذلك، ولا تشاق اليه، وتنحصر لذاتك بالأمر الحسية والوهمية، فاعلم أن جوهر ذاتك معيوب، وعن عالم الأنوار محجوب، وعن قريب تحشر مع البهائم والشياطين، وتكون مغلولاً معهم في أسفل السافلين. ومثلك في عدم درك هذه اللذة، مثل الصبي والعين في عدم درك لذة الوقاع. فكما أن هذه اللذة يختص بادراكها رجال اصحاء، فكذلك لذة المعرفة يختص بادراكها:

﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تَجَزَّةً وَلَا بَيِّعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٢).

ولا يشاق غيرهم إليها، إذ الشوق بعد الذوق، فمن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشاق، ومن لم يشاق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك كان مطروداً عن العليين، ممنوعاً عن مجاورة المقربين، محبوساً مع المحرومين في أضييق دركات السجين:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٣).

فصل

(علاج الحسد)

لما علم أن الحسد من الأمراض المهلكة للنفوس، فاعلم أن أمراض النفوس

(١) الحجر، الآية: ٤٧.

(٢) النور، الآية: ٣٧.

(٣) الزخرف، الآية: ٣٦.

لا تداوى إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد أن تعرف أنه يضرك في الدين والدنيا ولا يضر محسودك فيهما، بل ينتفع به فيهما. ومهما عرفت ذلك عن بصيرة وتحقيق، ولم تكن عدو نفسك لا صديق عدوك، فارقت الحسد.

وأما أنه يضر بدينك ويؤدى بك إلى عذاب الأبد وعقاب السرمد، فلما علمت من الآيات والأخبار الواردة في ذمه وعقوبة صاحبه، ولما عرفت من كون الحاسد ساخطاً لقضاء الله تعالى، وكارهاً لنعمه التي قسمها لعباده، ومنكراً لعدله الذي أجراه في ملكه. ومثل هذا السخط والأنكار، لا يجابه الضدية والعناد لخالق العباد، كاد أن يزيل اصل التوحيد والايمان، فضلاً عن الاضرار بهما. على أن الحسد يوجب الغش والعداوة بالمؤمن، وترك نصيحته وموالاته وتعظيمه ومراعاته ومفارقة أنبياء الله وأوليائه في حبهم الخير والنعمة له، ومشاركة الشيطان واحزابه في فرحهم بوقوع المصائب والبلايا عليه، وزوال النعم عنه. وهذه خباثت في النفس، تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

واما أنه يضرك في الدنيا، لأنك تتألم وتتعذب به، ولا تزال في تعب وغم وكد وهم، إذ نعم الله لا تنقطع عن عباده ولا عن أعدائك، فانت تتعذب بكل نعمة تراها لهم، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم، فتبقى دائماً مغموماً محزوناً، ضيق النفس منشعب القلب، فانت باختيارك تجر إلى نفسك ما تريد لأعدائك ويريد أعداؤك لك. وما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله ومقته في الآجل، ودوام الضرر والالام في العاجل، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى وفائدة.

وأما أنه لا يضر المحسود في دينه ودنياه فظاهر، لان النعمة لا تزول عنه بحسبك. إذ ما قدره الله من النعم على عباده لا بد أن يستمر إلى وقته، ولا ينتفع التدبير والحيلة في دفعه، لا مانع لما أعطاه ولا راد لما قضاه:

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١).

ولو كانت النعم تزول بالحسد، لم تبق عليك وعلى كافة الخلق نعمة، لعدم خلوك وخلوهم عن الحسد، بل لم تبق نعمة الايمان على المؤمنين، إذ الكفار يحسدونهم، كما قال الله سبحانه:

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢).

ولو تصورت زوال النعمة عن محسودك بحسدك، وعدم زوالها عنك بحسد حاسدك، لكنت أجهل الناس وأشدّهم غباوة. نعم، ربما صار حسدك منشأ لانتشار فضل المحسود، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت، أتاح لها لسان حسود
فإذا لم تزل نعمته بحسدك، لم يضره في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة.
وأما أنه ينفعه في الدين، فذلك ظاهر من حيث كونه مظلوماً من جهتك،
(لا) سيما إذا أخرجك الحسد إلى ما لا ينبغي من القول والفعل، كالغيبة، والبهتان،
وهتك ستره، وإفشاء سره، والقدح فيه، وذكر مساويه. فتحتمل بهذه الهدايا التي
تهديها إليه بعضاً من أوزاره وعصيانه، وتنقل شطراً من حسناتك إلى ديوانه، فيلقاك
يوم القيامة مفلساً محروماً عن الرحمة، كما كنت تلقاه في الدنيا محروماً عن النعمة.
فاضفت له نعمة إلى نعمة، ولنفسك نقمة إلى نقمة.

وأما أنه ينفعه في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الناس مساءة الأعداء، وسوء حالهم، وكونهم متألّمين معذبين. ولا عذاب أشدّ مما أنت فيه من ألم الحسد. فقد فعلت بنفسك ما هو غاية مراد حسادك في الدنيا. وإذا تأملت هذا، عرفت أن كل

(١) الرعد، الآية: ٨، ٣٨.

(٢) آل عمران، الآية: ٦٩.

حاسد عدو نفسه، وصديق عدوه. فمن تأمل في ذلك، وتذكر ما يأتي من فوائد النصيحة وحب الخير والنعمة للمسلمين، ولم يكن عدو نفسه، فارق الحسد ألبتة. وأما العمل النافع فيه، فهو أن يواظب على آثار النصيحة التي هي ضده، بأن يصمم على أن يكلف نفسه بنقيض ما يقتضيه الحسد من قول وفعل، فإن بعته الحسد على التكبر عليه، ألزم نفسه التواضع له، وإن بعته على غيبتها والقدح فيه، كلف لسانه المدح والثناء عليه، وإن بعته على الغش والخرق بالنسبة إليه، كلف نفسه بحسن البشر واللين معه، وإن بعته على كف الانعام عنه، ألزم نفسه زيادته. ومهما فعل ذلك عن تكلف وكرره وداوم عليه، انقطعت عنه مادة الحسد على التدرج. على أن المحسود إذا عرف منه ذلك طاب قلبه وأحبه، وإذا ظهر حبه للحاسد زال حسده وأحبه أيضاً، فتولد بينهما الموافقة، وترفع عنهما مادة المحاسدة، وهذا هو المعالجة الكلية لمطلق مرض الحسد. والعلاج النافع لكل نوع منه، أن يقمع سببه، من خبث النفس وحب الرئاسة والكبر وعزة النفس وشدة الحرص وغير ذلك مما ذكر، وعلاج كل واحد من هذه الأسباب يأتي في محله.

تنبيه

(القدر الواجب في نفي الحسد)

اعلم أن مساواة حسن حال العدو وسوء حاله، وعدم وجدان التفرقة بينهما في النفس، ليست مما تدخل تحت الاختيار. فالتكليف به تكليف بالمحال. فالواجب في نفي الحسد وإزالته هو القدر الذي يمكن دفعه، وبيان ذلك - كما أشير إليه - أن الحسد:

(أولاً) - إما يبعث صاحبه على إظهاره بقول أو فعل، بحيث يعرف حسده من آثاره الاختيارية. ولا ريب في كونه مذموماً محرماً، وكون صاحبه عاصياً أثماً، لا لمجرد آثاره الظاهرة التي هي الغيبة والبهتان مثلاً، إذ هي أفعال صادرة عن الحسد،

محلها الجوارح، وليست عين الحسد، إذ هو صفة للقلب لا صفة للفعل، ومحلها القلب دون الجوارح، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾^(١). وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾^(٢). وقال: ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ﴾^(٣).

فلو كان الإثم على مجرد أفعال الجوارح، لم يكن أصل الحسد الذي هو صفة القلب معصية، والأمر ليس كذلك، فيكون عاصياً لنفس الحسد الذي في قلبه أيضاً، أعنى ارتياحه بزوال النعمة مع عدم كراهة ذلك من نفسه. والاثم حقيقة على عدم كراهته وعدم مقته وقهره على نفسه لهذا الارتياح الذي يجده منها، لكونه اختيارياً ممكن الزوال، لا على نفس الارتياح والاهتزاز، لما اشير إليه من أنه طبيعي غير ممكن الدفع لكل أحد. فهذا القسم من الحسد أشد أنواعه، لترتب معصيته على أصله، وأخرى على ما يصدر عنه من آثاره المذمومة.

(ثانياً) - أولاً يبعثه على اظهاره بالآثار القولية والفعلية، بل يكف ظاهره عنها، إلا أنه بباطنه يحب زوال النعمة من دون كراهة في نفسه لهذه الحالة. ولا ريب في كونه مذموماً محرماً أيضاً، لأنه كسابقه بعينه، ولا فرق إلا في أنه لا تصدر منه الآثار الفعلية والقولية الظاهرة، فهو ليس بمظلمة بحسب الاستحلال منها، بل معصية بينه وبين الله، لأن الاستحلال إنما هو من الأفعال الظاهرة الصادرة من الجوارح.

(ثالثاً) - أولاً يبعثه على الآثار الذميمة الظاهرة، ومع ذلك يلزم قلبه كراهة ما يترشح منه طبعاً من حب زوال النعمة، حتى أنه يمقت نفسه ويقهرها على هذه الحالة التي رسخت فيها. والظاهر عدم ترتب الإثم عليه، إذ تكون كراهته التي من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أدى الواجب عليه. وأصل الميل

(١) الحشر، الآية: ٩.

(٢) النساء، الآية: ٨٩.

(٣) آل عمران، الآية: ١٢٠.

الطبيعي لا يدخل تحت الاختيار غالباً، إذ تغير الطبع بحيث يستوى عنده المحسن والمسيء، وعدم التفرقة بين ما يصل منهما إليه من النعمة والبلية، ليس شريعة لكل وارد. نعم من تنور قلبه بمعرفة ربه، واشترقت نفسه باضواء حبه وانسه، وصار مستغرقاً بحب الله تعالى مثل الشكران الواله، واستشعر بالارتباط الخاص الذي بين العلة والمعلول، والاتحاد الذي بين الخالق والمخلوق، وعلم أنه أقوى النسب والروابط، ثم تيقن بأن الموجودات بأسرها من رشحات وجوده، والكائنات بمرمتها صادرة عن فيضه وجوده، وأن الأعيان الممكنة متساوية في ارتضاع لبان الوجود من ثدى واحدة، والحقائق الكونية غير متفاوتة في شرب ماء الرحمة والوجود من مشرع الوحدة الحقيقية - فقد ينتهي امره إلى ألا تلتفت نفسه إلى تفاصيل أحوال العباد، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة، وهى عين الرحمة، ويرى الكل عباداً لله وأفعاله، ويраهم مسخرين له، فلا ينظر إلى شىء بعين السخط والمساءة، وإن ورد منه ما ورد من السوء والبلية، لأنه ينظر إليه من حيث هو حتى يظهر التفاوت، بل من حيث انتسابه إليه سبحانه، والكل في الانتساب إليه سواء.

ثم من الناس من ذهب إلى أنه لا إثم على الحسد ما لم تظهر آثاره على الجوارح، وعلى هذا ينحصر الحسد المحرم في القسم الأول. واحتج على ما ذهب إليه بما ذكرناه من قوله عليه السلام: «ثلاثة لا ينفك المؤمن عنهن: الحسد...»، وبقوله عليه السلام: «ثلاث في المؤمن له منهن مخرج ومخرجه من الحسد ألا يبغى». والصحيح أن تحمل أمثال هذه الأخبار على القسم الثالث، وهو ما يكون فيه ارتياح النفس بزوال النعمة طبعاً، مع كراهة له من جهة العقل والدين، حتى تكون هذه الكراهة في مقابلة حب الطبع. إذ أخبار ذم الحسد تدل بظاهرها على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال الظاهرة. وعلى هذا المذهب، لا يكون آثم على صفة القلب، بل إنما يكون على مجرد الأفعال الظاهرة على الجوارح.

فقد اتضح بما ذكر، أن الأحوال المتصورة لكل أحد بالنسبة إلى اعدائه ثلاثة: الأولى: أن يحب مساءتهم، ويظهر الفرح بمساءتهم بلسانه وجوارحه، أو يظهر ما يؤذيهم قولاً أو فعلاً، وهذا محظور محرّم قطعاً، وصاحبه عاص آثم جزماً. الثانية: أن يحب مساءتهم طبعاً، ولكن يكره حبه لذلك بعقله، ويمقت نفسه عليه، ولو كانت له حيلة في إزالة ذلك الميل لأزاله. وهذا معفو عنه وفاقاً، وفاعله غير آثم إجماعاً. الثالثة: وهي ما بين الأولين: أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده، ومن غير انكار منه على قلبه، ولكن يحفظ جوارحه عن صدور آثار الحسد عنها، وهذا محل الخلاف. وقد عرفت ما هو الحق فيه.

وصل

(النصيحة)

قد عرفت أن ضد الحقد والحسد (النصيحة)، وهي ارادة بقاء نعمة الله للمسلمين، وكراهة وصول الشر اليهم. وقد تطلق في الأخبار على ارشادهم إلى ما فيه مصلحتهم وغبطتهم، وهو لازم للمعنى الأول. فينبغى أن نشير إلى فوائدها وما ورد في مدحها، تحريكاً للطالين على المواظبة عليها ليرتفع بها ضدها. اعلم أن من أحب الخير والنعمة للمسلمين كان شريكاً في الخير، بمعنى أنه في الثواب كالمنعم وفاعل الخير. وقد ثبت من الأخبار، أن من لم يدرك درجة الأخيار بصالحات الأعمال، ولكنه أحبهم، يكون يوم القيامة محشوراً معهم، كما ورد: «إن المرء يحشر مع من أحب». وقال اعرابي لرسول الله: «الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم». فقال ﷺ: «المرء مع من أحب». وقال رجل بحضرة النبي - بعد ما ذكرت الساعة -: «ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام، إلا أنى أحب الله ورسوله. فقال ﷺ: أنت مع من أحببت»، قال الراوى: فما فرح المسلمون بعد اسلامهم كفرحهم يومئذ، إذ أكثر ثقتهم كانت بحب الله وبحب رسوله. وروى: «أنه قيل

له ﷺ: الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصوم ولا يصوم - حتى عد أشياء - فقال: هو مع من أحب». وبهذا المضمون وردت أخبار كثيرة.

والأخبار الواردة في مدح خصوص النصيحة وذم تركها، وفي ثواب ترك الحسد وعظم فوائده، أكثر من أن تحصى. عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: إن أعظم الناس منزلة عند الله يوم القيامة أمشاهم في أرضه بالنصيحة لخلقه». وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه». وقال الباقر عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة». وقال الصادق عليه السلام: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب». وقال عليه السلام: «عليك بالنصح لله في خلقه، فلن تلقاه بعمل أفضل منه». وبمضمونها أخبار. وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: من سعى في حاجة لأخيه فلم ينصحه، فقد خان الله ورسوله». وقال الصادق عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه، ثم لم ينصحه فيها، كان كمن خان الله ورسوله، وكان الله خصمه»^(١). والأخبار الأخر بهذا المضمون أيضاً كثيرة.

وروى: «أن رسول الله ﷺ شهد لرجل من الأنصار بأنه من أهل الجنة»، وكان باعته - بعد التفتيش - خلوه عن الغش والحسد على خير أعطى أحداً من المسلمين. وروى: «أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه، رأى في ظل العرش رجلاً، فغبطه بمكانه، وقال: إن هذا لكريم على ربه. فسأل ربه أن يخبر باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: احذثك عن عمله: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشى بالنميمة».

وغاية النصيحة، أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن

(١) صححنا الأحاديث في النصيحة كلها على (الكافي): باب نصيحة المؤمن وباب من لم ينصح أخاه المؤمن.

يحب للمؤمن ما يحب لنفسه». وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه». وقال ﷺ: «إن أحدكم مرآة أخيه، فإذا رأى به شيئاً فليمط عنه هذا».

ومنها:

الايذاء والاهانة والاحتقار

ولا ريب في كون ذلك في الغالب مترتباً على العداوة والحسد، وإن ترتب بعض أفرادها في بعض الأحيان على مجرد الطمع أو الحرص ليكون من رداءة القوة الشهوية، أو على مجرد الغضب وسوء الخلق والكبر، وإن لم يكن حقد وحسد. وعلى أى تقدير، لا شبهة في أن الايذاء للمؤمن واحتقاره محرم في الشريعة، موجب للهلاك الأبدى. قال الله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا لَهُمْ أَنْ يَكْتَسِبُوا فَقَدْ أَخْطَأُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من آذى مؤمناً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فهو ملعون في التوراة والانجيل والزبور والفرقان». وفي خبر آخر: «فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»^(٢). وقال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه». وقال ﷺ: «لا يحل للمسلم أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه». وقال ﷺ: «ألا انبئكم بالمؤمن! من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم. ألا انبئكم بالمسلم! من سلم المسلمون من لسانه ويده. والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة». وقال الصادق عليه السلام: «قال الله عز وجل:

(١) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) صحيحنا الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٤.

ليأذن بحرب مني من آذى عبدي المؤمن». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين المؤذون لأوليائي؟ فيقوم قوم ليس على وجوههم لحم، فيقال: هؤلاء الذين آذوا المؤمنين، ونصبوا لهم وعاندوهم وعنفوهم في دينهم. ثم يؤمر بهم إلى جهنم». وقال ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: قال الله تبارك وتعالى: من أهان لي ولياً فقد أصد لمحاربتى». وقال ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول: من أهان لي ولياً فقد أصد لمحاربتى، وأنا أسرع شئ إلى نصرة أوليائي». وقال ﷺ: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: قد نابذني من أذل عبدي المؤمن». وقال ﷺ: «من حقر مؤمناً مسكيناً أو غير مسكين، لم يزل الله عز وجل حاقراً له ماقثاً، حتى يرجع عن محقرته إياه»^(١). وفي معناها أخبار كثيرة أخرى.

ومن عرف النسبة التي بين العلة والمعلول، والربط الخاص الذي بين الخالق والمخلوق، يعلم أن إيذاء العباد واهانتهم يرجع في الحقيقة إلى إيذاء الله واهانتة، وكفاه بذلك ذماً. فيجب على كل عاقل أن يكون دائماً متذكراً لذم إيذاء المسلمين واحتقارهم، ولمدح ضدهما، من رفع الأذية عنهم واکرامهم - كما يأتي -، ويحافظ نفسه عن ارتكابهما، لئلا يفتضح في الدنيا ويعذب في الآخرة.

وصل

(كف الأذى عن المسلمين)

لا ريب في فضيلة أصداد ما ذكر وفوائدها، من كف الأذى عن المؤمنين والمسلمين واکرامهم وتعظيمهم. والظواهر الواردة، في مدح دفع الضرر وكف الأذى عن الناس كثيرة، كقول النبي ﷺ: «من رد عن قوم من المسلمين عادية ماء أو نار

(١) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب من آذى المسلمين واحتقرهم. وعلى (أحياء

وجبت له الجنة»^(١). وقوله ﷺ: «أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده». وقوله ﷺ في حديث طويل أمر فيه بالفضائل: «... فان لم تقدر فدع الناس من الشر، فانها صدقة تصدقت بها على نفسك». وقوله ﷺ: «رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين». وقال ﷺ: «من زحزح من طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم، كتب الله له به حسنة او جب له بها الجنة»^(٢).

وكذا الأخبار التي وردت في مدح إكرام المؤمن وتعظيمه كثيرة. قال الصادق عليه السلام: «قال الله سبحانه: ليأمن غضبي من أكرم عبدى المؤمن». وقال رسول الله ﷺ: «من أكرم اخاه المسلم بكلمة يلفظه بها، وفرج عنه كربته، لم يزل في ظل الله الممدود، عليه الرحمة ما كان في ذلك». وقال ﷺ: «ما في أمتى عبد ألطف أخاه في الله بشيء من لطف، إلا أخدمه الله من خدم الجنة». وقال ﷺ: «أيما مسلم خدم قوماً من المسلمين إلا أعطاه الله مثل عددهم خداماً في الجنة». وقال الصادق عليه السلام: «من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة، كتب الله عز وجل له عشرة حسنات، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة». وقال عليه السلام: «من قال لأخيه مرحباً، كتب الله له مرحباً إلى يوم القيامة». وقال عليه السلام: «من أتاه أخوه المؤمن فأكرمه، فانما أكرم الله عز وجل». وقال عليه السلام لإسحاق بن عمار: «أحسن يا إسحاق إلى أوليائي ما استطعت، فما أحسن مؤمن إلى مؤمن ولا أعانه إلا خممش وجه إبليس وقرح قلبه»^(٣).

(١) صححناه على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، في ملحق باب فضل الشهادة. وعلى (اصوله): في باب الاهتمام بأمور المسلمين.

(٢) صححنا هذه الأحاديث الأربعة الأخيرة على (أحياء العلوم): ١٧٢، ١٧١ / ٢.

(٣) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب إلفاف المؤمن وإكرامه، وباب من أذى المسلمين واحتقرهم.

ثم ينبغي تخصيص بعض طبقات الناس بزيادة التعظيم والاكرام، كأهل العلم والورع، لما ورد من الحث الأكيد في الأخبار على اكرامهم والاحسان اليهم، وكذا ينبغي تخصيص ذى الشبهة المسلم بزيادة التوقير والتكريم، وقد ورد ذلك في الأخبار الكثيرة، قال رسول الله ﷺ: «من عرف فضل كبير لسنه فوقه، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وقال الصادق عليه السلام: «إن من إجلال الله عز وجل إجلال الشيخ الكبير». وقال عليه السلام: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا». والأخبار في هذا المضمون كثيرة.

وكذا ينبغي تخصيص كريم القوم بزيادة الاكرام، لقول النبي ﷺ: «إذا اتاكم كريم قوم فأكرموه»^(١).

وكذا تخصيص الذرية العلوية بزيادة الاكرام والتعظيم. قال رسول الله ﷺ: «حق شفاعتي لمن أعان ذريتي بيده ولسانه وماله». وقال عليه السلام: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عندما اضطروا اليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه»^(٢). وقال عليه السلام: «أكرموا أولادى، وحسنوا آدابى». وقال عليه السلام: «أكرموا أولادى الصالحون لله والطالحون لي». والأخبار في فضل السادات وثواب من يكرمهم ويعينهم أكثر من أن تحصى.

وإضرار المسلم قريب من معنى إيذائه، وربما كان الإضرار أخص منه، فما يدل على ذمه يدل على ذمه، كقول النبي ﷺ: «خصلتان ليس فوقهما شيء من الشر: الشرك بالله تعالى، والضر بعباد الله». وكذا ضده، أعنى إيصال النفع اليه، قريب من معنى ضده وأخص منه. فما يدل على مدحه يدل على مدحه. ولا ريب في أن إيصال النفع إلى المؤمنين من شرائف الصفات والأفعال. والأخبار الواردة في فضيلته

(١) صححنا هذه الأحاديث على (أصول الكافي): باب إجلال الكبير، وباب وجوب إجلال ذى الشبهة،

وباب إكرام الكريم وعلى (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ٦٧.

(٢) تقدم هذان الحديثان في ص ٣٨٤ من هذا الجزء.

كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وادخل على أهل بيته سروراً». وسئل ﷺ: «من أحب الناس إلى الله؟ قال: انفع الناس للناس»^(١). وقال رسول الله ﷺ: «حصلتان من الخير ليس فوقهما شيء من البر: الإيمان بالله، والنفع لعباد الله».

تنبيه

(ذم الظلم بالمعنى الاخص)

اعلم أن الظلم قد يراد به ما هو ضد العدالة، وهو التعدى عن الوسط في أى شيء كان، وهو جامع للردائل باسرها - كما أشير إليه - وهذا هو الظلم بالمعنى الأعم، وقد يطلق عليه الجور أيضاً، وقد يراد به ما يرادف الاضرار والايذاء بالغير، وهو يتناول قتله وضربه وشتمه وقذفه وغيبته وأخذ ماله قهراً ونهباً وغصباً وسرقة وغير ذلك من الأقوال والأفعال المؤذية. وهذا هو الظلم بالمعنى الأخص، وهو المراد إذا اطلق في الآيات والأخبار وفي عرف الناس. وباعثه إن كانت العداوة والحسد، يكون من ردائل قوة الغضب، وإن كان الحرص والطمع في المال، يكون من ردائل قوة الشهوة. وهو أعظم المعاصي وأشدّها عذاباً باتفاق جميع الطوائف. ويدل على ذمه - بعد ما ورد في ذم كل واحد من الأمور المندرجة تحته كما يأتى بعضها - ما تكرر في القرآن من اللعن على الظالمين، وكفاه ذمّاً أنه تعالى قال في مقام ذم الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢). وقال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣). وقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

(١) هذان الحديثان صححتهما على (اصول الكافي): باب الاهتمام بامور المسلمين.

(٢) لقمان، الآية: ١٣.

(٣) الشورى، الآية: ٤٢.

غَفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ»^(١). وقال: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ»^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أهون الخلق على الله، من ولي أمر المسلمين فلم يعدل لهم». وقال ﷺ: «جور ساعة في حكم، أشد وأعظم عند الله من معاصي تسعين سنة». وقال ﷺ: «اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة». وقال ﷺ: «من خاف القصاص، كف عن ظلم الناس». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى داود: قل للظالمين لا تذكروني، فإن حقاً علي أن اذكر من ذكرني، وإن ذكرى إياهم أن العنهم». وقال علي بن الحسين عليه السلام لابنه أبي جعفر عليه السلام حين حضرته الوفاة: «يا بني، إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله». وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما من أحد يظلم بمظلمة إلا أخذته الله تعالى بها في نفسه أو ماله». وقال رجل له عليه السلام: «إني كنت من الولاة، فهل لي من توبة؟ فقال لا! حتى تؤدي إلى كل ذي حق حقه». وقال عليه السلام: «الظلم ثلاثة: ظلم يغفره الله تعالى، وظلم لا يغفره الله تعالى، وظلم لا يدعه الله. فاما الظلم الذي لا يغفره الله عز وجل فالشرك، وأما الظلم الذي يغفره الله عز وجل فظلم الرجل نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل، وأما الظلم الذي لا يدعه فالمداينة بين العباد». وقال الصادق عليه السلام في قول تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٣):

«قنطرة على الصراط، لا يجوزها عبد بمظلمة». وقال عليه السلام: «ما من مظلمة أشد من مظلمة لا يجد صاحبها عليها عوناً إلا الله تعالى». وقال: «من أكل مال أخيه ظلماً، ولم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة». وقال عليه السلام: «إن الله عز وجل أوحى إلى نبي من أنبيائه في مملكة جبار من الجبارين: أن ائت هذا الجبار، فقل له: إنني لم استعملك على سفك الدماء واتخاذ الأموال، وإنما استعملتك لتكف عني أصوات

(١) إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٢) الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) الفجر، الآية: ١٤.

المظلومين، فانى لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً». وقال ﷺ: «أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم... ثم قال: من يفعل الشر بالناس فلا ينكر الشر إذا فعل به. أما إنه يحصد ابن آدم ما يزرع. وليس يحصد أحد من المر حلواً، ولا من الحلو مرأً». وقال ﷺ: «من ظلم، سلط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه أو على عقب عقبه». قال الراوى: «قلت: هو يظلم، فيسلط الله على عقبه أو على عقب عقبه؟! قال: فان الله تعالى يقول:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١).

والظاهر أن مؤاخذه الأولاد بظلم آبائهم انما هو في الأولاد الذين كانوا راضين بفعل آبائهم، أو وصل اليهم اثر ظلمهم، أى انتقل اليهم منهم بعض أموال المظلومين. وقال بعض العلماء: الوجه في ذلك: أن الدنيا دار مكافاة وانتقام، وإن كان بعض ذلك مما يؤخر إلى الآخرة. وفائدة ذلك أما بالنسبة إلى الظالم فانه يردعه عن الظلم إذا سمع، وأما بالنسبة إلى المظلوم فانه يستبشر بنيل الانتقام في الدنيا مع نياله ثواب الظلم الواقع عليه في الآخرة، فانه ما ظفر أحد بخير مما ظفر به المظلوم، لأنه يأخذ من دين الظالم أكثر مما أخذ الظالم من ماله، كما تقدم. وهذا مما يصحح الانتقام من عقب الظالم أو عقب عقبه، فانه وإن كان في صورة الظلم، لأنه انتقام من غير أهله، مع أنه لا تزر وازرة وزر أخرى، إلا انه نعمة من الله عليه في المعنى من جهة ثوابه في الدارين، فان ثواب المظلوم في الآخرة أكثر مما جرى عليه من الظلم في الدنيا.

ثم إن معين الظالم، والراضى بفعله، والساعى له في قضاء حوائجه وحصول مقاصده، كالظالم بعينه في الاثم والعقوبة. قال الصادق ﷺ: «العامل بالظلم، والمعين

(١) صححنا أحاديث الباب على (أصول الكافي): باب الظلم. والآية من الحديث الأخير: سورة النساء،

له، والراضى به، شركاء ثلاثتهم». وقال ﷺ: «من عذر ظالماً بظلمه، سلط الله عليه من يظلمه، فان دعا لم يستجب له، ولم يأجره الله على ظلامته». وقال رسول الله ﷺ: «شر الناس المثلث؟»، قيل: وما المثلث؟ قال: «الذي يسعى باخيه إلى السلطان، فيهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك السلطان». وقال ﷺ: «من مشى مع ظالم فقد أجرم». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، نادى مناد: أين الظلمة وأعوان الظلمة ومن لاق لهم دواة أو ربط لهم كيساً مدهم بمدة قلم؟ فاحشروهم معهم».

وصل

(العدل بالمعنى الأخص)

ضد الظلم بالمعنى الأخص هو العدل بالمعنى الأخص، وهو الكف عنه، ورفع، والاستقامة، وإقامة كل أحد على حقه. والعدل بهذا المعنى هو المراد عند إطلاقه في الآيات والأخبار، وفضيلته أكثر من أن تحصى. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾^(١). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمْنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة قيام ليلها وصيام نهارها». وقال الصادق ﷺ: «من أصبح ولا يهتم بظلم أحد، غفر له ما اجترم». وقال ﷺ: «من أصبح لا ينوى ظلم أحد، غفر الله تعالى له ذنب ذلك اليوم، ما لم يسفك دمأً أو يأكل مال يتيم حراماً». وقال ﷺ: «العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان. ما أوسع العدل إذا عدل فيه، وإن قل». وقال ﷺ: «العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك». وقال ﷺ: «اتقوا الله واعدلوا، فانكم تعيبون على

(١) النحل، الآية: ٩٠.

(٢) النساء، الآية: ٥٨.

قوم لا يعدلون»^(١).

ومما يدل على فضيلة العدل بهذا المعنى ما ورد في ثواب رد المظالم. قال رسول الله ﷺ: «درهم يرده العبد إلى الخصماء، خير له من عبادة الف سنة، وخير له من عتق الف رقبة، وخير له من الف حجة وعمرة»، وقال ﷺ: «من رد درهماً إلى الخصماء، اعتق الله رقبته من النار، واعطاه بكل دائق ثواب نبي، وبكل درهم ثواب مدينة في الجنة من درة حمراء»، وقال ﷺ: «من رد أدنى شيء إلى الخصماء، جعل الله بينه وبين النار سترًا كما بين السماء والأرض، ويكون في عداد الشهداء». وقال ﷺ: «من أرضى الخصماء من نفسه، وجبت له الجنة بغير حساب، ويكون في الجنة رفيق اسماعيل بن ابراهيم». وقال ﷺ: «إن في الجنة مدائن من نور، وعلى المدائن ابواب من ذهب مكللة بالدر والياقوت، وفي جوف المدائن قباب من مسك وزعفران، من نظر إلى تلك المدائن يتمنى أن تكون له مدينة منها». قالوا: يا نبي الله، لمن هذه المدائن؟ قال: «للتائبين النادمين، المرضيين الخصماء من أنفسهم، فان العبد إذا رد درهماً إلى الخصماء، أكرمه الله كرامة سبعين شهيداً. فان درهماً يرده العبد إلى الخصماء خير له من صيام النهار وقيام الليل. ومن رد درهماً ناداه ملك من تحت العرش: استأنف العمل، فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك». وقال ﷺ: «من مات غير تائب، زفرت جهنم في وجهه ثلاث زفرات، فاولاها لا تبقى دمعة إلا جرت من عينيه، والزفرة الثانية لا يبقى دم إلا خرج من منخره، والزفرة الثالثة لا يبقى قيح إلا خرج من فمه، فرحم الله من تاب، ثم أرضى الخصماء، فمن فعل فأنا كفيله بالجنة». وقال ﷺ: «لرد دائق من حرام يعدل عند الله سبعين الف حجة مبرورة»^(٢)

ومنها:

(١) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب الظلم وباب الانصاف والعدل.
(٢) صححنا الأحاديث النبوية هذه كلها على (جامع الأخبار): الباب ٧، الفصل ٧، ولم نعثر لها على أثر في الكتب المعتمدة.

إخافة المؤمن

وإدخال الكرب في قلبه. وهما شعبتان من الايذاء والإضرار، فيترتان غالباً على العداوة والحسد، وقد يترتان على مجرد الغضب أو سوء الخلق أو الطمع، وهما من رذائل الأفعال، والأخبار الواردة في ذمهما كثيرة، كقول النبي ﷺ: «من نظر إلى مؤمن نظرة ليخيفه بها، أخافه الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله». وقول الصادق عليه السلام: «من روع مؤمناً بسلطان يصيبه منه مكروه فلم يصبه فهو في النار، ومن روع مؤمناً بسلطان يصيبه منه مكروه فاصابه فهو مع فرعون وآل فرعون في النار». وقوله عليه السلام: «من أدخل السرور على مؤمن فقد أدخله على رسول الله ﷺ، ومن أدخله على رسول الله ﷺ فقد وصل ذلك إلى الله، وكذلك من أدخل عليه كرباً»^(١). والأخبار الواردة في هذا المعنى كثيرة.

وصل

(إدخال السرور في قلب المؤمن)

و ضد ذلك إزالة الخوف عنه، وتفريج كربيه، وإدخال السرور في قلبه. وهى من أعظم شعب النصيحة، ولا حد للثواب المترتب عليها، كما نطقت به الأخبار. قال رسول الله ﷺ: «من حمى مؤمناً من ظالم، بعث الله له ملكاً يوم القيامة يحمى لحمه من نار جهنم». وقال ﷺ: «من فرج عن مغموم أو أعان مظلوماً، غفر الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة». وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقل كيف ينصره ظالماً؟ قال: «تمنعه من الظلم». وقال الامام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «من أغاث أخاه المؤمن اللهفان اللهثان عند جهده، فنفس كربته واعانه على نجاح حاجته، كتب الله تعالى له بذلك اثنتين وسبعين رحمة من الله، يعجل له منها واحدة يصلح بها أمر

(١) صححنا الأحاديث هنا على (أصول الكافي): باب ادخال السرور على المؤمن، وباب من أخاف مؤمناً.

معيشته، ويدخر له احدى وسبعين رحمة لافزاع يوم القيامة وأهواله». وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة، نفس الله عنه كرب الآخرة، وخرج من قبره وهو ثلج الفؤاد». وقال الرضا ﷺ: «من فرج عن مؤمن، فرج الله قلبه يوم القيامة» وقال رسول الله ﷺ: «من سر مؤمناً فقد سرنى، ومن سرنى فقد سر الله». وعن أبى عبد الله ﷺ قال: «قال رسول الله ﷺ: إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ادخال السرور على المؤمنين». وقال الباقر ﷺ: «تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من ادخال السرور على المؤمن». وقال ﷺ: «إن فيما ناجى الله عز وجل به عبده موسى ﷺ: قال: إن لي عبداً ابيحهم جنتى واحكمهم فيها، قال: يا رب، ومن هؤلاء الذين تبيحهم جنتك وتحكمهم فيها؟ قال: من ادخل على مؤمن سروراً... ثم قال: إن مؤمناً كان في مملكة جبار، فولع به، فهرب منه إلى دار الشرك، فنزل برجل من أهل الشرك فاطله وأرفقه وأضافه، فلما حضره الموت، أوحى الله اليه: وعزتى وجلالى! لو كان لك في جنتى مسكن لأسكنتك فيها، ولكنها محرمة على من مات مشركاً بي، ولكن يا نار هيديه ولا تؤذيه، ويؤتى برزقه طرفي النهار»، قلت^(١): من الجنة؟ قال: «من حيثما شاء الله». وقال ﷺ: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله ﷺ». عن ابان بن تغلب، قال: «سألت أبا عبد الله ﷺ عن حق المؤمن على المؤمن. فقال: حق المؤمن على المؤمن أعظم من ذلك، لو حدثتكم لكفرتكم، إن المؤمن إذا خرج من قبره خرج معه مثال من قبره يقول له: ابشر بالكرامة من الله والسرور، فيقول له: بشرك الله بخير. قال: ثم يمضى معه يبشره بمثل ما قال، وإذا مر بهول قال: ليس هذا لك، وإذا مر بخير قال: هذا لك. فلا يزال معه، يؤمنه مما يخاف ويبشره بما يحب، حتى يقف معه بين يدي الله عز وجل. فإذا أمر به إلى الجنة. قال له

(١) القائل الراوى، والمجيب أبو جعفر ﷺ.

المثال: ابشر فان الله عز وجل قد أمر بك إلى الجنة. قال: فيقول: من أنت رحمك الله؟ تبشرني من حين خرجت من قبري، وأنستني في طريقي، وخبرتني عن ربي! قال: فيقول: انا السرور الذي كنت تدخله على اخوانك في الدنيا، خلقت منه لا بشرك وأونس وحشتك». وروى ابن سنان، قال: «كان رجل عند أبي عبدالله عليه السلام، فقرأ هذه الآية:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ اَحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾^(١).

فقال أبو عبدالله عليه السلام: فما ثواب من أدخل عليه السرور؟ فقلت: جعلت فداك! عشر حسنات. قال: أي والله وألف ألف حسنة! ^(٢). ومنها:

ترك اعانة المسلمين

وعدم الاهتمام بأمورهم. فان من يعادى غيره أو يحاسده يترك إعانته ولا يهتم بأموره، وربما كان ذلك من نتائج الكسالة بها، أو ضعف النفس أو البخل. وبالجمله: لا ريب في كونه من رذائل الصفات، ودليلا على ضعف الايمان. وما ورد في ذمه من الأخبار كثير، قال الباقر عليه السلام: «من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجة، إلا ابتلى بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر». وقال الصادق عليه السلام: «أيما رجل من شيعتنا أتاه رجل من اخوانه، فاستعان به في حاجة فلم يعنه، وهو يقدر، إلا ابتلاه الله تعالى بأن يقضى حوائج عدة من أعدائنا، يعذبه الله عليها يوم القيامة». وقال عليه السلام: «أيما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه من عنده أو من عند غيره،

(١) الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٢) صححنا الأحاديث كلها هنا على (أصول الكافي): باب ادخال السرور على المؤمن، باب تفريح كرب المؤمن.

أقامه الله عز وجل يوم القيامة مسوداً وجهه، مزرقة عيناه، مغلوله يده إلى عنقه، فيقال: هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار». وقال ﷺ: «من كانت له دار، فاحتاج مؤمن إلى سكنها، فمنعه إياها، قال الله تعالى: يا ملائكتي، أبخل عبدى على عبدى بسكنى الدنيا؟ وعزتى وجلالي! لا يسكن جناتى أبداً». وقال ﷺ لنفر عنده: «ما لكم تستخفون بنا؟»، فقام إليه رجل من أهل خراسان، فقال: معاذ لوجه الله أن نستخف بك أو بشيء من أمرك! فقال: «إنك أحد من استخف بى»، فقال: معاذ لوجه الله أن استخف بك! فقال له: «ويحك! ألم تسمع فلاناً، ونحن بقرب الجحفة، وهو يقول لك: احملنى قدر ميل، فقد والله أعيتت. والله ما رفعت به رأساً، لقد استخففت به. ومن استخف بمؤمن فبنا استخف، وضيع حرمة الله عز وجل»^(١). وقال ﷺ: «من أتاه أخوه في حاجة يقدر على قضائها فلم يقضها، سلط الله عليه شجاعاً ينهش ابهامه في قبره إلى يوم القيامة مغفوراً له أو معذباً». وقال ابو الحسن ﷺ: «من قصد إليه رجل من اخوانه مستجيراً به في بعض احواله، فلم يجره بعد أن يقدر عليه، فقد قطع ولاية الله عز وجل». وقال رسول الله ﷺ: «من أصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس بمسلم». وقال ﷺ: «من اصبح لا يهتم بامور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً ينادى يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»^(٢).

(١) صححنا هذا الحديث بالخصوص على (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم الاستخفاف. وهو يرويه عن (الكافي).

(٢) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب من استعان اخوه به فلم يعنه، وباب قضاء حاجة المؤمن، وباب من منع مؤمناً شيئاً من عنده، وباب الاهتمام بامور المسلمين.

وصل

(قضاء حوائج المسلمين)

ضد هذه الرذيلة: قضاء حوائج المسلمين والسعى في انجاح مقاصدهم. وهو من أعظم أفراد النصيحة، ولا حد لمثوبته عند الله. قال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة، فكأنما عبد الله دهره»^(١). وقال ﷺ: «من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيراً له من اعتكاف شهرين». وقال أبو جعفر عليه السلام: «أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: إن من عبادى من يتقرب إلي بالحسنة فاحكمه في الجنة، فقال موسى: يا رب، وما تلك الحسنة؟ قال يمشى مع أخيه المؤمن في قضاء حاجته، قضيت أو لم تقض». وقال عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المسلم، أظله الله بخمسة وسبعين ألف ملك، ولم يرفع قدماً إلا كتب الله له حسنة، وخط عنه بها سيئة، ويرفع له بها درجة، فإذا فرغ من حاجته كتب الله عز وجل له بها أجر حاج ومعتمر». وقال عليه السلام: «إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا تكون عنده فيهتم بها قلبه، فيدخله الله تبارك وتعالى بهممة الجنة». وقال الصادق عليه السلام: «من قضى لأخيه المؤمن حاجة، قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه واخوانه الجنة، بعد أن لا يكونوا نصاباً». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى خلق خلقاً من خلقه، انتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا، ليشي بهم على ذلك الجنة. فان استطعت أن تكون منهم فكن». وقال عليه السلام: «قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله». وقال عليه السلام: «لقضاء حاجة امرئ مؤمن أحب إلى الله تعالى من عشرين حجة، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف». وقال عليه السلام: «من طاف بالبيت طوافاً

(١) صححه على (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، باب استحباب قضاء حاجة المؤمن، رواه عن (مجالس الطوسي). ولم نثر على مصدر للنبوى الثانى.

واحداً كتب الله له ستة آلاف حسنة، ومحي عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة - وفي رواية: وقضى له ستة آلاف حاجة - حتى إذا كان عند الملتزم، فتح له سبعة أبواب من الجنة»، قلت له: جعلت فداك! هذا الفضل كله في الطواف؟ قال: «نعم! وأخبرك بأفضل من ذلك: قضاء حاجة المؤمن المسلم أفضل من طواف وطواف وطواف... حتى بلغ عشراً». وقال عليه السلام: «تنافسوا في المعروف لاخوانكم، وكونوا من أهلها، فإن للجنة باباً يقال له المعروف، لا يدخله إلا من اصطنع المعروف في الحياة الدنيا، فإن العبد ليمشي في حاجة أخيه المؤمن، فيوكل الله عز وجل به ملكين، واحداً عن يمينه وآخر عن شماله، يستغفران له ربه، ويدعوان بقضاء حاجته»... ثم قال: «والله لرسول الله ﷺ أسر بقضاء حاجة المؤمن إذا وصلت إليه من صاحب الحاجة». وقال عليه السلام: «ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلا ناداه الله تعالى: علي ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة». وقال عليه السلام: «أَيُّما مؤمن أتى أخاه في حاجة فإنما ذلك رحمة من الله ساقها إليه وسببها له، فإن قضى حاجته كان قد قبل الرحمة بقبولها، وإن رده عن حاجته وهو يقدر على قضائها فإنها ردت عن نفسه رحمة من الله عز وجل، ساقها إليه وسببها له، وذخر الله تلك الرحمة إلى يوم القيامة، حتى يكون المردود عن حاجته هو الحاكم فيها، إن شاء صرفها إلى نفسه، وإن شاء صرفها إلى غيره»... ثم قال عليه السلام للراوي: «فإذا كان يوم القيامة، وهو الحاكم في رحمة من الله تعالى قد شرعت له، فإلى من ترى يصرفها؟»، لا أظن يصرفها عن نفسه، قال: «لا تظن! ولكن استيقن، فإنه لن يردها عن نفسه». وقال عليه السلام: «من مشى في حاجة أخيه المؤمن يطلب بذلك ما عند الله حتى تقضى له، كتب الله عز وجل له بذلك مثل أجر حجة وعمره مبرورتين، وصوم شهرين من أشهر الحرم واعتكافهما في المسجد الحرام، ومن مشى فيها بنية ولم تقض، كتب الله له بذلك مثل حجة مبرورة. فارغبوا في الخير». وقال عليه السلام: «لئن أمشى في حاجة أخ لي مسلم، أحب إلي من أن أعتق ألف نسمة، وأحمل في سبيل الله على ألف فرس مسرجة ملجمة». وقال عليه السلام: «من سعى

في حاجة أخيه المسلم، وطلب وجه الله، كتب الله عز وجل له ألف ألف حسنة، يغفر فيها لأقاربه وجيرانه وأخوانه ومعارفه، ومن صنع إليه معروفًا في الدنيا، فإذا كان يوم القيامة، قيل له: ادخل النار، فمن وجدته فيها صنع اليك معروفًا في الدنيا فأخرجته باذن الله عز وجل، إلا أن يكون ناصباً». وقال ابو الحسن عليه السلام: «إن الله عباداً في الأرض يسعون في حوائج الناس، هم الآمنون يوم القيامة. ومن أدخل على مؤمن سروراً، فرح الله قلبه يوم القيامة»^(١). والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة، وما ذكرناه كاف لتحريك الطالبين على قضاء حوائج المؤمنين. ومما يدل على مدحه وشرافته، ما ورد في ثواب اطعام المؤمن وسقيه وكسوته، كما يأتي.

ومنها:

التهاون والمداهنة

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهو ناش إما من ضعف النفس وصغرها، أو من الطمع المالى ممن يسامحه، فيكون من رذائل القوة الغضبية من جانب التفریط، أو من رذائل القوة الشهوية من جانب الافراط. وهو من المهلكات التي يعم فسادها وضرها، ويسرى إلى معظم الناس اثرها وشرها. كيف ولو طوى بساط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اضمحلت الديانة، وتعطلت النبوة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، وضاعت أحكام الدين، واندرست آثار شريعة رب العالمين، وهلك العباد، وخرجت البلاد. ولذا ترى وتسمع أن في كل عصر نهض باقامة هذه السنة بعض المؤيدين، من غير أن تأخذهم في الله لومة لائمين، من أقوياء العلماء المتكفلين لعلمها وإقائها، ومن سعداء الأمراء الساعين

(١) صححنا الاحاديث - ابتداء من الحديث عن ابى جعفر عليه السلام على (اصول الكافي): باب قضاء حاجة

المؤمن، وباب السعي في حاجة المؤمن.

في اجرائها وإمضائها، رغب الناس إلى ضروب الطاعات والخيرات، وفتحت عليهم بركات الأرض والسموات. وفي كل قرن لم يقم باحيائها عالم عامل ولا سلطان عادل، إستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، واسترسل الناس في اتباع الشهوات والهوى، وانمحت أعلام الهداية والتقوى.

ولذا ترى في عصرنا - لما اندرس من هذا القطب الأعظم عمله وعلمه، وانمحت بالكلية حقيقته واسمه، وعز على بسيط الأرض دين يحرس الشريعة، واستولت على القلوب مداينة الخليفة - أن الناس في بيداء الضلالة حيارى، وفي أيدي جنود الأبالسة اسارى، ولم يبق من الاسلام إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه. ولأجل ذلك ورد الذم الشديد في الآيات والأخبار على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمداينة فيهما، قال الله سبحانه:

﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّخْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل، إلا يوشك أن يعذبهم الله بعذاب من عنده». وقال ﷺ: «إن الله تعالى ليغض المؤمن الضعيف الذي لا دين له»، فقيل له: وما المؤمن الذي لا دين له؟ قال: «الذي لا ينهى عن المنكر». وقيل له ﷺ: «أتهلك القرية وفيها الصالحون؟ قال: نعم! قيل: بم يا رسول الله؟ قال: بتهاونهم وسكوتهم عن معاصي الله». وقال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، أو ليستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(٢). وقال ﷺ: «إن الله تعالى ليسأل العبد: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكر؟». وقال ﷺ: «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة،

(١) المائدة، الآية: ٦٣.

(٢) روى في (فروع الكافي) - باب الأمر بالمعروف - هذا الحديث عن أبي الحسن الرضا عليه السلام. وصحنا الحديث الذي قبل الأخير على (فروع الكافي) في الموضع المذكور أيضاً.

حتى يظهر المنكر بين اظهرهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «انما هلك من كان قبلكم، حيث عملوا بالمعاصي ولم ينههم الربانيون والأخبار عن ذلك، وانهم لما تبادوا في المعاصي ولم ينههم الربانيون والأخبار عن ذلك، نزلت بهم العقوبات، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر...». وقال عليه السلام: «من ترك إنكار المنكر بقلبه ويده ولسانه، فهو ميت بين الأحياء». وقال عليه السلام: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نلقى أهل المعاصي بوجوه مكفهرة». وقال عليه السلام: «إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم بالسنتكم، ثم بقلوبكم، فمن لم يعرف بقلبه معروفاً ولم ينكر منكراً قلب، فجعل أعلاه أسفله». وقال الباقر عليه السلام: «أوحى الله عز وجل إلى شعيب النبي عليه السلام: إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم، وستين ألفاً من خيارهم. فقال عليه السلام: يا رب، هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله عز وجل اليه: داهنوا أهل المعاصي، ولم يغضبوا لغضبي». وقال الصادق عليه السلام: «ما قدست أمة لم يؤخذ لضعيفها من قوايها بحقه غير متعتع». وقال عليه السلام: «ويل لقوم لا يدينون الله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى بعث ملكين إلى أهل مدينة ليقلبها على أهلها، فلما انتهيا إلى المدينة وجدا رجلاً يدعو الله ويتضرع اليه، فقال أحد الملكين لصاحبه: أما ترى هذا الداعي؟ فقال: قد رأيته، ولكن أمضى ما أمر به ربي. فقال: لا، ولكن لا أحدث شيئاً حتى أراجع ربي. فعاد إلى الله تبارك وتعالى، فقال: يا رب إني انتهيت إلى المدينة، فوجدت عبدك فلاناً يدعوك ويتضرع اليك. فقال: امض ما امرتك به، فإن ذا رجل لم يتمعر وجهه غيظاً لي قط». وقال عليه السلام لقوم من أصحابه: «حق لي أن آخذ البريء منكم بالسقيم، وكيف لا يحق لي ذلك وانتم يبلغكم عن الرجل منكم القبيح فلا تنكروا عليه، ولا تهجروا ولا تؤذونه حتى يتركه». وقال عليه السلام: «لأحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم... إلى أن قال: ما يمنعكم إذا بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل علينا به الأذى، أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه، وتقولوا له

قولاً بليغاً»، قيل له: اذن لا يقبلون منا، قال: «اهجروهم واجتنبوا مجالستهم». وفي بعض الأخبار النبوية: «إن أمتي إذا تهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فليأذنوا بحرب من الله». وقد وردت اخبار بالمنع عن حضور مجالس المنكر إذا لم يمكنه دفعه والنهي عنه، ولو حضر نزلت عليه اللعنة. وعلى هذا لا يجوز دخول بيت الظلمة والفسقة، ولا حضور المشاهد التي يشاهد فيها المنكر ولا يقدر على تغييره، إذ لا يجوز مشاهدة المنكر من غير حاجة، اعتذاراً بأنه عاجز. ولهذا اختار جماعة من السلف العزلة، حذراً من مشاهدة المنكر في الأسواق والمجامع والاعياد، مع عجزهم عن التغيير.

ثم إذا كان الأمر في المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المثابة، فيعلم أن الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف كيف حاله. قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا فسدت نساؤكم وفسق شبابكم ولم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟»، ف قيل له ﷺ: ويكون ذلك يا رسول الله؟! قال: «نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟!»، ف قيل له: يا رسول الله، ويكون ذلك؟! قال نعم! وشر من ذلك! كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟!»، وفي رواية: «وعند ذلك يتلى الناس بفتنة، يصير الحليم فيها حيران»^(١).

ومن تأمل في الأخبار والآثار، واطلع على التواريخ والسير وقصص الامم السالفة والقرون الماضية، وما حدثت لهم من العقوبات، وضم ذلك إلى التجربة والمشاهدة في عصره، من ابتلاء الناس ببعض البلايا السماوية والأرضية، يعلم أن كل عقوبة سماوية وأرضية، من الطاعون والوباء، والقحط والغلاء، وحبس المياه والامطار، وتسلب الظالمين والاشرار، ووقوع القتل والغارات، وحدوث الصواعق

(١) صححنا الاحاديث هنا على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرک): ٢ / ٣٦٠ - ٣٦١ كتاب الأمر بالمعروف.

والزلازل، وأمثال ذلك، تكون مسبقة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس.

فصل

(السعى في الأمر بالمعروف)

ضد المداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي السعى فيهما والتشهير لهما. وهو أعظم مراسم الدين، والمهم الذي بعث الله لأجله النبيين، ونصب من بعدهم الخلفاء والأوصياء، وجعل نوابهم أولي النفوس القدسية من العلماء. بل هو القطب الذي تدور عليه أرحية الملل والأديان، وتطرق الاختلال فيه يؤدي إلى سقوطها عن الدوران. ولهذا ورد في مدحه والترغيب عليه مما لا يمكن احصاؤه من الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١). وقال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾^(٢). وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ، إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وقال: ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ﴾^(٣).

والقيام بالقسط هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال رسول الله ﷺ: «ما أعمال البر عند الجهاد في سبيل الله إلا كنفثة في بحر لجي، وما جميع أعمال البر والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤، ١١٠.

(٢) الأعراف، الآية: ١٦٥.

(٣) النساء، الآية: ١١٤، ١٣٥.

المنكر إلا كنفثة في بحر لجي». وقال ﷺ: «إياكم والجلوس على الطرقات!»، قالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها. قال: «فإذا أبيتم إلا ذلك، فاعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر». وقال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا وله حوارى، فيمكث النبي بين أظهرهم ما شاء الله، يعمل فيهم بكتاب الله وبأمره، حتى إذا قبض الله نبيه، مكث الحواريون يعملون بكتاب الله وبأمره وسنة نبيه، فإذا انقروا، كان من بعدهم قوم يركبون رؤس المنابر، يقولون ما يعرفون يعملون ما ينكرون. فإذا رأيتم ذلك، فحق على كل مؤمن جهادهم بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه. وليس وراء ذلك إسلام»^(١). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه، فقد سلم وبرىء، ومن أنكره بلسانه فقد أجز، وهو أفضل من صاحبه، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله العلياً وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى وقام على الطريق، ونور في قلبه اليقين»^(٢). وقال عليه السلام: «فمنهم المنكر للمنكر بقلبه ولسانه ويده، فذلك المستكمل لخصال الخير. ومنهم المنكر بلسانه وقلبه، التارك بيده، فذلك متمسك بخصلتين من خصال الخير ومضيع خصلة. ومنهم المنكر بقلبه، والتارك بيده ولسانه، فذلك الذي ضيع أشرف الخصلتين من الثلاث وتمسك بواحدة. ومنهم تارك لإنكار المنكر بلسانه وقلبه ويده، فذلك ميت الأحياء. وما أعمال البر كلها والجهاد في سبيل الله عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا كنفثة في بحر لجي، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقربان من أجل ولا ينقصان من رزق، وأفضل من ذلك كلمة عدل عند إمام جائر». وفي خبر جابر عن الباقر عليه السلام: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن

(١) صححنا هذه النبويات الثلاثة على (أحياء العلوم): ٢٧١ / ٢، ٢٧٢.

(٢) صححنا الحديث على (المستدرک): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف، الباب ٣. وكذا الحديث بعده، صححناه على (الوسائل) في الموضع المذكور.

المنكر سبيل الانبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة، بها تقام الفرائض، وتأمين المذاهب، وتحل المكاسب، وترد المظالم، وتعمر الأرض، ويتتصف من الاعداء، ويستقيم الأمر. فانكروا بقلوبكم، والفظوا بألسنتكم، وصكوا بها جباههم، ولا تخافوا في الله لومة لائم. فإن اتعظوا والى الحق رجعوا فلا سبيل عليهم:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

هنالك فجاهدوهم بأبدانكم، وابغضوهم بقلوبكم، غير طالبين سلطاناً، ولا باغين مالاً، ولا مريرين لظلم ظفرأ، حتى يفيثوا إلى أمر الله ويمضوا على طاعته^(٢).

فصل

(وجوب الأمر بالمعروف وشروطه)

مقتضى الآيات والأخبار المذكورة، وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا خلاف فيه أيضاً، إنما الخلاف في كون وجوبهما كفاً أو عينياً. والحق الأول، كما يأتي.

ثم الواجب إنما هو الأمر بالواجب والنهي عن الحرام. وأما الأمر بالمندوب والنهي عن المكروه فمندوب، وإنما يجب بشروط أربعة:

الأول - العلم بكونهما معروفاً ومنكراً، ليأمن من الغلط، فلا يجبان في المتشابه، فمن علم بالقطع الوجوب أو الحرمة، وعدم جواز الاختلاف فيه من ضرورة الدين أو المذهب أو الاجماع القطعي النظري أو الكتاب والسنة أو من قول العلماء، فله أن

(١) الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) صححنا الحديث على (فروع الكافي): كتاب الجهاد، باب الأمر بالمعروف.

يأمر وينهى ويحتسب به على كل أحد، ومن لم يعلمها بالقطع، بل علمها بالظن الحاصل من الاجتهاد أو التقليد، وجوز الاختلاف فيه، فليس له الأمر والنهي والحسبة، إلا على من كان على هذا الاعتقاد من مجتهد أو مقلد، أو لزم عليه أن يكون هذا الاعتقاد، وإن لم يكن عليه بالفعل للجهل، كالمقلد المطلق لمجتهد إذا لم يعلم بعض العقائد الاجتهادية لمجتهده، فيتأتى لغيره أن يحتسب به عليه. وحاصل ما ذكر: أن القطعيات الوفاقية تأتى لكل أحد أن يحتسب بها على كل أحد بعد علمها، وغير القطعيات الجائز فيها الاختلاف والمرجح أحد طرفيها لاجتهاد لا يتأتى لمجتهدها ومقلده فيها الاحتساب، أى الأمر والنهي، إلا على من كان موافقاً في الاعتقاد أو يلزم أن يكون موافقاً.

الثاني - تجويز التأثير. فلو علم أو غلب على ظنه انه لا يؤثر فيه، لم يجب، لعدم الفائدة.

الثالث - القدرة والتمكن منه، وعدم تضمنه مفسدة. فلو ظن توجه الضرر إليه أو الى أحد من المسلمين بسببه سقط، إذ لا ضرر ولا ضرار في الدين.

الرابع - أن يكون المأمور أو المنهى مصراً على الاستمرار. فلو ظهر منهما اشارة الإقلاع سقط، للزوم العبث.

ثم هذه الشروط يختلف اشتراطها بسبب اختلاف درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما يأتى. ويدل على اشتراط الثلاثة الأول ما روى: «انه سئل مولانا الصادق عليه السلام: ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو اجب على الأمة جميعاً؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: انما هو على القوى المطاع، العالم بالمعروف من المنكر، لا على الضعيف الذي لا يهتدى سبيلاً إلى أى من أى يقول من الحق إلى الباطل. والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل، قوله:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١).

فهذا خاص غير عام، كما قال الله عز وجل:

﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٢).

ولم يقل على أمة موسى، ولا على كل قوم، وهم يومئذ امم مختلفة، والامة واحد فصاعداً، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ يقول مطيعاً لله عز وجل. وليس على من يعلم ذلك في هذه الهدنة من حرج، إذا كان لا قوة له ولا عذر ولا طاقة. وقال مسعدة: «سمعت ابا عبد الله عليه السلام - وسئل عن الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ: (إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند امام جائر) ما معناه - قال: هذا على أن يأمره بعد معرفته، وهو مع ذلك يقبل منه، وإلا فلا». وفي خبر آخر: «إنما يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم. فأما صاحب سوط أو سيف فلا». وفي خبر آخر: «من تعرض لسلطان جائر واصابته بلية، لم يؤجر عليها ولم يرزق الصبر عليها»^(٣). ومن الشرائط أن يظهر المنكر على المحتسب من غير تجسس، فلا يجب، بل لا يجوز التجسس، كفتح الباب المغلق، ووضع الاذن والانف لاحتباس الصوت والريح، وطلب اراءة ما تحت الثوب، وأمثال ذلك، لنص الكتاب والسنة.

فصل

(عدم اشتراط العدالة فيه)

لا تشترط فيه العدالة واثمار الأمر بما يأمر به وانتهاء الناهي عما ينهى عنه،

(١) آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٩.

(٣) صححنا الأحاديث على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف، وباب انكار المنكر بالقلب. اسقط المؤلف من الحديث الأول قسماً فأكملناه.

لاطلاق الأدلة، ولأن الواجب على فاعل الحرام المشاهد فعله من غيره أمران: تركه وانكاره، ولا يسقط بترك أحدهما وجوب الآخر، كيف ولو شرط ذلك لاقتضى عدم وجوب ذلك إلا على المعصوم، فينسد باب الحسبة بالكلية.

وأما الإنكار في قوله تعالى:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢).

وما في حديث الاسرى من قرض مقاريضهم بالنار، فانما هو على عدم العمل بما يأمر به ويقول، لا على الأمر والقول. وكذلك ما روى: «أن الله تعالى أوحى إلى عيسى: عظ نفسك، فان اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني»^(٣). وقس على ذلك جميع ما ورد من هذا القبيل.

وما قيل إن هداية الغير فرع الاهتداء، وتقويم الغير فرع الاستقامة، ففيه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تارة يكون بالوعظ وتارة بالقهر، ومن لم يكن مهتدياً مستقيماً، تسقط عنه الحسبة بالوعظ، لعلم الناس بفسقه، فلا يتضمن وعظه وكلامه فائدة، ولا يؤثر في العالم بفسقه، ولا يخرج ذلك وعظه وقوله عن الجواز، كما لا تخرج حسبه القهرية عن التأثير والفائدة أيضاً. إذ الفاسق إذا منع غيره قهراً عن الزنا واللواط وشرب الخمر، وأراق الخمر، وكسر آلات الملاهي، حصل التأثير والفائدة بلا شبهة. والحاصل: أن أحد نوعي الاحتساب - أعنى الوعظي - يتوقف تأثيره على العدالة، وأما نوعه الآخر - أعنى القهري - فلا يتوقف عليه مطلقاً.

(١) البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) الصف، الآية: ٢-٣.

(٣) صححنا الأحاديث كلها على (فروع الكافي): باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعلى (الوسائل): كتاب الأمر بالمعروف. وعلى (المستدرک): ٢ / ٣٦٠، كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فان قيل: إذا أتى رجل امرأة إكراهاً، وهى مستورة الوجه، فكشفت وجهها باختيارها، فما اشنع واقبح أن ينهاها الرجل في أثناء الزنا عن كشف وجهها، ويقول لها: أنت مكرهة في الزنا ومختارة في كشف الوجه لغير المحرم، وما أنا بمحرم لك، فاسترى وجهك.

قلنا: القبح والاستنكار إنما هو لأجل أنه ترك الأهم واشتغل بما هو الاهون، كما إذا ترك المشتبه وأكل الحرام، أو ترك الغيبة وشهد بالزور، لأن هذا النهى هو حرام في نفسه، أو خرج عن الوجوب إلى الإباحة أو الكراهة. ولأن نهيه هذا خرج بنفسه عن التأثير والفائدة، فالاستنكار عليه وتقبيح نهيه عن هذا من حيث أنه نزل نفسه مقام من يؤثر قوله، مع أنه لا يؤثر، كما تقدم آنفاً.

ثم ما ذكرناه من عدم اشتراط العدالة في العمل بما يأمر به وينهى عنه إنما هو في آحاد الحسبة الصادرة من أفراد الرعية المطلعين على المنكر. وأما من نصب نفسه لصلاح الناس ونصحهم، وبيان الأحكام الإلهية نيابة عن رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام، فلا بد فيه من العدالة والتقوى والعلم بالكتاب والسنة، وغير ذلك من شرائط الاجتهاد. وعلى هذا يحصل جواب آخر عن الآيات والاحبار الواردة في الإنكار على الواعظ غير المتعظ بتخصيصها به دون أفراد الرعية. وعليه يحمل قول الصادق عليه السلام في (مصباح الشريعة)^(١): «من لم ينسلخ عن هواجسه، ولم يتخلص من آفات نفسه وشهواتها، ولم يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته، لا يصلح له الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه إذا لم يكن بهذه الصفة، فكلما أظهر أمراً كان حجة عليه، ولا ينتفع الناس به. قال الله عز وجل:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢).

(١) الباب ٦٤. وقد صححنا الحديث عليه وعلى (بحار الأنوار): ٢١ / ١١٤، باب الأمر بالمعروف. وعلى

(مستدرک الوسائل): ٢ / ٣٦٣ - ٣٦٥.

(٢) البقرة، الآية: ٤٤.

ويقال له: يا خائن! أتطالب خلقى بما خنت به نفسك وأرخت عنه عنانك!». وكذا يحمل عليه قول الصادق عليه السلام^(١): «صاحب الأمر بالمعروف يحتاج إلى أن يكون عالماً بالحلال والحرام، فارغاً من خاصة نفسه مما يأمرهم به وينهاهم عنه، ناصحاً للخلق، رحيماً لهم، رفيقاً بهم، داعياً لهم باللطف وحسن البيان، عارفاً بتفاوت أخلاقهم، لينزل كلاً منزلته، بصيراً بمكر النفس ومكائد الشيطان، صابراً على ما يلحقه، لا يكافهم بها ولا يشكو منهم، ولا يستعمل الحمية ولا يغتلب لنفسه، مجرداً نيته لله، مستعيناً به ومبتغياً لوجهه، فان خالفوه وجفوه صبر، وإن وافقوه وقبلوا منه شكر، مفوضاً أمره إلى الله، ناظراً إلى عيبه».

(تنبيه) اعلم أن المحتسب عليه - أعنى من يؤمر به أو ينهى عنه - وإن اشترط كونه عاقلاً بالغاً، إلا أن هذا الشرط إنما هو في غالب الأوامر والنواهي، وبعضها لا يشترط فيه ذلك. إذ من رأى صبيّاً أو مجنوناً يشرب الخمر، وجب عليه أن يمنعه ويريق خمره. وكذا إن رأى مجنوناً يزنى بمجنونة أو بهيمة، فعليه أن يمنعه منه، ولا يلزم منه أن يكون منع بهيمة عن افساد زرع انسان حسبة ونهياً عن منكر، إذ لا يصدق اسم المحتسب عليه والمنهى إلا على من كان الفعل الممنوع عنه في حقه منكراً، وهو لا يكون إلا الانسان دون سائر الحيوانات.

فصل

(مراتب الأمر بالمعروف)

اعلم أن للامر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب:
الأولى - الانكار بالقلب: بأن يبغضه على ارتكاب المعصية. وهذا مشروط بعلم الناهي واصرار المنهى، ولا يشترط بالشرطين الأخيرين.

(١) مصباح الشريعة: الباب المتقدم.

الثانية - التعريف: بأن يعرف المرتكب للمنكر بأنه معصية، فإن بعض الناس قد يرتكب بعض المعاصي لجهلهم بأنه معصية، ولو عرف كونه معصية تركه.

الثالثة - إظهار الكراهة والإعراض والمهاجرة.

الرابعة - الانكار باللسان: بالوعظ، والنصح، والتخويف، والزجر، مرتباً الأيسر فالأيسر، إلى أن يصل إلى التعنيف بالقول والتغليظ في الكلام. كقوله: يا جاهل! يا أحمق! لا تخالف ربك! وهنا شبكة عظيمة للشيطان، ربما يصطاد بها أكثر الوعاظ. فينبغي لكل عالم ناصح أن يراها بنور البصيرة، وهي أن يحضره عند الوعظ والارشاد، ويلقى في قلبه تعززه وشرافته بالعلم، وذلة من يعظه بالجهل والخسة. فربما يقصد بالتعريف والوعظ الاذلال والتجهيل، واظهار شرف نفسه بالعلم، وهذه آفة عظيمة تتضمن كبراً ورياء. وينبغي لكل واعظ دين ألا يغفل عن ذلك، ويعرف بنور بصيرته عيوب نفسه وقبح سريره. وعلامة براءة نفسه من هذه الآفة، أن يكون اتعاط ذلك العاصي بوعظ غيره أو امتناعه من المعصية بنفسه أحب إليه من اتعاطه بوعظه.

الخامسة - المنع بالقهر مباشرة: ككسر آلات اللهو، وارقة الخمر، واستلاب الثوب المغصوب منه ورده إلى صاحبه، وأمثال ذلك.

السادسة - التهديد والتخويف: كقوله: دع عنك هذا، وإلا ضربتك أو كسرت رأسك! أو غير ذلك مما يجوز له أن يفعل لو لم ينته عن معصيته. ولا يجوز أن يهدده بما لا يجوز فعله، كقوله: دع هذا وإلا أضرب عنقك! أو أضرب ولدك، أو استبين زوجتك، وأمثال ذلك.

السابعة - مباشرة الضرب باليد والرجل وغير ذلك، من دون أن ينتهي إلى شهر سلاح وجراح.

الثامنة - الجرح بشهر بعض الأسلحة. وجوزه سيدنا المرتضى عليه السلام من أصحابنا وجماعة، والباقون اشترطوا إذن الامام في ذلك. إذ ربما لا يقدر عليه بنفسه، ويحتاج

فيه إلى أعوان وانصار يشهرون السلاح، وربما يستمد الفاسق أيضاً باعوانه، فيؤدى الى المقاتلة والمحاربة وحدوث فتنة عظيمة.

فصل

(معنى وجوبهما كفائياً)

إذا اجتمعت الشرائط، وكان المطلع منفرداً، تعين عليه. وإن كان ثمة غيره، وشرع أحدهما في الأمر والنهي، فان ظن الآخر أن لمشاركته أثراً في تعجيل ترتب الأثر ورسوخ الانزجار، وجب عليه أيضاً، وإلا فلا. لأن الغرض وقوع المعروف وارتفاع المنكر، فمتى حصل بفعل واحد، كان السعى من الآخر عبثاً. وهذا معنى كون وجوبهما كفائياً.

فصل

(ما ينبغي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

ينبغي لكل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون حسن الخلق، صابراً حليماً قوياً في نفسه، لئلا ينزعج، ولا يضطرب إذا قيل في حقه ما لا يليق به. فان أكثر الناس اتباع الهوى، فإذا نهوا عما يميلون إليه شق ذلك عليهم، وربما اطلقوا ألسنتهم في حق الناهي، ويقولون فيه ما لا يليق بشأنه، وربما تجاوزوا إلى سوء الأدب قولاً وفعلاً بالمشافهة.

وأن يكون رفيقاً بالناس، فان الوعظ بالرفق والملاءمة أوقع وأشد تأثيراً في قلوب أكثر الناس.

وأن يكون قاطعاً للطمع عن الناس، فان الطامع من الناس في أموالهم أو اطلاق ألسنتهم بالثناء عليه لا يقدر على الحسبة، ولذا نقل: «أن بعض المشايخ كان له سنور، وكان يأخذ من قصاب في جواره كل يوم شيئاً من القد لسنوره، فرأى على القصاب

منكرأ، فدخل الدار أولاً، وأخرج السنور، ثم جاء ووعظ القصاب وشدد عليه القول، فقال القصاب: لا يأكل سنورك شيئاً بعد ذلك، فقال: ما احتسبت عليك إلا بعد اخراج السنور وقطع الطمع عنك!».

تتميم

(أنواع المنكرات)

اعلم أن المنكرات إما محظورة أو مكروهة، والمألوفة منها في العادات أكثر من أن تحصى.

فمنها - ما يكون غالباً في المساجد: كإساءة الصلاة، والاخلال ببعض أفعالها، والتأخير عن أوقاتها، وادخال النجاسة فيها، والتكلم فيها بأمور الدنيا والبيع والشراء، ودخول الصبيان والمجانين فيها مع اشتغالهم باللهو واللعب، وقراءة القرآن فيها باللحن أو الغناء، ودخول النسوان فيها مع ظن تطرق الريبة، ونظر الأجانب اليهن أو نظرن اليهم، ودخول الجنب أو الحائض فيها، وتغنى المؤذنين بالأذان أو غيره مما يقرؤن، وتقديمهم الأذان على الوقت، ووعظ من لا ينبغي أن يتمكن من الموعظة، كمن يكذب في حديثه أو يفتى بالمسائل وليس أهلاً لها، أو يظهر من وعظه كونه مرئياً طالباً للجاه، وأمثال ذلك. فان كل ذلك من المنكرات، بعضها محظورة وبعضها مكروهة، ينبغي لكل مطلع ان ينهى عنها.

ومنها - ما يكون غالباً في الأسواق : من الكذب في المحاولات والمعاملات واخفاء العيب، والايمان الكاذبة، والمنازعة بالضرب والشتم والطعن واللعن وامثال ذلك، والتبخس في الكيل والميزان، والمعاملات الفاسدة باقسامها على ما هو مقرر في الفقهيات.

ومنها - ما يكون في الشوارع : كوضع الاساطين، وبناء الدكات متصلة بالابنية المملوكة، وتضييق الطرق على المارة بوضع الاطعمة والاحطاب وربط الدواب فيها،

وسوق الدواب فيها وعليها الاشواك والنجاسات - إذا تأذى الناس منها وامكن العدول بها إلى موضع واسع، وإن لم يكن فلا منع، إذ حاجة أهل البلد ربما تمس إلى ذلك - وتحميل الدواب ما لا يطيقها من الحمل، وذبح القصاب على الطريق أو على باب دكانه بحيث تلوث الطريق بالدم، وطرح الكناسة على جواد الطريق، ورش الماء على الطرق بحيث يخشى منه الزلق والسقوط، وارسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة، وغير ذلك. وقس على ذلك منكرات الحمات، والخانات، والاسواق، ومجالس العامة، ومجامع القضاة، ومدارس الفقهاء، ورباطات الصوفية، ودواوين السلاطين، وغيرها. فان أمثال ما ذكر من المنكرات يجب أن ينهى عنها، فلو قام بالاحتساب والنهى عنها أحد سقط الحرج على البواقى، وإلا عم الحرج أهل البلد جميعاً. وأمثال ما ذكر إنما هو من المنكرات اليسيرة الجزئية.

وأما المنكرات العظيمة: من البدعة في الدين، والقتل والظلم، والزنا واللواط، وشرب الخمر، وأنواع الغناء، والنظر إلى غير المحارم، وأكل الحرام، والصلاة في الاماكن المغصوبة، والوضوء والغسل من المياه المحرمة، والتصرف في أموال الأوقاف وغصبها، والمعاملة مع الظالمين، والجهل في الاصول الاعتقادية والفروع الواجبة، وآفات اللسان، فلا يمكن حصرها لكثرتها، لا سيما في أمثال زماننا. فلو امكن لمؤمن دين أن يغير هذه المنكرات كلاً أو بعضاً بالاحتساب، فليس له أن يقعد في بيته، بل يجب عليه الخروج للنهى والتعليم. بل ينبغى لكل مسلم أن يبدأ بنفسه، فيصلحها بالمواظبة على الطاعات وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهله وأقاربه، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم أهل بلده، ثم أهل السواد المكتنف بلده، ثم إلى غيرهم، وهكذا الاقرب فالأقرب إلى اقصى العالم. فان قام به الأدنى سقط عن الأبعد، وإلا لزم الحرج على كل قادر عليه، قريباً كان أو بعيداً. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل يعرض عن فروض دينه وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو غيره فيعلمه فريضة. وهذا شغل شاغل لمن يهमे

أمر دينه يشغله عن سائر المشاغل. إلا أن إغراض الناس عن أمور دينهم في عصرنا لم يبلغ حداً يقبل الإصلاح، إلى ان تتعلق به مشيئة الله، فينهض بعض عباده السعداء الاقوياء، فيدفع هذه الوصمة، ويسد هذه الثلمة، ويتلافى هذه الفترة. ومنها:

الهجرة والتباعد

ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحقد، أو الحسد أو البخل. فيكون من رذائل قوة الغضب أو الشهوة. وهو من ذمائم الأفعال. قال رسول الله ﷺ: «أيما مسلمين تهاجرا، فمكتنا ثلاثاً لا يصطلحان، إلا كانا خارجين من الاسلام، ولم يكن بينهما ولاية. فأيهما سبق الكلام لأخيه، كان السابق إلى الجنة يوم الحساب». وقال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث...». وقال الصادق عليه السلام: «لا يفترق رجلان على الهجران، إلا استوجب أحدهما البراءة واللعنة، وربما استحق ذلك كلاهما»، فقال له معتب: جعلني الله فداك! هذا للظالم، فما بال المظلوم؟! قال: «لأنه لا يدعو أخاه إلى صلته، ولا يتعاسى له عن كلامه. سمعت أبى يقول: إذا تنازع اثنان، فعاد أحد هما الآخر، فليرجع المظلوم إلى صاحبه، حتى يقول لصاحبه: أى أخى، انا الظالم، حتى يقطع الهجران بينه وبين صاحبه، فان الله تبارك وتعالى حكم عدل، يأخذ للمظلوم من الظالم». وقال ﷺ: «لا يزال ابليس فرحاً ما هتجر المسلمان»، فإذا التقيا اصطكت ركبته وتخلعت أوصاله، ونادى: ياويله! مالقى من الثبور». وقال الباقر عليه السلام: «إن الشيطان يغرى بين المؤمنين ما لم يرجع أحدهم عن دينه، فإذا فعلوا ذلك استلقى على قفاه وتمدد، ثم قال: فرت. فرحم الله امرأ ألف بين وليين لنا. يا معشر المؤمنين، تألفوا وتعاطفوا»^(١). والأخبار الواردة في ذم الهجرة

(١) صححتنا الاخبار كلها على (الكافى): باب الهجران.

والتباعد كثيرة.

فيجب على كل طالب لنجاة الآخرة أن يتأمل في امثال هذه الأخبار، ثم يتذكر ثواب ضد ذلك وفوائده، أعنى التآلف والتزاور بين الاخوان بنفسه، فيحافظ نفسه من حصول الانقطاع والتباعد مع أحد اخوانه. ولو حصل ذلك كلف نفسه المبادرة إلى زيارته وتآلفه، حتى يغلب على الشيطان ونفسه الامارة، ويفوز بما يرجوه المتقون من عظيم الأجر وجزيل الثواب.

فصل

(التزاور والتآلف)

قد اشير إلى أن ضد التباعد والهجران هو التزاور والتآلف، وهو من ثمرات النصيحة والمحبة، وثوابه أكثر من أن يحصى. عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: حدثني جبرئيل عليه السلام: أن الله عز وجل أهبط إلى الأرض ملكا، فاقبل ذلك الملك يمشى حتى وقع إلى باب عليه رجل يستأذن على رب الدار، فقال له الملك: ما حاجتك إلى رب هذه الدار؟ قال: أخ لي مسلم زرت في الله تبارك وتعالى. فقال له الملك: ما جاء بك إلا ذاك؟ فقال: ما جاء بى إلا ذاك. قال: فانى رسول الله اليك، وهو يقرئك السلام، ويقول: وجهت لك الجنة. وقال الملك: إن الله عز وجل يقول: أيما مسلم زار مسلماً فليس إياه زار، بل إياى زار، وثوابه عليّ الجنة». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لقاء الاخوان مغنم جسيم، وإن قلوا».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «إن الله عز وجل جنة لا يدخلها إلا ثلاثة: رجل حكم على نفسه بالحق، ورجل زار أخاه المؤمن في الله، ورجل آثر أخاه المؤمن في الله». وقال عليه السلام: «إن المؤمن ليخرج إلى أخيه يزوره فيوكل الله عز وجل به ملكا فيضع جناحاً في الأرض وجناحاً في السماء يظله، فإذا دخل إلى منزله، ناداه الجبار تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقى، المتبع لآثار نبى، حق عليّ إعظامك، سلنى

أعطك، أدعني أجبك، اسكت أبتدئك. فإذا انصرف شيعه الملك يظله بجناحه حتى يدخل إلى منزله، ثم يناديه تبارك وتعالى: أيها العبد المعظم لحقي، حق عليّ إكرامك، قد أوجبت لك جنتي، وشفعتك في عبادي». وقال ﷺ: «أيما مؤمن خرج إلى أخيه يزوره عارفاً بحقه، كتب الله له بكل خطوة حسنة، ومحيت عنه سيئة، ورفعت له درجة، فإذا طرق الباب فتحت له ابواب السماء، فإذا التقيا وتصافحا وتعانقا، أقبل الله عليهما بوجهه، ثم باهى بهما الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبدي تزاورا وتحابا في، حق عليّ ألا أعذبهما بالنار بعد ذا الموقف. فإذا انصرف شيعه ملائكة عدد نفسه وخطاه وكلامه، يحفظونه عن بلاء الدنيا وبوائق الآخرة إلى مثل تلك الليلة من قابل، فان مات فيما بينهما اعفى من الحساب، وان كان المزور يعرف من حق الزائر ما عرفه الزائر من حق المزور كان له مثل أجره».

وقال الصادق ﷺ: «من زار أخاه لله لا لغيره، التماس موعده الله وتنجز ما عند الله، وكل الله به سبعين الف ملك ينادونه: ألا طبت وطابت لك الجنة!». وقال ﷺ: «من زار أخاه في الله، قال الله عز وجل: إياي زرت، وثوابك علي، ولست أرضى لك ثواباً دون الجنة». وقال ﷺ: «من زار أخاه في الله في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكل الله به سبعين الف ملك، ينادون في قفاه: أن طبت وطابت لك الجنة! فانتم زوار الله، وأنتم وفد الرحمن، حتى يأتي منزله»، فقال له بشير: جعلت فداك! فان كان المكان بعيداً؟ قال: «نعم يا بشير! وإن كان المكان مسيرة سنة، فان الله جواد، والملائكة كثير، يشيعونه حتى يرجع إلى منزله». وقال ﷺ: «من زار أخاه في الله تعالى والله، جاء يوم القيامة يخطر بين قباطي من نور^(١)، لا يمر بشيء إلا أضاء له، حتى يقف بين يدي الله عز وجل، فيقول الله له: مرحباً! وإذا قال مرحباً، اجزل الله عز وجل له العطية». وقال ﷺ: «لزيارة مؤمن في الله خير من عتق عشر رقاب

(١) القبط - بالكسر -: أهل مصر الاصليون. واليهم تنسب الثياب البيض القبطية - والجمع (قباطي).

مؤمنات، ومن أعتق رقبة مؤمنة وقى بكل عضو عضواً من النار، حتى أن الفرج بقي الفرج». وقال ﷺ لأبي خديجة: «كم بينك وبين البصرة؟» قال: في الماء خمس إذا طابت الرياح، وعلى الظهر ثمان ونحو ذلك، فقال: «ما أقرب هذا، تزاوروا وتعاهدوا بعضكم بعضاً، فانه لا بد يوم القيامة يأتي كل انسان بشاهد شهد له على دينه». وقال: «إن المسلم إذا رأى أخاه، كان حياة لدينه إذا ذكر الله». وقال رسول الله ﷺ: «مثل الأخوين إذا التقيا مثل اليمين تغسل إحداهما الأخرى، مالمقى المؤمنان قط إلا أفاد الله احدهما من صاحبه خيراً».

والأخبار الواردة بهذه المضامين كثيرة. والسرف في هذا الترغيب الشديد على تزاور المؤمنين وملاقاتهم، كونه دافعاً للحسد والعداوة، جالباً للتأليف والمحبة. وهو أعظم ما يصلح به أمر دنياهم وعقباهم. ولذا ورد الثناء والمدح في الآيات والأخبار على نفس الألفة وانقطاع الوحشة، لا سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين. وورد الذم في التفرقة والتوحش، قال الله سبحانه في مقام الامتنان على المؤمنين بنعمة الألفة:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾^(١). وقال: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾: أي بنعمة الألفة. وقال سبحانه: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف». وهذا هو السرف في الترغيب على التسليم والمصافحة والمعانقة. قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بالله وبرسوله من بدأ بالسلام». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تغضبوا ولا تقبضوا، افشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام،

(١) الانفال، الآية: ٦٣.

(٢) آل عمران، الآية: ١٠٣.

تدخلوا الجنة بسلام». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله يحب إفشاء السلام». وقال عليه السلام: «من التواضع أن تسلم على من لقيت». وقال الصادق عليه السلام: «تصافحوا، فانها تذهب بالسخيمة». وقال: «مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة». وقال الباقر عليه السلام: «إن المؤمنين إذا التقيا فتصافحوا، أدخل الله تعالى يده بين أيديهما، وأقبل بوجهه على أشدهما حباً لصاحبه. فإذا أقبل الله تعالى بوجهه عليهما، تحانت عنهما الذنوب كما تحانت الورق من الشجر». وقال رسول الله ﷺ: «إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم وليصافحه، فإن الله تعالى أكرم بذلك الملائكة، فاصنعوا صنع الملائكة». وقال الصادق عليه السلام: «إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضاً من أغراض الدنيا، قيل لهما: مغفوراً لكما فاستأنفا، فإذا أقبلنا على الماء، قالت الملائكة بعضها لبعض: تنحوا عنهما، فإن لهما سرّاً وقد ستر الله عليهما»^(١).

ومنها:

قطع الرحم

وهو إيذاء ذوى اللحمة والقرابة، أو عدم مواساتهم بما ناله من الرفاهية والثروة والخيرات الدنيوية، مع احتياجهم اليه. وباعثه إما العداوة أو البخل والخسة، فهو من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، ولا ريب في كونه من أعم المهلكات المفسدة للدنيا والدين، قال الله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(٢).

(١) صححنا الاحاديث كلها على (الكافي): باب زيارة الاخوان، وباب المصافحة، وباب المعانقة. وعلى

(سفينة البحار): ٥٦٧/١.

(٢) الرعد، الآية: ٢٥.

وقال رسول الله ﷺ: «أبغض الأعمال إلى الله الشرك بالله، ثم قطيعة الرحم، ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف». وقال ﷺ: «لا تقطع رحمك وإن قطعتك». وقال تعالى: «أنا الرحمن، وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته». وقال ﷺ: «حافتا الصراط يوم القيامة الرحم والأمانة، فإذا مر الوصول للرحم المؤدى للأمانة نفذ إلى الجنة، وإذا مر الخائن للأمانة القطوع للرحم لم ينفعها معه عمل^(١) وتكفأ به الصراط في النار». وقال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة: «أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء»، فقام إليه عبدالله بن الكوى الشكري، فقال: يا أمير المؤمنين، أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: «نعم، وبلك! قطيعة الرحم. إن أهل البيت ليجتمعون ويتواسون وهم فجرة فيرزقهم الله، وإن أهل البيت ليتفرقون ويقطع بعضهم بعضاً فيحرمهم الله وهم اتقياء». وقال عليه السلام: «إذا قطعوا الأرحام، جعلت الأموال في أيدي الأشرار». وقال الباقر عليه السلام: «في كتاب علي - صلوات الله عليه -: ثلاث خصال لا يموت صاحبهن ابداً حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها. وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم. وإن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون فتنمى أموالهم ويثرون. وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها. وتنقل الرحم، وإن نقل الرحم انقطاع النسل». وقال عليه السلام: «اتقوا الحالقة^(٢)، فإنها تميت الرجال»، قيل: وما الحالقة؟ قال: «قطيعة الرحم». وجاء الرجل إليه، فشكى أقاربه، فقال له: اكظم وافعل»، فقال: انهم يفعلون ويفعلون، فقال: «أتريد أن تكون مثلهم فلا ينظر الله اليكم؟»^(٣). وكتب

(١) قال في (الوافي): لم ينفعها معه عمل، أي لم ينفع الخائن ولا القطوع مع الخيانة أو القطع عمل. وفي نسخة من (الكافي): لم ينفعها معها.

(٢) قال في (مجمع البحرين) - مادة حلق -: «وفي الحديث: اتقوا الحالقة. قال بعض الشارحين: الحالقة هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل موسى الشعر».

(٣) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب قطيعة الرحم، وباب صلة الرحم.

أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض عماله: «مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا»^(١)، وذلك لأن التجاور يورث التضاحم على الحقوق، وذلك ربما يورث التضاحد والتباغض وقطيعة الرحم، كما هو مشاهد في أكثر أبناء عصرنا، وليس الخبر كالمعاينة، وإذا لم يتجاوروا وتزاحمت^(٢) ديارهم، كان أقرب إلى التحابب، كما قيل بالفارسية: «دورى ودوستى»^(٣).

وصل

(ضد قطيعة الرحم: صلة الرحم)

وهو تشريك ذوى اللحمة والقربات بما ناله من المال والجاه وسائر خيرات الدنيا، وهو أعظم القربات وأفضل الطاعات، قال الله سبحانه:

﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَأَلْيَتَيْمَىٰ...﴾^(٤). وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٥). وقال: ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ - إِلَى قَوْلِهِ - أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَبَى الدَّارِ﴾^(٦).

وقال رسول الله ﷺ: «أوصى الشاهد من امتى والغائب، ومن فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، إلى يوم القيامة: أن يصل الرحم وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين». وقال ﷺ: «إن أعجل الخير ثواباً صلة الرحم». وقال: «من

(١) لم نعثر على مصدر لهذا الحديث.

(٢) كذا فى النسخ، والظاهر ان الصحيح «وتباعدت».

(٣) يعنى: التباعد معه التحابب.

(٤) النساء، الآية: ٣٦.

(٥) النساء، الآية: ١.

(٦) الرعد، الآية: ٢١، ٢٢.

سره النساء في الأجل، والزيادة في الرزق، فليصل رحمه». وقال ﷺ: «إن القوم ليكونون فجرة ولا يكونون بررة، فيصلون أرحامهم، فتنبى أعمالهم وتطول أعمارهم، فكيف إذا كانوا أبراراً بررة». وقال ﷺ: «الصدقة بعشرة، والقرض بثمانية عشر وصلة الاخوان بعشرين، وصلة الرحم بأربعة وعشرين». وقيل له ﷺ: «أى الناس افضل؟ فقال: اتقاهم الله، وأوصلهم للرحم، وأمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر». وقال ﷺ: «إن أهل البيت ليكونون فجاراً، تنمى أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم». وقال ﷺ: «أفضل الفضائل: أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن ظلمك». وقال ﷺ: «من سره أن يمد الله في عمره، وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه. فان الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق، تقول: يا رب، صل من وصلنى، واقطع من قطعنى. فالرجل ليرى بسبيل خير إذا أتته الرحم التي قطعها، فتهوى به إلى أسفل قعر في النار».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «صلوا أرحامكم ولو بالتسليم، يقول الله تعالى: واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً». وقال الباقر عليه السلام: «إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش، تقول: اللهم صل من وصلنى واقطع من قطعنى». هذا تمثيل للمعقول بالمحسوس، وإثبات لحق الرحم على أبلغ وجه، وتعلقها بالعرش كناية عن مطالبة حقها بمشهد من الله. وقال عليه السلام: «صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف، وتطيب النفس، وتزيد في الرزق، وتنسى في الأجل». وقال: «صلة الأرحام تزكى الأعمال، وتنمى الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسى في الأجل». وقال الصادق عليه السلام: «صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا باخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب». وقال عليه السلام: «صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهى منسأة في العمر، وتقى مصارع السوء». وقال عليه السلام: «صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال عليه السلام: «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل

يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة. ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين^(١). والأخبار الواردة في فضيلة صلة الرحم وعظم مثوباته أكثر من أن تحصى، وما ذكرناه كاف لتنبية الغافل.

تنبيه

(المراد بالرحم)

المراد بالرحم الذي يحرم قطعه وتجب صلته، ولو وهب له شيء لا يجوز الرجوع عنه، هو مطلق القريب المعروف بالنسب، وإن بعدت النسبة وجاز النكاح. والمراد بقطعه أن يؤذيه بالقول أو الفعل، أو كان له شدة احتياج إلى ما يقدر عليه زيادة على قدر حاجته، من سكنى وملبوس ومأكل فيمنعه، أو أمكنه أن يدفع عنه ظلم ظالم ولم يفعل، أو هاجره غيظاً وحقداً من دون أن يعود إذا مرض، أو يزوره إذا قدم من سفر وأمثال ذلك. فان جميع ذلك وأمثالها قطع للرحم. وأضدادها، من دفع الأذية، ومواساته بما له، وزيارته، وإعانتته باللسان واليد والرجل والجاه وغير ذلك، صلة.

ثم الظاهر تحقق الوساطة بين القطع والصلة، إذ كل احسان، ولو كان مما لا يحتاج إليه قريبه وهو محتاج إليه، يسمى صلة، وعدمه لا يسمى قطعاً. ومنها:

عقوق الوالدين

وهو أشد أنواع قطيعة الرحم، إذ أخص الأرحام وأمسها ما كان بالولادة،

(١) صححنا الأخبار هنا كلها على (اصول الكافي): باب صلة الرحم. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥١٤.

فيتضاعف تأكد الحق فيهما، فهو كقطيعة الرحم، إما يكون ناشئاً من الحقد والغيط، أو من البخل وحب الدنيا، فيكون من رذائل إحدى قوتى الغضب والشهوة. ثم جميع ما يدل على ذم قطيعة الرحم يدل على ذم العقوق، ولكونه أشد أنواع القطيعة وأفضعها، وردت في خصوص ذمه آيات وأخبار أخر كثيرة، كقوله تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِأَنفُسِكُمْ إِحْسَانًا. إِنَّمَا يَبْغَىٰ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا تَنْهَهِمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾^(١).

وقول رسول الله ﷺ: «كن باراً واقصر على الجنة، وإن كنت عاقاً فاقصر على النار». وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ في كلام له: إياكم وعقوق الوالدين، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام، ولا يجدها عاق، ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جار إزاره خيلاء. إنما الكبرياء لله رب العالمين». وقوله ﷺ: «من أصبح مسخطاً لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار». وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إن أبي عليه السلام نظر إلى رجل ومعه ابنه يمشى والأبن متكئ على ذراع الأب، فما كلمه أبي مقتاً له حتى فارق الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «من نظر إلى أبويه نظر ماقث، وهما ظالمان له، لم يقبل الله له صلاة». وقال الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة كشف غطاء من أغطية الجنة، فوجد ريحها من كانت له روح من مسيرة خمسمائة عام، إلا صنفاً واحداً، فقيل له: من هم؟ قال: «العاق لوالديه». وقال عليه السلام: «لو علم الله شيئاً هو أدنى من أف لنهى عنه، وهو أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما»^(٢). وسئل الكاظم عليه السلام: «عن الرجل يقول لبعض ولده: بأبى أنت وأمى! أو بأبوى أنت! أترى بذلك بأساً؟ فقال: «إن كان ابواه حيين فأرى ذلك عقوقاً، وإن كانا قد ماتا فلا بأس».

(١) الاسراء، الآية: ٢٣.

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي): باب العقوق. وعلى (مستدرک الوسائل): ٢ / ٦٣١.

كتاب النكاح. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح.

والأخبار في ذم العقوق أكثر من أن تحصى، وورد في بعض الأخبار القدسية: «بعزتي وجلالي وارتفاع مكاني! لو أن العاق لوالديه يعمل بأعمال الأنبياء جميعاً لم أقبلها منه». وروى أيضاً: «أن أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا، من رضى عنه والداه فانا منه راض، ومن سخط عليه والداه فانا عليه ساخط». وقد ورد عن رسول الله أنه قال: «كل المسلمين يروني يوم القيامة، إلا عاق الوالدين، وشارب الخمر، ومن سمع اسمي ولم يصل علي». وقد ثبت من الأخبار والتجربة، أن دعاء الوالد على ولده لا يرد ويستجاب ألبتة. ودلت الأخبار على أن من لا ترضى عنه أمه تشدد عليه سكرات الموت وعذاب القبر. وكفى للعقوق ذماً أنه ورد في الاسرائيليات: «أنه تعالى أوحى إلى موسى: أن من بر والديه وعقني كتبته براً، ومن برني وعق والديه كتبته عاقاً».

وصل

(بر الوالدين)

ضد العقوق (بر الوالدين) والاحسان اليهما، وهو أفضل القربات، وأشرف السعادات. ولذلك ورد ما ورد من الحث عليه، والترغيب اليه. قال الله سبحانه:

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١).

وقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله». وقال ﷺ: «من أصبح مرضياً لا بويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة». وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فقال:

(١) الاسراء، الآية: ٢٤.

(٢) النساء، الآية: ٣٦.

وعن ابي عبدالله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أبوك» وأتاه رجل آخر وقال: «إني رجل شاب نشيط، واحب الجهاد، ولي والدة تكره ذلك.» فقال له النبي صلى الله عليه وآله: أرجع فكن مع والدتك، فوالذي بعثنى بالحق! لأنسها بك ليلة خير من جهاد في سبيل الله سنة». وقال ابو عبدالله عليه السلام: «ان رسول الله صلى الله عليه وآله أتته اخت له من الرضاعة، فلما نظر اليها سر بها، وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت باخته ما لم تصنع به وهو رجل، فقال: لأنها كانت ابنة أبي الدخاين منه».

وقيل للصادق عليه السلام: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله». وقال له عليه السلام رجل: «إن أبى قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: إن استطعت أن تلى ذلك منه فافعل، ولقمه بيدك، فانه جنة لك غداً». وقال له عليه السلام رجل: «إن لي أبوين مخالفين. فقال: برهما كما تبر المسلمين ممن يتولانا». وقال رجل للرضا عليه السلام: «أدعو لو الذى إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حيين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله بعثنى بالرحمة لا بالعقوب». وقد وردت أخبار آخر في الأمر بالبر والاحسان إلى الوالدين، وإن كانا على خلاف الحق. وقال عليه السلام: «ما يمنع الرجل منكم أن يبر والديه حيين وميتين، ويصلى عنهما، ويتصدق عنهما، ويحج عنهما، ويصوم

عنهما، فيكون الذي صنع لهما وله مثل ذلك، فيزيده الله عز وجل ببره وصلاته خيراً كثيراً^(١).

والأخبار في ثواب بر الوالدين غير محصورة. فينبغي لكل مؤمن أن يكون شديد الاهتمام في تكريمهما وتعظيمهما واحترامهما، ولا يقصر في خدمتهما، ويحسن صحبتتهما، وألا يتركهما حتى يسألاه شيئاً مما يحتاجان إليه، بل يبادر إلى الاعطاء قبل أن يفتقرا إلى السؤال، كما ورد في الأخبار، وإن اضجره فلا يقل لهما أف، وإن ضرباه لا يعبس وجهه، وقال: غفر الله لكما، ولا يملأ عينيه من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا يرفع صوته فوق صوتهما، ولا يده فوق أيديهما، ولا يتقدم قدامهما، بل مهما أمكن له لا يجلس عندهما، وكلما بالغ في التذلل والتخضع كان أجره أزيد وثوابه أعظم.

وبالجملة: اطاعتهما واجبة وطلب رضاهما حتم، فليس للولد أن يرتكب شيئاً من المباحات والمستحبات بدون اذنهما، ولذا أفتى العلماء بأنه لا تجوز المسافرة في طلب العلم إلا باذنهما، إلا إذا كان في طلب علم الفرائض، من الصلاة والصوم واصول العقائد، ولم يكن في بلده من يعلمه، ولو كان في بلده من يعلمه لم تجز المسافرة. وقد روى: «أن رجلاً هاجر من اليمن إلى رسول الله ﷺ وأراد الجهاد، فقال له: ارجع إلى ابويك فاستأذنهما، فإن اذنا فجاهد، وإلا فبرهما ما استطعت، فإن ذلك خير مما كلف به بعد التوحيد». وجاء آخر إليه للجهاد، فقال: «ألك والد؟» قال: نعم! قال: «فالزمها، فإن الجنة تحت قدميها». وجاء آخر، وطلب البيعة على الهجرة إلى الجهاد، وقال: ما جئتك حتى ابكيك والدي. قال: «ارجع إليهما، فأضحكهما كما ابكيتهما». ولو وقعت بين الوالدين مخالفة، بحيث توقف رضى احدهما على سخط

(١) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي): باب بر الوالدين. وعلى (الوسائل): كتاب النكاح، أبواب أحكام العشرة، باب وجوب بر الوالدين، وباب وجوب بر الوالدين برين كانا أو فاجرين، وباب جملة من حقوق الوالدين. وعلى (المستدرک): ٢ / ٦٢٨. كتاب النكاح.

الأخر، فينبغي أن يجتهد في الإصلاح بينهما بأي طريق امكن، ولو بالعرض إلى فقيه البلد حتى يطلبهما ويعظهما ويقيمهما على الوفاق، لئلا ينكسر خاطر أحدهما منه. واعلم أن حق كبير الأخوة على صغيرهم عظيم، فينبغي محافظته. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده».

تذنيب

(حق الجوار)

حق الجوار قريب من حق الرحم، إذ الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه اخوة الاسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة، فمن قصر في حقه عداوة أو بخلًا فهو آثم. قال رسول الله ﷺ: «الجيران ثلاثة: فمنهم من له ثلاثة حقوق: حق الجوار، وحق الاسلام، وحق القرابة. ومنهم من له حقان: حق الاسلام وحق الجوار. ومنهم من له حق واحد: الكافر له حق الجوار». فانظر كيف اثبت للكافر حق الجوار. وقال ﷺ: «احسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً». وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذ جاره». وقال ﷺ: «لا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه». وقيل له ﷺ: «فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتتصدق، وتؤذى جاراها بلسانها». فقال ﷺ: لا خير فيها، هي من أهل النار». وعن علي عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ كتب بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من أهل يثرب: أن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم، وحرمة الجار على الجار كحرمة أمه، وقال الصادق عليه السلام: «حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار». وقال عليه السلام: «ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره». وقال عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع». وقال: «إن يعقوب عليه السلام لما ذهب عنه بنيامين، نادى: يارب أما ترحمنى، اذهب عيني واذهبت ابني؟ فأوحى الله تبارك وتعالى اليه: لو كنت امتهما لأحييتهما لك، اجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت،

وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً». وفي رواية أخرى: «فكان بعد ذلك يعقوب ينادى مناديه كل غداة ومساء من منزله على فرسخ: ألا من أراد الغداء أو العشاء فليأت إلى يعقوب!»^(١). وفي بعض الأخبار^(٢): «أن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة، ويقول: سل يا رب هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني؟».

تتميم

(حدود الجوار وحقه)

معرفة الجوار موكولة إلى العرف، فأى دار يطلق عليها الجار عرفاً يلزم مراعاة حقوق أهلها. والمستفاد من بعض الأخبار: أن كل اربعين داراً من كل واحد من الجوانب الأربعة جيران. ثم لا ينحصر حق الجار في مجرد كف الأذى، إذ ذلك يستحقه كل أحد، بل لا بد من الرفق واهداء الخير والمعروف، وتشريكه فيما يملكه ويحتاج إليه من المطاعم، كما ظهر من بعض الأخبار المتقدمة. وينبغي أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعود في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويصفح عن زلاته، ويستر ما اطلع عليه من عورات، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في صب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فناءه، ولا في المرور عن طريقه، ولا يمنعه ما يحتاج إليه من الماعون، ويغض بصره عن حرمة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ويتلطف لأولاده في كلمته، ويرشده إلى ما يصلحه من أمر دينه ودنياه، وإن استعان به في أمر أعانه، وإن استقرضه أقرضه، ولا يستطيل عليه بالبناء فيحجب عنه الريح، إلا باذنه، وإذا اشترى شيئاً من لذائذ المطاعم وظرفها فليهد له،

(١) صححنا الأحاديث هنا على (اصول الكافي): باب حسن الجوار. وعلى (المستدرک): ٢ / ٧٨ و ٧٩.

وعلى (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ٨٥ - ٨٨.

(٢) هذا كلام ذكره في (احياء العلوم): ٢ / ١٨٩ بعد قوله: «إذ يقال».

وإن لم يفعل فليدخلها بيته سراً، ولا يخرج بها أولاده حتى يطلع عليها بعض أولاد جاره، فيشتهيه وينكسر لذلك خاطره.

ومنها:

طلب العثرات

وتجسس العيوب والعورات وإظهارها. ولا ريب في كونه من نتائج العداوة والحسد، وربما حدث في القوة الشهوية رداءة توجب الاهتزاز والانبساط، من ظهور عيب بعض المسلمين، وإن لم يكن عداوة وحقدًا، كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدى المساويا
ومن تصفح الآيات والأخبار، يعلم أن من يتبع عيوب المسلمين ويظهرها بين الناس أسوأ الناس واخبثهم، قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(١). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «من أذاع فاحشة كان كمتبذنها، ومن غير مؤمناً بشيء، لم يمت حتى يرتكبه». وقال ﷺ: «كل امتى معافى، إلا المجاهرين»، والمجاهرة أن يعمل الرجل سوءاً فيخبر به. وقال ﷺ: «من استمع خبر قوم وهم له كارهون، صبت في أذنيه الآنك يوم القيامة». وعن أبى جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه! لا تتبعوا عثرات المسلمين، فانه من يتبع عثرات المسلمين يتبع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه». وقال الباقر عليه السلام: «من اقرب ما يكون العبد إلى الكفر ان يؤاخى الرجل الرجل على الدين، فيحصى عليه زلاته

(١) الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) النور، الآية: ١٩.

ليغيره بها يوماً ما». وقال الصادق عليه السلام: «من أنب مؤمناً أنبه الله عز وجل في الدنيا والآخرة». وقيل للصادق عليه السلام: «شيء يقوله الناس، عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال عليه السلام: ليس حيث تذهب، إنما عورة المؤمن أن يراه يتكلم بكلام يعاب عليه فيحفظه عليه ليعيره به يوماً إذا غضب». وقال الباقر عليه السلام: «قال رسول الله ﷺ: إن أسرع الخير ثواباً البر، وأسرع الشر عقوبة البغي. وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه، وأن يعير الناس بما لا يستطيع تركه، وأن يؤذى جليسه بما لا يعينه»^(١). والأخبار الواردة بأمثال هذه المضامين كثيرة.

وصل

(ستر العيوب)

ضد كشف العيوب سترها واخفاؤها، وهو من أعظم شعب النصيحة، ولا حد لثوابه، كما يستفاد من الأخبار الكثيرة. قال رسول الله ﷺ: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة». وقال عليه السلام: «لا يستر عبد عيب عبد إلا ستره الله يوم القيامة». وقال عليه السلام: «لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه، إلا دخل الجنة». وكفى بستر العيوب فضلاً أنه من أوصاف الله سبحانه، ومن شدة اعتنائه بستر الفواحش انطأ ثبوت الزنا - وهو أفحشها - بما لا يمكن اتفاهه إلا نادراً، وهو مشاهدة أربعة عدول كالميل في المكحلة. فانظر إلى أنه تعالى كيف اسبل الستر على العصاة من خلقه في الدنيا، بتضييق الطرق المؤدية إلى كشفه. ولا تظن أنك تحرم هذا الستر يوم تبلى السرائر، فقد ورد في الحديث: «أن الله تعالى إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها في الآخرة، وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها أخرى».

(١) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): باب من طلب عشرات المؤمنين وعوراتهم. وعلى

(الوسائل): أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٠. وعلى (المستدرک): ٢ / ١٠٤. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥

١٧٥ / ، باب تتبع عيوب الناس وافشائها.

وورد أيضاً: «أنه يأتى يوم القيامة بعد يبكى، فيقول الله سبحانه له: لم تبكى؟ فيقول: أبكى على ما سينكشف عني من عوراتى وعيوبى عند الناس والملائكة. فيقول الله: عبدى ما أفتضحك في الدنيا بكشف عيوبك وفواحشك، وأنت تعصينى وتضحك! فكيف أضحك اليوم بكشفها وأنت تعصينى وتبكى!». وفي خبر آخر: «أن رسول الله ﷺ يطلب يوم القيامة من الله سبحانه ألا يحاسب امته بحضرة من الملائكة والرسل وسائر الامم، لئلا تظهر عيوبهم عندهم، بل يحاسبهم بحيث لا يطلع على معاصيهم غيره سبحانه، وسواه ﷺ، فيقول الله سبحانه: يا حبيبى، أنا أراف بعبادى منك، فإذا كرهت كشف عيوبهم عند غيرك، فأنا أكره كشفها عندك أيضاً، فأحاسبهم وحدى بحيث لا يطلع على عثراتهم غيرى».

فإذا كانت عناية الله سبحانه في ستر عيوب العباد بهذه المثابة، فأنى لك أيها المسكين المبتلى بأنواع العيوب والمعاصى، تسعى في كشف عيوب عباد الله، مع أنك مثلهم في الاتصاف بأنواع العيوب والعثرات! وتأمل أنه لو أظهر أحد بعض فواحشك عند الناس كيف يكون حالك، فقس عليه حال غيرك ممن تكشف أنت بعض فواحشه. وقد ثبت ووضح من الأخبار والتجربة: أن من يفضح يفتضح. فيا حبيبى، ترحم على نفسك وتأس بربك، فاسبل الستر على عيوب غيرك.

ومنها:

افشاء السر

وإذا عتته، وهو اعم من كشف العيب. إذ السر قد يكون عيباً وقد لا يكون بعيب، ولكن في افشائه اizard واهانة بحق الأصدقاء أو غيرهم من المسلمين، وهو من رذائل قوة الغضب إن كان منشأه العداوة، ومن رذائل قوة الشهوة إن كان منشأه تصور نفع مالى، أو مجرد اهتزاز النفس بذلك لخبائثها، وهو مذموم منهي عنه. قال رسول الله ﷺ: «إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت، فهي أمانة». وقال ﷺ: «الحديث

بينكم أمانة». وورد: «أن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك». وقال عبدالله بن سنان للصادق عليه السلام: «عورة المؤمن على المؤمن حرام؟ فقال: نعم! قلت: يعني سفلته؟ قال: ليس حيث تذهب، إنما هو اذاعة سره»^(١).

فصل

(كتمان السر)

ضد إفشاء السر: كتمان، وهو من الأفعال المحمودة، وقد أمر به في الأخبار. قال رسول الله ﷺ: «طوبى لعبد نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم، تنجلي عنهم كل فتنة مظلمة، ليسوا بالمذاييع البذر، ولا الجفافة المرائين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لعبد نومة، لا يؤبه له، يعرف الناس ولا يعرفه الناس، يعرفه الله منه برضوان، أولئك مصابيح الهدى، تنجلي عنهم كل فتنة، ويفتح لهم باب كل رحمة، ليسوا بالبذر المذاييع، ولا الجفافة المرائين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «قولوا الخير تعرفوا به، واعملوا الخير تكونوا من أهله، ولا تكونوا عجلا مذاييع. فان خياركم الذين إذا نظر إليهم ذكر الله، وشراركم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبه، المبتغون للبراء المعاييب»^(٢).

تنبيه

(النميمة)

النميمة تطلق في الأكثر على أن ينم قول الغير إلى المقول فيه، كأن يقال: فلان تكلم فيك بكذا وكذا، أو فعل فيك كذا وكذا. وعلى هذا تكون نوعا خاصاً من إفشاء

(١) صححنا الأحاديث على البحار: ٤/ ١٧٥، باب تتبع عيوب الناس.

(٢) صححنا الأحاديث كلها على (البحار): ج ٤، باب فضل كتمان السر. وعلى (أصول الكافي):

باب كتمان السر، وباب الرواية على المؤمن.

السر وهتك السر، وهو الذي يتضمن فساداً أو سعاية. وقد تطلق على ما لا يختص بالمقول فيه، بل على كشف ما يكره كشفه، سواء كره المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول أو الكتابة أو بالرمز والایماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً على المنقول عنه أو لم يكن. وعلى هذا يكون مساومة لافشاء السر وهتك السر. وحينئذ فكل ما يرى من احوال الناس ولم يرضوا بافشاءه، فاذا عتته نميمة. فاللازم على كل مسلم أن يسكت عما يطلع عليه من أحوال غيره، إلا إذا كان في حكايته نفع لمسلم أو دفع لمعصية. كما إذا رأى أحداً يتناول مال غيره، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له، وأما إذا رآه يخفي ما لنفسه، فحكايته نميمة وافشاء للسر.

ثم الباعث على النميمة يكون غالباً ارادة السوء بالمحكي عنه، فيكون داخلاً تحت الايذاء، وربما كان باعته اظهار المحبة للمحكي له، أو التفريح بالحديث، أو الخوض في الفضول. وعلى أى تقدير، لا ريب في أن النميمة أرذل الأفعال القبيحة واشنعها. وما ورد في ذمها من الآيات والأخبار لا يحصى كثرة، قال الله سبحانه:

﴿هَمَزٌ مَشَاءٌ بِنَمِيمٍ. مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُغْتَدٍ أَثِيمٍ. عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٌ﴾^(١).

والزنيمة: هو ولد الزنا. فيستفاد من الآية: أن كل من يمشى بالنميمة فهو ولد الزنا. وقال سبحانه:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾^(٢): أى النمام المغتاب.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام». وفي خبر آخر: «لا يدخل الجنة قتات». أى النمام. وقال ﷺ: «أحبكم إلى الله أحسنكم أخلاقاً، الموطئون اكنافاً، الذين يألّفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى الله المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين

(١) القلم، الآية: ١١ - ١٣.

(٢) الهمزة، الآية: ١.

الأحبة، الملتمسون للبراء العثرات»^(١). وقال عليه السلام: «ألا انبئكم بشراكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعاييب»^(٢). وقال عليه السلام: «من اشار على مسلم كلمة ليشينه بها في الدنيا بغير حق، شأنه الله في النار يوم القيامة». وقال عليه السلام: «أيا رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها برىء ليشينه بها في الدنيا، كان حقاً على الله أن يدينه بها يوم القيامة في النار». وقال عليه السلام: «إن الله لما خلق الجنة قال لها: تكلمي، قالت: سعد من دخلني. قال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي! لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصر على الزنا، ولا قتات - وهو النمام -، ولا ديوث، ولا شرطي، ولا مخنث، ولا قاطع رحم، ولا الذي يقول علي عهد الله أن أفعل كذا وكذا ثم لم يف به». وقال الباقر عليه السلام: «الجنة محرمة على المغتابين المشائين بالنميمة». وقال عليه السلام: «يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دماً»^(٣)، فيدفع إليه شبه المحجمة أو فوق ذلك، فيقال له: هذا سهمك من دم فلان، فيقول: يا رب، انك لتعلم أنك قبضتني وما سفكت دماً، فيقول: بلى، سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه، فنقلت حتى صارت إلى فلان الجبار فقتله عليها، وهذا سهمك من دمه». وقال الصادق عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله

(١) صححنا الحديث على (المستدرک): ١١١ كتاب الحج.

(٢) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٦٤. وعلى (المستدرک):

١١٠ كتاب الحج. وعلى (اصول الكافي): باب النميمة.

(٣) قال في مجمع البحرين - مادة (ندا) -: «فلان ما ندا دماً ولا قتل قتلاً: أى ما سفك دماً». وقد كتبت كلمة

(ندا) في جميع ما وجدناه من الكتب بالالف، وعسى أن تكون بالياء هكذا (ندى) كرضى. واحتمل في

الوافي أن تكون (ندى) بتشديد الدال، وذكر احتمالات كثيرة، فراجع. وقد روى في (الوسائل) - كتاب

الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٦٣ - مثل هذا الحديث عن (الشيخ الطوسي)، وقد جاء فيه: «وما

ادمى دماً». أما الحديث المذكور هنا، فقد صححناه على (اصول الكافي) باب الاذاعة.

تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، ولا يقبله الشيطان»^(١). وروى: «أنه اصاب بنى اسرائيل قحط، فاستسقى موسى مرات، فما اجيب. فأوحى الله تعالى اليه: إني لا استجيب لك ولمن معك وفيكم نمام قد اصر على النميمة. فقال موسى: يا رب، من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا موسى، انهاكم عن النميمة واكون نماماً! فتابوا باجمعهم، فسقوا». وروى: «أن ثلث عذاب القبر من النميمة».

ومن عرف حقيقة النميمة، يعلم أن النمام شر الناس واخبثهم، كيف وهو لا ينفك من الكذب، والغيبة، والغدر، والخيانة، والغل، والحسد، والنفاق، والإفساد بين الناس، والخديعة. وقد قال الله سبحانه:

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

والنمام يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسد في الأرض. وقال الله:

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^(٣).

والنمام منهم.

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع» أي قاطع بين الناس، والنمام قاطع بينهم. وقال ﷺ: «شر الناس من اتقاه الناس لشره»: والنمام منهم، والنمام أعظم شراً من كل أحد.

نقل: أن رجلاً باع عبداً، فقال للمشتري: ما فيه عيب إلا النميمة، قال رضيت. فاشتراه، فكتم الغلام أياماً، ثم قال لزوجته مولاه: إن زوجك لا يحبك، وهو يريد أن يتسرى عليك، وأنا اسحره لك في شعره، فقالت: كيف اقدر على أخذ شعره؟ فقال: إذا نام فخذى موسى واحلقى من قفاه عند نومه شعرات. ثم قال للزوج: إن امرأتك

(١) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب احكام العشرة، الباب ١٥٧، وعلى (اصول

الكافي): باب الرواية على المؤمن.

(٢) البقرة، الآية: ٢٧.

(٣) الشورى، الآية: ٤٢.

اتخذت خليلاً وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف. فتناوم فجاءته المرأة بالموسى، فظن أنها تقتله، فقام وقتلها، فجاء أهلها وقتلوا الزوج، فوقع القتال بين القبيلتين، وطال الأمر بينهم.

ثم يلزم على من تحمل إليه النميمة ألا يصدق المنام، لأنه فاسق، والفاسق مردود الشهادة بقوله تعالى:

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾^(١).

وأن ينهأ عن ذلك، وينصحه ويقبح له فعله، لقوله تعالى:

﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢).

وأن يبغضه في الله، لكونه مبغوضاً عنده تعالى، وألا يظن بأخيه سوءاً بمجرد قوله، لقوله تعالى:

﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾^(٣).

وألا يحمل عمله على التجسس والبحث لتحقيق ما حكى له، لقوله تعالى: «ولا تجسسوا». وألا يرضى لنفسه ما نهى عنه المنام، فلا يحكى نميته، فيقول: فلان قد حكى كذا وكذا، فيكون به نماماً ومغتتاباً. وروى محمد بن فضيل عن الكاظم عليه السلام: «أنه قال له عليه السلام: «جعلت فداك! الرجل من اخواني يبلغني عنه الشيء الذي اكرهه، فاسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات. فقال لي: يا محمد، كذب سمعك وبصرك عن أخيك، فان شهد عندك خمسون قسامة، فقال لك قولا، فصدقه وكذبهم، ولا تديعن عليه شيئاً تشينه به وتهدم مروته، فتكون من الذين قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفُحْشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) الحجرات، الآية: ٦.

(٢) لقمان، الآية: ١٧.

(٣) الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) صححنا الحديث على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب احكام العشرة، الباب ١٥٧. والآية من سورة

وقدر روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أن رجلاً أتاه يسعى إليه برجل، فقال: يا هذا، نحن نسأل عمن قلت، فإن كنت صادقاً مقتنك، وإن كنت كاذباً عاقبتك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك. قال: اقلني يا أمير المؤمنين». ونقل: «أن رجلاً زار بعض الحكماء، واخبره بخبر عن غيره، فقال: قد ابطأت عني الزيارة، وبغضت إلي أختي، وشغلت قلبي الفارغ، واتهمت نفسك الأمانة».

تتمة

(السعاية)

السعاية هي النميمة، بشرط كون المحكى له من يخاف جانبه، كالسلاطين والأمراء والحكماء والرؤساء وأمثالهم، فهي أشد أنواع النميمة إثماً ومعصية، وهي أيضاً تكون من العداوة ومن حب المال وطمعه، فتكون من رداءة القوتين وخباثتهما. قال رسول الله ﷺ: «الساعي بالناس إلى الناس لغير رشده»: يعني ليس ولد حلال. وذكرت السعاة عند بعض الأكابر، فقال: ما ظنك بقوم يحمد الصدق من كل طبقة إلا منهم؟ ومنها:

الافساد بين الناس

وهو في الأكثر يحصل بالنميمة، وإن لم يوجب كل نميمة افساداً. ولا ريب في كونه من المهلكات المؤدية إلى النار، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إن فساد ذات البين هي الحالقة».

وصل

(الاصلاح)

وضده الاصلاح بين الناس، وهو أعظم أفراد النصيحة، ولا غاية لمثوبته عند الله. قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة اصلاح ذات البين». وقال ﷺ: «اتقوا الله واصلحوا ذات بينكم، فان الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة». وقال ﷺ: «ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً». وقال ﷺ: «كل الكذب مكتوب، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فان الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين ليصلح بينهما»... وقال الصادق عليه السلام: «صدقة يحبها الله تعالى اصلاح بين الناس إذا تفاسدوا، وتقارب بينهم إذا تباعدوا». وقال عليه السلام للمفضل: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة، فافتدها من مالي». وقال عليه السلام لابن عمار: «ابلع عنى كذا وكذا في اشيء أمر بها. فقال له ابن عمار: فابلغهم عنك، وأقول عنى ما قلت لي وغير الذي قلت؟ قال: نعم! إن المصلح ليس بكاذب». وقال عليه السلام: «المصلح ليس بكاذب»^(١): يعنى إذا تكلم بما لا يطابق الواقع فيما يتوقف عليه الاصلاح لم يعد كلامه كذباً. وهذا يدل على وجوب الاصلاح بين الناس، لأن ترك الكذب واجب، ولا يسقط الواجب إلا بواجب أكد منه.

ومنها:

(١) صححنا الاحاديث عن الصادق عليه السلام على (اصول الكافي): باب الاصلاح بين الناس وصححنا

النبيات على (كنز العمال): ١٤ / ٢، ١٢٨.

الشماتة

وهو إظهار أن ما حدث بغيره من البلية والمصيبة إنما هو من سوء فعله وإساءته، والغالب صدوره عن العداوة أو الحسد. وعلامته أن يكون مع فرح ومسرة، وربما صدر عن رداءة القوة الشهوية، بأن يهتز به ويميل إليه، مع جهله بمواقع القضاء والقدر، وإن لم يكن معه حقد وحسد. والتجربة والأخبار شاهدان على أن كل من شمت بمسلم في مصيبة لم يخرج من الدنيا حتى يتلى بمثلها ويشمت به غيره فيها. قال الصادق عليه السلام: «لا تبدى الشماتة لأخيك، فيرحمك الله ويحلها بك». وقال عليه السلام: «من شمت بمصيبة نزلت بأخيه، لم يخرج من الدنيا حتى يفتن»^(١). على أن كل بلية ومصيبة ترد على مسلم يمكن أن تكون كفارة لذنوبه باعثاً لرفع درجاته وأعلاه مرتبته في دار الآخرة.

والدليل على ذلك: أن أعظم البلايا والمصائب موكله بالأنبياء، ثم بالأولياء، ثم بالأئمة، فالأئمة في درجات الاعتلاء. ولا ريب في أن ورود المصائب والمحن عليهم ليس من سوء فعلهم وإساءتهم. فينبغي لكل عاقل أن يتأمل (أولاً) أن الشماتة بمسلم بمصيبة لا ينفك في الدنيا من ابتلائه بمثلها، (ثانياً) أنها إيذاء لأخيه المسلم، فلا ينفك عن العذاب في الآخرة، و(ثالثاً) أن نزول هذه المصيبة به لا يدل على سوء حاله عند الله، بل الأرجح دلالة على حسن حاله وتقربه عند الله سبحانه. فليحافظ على نفسه عن ابداء الشماتة لأحد من المسلمين، ويخوف من يراه من الشامتين عن عقوبة العاجل وعذاب الآجل.

ومنها:

(١) صححنا الحديثين على (أصول الكافي): باب الشماتة.

المراء والجدال والخصومة

إعلم أن المراء طعن في كلام الغير لاطهار خلل فيه، من غير غرض سوى تحقيره واهانتة، واطهار تفوقه وكياسته. والجدال مراء يتعلق باظهار المسائل الاعتقادية وتقريرها. والخصومة لجاج في الكلام لاستيفاء مال أو حق مقصود، وهذه تكون تارة ابتداءً وتارة اعتراضاً، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سبق، فالمراء داخل تحت الايذاء، ويكون ناشئاً من العداوة أو الحسد. وأما الجدال والخصومة، فربما صدرا من أحدهما أيضاً، وربما لم يصدرا منه.

وحينئذ، فالجدال إن كان بالحق - أي تعلق باثبات احدى العقائد الحقّة - وكان الغرض منه الارشاد والهداية، ولم يكن الخصم لدوداً عنوداً، فهو الجدال بالأحسن، وليس مذموماً، بل ممدوح معدود من الثبات في الايمان الذي هو من نتائج قوة المعرفة وكبر النفس، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

وإن لم يكن بالحق، فهو مذموم اقتضته العصبية أو حب الغلبة أو الطمع، فيكون من رذائل القوة الغضبية أو الشهوية، وربما أورث شكوكاً وشبهات تضعف العقيدة الحقّة، ولذا نهى الله سبحانه عنه وذمّ عليه، فقال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٢). وقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٣).

والخصومة أيضاً إن كانت بحق، أي كانت مما يتوقف عليه استيفاء مال أو حق ثابت، فهي ممدوحة معدودة من فضائل القوة الشهوية، وإن كانت بباطل، أي تعلق بما يدعيه كذباً أو بلا علم ويقين، فهي مذمومة معدودة من رذائلها. فالخصومة

(١) العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) الحج، الآية: ٨.

(٣) الانعام، الآية: ٦٨.

المذمومة تتناول المخاصمة فيما يعلم قطعاً عدم استحقاقه، وفيما لا علم له بالاستحقاق، كخصومة وكيل القاضى، فانه قبل أن يعرف أن الحق في أى جانب، يتوكل في الخصومة من أى جانب كان، ويخاصم من غير علم وإيقان، فمثله خبّاط العثرات وركاب الشبهات، يضر بالمسلمين بلا غرض، ويتحمل أوزار الغير بلا عوض، فهو أخسر الناس اعمالاً وأعظمهم في الآخرة أوزاراً ونكالاً. وتتناول أيضاً مخاصمة من يطلب حقه ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة، بل يظهر اللدد والعناد في الخصومة قصداً للتسلط والإيذاء، ومن يمزج بخصومته كلمة مؤذية لاحتاج إليها في اظهار الحق وبيان الحجة، ومن يحمله على الخصومة محض العناد بقهر الخصم وكسره مع استحقاقه لذلك القدر من المال، وربما صرح بأن قصدى العناد والغلبة عليه وكسر عرضه، وإذا أخذت منه هذا المال رميته، ولا أبالي، فمثله غرضه اللدد واللجاج.

فتنحصر الخصومة الجائزة بمخاصمة المظلوم الذي يطلب حقه وينصر حجته بطريق الشرع من غير قصد عناد وإيذاء، مع الاقتصار على قدر الحاجة في الخصومة من دون أن يتكلم بالزائد ولا بكلمات مؤذية، ففعله ليس بحرام وإن كان الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً، إذ ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر أو متعسر، لأنها توغر الصدر، وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب ذهب المتنازع فيه من البين، واشتد الحقد بين المتخاصمين حتى يحزن كل واحد بمسرة صاحبه ويفرح بمساءته. فالخصومة مبدأ كل شر، فينبغى ألا يفتح بابها إلا عند الضرورة على قدر الضرورة، ولا يتعدى عن الواجب، إذ أقل درجاتها تشوش خاطر، حتى أنه في الصلاة ليشغل بمخاصمة الخصم، ويتضمن الطعن والاعتراض، أى التجهل، والتكذيب، إذ من يخاصم غيره إما يجهله أو يكذبه، فيكون آتياً بسوء الكلام، ويفوت به ضده، أعنى طيب الكلام، مع ما ورد فيه من الثواب. وكذا الحال في المراء والجدال.

وبالجملة: المراء والجدال والخصومة، سوى ما استثنى، من ذمائم الأفعال ومبادئ أكثر الشرور والفتن، ولذا ورد بها الدم الشديد في الأخبار قال رسول الله ﷺ: «من جادل في خصومة بغير علم، لم يزل في سخط حتى ينزع». وقال ﷺ: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم». وقال ﷺ: «ما أتاني جبرئيل قط إلا وعظني، فأخر قوله لي: إياك ومشادة الناس، فانها تكشف العورة وتذهب بالعز». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إياكم والمراء والخصومة، فانهما يمرضان القلوب على الاخوان، وينبت عليهما النفاق». وقال علي بن الحسين عليه السلام: «ويل امة فاسقاً من لا يزال ممارياً! ويل امة فاجراً من لا يزال مخاصماً! ويل امة آثماً من كثر كلامه في غير ذات الله!». وقال الصادق عليه السلام: «لا تمارين حليماً ولا سفيهاً، فان الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك». وقال: «إياك والمشادة، فإنها تورث المعرة وتظهر العورة». وقال عليه السلام: «إياكم والخصومة، فانها تشغل القلب، وتورث النفاق، وتكسب الضغائن»^(١). فمن تأمل في ما يدل على ذمها وسوء عاقبتها عقلاً ونقلاً - فمع عدم ترتب فائدة عليها، وتذكر ما ورد في مدح تركها وفوائد ضدها، أغنى طيب الكلام - يسهل عليه ان يتركها ولا يحوم حولها.

تذنيب

(علاج المراء)

طريق المعالجة في إزالة المراء والجدال والخصومة: أن يعلم انها توجب التباغض والمباينة، وتزيل الإلفة والمحبة، وتقطع الإلتيام والوحدة. ولا ريب في أن قوام النظام الأصلح بالإلتيام والوحدة، كما اقتضته العناية الإلهية والحكمة الازلية،

(١) صححنا الأحاديث على (الكافي): باب المراء والخصومة. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، ابواب

احكام العشرة، الباب ١٣٥ و١٣٦. وعلى (احياء العلوم): ٢: ١٠٢.

والمباينة الراجعة إلى الكثرة ينافيهما، ولا ينبغي للعاقل أن يرتكب ما يضاد فعل الله وحكمته. وهذا هو العلاج العلمي، وأما العملي، فليواظب على ضد هذه الثلاثة، أعني طيب الكلام، ويكلف نفسه عليه، حتى يصير ملكة له وترفع اضدادها عنه بالمرة.

وصل

(طيب الكلام)

قد أشير إلى أن ضد الرذائل الثلاث طيب الكلام، وما ورد في مدحه وفي ثواب تركها أكثر من أن يحصى. قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لقي الله تعالى بهن دخل الجنة من أى باب شاء: من حسن خلقه، وخشى الله في المغيب والمحضر، وترك المراء وإن كان محققاً». وقال ﷺ: «يمكنكم من الجنة طيب الكلام واطعام الطعام». وقال ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام». وقال ﷺ: «الكلمة الطيبة صدقة». وروي: «أن عيسى عليه السلام مر به خنزير. فقال: مر بسلامة. ف قيل له: يا روح الله، تقول هذا للخنزير! فقال: اكره أن اعود لسانى الشر». وقال بعض الحكماء: «الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح».

ومنها:

السخرية والاستهزاء

وهو محاكاة أقوال الناس أو أفعالهم أو صفاتهم وخلقهم، قولاً وفعلاً، أو إيماءً وإشارة، على وجه يضحك منه. وهو لا ينفك عن الإيذاء والتحقير والتنبية على العيوب والنقائص. وإن لم يكن ذلك بحضرة المستهزأ به، فيتضمن الغيبة أيضاً. وباعثه إما العداوة أو التكبر واستصغار المستهزأ به، فيكون من رذائل القوة الغضبية،

أو قصد ضحك الأغنياء وتنشيط قلوبهم، طمعاً في بعض أوساخهم الملوثة، وأخذ النبذ من حطامهم المحرمة، ولا ريب في انه صفة من لاحظ له في الدين، وشيمة اراذل احزاب الشياطين، لأنهم يظهرون أكاذيب الأقوال ويرتكبون أعاجيب الأفعال، يخلعون قلائد الحرية عن الرقاب، ويهتكون استار الحياء بمرأى من أولى الألباب، يبتغون عيوب المؤمنين وعوراتهم، ويظهرون نقائص المسلمين وعثراتهم، يقلدون أفعال الأخيار على وجه يضحك الاشرار، ويحاكون صفات الأبرار على أفضح الوجوه في الأنظار. ولا ريب في أن المرتكب لهذه الأفعال بعيد عن الانسانية بمراحل، ومستوجب لعقوبة العاجل وعذاب الآجل، ولا يخلو ساعة عن الصغار والهوان، ولا وقع له في قلوب أهل الايمان، وكفاه ذمًا انه جعل تلك المعاصي الخبيثة وسيلة لتحصيل المال أو الواقع في قلوب ابناء الدنيا، ويلزمه عدم اعتقاده بأن الله سبحانه هو المتكفل لأرزاق العباد.

والطريق في دفعه - بعد التأمل في سوء عاقبته، ووخامة خاتمته، وفيما يلزمه من الذلة والهوان في الدنيا - أن يبادر إلى ازالة العداوة والتكبر إن كان باعته ذلك، وإن كان باعته تنشيط قلوب أهل الدنيا طمعاً في مالهم، فليعلم أن لكل نفس ما قدر لها من الأموال والأرزاق، يصل إليها من الله سبحانه ألبتة، فان من يتق الله ويتوكل عليه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكون في الآخرة سعيداً، وإن أغواه الشيطان وحته على تحصيلها من المداخل الخبيثة، لم يصل إليه أكثر مما قدر له، وكان في الآخرة شقياً.

وليعلم أيضاً أن المتوكل على الله والمتصف بالحرية، لا يبذل التوكل والحرية بهذه الأفعال لأجل الوصول إلى بعض خبائث الأموال، فليعاتب نفسه ويزجرها بالمواعظ والنصائح، ويتذكر ما ورد في الشريعة من ذم المستهزين وتعذيبهم يوم القيامة بصورة الاستهزاء، قال الله جل شأنه:

﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾^(١).

وقال ﷺ: «إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة، فيقال: هلم هلم! فيجىء بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر، فيقال: هلم هلم! فيجىء بكربه وغمه، فإذا أتى أغلق دونه. فما يزال كذلك، حتى يفتح له الباب، فيقال له: هلم هلم! فما يأتيه». وقال ابن عباس في قوله تعالى:

﴿يَوَلِّتَنَّا مَا هَذَا﴾ الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا^(٢):

«الصغيرة: التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة: القهقهة بذلك». وفيه إشارة إلى أن الضحك على الناس من الجرائم العظيمة.

ثم جميع ما ذكر إنما هو في حق من يؤذى الناس ويهينهم باستهزائه وسخريته، وأما من جعل نفسه مسخرة ويسر بأن يهزل ويسخر به، وإن كان هو ظالماً لنفسه خارجاً عن شعار المؤمنين، حيث أهان نفسه وأذلها، إلا أن سخرية الغير به من جملة المزاح، ويأتي ما يذم منه وما يحمده، وإنما المحرم منه ما يؤدي إلى ائذائه وتحقيره: بأن يضحك على كلامه إذا يخطو ولم ينتظم، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة، أو على صورته وخلقه إذا كان قصيراً أو طويلاً أو ناقصاً بعيب من العيوب. فالضحك على جملة ذلك داخل في السخرية المنهى عنها.

وطريق علاجه - بعد تذكر ما تقدم - أن استهزاءه يوجب خزي نفسه يوم القيامة عند الله وعند الملائكة والنبين وعند الناس أجمعين، فلو تفكر في حسرته وحيائه وخجله وخزيه يوم يحمل سيئات من استهزأ به ويساق إلى النار، لأدهشه ذلك عن إخزاء غيره، ولو عرف حقيقة حاله يوم القيامة، لكان الأولى له أن يضحك على نفسه تارة ويبكى عليها أخرى، لانه باستهزائه به عند بعض أراذل الناس عرض نفسه لان

(١) الحجرات، الآية: ١١.

(٢) الكهف، الآية: ٤٩.

يأخذ بيده ذلك الغير يوم القيامة على ملاء من الناس ويسوقه تحت الشياطين، كما يساق الحمار، إلى النار، مستهزئاً به، مسروراً بخزيه وتمكين الله تعالى إياه على الانتقام منه. فمن تأمل في ذلك، ولم يكن عدواً لنفسه، اجتنب عن السخرية والاستهزاء كل الاجتناب.
ومنها:

المزاح

وأصله مذموم منهى عنه، وسببه إما خفة في النفس، فيكون من رذائل القوة الغضبية، أو ميل النفس وشهوتها إليه، أو تطيب خاطر بعض أهل الدنيا طمعاً في ما لهم، فيكون من رذائل القوة الشهوية. وسبب الذم فيه: أنه يسقط المهابة والوقار، وربما أدى إلى التباغض والوحشة والضعينة، وربما انجر إلى الهزل والاستهزاء، وادخل صاحبه في جملة المستهزأ بهم، وربما صار باعثاً لظهور العداوة - كما قيل - وربما جرّ إلى اللعب، قال رسول الله ﷺ: «لا تمار أخاك، ولا تمازحه»، وقال بعض الأكابر لابنه: «يا بني، لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدني فيجتري عليك»، وقال آخر: «أياكم والممازحة، فإنها تورث الضعينة وتجر إلى القطيعة». وقال آخر: «المزاح مسلبة للبهاء، ومقطعة للاصدقاء».

وقيل: «لكل شئ بذر، وبذر العداوة المزاح». ومن مفاصد المزاح: أنه سبب للضحك، وهو منهى عنه. قال الله تعالى:
﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾^(١)

وقال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيضحك بها جلساءه، يهوى بها أبعد من الثريا»، وقال: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً»، وهو

يدل على أن الضحك علامة الغفلة عن الآخرة. وقال بعض: «من كثر ضحكته قلت هيئته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه». وخاطب عارف نفسه وقال: «أتضحك ولعل اكفانك قد خرجت من عند القصار؟!». وقال رجل لأخيه: «يا أخى، هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم! قال: وهل أتاك أنك خارج منها؟ فقال: لا، قال: فقيم الضحك؟ فما رثى بعد ذلك ضاحكا حتى مات». ونظر بعضهم إلى قوم يضحكون في يوم الفطر، فقال: «إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكين، وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين».

ثم المذموم من الضحك هو القهقهة، والتبسم الذي ينكشف فيه السن ولا يسمع الصوت ليس مذموماً، بل محمود لفعل النبي ﷺ^(١).

تذنيب

(المذموم من المزاح)

الحق أن المذموم من المزاح هو الإفراط فيه والمداومة عليه، أو ما يؤدي إلى الكذب والغيبة وأمثالهما، ويخرج صاحبه عن الحق. وأما القليل الذي يوجب انبساط خاطر وطيبة قلب، ولا يتضمن إيذاءً ولا كذباً ولا باطلاً، فليس مذموماً، لقول رسول الله ﷺ: «إنى لأمزح ولا أقول إلا حقاً». ولما روي: «أنهم قالوا له ﷺ: يا رسول الله، انك تداعبنا! فقال: إنى وإن داعبتكم، فلا أقول إلا حقاً». ولما روت العامة: «أنه ﷺ كان كثير التبسم، وكان أفكه الناس». وورد: «أن رسول الله ﷺ كسا ذات يوم واحدة من نسائه ثوباً واسعاً، وقال لها: إلبسيه واحمدى، وجرى منه ذيل كذيل العروس». وقال ﷺ: «لا تدخل الجنة عجوز. فبكت العجوز. فقال: إنك لست يومئذ

(١) راجع اخبار المزاح والضحك والتبسم: كتاب (الوسائل): الباب ٨٠ - ٨٤ من ابواب احكام العشرة، والظاهر ان المؤلف لم يرجع إلى اخبارنا التي فيها غنى عن النقل عن اناس مجهولين.

بعجوز». وجاءت امرأة إليه، وقالت: «إن زوجي يدعوك. فقال ﷺ: زوجك هو الذي بعينه بياض؟ قالت: والله ما بعينه بياض! فقال: بلى، إن بعينه بياضاً. فقالت: لا والله! فقال: ما من أحد إلا بعينه بياض». وأراد به البياض المحيط بالحدقة. وجاءته امرأة أخرى، وقالت: «احملني يا رسول الله على بعير. فقال: بل نحملك على ابن البعير. فقالت: ما اصنع به، أنه لا يحملني، فقال ﷺ: هل من بعير إلا وهو ابن بعير؟». وكان ﷺ يدلح لسانه للحسين عليه السلام، فيرى لسانه فيهب له. وقال لصهيب - وبه رمد وهو يأكل التمر -: «أأكل التمر وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخر. فتبسم رسول الله حتى بدت نواجذه». وروي: «أن خوات ابن جبير كان جالساً إلى نسوة من بنى كعب بطريق مكة، وكان ذلك قبل اسلامه، فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال له: ما لك مع النسوة؟ قال: يفتلن صغيراً لجمل لي شرود. فمضى رسول الله لحاجته ثم عاد، فقال: يا أبا عبدالله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قال: فسكت واستحييت، وكنت بعد ذلك استخفى منه حياء، حتى اسلمت وقدمت المدينة، فاطلع علي يوماً وأنا أصلي في المسجد، فجلس الي، فطولت الصلاة، فقال: لا تطول فاني انتظرك، فلما فرغت قال: يا أبا عبدالله، أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد؟ قلت: والذي بعثك بالحق نبياً! ما شرد منذ أسلمت! فقال: الله اكبر الله اكبر، اللهم اهد أبا عبدالله. فحسن اسلامه». وكان نعيمان الأنصاري، رجلاً مزاحاً، فإذا دخل المدينة شىء نفيس من اللباس أو المطاعم اشترى منه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ ويقول: هذا أهديته لك. فإذا جاء صاحبه يطالبه بثمنه، جاء به إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، اعطه ثمن متاعه، فيقول له النبي ﷺ: «أو لم تهده لنا؟» فيقول: لم يكن عندي والله ثمنه، وأحببت أن تأكل منه، فيتبسم رسول الله ويأمر لصاحبه بثمنه. وأمثال هذه المطايا مروية عن رسول الله ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام واكثرها منقولة مع النسوان والصبيان، وكان ذلك معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل ولا كذب ولا باطل، وكان صدور ذلك عنهم أحياناً وعلى الندرة، ومثلهم كانوا يقدرون على المزاح مع عدم

خروجهم عن الحق والاعتدال، وأما غيرهم فإذا فتح باب المزاح فربما وقع في الافراط والباطل. فالأولى لامثالنا تركه مطلقاً.
ومنها:

الغيبة

وهي أن يذكر الغير بما يكرهه لو بلغه، سواء كان ذلك بنقص في بدنه أو في اخلاقه أو في أقواله، أو في أفعاله المتعلقة بدينه أو دنياه، بل وإن كان بنقص في ثوبه أو داره أو دابته.

والدليل على هذا التعميم - بعد إجماع الامة على أن من ذكر غيره بما يكرهه إذا سمعه فهو مغتاب - ما روى عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «هل تدري ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره»، قيل له: أرايت ان كان في أخى ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته». وما روى: «انه ذكر رجل عنده، فقالوا: ما أعجزه! فقال ﷺ: اغتبتم أخاكم، قالوا: يا رسول الله، قلنا ما فيه. قال: إن قلت ما ليس فيه فقد بهتموه». وما روى عن عائشة قالت: «دخلت علينا امرأة، فلما ولت، أو مات بيدي انها قصيرة، فقال ﷺ: اغتبته». وما روى انها قالت: «إني قلت لامرأة مرة وأنا عند النبي ﷺ: إن هذه لطويلة الذيل. فقال لي: الفظي الفظي! فلفظت مضغة لحم». وقد روى: «أن أحد الشيخين قال للآخر: إن فلاناً لنؤم، ثم طلبا أدماً من رسول الله ﷺ ليأكلاه به الخبز. فقال ﷺ: قد ائتمدتما. فقالا: ما نعلمه، فقال بلى! إنكما اكلتما من لحم صاحبكما».

وأما ما روى عن الصادق عليه السلام انه قال: «صفة الغيبة أن تذكر أحداً بما ليس هو عند الله بعيب ويذم ما يحمده أهل العلم فيه. وأما الخوض في ذكر الغائب بما هو عند الله مذموم وصاحبه فيه ملوم، فليس بغيبة، وإن كره صاحبه إذا سمع به وكنت أنت معافي عنه وخالياً منه، وتكون في ذلك مبيناً للحق من الباطل ببيان الله ورسوله،

ولكن على شرط ألا يكون للقاتل بذلك مراد غير بيان الحق والباطل في دين الله عز وجل، وأما إذا أراد به نقص المذكور بغير ذلك المعنى، فهو مأخوذ بفساد مراده وإن كان صواباً^(١) فهو مخصوص بما إذا لم يكن صاحبه عالماً بقبحه، أو كان ساتراً على نفسه كارهاً لظهوره. ويدل على ذلك ما روى عنه عليه السلام أيضاً، أنه سئل عن الغيبة، فقال: «هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل، وثبت عليه أمراً قد ستره الله عليه لم يقم فيه حد». وقال عليه السلام: «الغيبة أن تقول في أخيك ما ستره الله عليه، وأما الأمر الظاهر فيه، مثل الحدة والعجلة، فلا». وقال الكاظم عليه السلام: «من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه مما عرفه الناس، لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه مما لا يعرفه الناس، اغتابه ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته»^(٢). ويأتى أن المجاهر بمعصيته غير ساتر لها، لا غيبة له فيها.

والحاصل: أن الإجماع والأخبار متطابقان على أن حقيقة الغيبة هو أن يذكر الغير بما يكرهه إذا سمعه، سواء كان ذلك بنقص في نفسه أو بدنه، أو في دينه أو دنياه، أو فيما يتعلق به من الأشياء، وربما قيل أنه لا غيبة فيما يتعلق بالدين، لأنه ذم من ذمه الله ورسوله، فذكره بالمعاصي وذمه جائز. وأيد ذلك بما روى: «أنه ذكر عند رسول الله امرأة وكثرة صومها وصلاتها ولكنها تؤذى جيرانها. فقال: هي في النار». وذكرت امرأة أخرى بأنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذن؟». ولا ريب في بطلان هذا القول، لما عرفت من عموم الأدلة. وما ورد من ذم الأشخاص المعينة في كلام الله

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٩. وقد تقدم الشك في صحة (مصباح الشريعة) في الجزء الأول.

(٢) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل): كتاب الحج، أبواب أحكام العشرة، الباب ١٥٤، وعلى (أصول الكافي): باب الغيبة والبهت. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٨٤ باب الغيبة، وقال في الموضوع المذكور عن الحديث الأول: «الغيبة هو أن تقول»: الضمير للغيبة، وتذكيره بتأويل الاغتيا ب أو باعتبار الخبر.

وكلام حججه إنما هو لتعريف الأحكام وتبيينها، وسؤال الأصحاب عنهم وذكرهم بالمعاصي، إنما كان لحاجتهم إلى معرفة الأحكام، لا للذم واطهار العيب، ولذا لم يكن ذلك إلا في مجلس الرسول ﷺ أو الأئمة عليهم السلام.

فصل

(لا تنحصر الغيبة باللسان)

اعلم أن الغيبة لا تنحصر باللسان، بل كل ما يفهم نقصان الغير، ويعرف ما يكرهه فهو غيبة، سواء كان بالقول أو الفعل، أو التصريح أو التعريض، أو بالإشارة والإيماء، أو بالغمز والرمز، أو بالكتابة والحركة ولا ريب في أن الذكر باللسان غيبة محرمة، لتفهمه الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، لا لكون المفهم والمعرف لساناً، فكل ما كان مفهماً ومعرفاً فهو مثله.

فالغيبة تتحقق باظهار النقص بالفعل والمحاكاة، كمشية الأعرج، بل هو أشد من الغيبة باللسان، لأنه أعظم في التصوير والتفهم منه، وبالإيماء والإشارة، وقد روى: «أنه دخلت امرأة على عائشة، فلما ولت، أو مات بيدها أنها قصيرة. فقال رسول الله ﷺ: «قد اغتبتها».

وبالكتابة، إذ القلم أحد اللسانين، وبالتعريض، كأن يقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، والتبذل في طلب الجاه والمال، أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، ونسأله أن يعصمنا منه، معرضاً في كل ذلك بمن ارتكب ذلك، فيذكره بصيغة الدعاء. وربما قدم مدح من يرد غيبته، ثم اتبعه باظهار عيبه، كأن يقول: لقد كان فلان حسن الحال، ولكنه ابتلى بما ابتلى به كلنا من سوء الحال، وهو جمع بين الرياء والغيبة، ومدح نفسه بالتشبه بالصلحاء في ذم انفسهم.

ومن المغتابين المنافقين من يظهر في مقام غيبة مسلم الاغتمام والحزن من سوء حاله، كأن يقول: لقد ساءنى ما جرى على صديقنا فلان من الاهانة

والاستخفاف، أو ارتكابه معصية كذا، فنسأل الله ان يجعله مكرماً أو يصلح حاله، أو يقول: قد ابتلى ذلك المسكين بأفة عظيمة. تاب الله علينا وعليه. وهو كاذب في ادعائه الحزن والكآبة، وفي اظهار الدعاء، إذ لو اغتم لأغتم باظهار ما يكرهه أيضاً، ولو قصد الدعاء لأخفاه في خلواته، فاظهار الحزن والدعاء ناش عن خبث سريره، وهو يظن أنه ناش عن صفاء طويته. هكذا يلعب الشيطان بمن ليس له قوة البصيرة بمكائد اللعين وتلبساته، فيسخر بهم ويضحك عليهم، ويحبط أعمالهم بمكائده، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا. وربما ذكر بعض المغتابين عيب مسلم ولم ينتبه له بعض الحاضرين، فيقول اسماعاً له واعلاماً لما يقوله: «سبحان الله ما أعجب هذا!» حتى يتوجه إليه ويعلم ما يريد، فيستعمل اسم الله آلة لتحقيق خبثه.

ثم المستمع للغيبة أحد المغتابين، كما ورد به الخبر^(١). وقد دل على ذلك أيضاً ما تقدم من حديث الشيخين، وما روى: «أنه ﷺ لما رجم ما عزأ في الزنا، قال رجل لآخر: هذا أقعص كما يقعص الكلب. فمر النبي ﷺ معهما بجيفة، فقال: انهشا من هذه الجيفة. فقالا: يا رسول الله، نهش جيفة! فقال: ما أصبتما من أخيكما أنتن من هذه». فجمع بينهما، مع ان أحدهما كان قائلاً والآخر مستمعاً.

وهو إما لا يسر باستماعها، إلا أنه لا ينكرها باللسان ولا يكرهها بالقلب، أو يسر ويفرح باستماعها، إلا أن النفاق والتزهد حملاه على عدم التصديق، وربما منع منها رياء وتزهداً، مع كونه مشتتاً لها بقلبه، وربما توصل بالحيل المرغبة للمغتاب في زيادة الغيبة، مع التباس الأمر عليه بأنه يشتهيها، مثل أن يظهر التعجب ويقول: عجبت منه ما علمت أنه كذلك، وما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا عافانا الله من بلائه. فان ذلك تصديق للمغتاب، وباعث لزيادة نشاطه في

(١) اشارة إلى ما رواه الشيخ ابو الفتوح الرازى في تفسيره، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المستمع أحد المغتابين». والى قول أمير المؤمنين عليه السلام: «السامع للغيبة أحد المغتابين». (بحار الانوار): ٤ مج

الغيبة، فكأنه يستخرج منه الغيبة بهذا الطريق.

والحاصل: أن المستمع لا يخرج عن اثم الغيبة إلا بأن ينكر بلسانه، أو يقطع الكلام بكلام آخر، أو يقوم من المجلس، وإن لم يقدر على شيء من ذلك، فلينكر بقلبه، وإن قال بلسانه: اسكت، وهو يشتهي بقلبه فذلك نفاق، ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه. ومع عدم الخوف لا يكفي أن يشير باليد أو حاجبه أو جبينه، أي اسكت، إذ ذلك استحقاق للمذكور، مع أنه ينبغي أن يعظمه فيذب عنه صريحاً. قال النبي ﷺ: «من أذل عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينتصر له فلم ينصره، أذله الله يوم القيامة على رؤس الخلائق». وقال: «من رد عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة». وقال ﷺ: «من ذب عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقاً على الله أن يعتقه من النار». وقال ﷺ: «من رد عن عرض أخيه، كان له حجاباً من النار». وقال ﷺ: «ما من رجل ذكر عنده أخوه المسلم، وهو يستطيع نصره ولو بكلمة ولم ينصره، إلا أذله الله عز وجل في الدنيا والآخرة. ومن ذكر عنده أخوه المسلم فنصره، نصره الله في الدنيا والآخرة». وقال ﷺ: «من حمى عرض أخيه المسلم في الدنيا، بعث الله له ملكاً يحميه يوم القيامة من النار». وقال ﷺ: «من تطول على أخيه في غيبته، سمعها عنه في مجلس فردها، رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة، وإن لم يردّها وهو قادر على ردّها، كان عليه كوز من اغتابه سبعين مرة»، وقال الباقر عليه السلام: «من اغتاب عنده أخوه المؤمن فنصره وأعان، نصره الله في الدنيا والآخرة، ومن لم ينصره ولم يدفع عنه وهو يقدر على نصرته وعونه، إلا خفضه الله في الدنيا والآخرة». وبهذه المضامين أخبار كثيرة آخر.

فصل

(بواعث الغيبة)

اعلم أن باعث الغيبة - غالباً - إما الغضب أو الحقد أو الحسد، فيكون من نتائجها، ومن رذائل قوة الغضب، وله بواعث آخر:

الأول - السخرية والاستهزاء : فإن ذلك كما يجرى في الحضور يجرى في الغيبة ايضاً، وقد عرفت ان منشأهما ماذا.

الثاني - اللعب والهزل والمطايبة : فيذكر غيره بما يضحك الناس عليه على سبيل التعجب والمحاكاة. ويأتى ان باعث الهزل والمزاح ماذا، وانه متعلق بالقوة الشهوية.

الثالث - ارادة الافتخار والمباهاة : بأن يرفع نفسه بتنقيص غيره، فيقول: فلان لا يعلم شيئاً. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه وأنه أفضل منه. وظاهر أن منشأ ذلك التكبر أو الحسد، فيكون ايضاً من رذائل القوة الغضبية.

الرابع - ان ينسب إلى شيء من القبائح، فيريد أن يتبرأ منه بذكر الذي فعله، وكان اللازم عليه أن يبرىء نفسه منه، ولا يتعرض للغير الذي فعله، وقد يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل، ليتهمد بذلك عذر نفسه في فعله، وربما كان منشأ ذلك صغر النفس وخبثها.

الخامس - مرافقة الأقران ومساعدتهم على الكلام، حذراً عن تنفرهم واستثقالهم إياه لولاه، فيساعدتهم على اظهار عيوب المسلمين وذكر مساوئهم، ظناً منه أنه مجاملة في الصحبة، فيهلك معهم. وباعث ذلك ايضاً صغر النفس وضعفها.

السادس - أن يستشعر من رجل أنه سيذكر مساوئيه، أو يقبح حاله عند محتشم، أو يشهد عليه بشهادة، فيبادره قبل ذلك باظهار عداوته، أو تقبيح حاله، ليسقط أثر كلامه وشهادته. وربما ذكره بما هو فيه قطعاً، بحيث ثبت ذلك عند السامعين ليكذب عليه بعده، فيروج كذبه بالصدق الأول، ويستشهد به ويقول: ليس الكذب من

عادتي، فاني اخبرتك قبل ذلك من أحواله كذا وكذا، فكان كما قلت، فهذا أيضاً صدق كسابقه. وهذا أيضاً منشأ الجبن وضعف النفس.

السابع - الرحمة، وهو أن يحزن ويغتم بسبب ما ابتلى به غيره، فيقول: المسكين فلان قد غمى ما ارتكبه من القبح، أو ما حدث به من الاهانة والاستخفاف! فيكون صادقاً في اغتمامه، إلا انه لما ذكر اسمه وظهر عييه صار مغتاباً، وقد كان له الاغتمام بدون ذكر اسمه وعييه ممكناً، فواقعه الشيطان فيه ليبطل ثواب حزنه ورحمته.

الثامن - التعجب من صدور المنكر والغضب لله عليه، بأن يرى منكراً من انسان أو سمعه، فيقول عند جماعة: ما اعجب من فلان أن يتعارف مثل هذا المنكر! أو يغضب منه، فيظهر غضبه واسمه ومنكره، فانه وإن كان صادقاً في تعجبه من المنكر وغضبه عليه، لكن كان اللازم ان يتعجب منه ويغضب عليه، ولكنه لا يظهر اسمه عند من لم يطلع على ما صدر منه المنكر، بل يظهر غضبه عليه بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف من غير أن يظهره لغيره، فلما أوقعه الشيطان في ذكره بالسوء صار مغتاباً، وبطل ثواب تعجبه وغضبه، وصار آثماً من حيث لا يدري.

وهذه الثلاثة الأخيرة مما يغمض دركها، لأن اكثر الناس يظنون أن الرحمة والتعجب والغضب إذا كان لله كان عذراً في ذكر الاسم، وهو خطأ محض، إذ المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة، لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم دون غيرها، وقد روى: «أن رجلاً مر على قوم في عصر النبي ﷺ فلما جاوزهم، قال رجل منهم: إني أبغض هذا الرجل لله، فقال القوم: والله لبئس ما قلت! وإنا نخبره بذلك، فاخبروه به، فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال، وسأله أن يدعوه. فدعاه، وسأله عما قال في حقه، فقال: نعم! قد قلت ذلك. فقال رسول الله ﷺ: ولم تبغضه؟ فقال: أنا جاره وأنا به خبير، والله ما رأيته يصلي صلاة قط إلا هذه المكتوبة! فقال: يا رسول الله، فاسأله هل رآني آخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها والركوع والسجود؟

فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه كل بر وفاجر! قال: فاسأله يا رسول الله هل رَأَى افطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً؟ فسأله، فقال: لا! فقال: والله ما رأيته يعطى سائلاً قط ولا مسكيناً، ولا رأيته ينفق من ماله شيئاً في سبيل الخير إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر! قال: فاسأله هل رَأَى نقصت منها شيئاً أو ما كست فيها طالبها الذي يسألها؟ فسأله فقال: لا! فقال رسول الله ﷺ للرجل: قم، فلعله خير منك». ولا ريب في أن انكار القوم عليه بعد قوله أبغضه الله يفيد عدم جواز اظهار المنكر الصادر من شخص لغيره، وإن كان في مقام الغضب والبغض لله.

فصل

(ذم الغيبة)

لما علمت حقيقة الغيبة وبواعثها، فاعلم أنها أعظم المهلكات وأشد المعاصي، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة، فقال:

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(١). وقال: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(٢). وقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». والغيبة تتناول العرض. وقال ﷺ: «إياكم والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه».

(١) الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) النساء، الآية: ١٤٨.

(٣) ق، الآية: ١٨.

وقال ﷺ: «مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم». وخطب ﷺ يوماً حتى أسمع العواتق في بيوتها، فقال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من تتبع عورة أخيه يتتبع الله عورته حتى يفضح في جوف بيته». وخطب ﷺ يوماً فذكر الربا وعظم شأنه. فقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم». ومر ﷺ على قبرين يعذب صاحباهما، فقال: «إنهما ليعذبان في كبيرة، أما أحدهما فكان يغتاب الناس، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله». ودعا بجريدة رطبة أو جريدتين فكسرها، ثم أمر بكل كسرة فغرس على قبره، وقال: «أما إنه يهون من عذابهما ما كانتا رطبتين». وروى: «أنه ﷺ أمر الناس بصوم يوم، وقال: لا يفطرن أحد حتى أذن له. فصام الناس، حتى إذا أمسوا، جعل الرجل يجيء، فيقول: يا رسول الله، ظلمت صائماً فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل والرجل، حتى جاء رجل، فقال: يا رسول الله، فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين، وإنهما تستحيان أن تأتيك، فأذن لهما لتفطرا. فاعرض عنه. ثم عاوده فاعرض عنه. ثم عاوده، فقال: إنهما لم تصوما، وكيف صام من ظل هذا اليوم ياكل لحوم الناس، أذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا. فرجع إليهما، فاخبرهما، فاستقاءتا، فقاءت كل واحدة منهما حلقة من دم. فرجع إلى النبي ﷺ فاخبره، فقال: والذي نفس محمد بيده! لو بقيتا في بطنيهما لاكلتهما النار». وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصرأً عليها فهو أول من يدخل النار». وقال ﷺ: «من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وضعها في جهنم، فكشف الله عورته على رؤس الخلائق. ومن اغتاب مسلماً، بطل صومه ونقض وضوءه، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله». وقال ﷺ: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من

الأكلة في جوفه»^(١). وقال عليه السلام: «الجلوس في المسجد انتظاراً للصلاة عبادة، ما لم يحدث»، فقيل: يا رسول الله، وما الحدث؟ قال: «الاغتيا ب». وقال عليه السلام: «من اغتاب مسلماً أو مسلمة لم يقبل الله صلاته ولا صيامه أربعين يوماً وليلة، إلا أن يغفر له صاحبه». وقال عليه السلام: «من اغتاب مسلماً في شهر رمضان لم يؤجر على صيامه». وقال عليه السلام: «من اغتاب مؤمناً بما فيه، لم يجمع الله بينهما في الجنة أبداً، ومن اغتاب مؤمناً بما ليس فيه، انقطعت العصمة بينهما، وكان المغتاب في النار خالداً فيها وبئس المصير». وقال عليه السلام: «كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة. فاجتنب الغيبة فانها إدام كلاب النار». وقال عليه السلام: «ما عمر مجلس بالغيبة إلا خرب بالدين، فنزهوا أسماعكم من استماع الغيبة، فان القائل والمستمع لها شريكان في الإثم». وقال عليه السلام: «ما النار في التبن بأسرع من الغيبة في حسنة العبد»^(٢). وقال الصادق عليه السلام: «من قال في مؤمن ما رآته عيناه وسمعتة أذناه، فهو من الذين قال الله عز وجل: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم)». وقال عليه السلام: «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان». وقال عليه السلام: «من اغتاب أخاه المؤمن من غير ترة بينهما فهو شرك شيطان»^(٣). وقال عليه السلام: «الغيبة حرام على كل مسلم، وانها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

(١) الرواية مذكورة في (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. قال في الموضع المذكور: «بيان: الأكلة - كقرحة - داء في العضو يأكل منه، وقد يقرأ بمد الهمزة على وزن فاعلة، أى العلة التي تأكل اللحم. والأول أوفق باللغة. قيل الأكلة - بالضم - اللقمة، وكلاهما محتملان إلى أن ذكر الجوف يؤيد الأول وإرادة الإضافة والازدواج يؤيد الثاني والأول أقرب وأصوب، وتشبيه الغيبة بأكل اللقمة أنسب، لأن الله سبحانه شبهها باكل اللحم».

(٢) صححنا الأحاديث هنا على (الوسائل): كتاب الحج، ابواب أحكام العشرة، الباب ١٥٢. وعلى (البحار): ٤ مج ١٥ / ١٧٧. وعلى (المستدرک): ٢ / ١٠٦ وعلى (احياء العلوم): ٣ / ١٢٣.

(٣) صححنا الأحاديث الثلاثة على (الوسائل) في الموضع المتقدم. وعلى (اصول الكافي): باب الغيبة والبهت. وعلى (المستدرک).

والأخبار الواردة في ذم الغيبة مما لا يكاد يمكن حصرها، وما ذكرناه كاف لايقاظ الطالبين. والعقل أيضاً حاكم بانها أخبت الرذائل، وقد كان السلف لا يرون العبادة في الصوم والصلاة، بل في الكف عن اعراض الناس، لأنه كان عندهم أفضل الأعمال، ويرون خلافه صفة المنافقين، ويعتقدون أن الوصول إلى المراتب العالية في الجنة يتوقف على ترك الغيبة، لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حسنت صلاته، وكثرت عياله، وقل ماله، ولم يغتب المسلمين، كان معي في الجنة كهاتين». وما أقبح بالرجل المسلم أن يغفل عن عيوب نفسه، ويتجسس على عيوب اخوانه، ويظهرها بين الناس، فما باله يبصر القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع في عين نفسه.

فيا حبيبي، إذا أردت أن تذكر عيوب غيرك، فاذكر عيوبك، وتيقن بأنك لن تصيب حقيقة الإيمان، حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ باصلاح ذلك العيب. وإذا كان شغلك اصلاح عيوب نفسك، كان شغلك في خاصة نفسك، ولم تكن لك فرصة للاشتغال بغيرك، وحسبنا كنت من أحب العباد إلى الله، لقول النبي ﷺ: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس!». واعلم أن عجز غيرك في الاجتناب عن ذلك العيب وصعوبة ازالته عليه كعجزك عن الاجتناب عنه إن كان ذلك العيب فعلاً اختيارياً، وإن كان أمراً خلقياً، فالذم له ذم للخالق تعالى. فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها. قيل لبعض الحكماء: يا قبيح الوجه! فقال: «ما كان خلق وجهي إلي فاحسنه». ولو فرض براءتك عن جميع العيوب، فلتشكر الله، ولا تلوث نفسك باعظم العيوب. إذ أكل لحوم الميتات أشد العيوب وأقبحها، مع انك لو ظننت خلوك عن جميع العيوب لكنت أجهل الناس، ولا عيب أعظم من مثل هذا الجهل.

ثم ينبغي أن يعلم المغتاب ان الغيبة تحبط حسناته وتزيد في سيئاته، لما ثبت من الأخبار الكثيرة: ان الغيبة تنقل حسنات المغتاب يوم القيامة إلى من اغتابه، وان لم تكن له حسنة نقل إليه من سيئاته. قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأحدكم يوم

القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى، ويدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإنني لأرى فيه طاعتي، فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتيال الناس. ثم يؤتى بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول إلهي ما هذا كتابي فإنني ما عملت هذه الطاعات، فيقول له: إن فلاناً اغتابك فدفعت حسناته إليك». وفي معناه أخبار آخر. ولا ريب في أن العبد يدخل النار بان تترجح كفة سيئاته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة مما اغتاب به مسلماً، فيحصل به الرجحان ويدخل لأجله النار. وأقل ما في الباب أن ينقص من ثواب صالحات أعماله، وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والمناقشة في الحساب. وروى عن بعضهم: «أن رجلاً قيل له: أن فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه طبقاً من الرطب، وقال: بلغني أنك قد أهديت الي من حسناتك، فأردت أن أكافيك عليها، فاعذرني، فاني لا أقدر أن أكافيك على التمام».

والحاصل: أن العاقل ينبغي أن يتأمل في أن من يغتابه ان كان صديقاً ومحباً له، فإظهار عيوبه وعثراته بعيد عن المروءة والانصاف، وان كان عدواً له، فتحمل خطاياهم ومعاصيه ونقل حسناته إلى ديوانه غاية الحماسة والجهل.

فصل

(علاج الغيبة)

الطرق في علاج الغيبة وتركها، أن يتذكر أولاً ما تقدم من مفسادها الاخروية، ثم يتذكر مفسادها في الدنيا، فإنه قد تصل الغيبة إلى من اغتیب، فتصير منشأ لعداوته أو لزيادة عداوته، فيتعرض لاىذاء المغتاب واهانته، وربما انجر الأمر بينهما إلى ما لا يمكن تداركه من الضرب والقتل وأمثال ذلك. ثم يتذكر فوائد أضدادها - كما نشير إليها -، وبعد ذلك فليراقب لسانه، ويقدم التروى في كل كلام يريد أن يتكلم به، فان تضمن غيبة سكت عنه، وكلف نفسه ذلك على الاستمرار، حتى يرتفع عن نفسه

الميل الجلى والخفى إلى الغيبة.

والعمدة في العلاج أن يقطع أسبابها المذكورة، وقد تقدم علاج الغضب والحقد والحسد والاستهزاء والسخرية، ويأتى طريق العلاج في الهزل ووالمطايبة والافتخار والمباهاة. وأما تنزيه النفس بنسبة ما نسب إليه من الجناية إلى الغير، فمعالجته أن يعلم أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوق، ومن اغتاب تعرض لمقت الله وسخطه قطعاً، ولا يدرى أنه يتخلص من سخط الناس أم لا، فيحصل بعمله ذم الله وسخطه تقديراً، ويبتظر دفع ذم الناس نسيئة، وهذا غاية الجهل والخذلان. وأما تعرضه لمشاركة الغير في الفعل تمهيداً لعذر نفسه، كأن يقول إني اكلت الحرام، لأن فلاناً أيضاً أكل، وقبلت مال السلطان، لأن فلاناً أيضاً قبل، مع أنه أعلم منى، فلا ريب في أنه جهل وسفه، لأنه اعتذر بالاعتداء بمن لا يجوز الاقتداء به. فان من خالف الله لا يقتدى به كائناً من كان، فلو دخل غيره النار وهو يقدر على عدم الدخول فهل يقتدى به في الدخول، ولو دخل عد سفيهاً أحق، ففعله معصية، وعذره غيبة وغبوة، فجمع بين المعصيتين والحماقة، ومثله كمثل الشاة، إذا نظرت الى العنز تردى نفسها من الجبل فهي أيضاً تردى نفسها، ولو كان لها لسان ناطق واعتذرت عن فعلها بأن العنز أكيس منى وقد أهلكت نفسها فكذلك فعلت انا، لكان هذا المغتاب المعتذر يضحك عليها، مع أن حاله مثل حالها ولا يضحك على نفسه.

والعجب أن بعض الأشقياء من العوام، لما صارت قلوبهم عش الشيطان، وصرفوا اعمارهم في المعاصى، واشتغلت ذممهم بمظالم الناس بحيث لا يرجى لهم الخلاص، مالت نفوسهم الخبيثة إلى ألا يكون معاد وحساب وحشر وعقاب، ولما وجد ذلك الميل منهم اللعين، خرج من الكمين، ووسوس في صدورهم بأنواع الشكوك والشبهات، حتى ضعف بها عقائدهم أو افسدها. ودعاهم في مقام الاعتذار عن اعمالهم الخبيثة ألا يصرحوا بما ارتكز في قلوبهم ويشتهونه، خوفاً من القتل واجراء احكام الكفار عليهم، ولم يدعهم أيضاً تلبسهم وتزويرهم وغلبة الشيطنة

عليهم أن يعترفوا بالنقص وسوء الحال فحملهم الشيطان باغوائه على أن يعتذروا من سوء فعالهم بأن بعض العلماء يفعلون ما نفعل ولا يجتنبون عن مثل اعمالنا، من طلب الرئاسة وأخذ الاموال المحرمة، ولم يدروا أن هذا القول ناش من جهلهم وخبائثهم.

إذ نقول لهم: إن فعل هذا البعض إن صار منشأ لزوال ايمانكم بالمعاد والحساب، فأنتم كافرون، وباعث اعمالكم الخبيثة هو الكفر وعدم الاذعان بأحوال النشأة الآخرة. وإن لم يصّر منشأ له، بل ايمانكم ثابت، فاللازم عليكم العمل بمقتضاه، من غير تزلزل بعمل الغير كائناً من كان. فما الحجة في عمل هذا البعض، مع اعتقادكم بأنه على باطل؟!

وأيضاً لو كان باعث أعمالكم الخبيثة فعل العلماء، فلم اقتديتم بهذا البعض مع عدم كونه من علماء الآخرة وعدم اطلاعه على حقيقة العلم؟ ولو كنتم صادقين فيما تنسبون اليه، فهو المتأكل بعلمه، وانما حصل نبذا من علوم الدنيا ليتوسل بها إلى حطامها، ولا يعد مثله عند أولى الالباب عالماً، بل هو متشبه بالعلماء. ولم ما اقتديتم بعلماء الآخرة المتخلفين بشرائهم عن الدنيا وحطامها؟ وانكار وجود مثلهم، والقدح في الكل مع كثرتهم في أقطار الارض غاية اللجاج والعناد. ولو سلمنا منكم ذلك، فلم ما اقتديتم بطوائف الانبياء والاوصياء، مع أنهم أعلم الناس باتفاق الكل، وحقيقة العلم ليس إلا عندهم؟ فان انكروا أعلميتهم وعصمتهم من المعاصي، واحتملوا كونهم أمثالا لهم، ظهر ما في بواطنهم من الكفر الخفي.

وأما موافقة الاقران، فعلاجه أن يتذكر ان الله يسخط عليه ويبغضه إذا اختار رضا المخلوقين على رضاه، وكيف يرضى المؤمن ان يترك رضايه لرضا بعض أراذل الناس؟ وهل هذا إلا كونه تعالى أهون عنده منهم؟ وهو ينافي الايمان.

وأما استشعاره من رجل انه يقبح عند محتشم حاله أو يشهد عليه بشهادة فيبادره بالغيبة اسقاطاً لأثر كلامه، فعلاجه أن يعلم: (أولاً) ان مجرد الاستشعار

لا يستلزم الوقوع، فلعله لا يقبح حاله ولا يشهد عليه، فالمؤاخذة بمحض التوهم تنافي الديانة والايمان. و(ثانياً) ان اقتضاء قوله سقوط اثر كلام من اغتابه في حقه مجرد توهم، والتعرض لمقت الله يقيناً بمجرد توهم ترتب فائدة دنيوية عليه محض الجهل والحماقة. و(ثالثاً) أن تؤدي فعل الغير - أعني تقبيح حاله عند محتشم مع فرض وقوعه - إلى اضراره في حيز الشك، إذ ربما لم يقبله المحتشم، وربما لم تقبل شهادته شرعاً، فتقبيح حاله وتحمل معاصيه بدون الجزم بصيرورته سبباً لا يذائه محض الجهل والخذلان.

وأما الرحمة له على ائمه والتعجب منه والغضب لله عليه، وان كان كل منها حسناً، إلا أنه إذا لم تكن معه غيبة، وأما إذا كانت معه غيبة، أحبط أجره وبقي اثمها. فالعلاج ان يتأمل ان باعث الرحمة والتعجب والغضب هو الايمان وحماية الدين، وإذا كان معها غيبة أضرت بالدين والايمان وليس شيء من الامور الثلاث ملزوما للغيبة لإمكان تحقيقه بدونها، فمقتضى الايمان وحماية الدين أن يترحم ويتعجب ويغضب لله، مع ترك الغيبة واطهار الاثم والعيب، ليكون مأجوراً غير آثم.

فصل

(مسوغات الغيبة)

لما عرفت ان الغيبة ذكر الغير بما يكرهه لو سمعه، فاعلم ان ذلك انما يحرم اذا قصد به هتك عرضه، والتفكه به، أو اضحاك الناس منه. واما إذا كان ذلك لغرض صحيح لا يمكن التوصل إليه إلا به، فلا يحرم. والاغراض الصحيحة المرخصة له امور:

الأول - التظلم عند من له رتبة الحكم واحقاق الحقوق، كالقضاة والمفتين والسلاطين، فان نسبة الظلم والسوء إلى الغير عندهم لاستيفاء الحق جائز، لقول النبي ﷺ: «لصاحب الحق مقال»، وقوله ﷺ: «لى الواجد يحل عرضه وعقوبته».

وعدم انكاره عليه السلام على قول هند بحضرته: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني إياي وولدي، أفأخذ من غير علمه؟ وقوله عليه السلام لها: «خذى ما يكفيك وولدتك بالمعروف».

الثاني - الاستعانة على رفع المنكر ورد العاصي إلى الصلاح، وانما يستباح بها ذكر مساوئه بالقصد الصحيح لا بدونه.

الثالث - نصح المستشير في التزويج، وايداع الامانة، وامثالهما. كذلك جرح الشاهد والمفتي والقاضي إذا سئل عنهم، فله ان يذكر ما يعرفه من عدم العدالة والاهلية للافتاء والقضاء، بشرط صحة القصد وارادة الهداية وعدم باعث حسد أو تلبيس من الشيطان، وكذلك توقي المسلمين من الشر والضرر أو سراية الفسق والبدعة، فإن من رأى عالماً أو غيره من المؤمنين يتردد إلى ذى شر أو فاسق أو مبتدع، وخاف أن يتضرر ويتعدى إليه الفسق والبدعة بمصاحبته، يجوز له أن يكشف له ما يعرفه من شره وفسقه وبدعته، بشرط كون الباعث مجرد خوف وصول الشر والفساد أو سراية الفسق والبدعة اليه. قال رسول الله ﷺ: «أترعوون عن ذكر الفاجر حتى لا يعرفه الناس؟ اذكروه بما فيه يحذره الناس». ومن جملة ما يدخل في تحذير المسلمين وتوقيهم من الشر والضرر، اظهار عيب يعلمه في مبيع، وان كرهه البائع، حفظاً للمشتري من الضرر. مثل أن يشتري عبداً، وقد عرفه بالسرقة أو الفسق أو عيب آخر، أو فرسا، وقد عرفه بكونه مال الغير، فله ان يظهر ذلك، لاستلزام سكوته ضرراً على المشتري.

الرابع - رد من ادعى نسباً ليس له.

الخامس - القدح في مقالة أو دعوى باطلة في الدين.

السادس - الشهادة على فاعل المحرم حسبة.

السابع - ضرورة التعريف، فانه إذا كان احد معروفاً بلقب يعرب عن عيب،

وتوقف تعريفه عليه، ولم يكن اثم في ذكره، بشرط عدم امكان التعريف بعبارة

أخرى، لفعل الرواة والعلماء في الأعصار والامصار، فانهم يقولون: روى الاعمش والاعرج وغير ذلك، لأن الغالب صيروته بحيث لا يكرهه صاحبه.

الثامن - كون المقول فيه مستحقاً للاستخفاف، لتظاهره وتجاهره بفسق، كالظلم والزنا وشرب الخمر وغير ذلك، بشرط عدم التعدى عما يتظاهر به، اذ لو ذكره بغير ما يتظاهر به لكان اثماً، وأما إذا ذكر منه مجرد ما يتجاهر به فلا اثم عليه، اذ صاحبه لا يستنكف من ذكره، وربما يتفاخر به ويقصد اظهاره. ومع قطع النظر عن ذلك، فالأخبار دالة عليه، كما تقدم جملة منها. وقال رسول الله ﷺ: «من القى جلباب الحياء من وجهه فلا غيبة له». وقال ﷺ: «ليس لفاسق غيبة».

والظاهر أن ذكر ما يتجاهر به من العيوب ليس غيبة، لا شرعاً ولا لغة، لأنه غيبة استثنى جوازها شرعاً، قال الجوهرى: «الغيبة أن يتكلم خلف انسان مستور بما يغمه لو سمعه، فان كان صدقاً سمى غيبة، وإن كان كذباً سمى بهتاناً».

هذا وقد صرح جماعة بجواز الغيبة في موضعين آخرين: أحدهما: أن يكون اثنان أو أكثر مطلعين على عيب رجل، فيقع تحاكيه بينهم من غير أن يظهره لغيرهم ممن لم يطلع عليه، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة على جوازه، كما لا يخفى. وثانيهما: أن يكون متعلقها - أعنى المقول فيه - غير محصور، كأن يقال: «قال قوم كذا، أو أهل البلد الفلانى كذا». ومثله إذا قال: «بعض الناس يقول أو يفعل كذا، أو من مر بنا اليوم شأنه كذا»، إذا لم يتعين البعض والمار عند المخاطب، ولو انتقل إلى شخص معين لقيام بعض القرائن، كانت غيبة محرمة، وكذا لو قال: «بعض من قدم من السفر، أو بعض من يدعى العلم»، إن كان معه قرينة يفهم عين الشخص فهو غيبة وإلا فلا. وكذا ذكر مصنف في كتابه فاضلاً معيناً، وتهجين كلامه بلا اقتران شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره غيبة، وأما لو ذكره بدون تعيينه، كأن يقول: «ومن الفضلاء من صدر عنه في المقام هفوة أو عثرة»، فليس غيبة. ثم السر في اشتراط الغيبة بكونه تعريضاً لشخص معين، وعدم كون التعرض بالمبهم وغير المحصور غيبة، عدم

حصول الكراهة مع الابهام وعدم الانحصار، كما لا يخفى. وربما كان في بعض الأخبار أيضاً اشعار به، وقد كان رسول الله ﷺ إذا ذكره من انسان شيئا يقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا» من دون تعيين للفاعل.

تذنيب

(كفارة الغيبة)

كفارة الغيبة - بعد التوبة والندم للخروج عن حق الله - أن يخرج من حق من اغتابه. وطريق الخروج من حقه، إن كان ميتاً أو غائباً لم يمكن الوصول إليه، أن يكثر له من الاستغفار والدعاء، ليحسب ذلك يوم القيامة من حسناته ويقابل بها سيئة الغيبة، وإن كان حياً يمكن الوصول إليه ولم تبلغ إليه الغيبة، وكان في بلوغها إليه مظنة العداوة والفتنة، فليكثر له أيضاً من الدعاء والاستغفار، من دون أن يخبره بها، وإن بلغت إليه أو لم تبلغه، ولم يكن في بلوغها ظن الفتنة والعداوة، فليستحله متعذراً متأسفاً مبالغاً في الثناء عليه والتودد إليه، وليواظب على ذلك حتى يطيب قلبه ويحله فإن لم يطب قلبه من ذلك ولم يحله، كان اعتذاره وتودده حسنة يقابل بها سيئة الغيبة في القيامة.

والدليل على هذا التفصيل قول الصادق عليه السلام: «وإن اغتبت فبلغ المغتاب، فاستحل منه، فإن لم تبلغه لم تلحقه، فاستغفر الله»^(١)، وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه إثارة للفتنة وجلب للضغائن، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أو غيبة، وعلى هذا فقول النبي ﷺ: «كفارة من اغتبت أن تستغفر له»، محمول على صورة عدم امكان الوصول إليه، أو إمكانه مع ايجاب الاعلام والاستحلال لإثارة الفتنة والعداوة. وقوله ﷺ: «من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال، فليتحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار

(١) هذا جزء من الحديث المتقدم عن (مصباح الشريعة): ٢٨٩، الباب ٤٩ فصيحناه عليه.

ولا درهم، إنما يؤخذ من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته»، محمول على صورة البلوغ أو عدم البلوغ، مع عدم إيجاب الاعلام والاستحلال فتنة وعداوة.

تتميم (البهتان)

قد ظهر مما تقدم أن البهتان أن تقول في مسلم ما يكرهه ولم يكن فيه، فإن كان ذلك في غيبته كان كذباً وغيبة، وإن كان بحضوره كان أشد أنواع الكذب. وعلى أى تقدير، فهو أشد إثماً من الغيبة والكذب، قال الله سبحانه:

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تل من نار، حتى يخرج مما قاله فيه». وقال الصادق عليه السلام: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه، بعثه الله عز وجل في طينة خبال، حتى يخرج مما قال»، قلت: وما طينة خبال؟ قال: «صديد يخرج من فروج المومسات»^(٢). ثم ما ورد في ذم اللسان وكونه شر الاعضاء ومنبع أكثر المعاصي - كما يأتي في موضعه - يدل على ذم الغيبة والبهتان، كما يدل على ذم جميع آفات اللسان مما تقدم: من الفحش، واللعن، والطعن، والسخرية، وغير ذلك، وما يأتي: من الكذب، والمزاح، والخوض في الباطل، وفضول الكلام، وغير ذلك.

(١) النساء، الآية: ١١٢.

(٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي): باب الغيبة والبهتان. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، باب تحريم البهتان في المؤمن. وعلى (المستدرک): ١٠٧، كتاب الحج، باب تحريم البهتان للمؤمن.

وصل

(المدح ومواضع حسنه وقبحه)

الغيبية لما كانت راجعة إلى الذم، فضدها المدح ودفع الذم، والبهتان لما كان كذباً، فضده الصدق. وكما أن لكل واحدة من آفات اللسان مما مر ومما يأتي ضدّاً خاصّاً، فكذلك لجميعها ضد واحد عام هو الصمت - كما اشير إليه فيما سبق أيضاً. وضد البهتان - أعني الصدق - يأتي في مقام بيان الكذب. وأما الضد العام للكل، فقد يأتي في موضعه مع ما يدل بعمومه على جميع آفات اللسان، فهنا نشير إلى بيان المدح وما يحمد منه، حتى يكون ضدّاً لها وفضيلة للقوة الغضبية أو الشهوية، وما يذم منه حتى يكون رذيلة لاحداهما، فنقول:

لا ريب في أن مدح المؤمن في غيبته وحضوره ممدوح مندوب اليه، لكونه ادخالا للسرور عليه، وقد علم مدحه وثوابه، ولما ورد من أن رسول الله ﷺ أثنى على أصحابه، وأنه قال لجماعة - لما اثنوا على بعض الموتى -: «وجبت لكم الجنة، وأنتم شهداء الله في الأرض». ولما ورد من «أن لبنى آدم جلساء من الملائكة، فإذا ذكر أحد أخاه المسلم بخير، قالت الملائكة: ولك مثله، وإذا ذكره بسوء، قالت الملائكة: يا ابن آدم المستور عورته، إربع على نفسك! واحمد الله إذ ستر عورتك»، ولكنه ليس راجحاً مندوباً على الإطلاق، بل إذا سلم من آفاته، وهي أن يكون صدقاً لا يفرط المادح فيه، بحيث ينتهي إلى الكذب، وألا يكون المادح فيه مرئياً منافقاً، بأن يكون غرضه اظهار الحب مع عدم كونه محباً في الواقع سواء كان صادقاً فيما ينسبه إليه من المدح أم لا، وألا يمدح الظالم والفساق وإن كان صادقاً فيما يقول في حقه، لأنه يفرح بمدحه، وادخال الفرح على الظالم أو الفاسق غير جائز، قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق». فالظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم، ولا يمدح ليفرح، وألا يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.

وهذه الآفة إنما تتطرق في المدح بالأوصاف المطلقة والخفية، كقولك: إنه تقى

ورع زاهد خير، أو قولك: إنه عدل رضى، وأمثال ذلك، لتوقف الصدق في ذلك على قيام الأدلة والخبرة الباطنة، وتحقيقهما في غاية الندرة. فالغالب أن المدح بامثال ذلك يكون من غير تحقق وتثبت، وألا يحدث في الممدوح كبراً أو اعجاباً يوجبان هلاكه، ولا رضى عن نفسه يوجب فتوره عن العمل، إذ من اطلقت الألسنة بالثناء عليه يرضى عن نفسه، ويظن أنه قد أدرك، وهذا يوجب فتوره عن العمل، إذ المتشمر له إنما هو من يرى نفسه مقصراً ولذلك قال رسول الله ﷺ لرجل مدح بحضرته رجلاً آخر: «ويحك! قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح، وقال ﷺ: «إذا مدحت أخاك في وجهه، فكأنما أمررت على حلقة موسى». وقال أيضاً لمن مدح رجلاً: «عقرت الرجل عقرك الله!». وقال ﷺ: «لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف، كان خيراً له من أن يشنى عليه في وجهه».

والسر في هذه الأخبار: أن المدح يوجب الفتور عن العمل، أو الكبر أو العجب، وهو مهلك، كقطع العنق والعقر وامرار موسى أو السكين على الحلق، فإن سلم المدح عن الآفات المذكورة المتعلقة بالمادح والممدوح كان ممدوحاً، وإلا كان مذموماً. وبذلك يحصل الجمع بين ما ورد في مدحه - كما تقدم - وما ورد في ذمه.

فاللزام على المادح أن يحترز عما تقدم من الآفات المتعلقة به، وعلى الممدوح أن يحترز من آفة الكبر والعجب والفتور والرياء، بأن يعرف نفسه ويتذكر خطر الخاتمة، ولا يغفل عن دقائق الرياء، ويظهر كراهة المدح، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المداحين». وبالجملة: اللزام على الممدوح ألا يتفاوت حاله بالمدح، وهذا فرع معرفة نفسه، وتذكر ما لا يعرفه المادح من عثراته. وينبغي أن يظهر أنه ليس كما عرفوه، قال بعض الصالحين لما اثنى عليه: «اللهم إن هؤلاء لا يعرفونى وأنت تعرفنى». وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما اثنى عليه: «اللهم اغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذنى بما يقولون، واجعلنى خيراً مما يظنون».

ثم الظاهر عدم المؤاخذة والاثم بالانبساط والارتياح بالمدح، لكون النفوس

مجبولة على الفرح والسرور بنسبة الكمال إليها، ولكن بشرط أن يكره من نفسه ذلك الارتياح، ويقهر نفسه ويعاتبها على ذلك، ويجتهد في إزالة ذلك عنها، إذ مقتضى العقل الفرح بوجود الكمال فيه لا بنسبته إليه، فما ينسب إليه منه إن كان موجوداً فيه، فينبغي أن يكون فرحه به لا بنسبته إليه، إذ الانبساط بتصريح رجل بأنك صاحب هذا الكمال حمق وسفه. وإن لم يكن موجوداً فيه، فاللازم أن يحزن ويغضب، لكونه استهزاء لا مدحاً. والحاصل: أن العاقل ينبغي ألا يسر بمدح الغير ولا يحزن بدمه، إذ من ملك ياقوته شريفة حمراء أى ضرر عليه إذا قال رجل إنها خرزة، وإذا ملك خرزة أى فائدة له إذا قال إنها ياقوتة.

ومنها:

الكذب

وهو إما في القول، أى الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، وصدوره إما عن العداوة أو الحسد أو الغضب، فيكون من رذائل قوة الغضب، أو من حب المال والطمع، أو الاعتياد الحاصل من مخالطة أهل الكذب، فيكون من رذائل قوة الشهوة.

أو في النية والارادة، وهو عدم تمحيضها بالله، ألا يكون الله سبحانه بانفراده باعث طاعاته وحركاته، بل يمازجه شيء من حظوظ النفس. وهذا يرجع إلى الرياء، ويأتى كونه من رذائل أى قوة.

وإما في العزم، أى الجزم على الخير، وذلك بأن يعزم على شيء من الخيرات والقربات، ويكون في عزمه نوع ميل وضعف وتردد يضاد الصدق في العزيمة، وهذا أيضاً من رداءة قوة الشهوة.

وإما في الوفاء بالعزم، فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، لعدم مشقة في الوعد، فإذا حقت الحقائق، وحصل التمكن، وهاجت الشهوات، انحلت العزيمة،

ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا أيضاً من رذائل قوة الشهوة ومن انواع الشره. وإما في الأعمال، وهو ان تدل اعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، أى لا يكون باطنه مثل ظاهره ولا خيراً منه. وهذا غير الرياء، لأن المرائى هو الذى يقصد غير الله تعالى في أعماله، ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره سبحانه، ولكن قلبه غافل عن الله وعن الصلاة، فمن نظر الى ما يصدر عن ظاهره من الخشوع والاستكانة، يظن انه بشرائره منقطع إلى جناب ربه، وحذف ماسواه عن صحيفة قلبه، وهو بكليته عنه تعالى غافل، والى أمر من امور الدنيا متوجه. وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة الطمأنينة والوقار، بحيث من يراه يجزم بأنه صاحب السكينة والوقار، مع أن باطنه ليس موصوفاً بذلك. فمثل ذلك كاذب في عمله، وان لم يكن مرائياً ملتفتاً إلى الخلق، ولا نجاة من هذا الكذب إلا باستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن أحسن من الظاهر. وهذا القسم من الكذب ربما كان من رذائل قوة الشهوة، وربما كان من رذائل قوة الغضب، وربما كان من رداءة القوة المدركة، بأن كان باعثه مجرد الوسوس.

وإما في مقامات الدين، كالكذب في الخوف والرجاء، والزهد والتقوى، والحب والتعظيم، والتوكل والتسليم، وغير ذلك من الفضائل الخلقية، فإن لها مبادئ يطلق الاسم بظهورها، ثم لها حقائق ولوازم وغايات والصادق المحقق من نال حقائقها ولوازمها وغاياتها، فمن لم يبلغها كان كاذباً فيها. مثلاً الخوف من الله تعالى له مبدأ هو الايمان به سبحانه، وحقيقة هو تألم الباطن واحتراقه، ولوازم وآثار هي اصفراء اللون وارتعاد الفرائض وتكدر العيش وتقسيم الفكر وغير ذلك، وغايات هي الاجتناب عن المعاصى والسيئات والمواظبة على الطاعات والعبادات، فمن آمن بالله تعالى صدق عليه كونه خائفاً منه خوفاً يطلق عليه الاسم، إلا أنه إن لم تكن معه حرقه القلب وتكدر العيش والتشمر للعمل كان خوفاً كاذباً، وإن كان معه ذلك كان خوفاً صادقاً، أى بالغاً درجة الحقيقة، قال أمير المؤمنين - صلوات الله عليه -:

«إياكم والكذب. فإن كل راج طالب، وكل خائف هارب»^(١): أى لا تكذبوا في ادعائكم الرجاء والخوف من الله، وذلك لأن كل راج طالب لما يرجو ساع في أسبابه، وأنتم لستم كذلك، وكل خائف هارب مما يخاف منه، مجتنب مما يقربه منه، وأنتم لستم كذلك. وهذا مثل قوله ﷺ في نهج البلاغة: «كذب والله العظيم ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله! وكل من رجا عرف رجاؤه إلا رجاء الله، فانه مدخول، وكل خوف محقق الا خوف الله، فانه معلول...»^(٢).

ثم الكذب في كل مقام لما كان راجعاً إلى عدمه، فيكون رذيلة متعلقة بالقوة التي في هذا المقام فضيلة متعلقة بها. وبما ذكر يظهر: أن من له مبدأ الايمان، أعنى الاقرار بالشهادتين، وكان فاقداً لحقيقته، أعنى اليقين القطعى بالمبدأ والمعاد، أو للوازمه وغاياته، أعنى الخوف الصادق منه تعالى والتعظيم الحقيقى له سبحانه والاهتمام البالغ في امتثال أوامره ونواهيه، كان كاذباً في دعوى الايمان.

فصل

(ذم الكذب)

الكذب أقبح الذنوب وأفحشها، وأخبث العيوب وأشنعها، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَاذِبُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ﴾^(٣). ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فان الكذب يهذى إلى الفجور،

(١) صححنا الرواية على (اصول الكافي): باب الكذب، وعلى (البحار): ٢ مج ٣٩ / ١٥، باب الكذب.

(٢) هذا الكلام مروى في (الوافى): ٤٠٩ / ٣، باب الكذب وفي (البحار): ٣ مج ٣٥ / ١٥. وهو مروى عن

(نهج البلاغة) كما صرح به العلامة المجلسي رحمه الله في الموضع المذكور.

(٣) النحل، الآية: ١٠٥.

(٤) التوبة، الآية: ٧٧.

والفجور يهذى إلى النار». وقال عليه السلام: «المؤمن إذا كذب من غير عذر لعنه سبعون ألف ملك، وخرج من قلبه نتن حتى يبلغ العرش، فيلعنه حملة العرش، وكتب الله عليه بتلك الكذبة سبعين زنية، أهونها كمن زنى مع أمه»^(١). وسئل عليه السلام: «يكون المؤمن جبناً؟ قال: نعم! قيل، ويكون بخيلاً؟ قال: نعم! قيل ويكون كذاباً؟ قال: لا!» وقال عليه السلام: «كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب». وقال عليه السلام: «الكذب ينقص الرزق». وقال عليه السلام: «ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم! ويل له ويل له!». وقال عليه السلام: «رأيت كأن رجلاً جاءني، فقال لي: قم، فقممت معه، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس، وبيد القائم كlob من حديد يلقمه في شدة الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمده، فإذا مده رجع الآخر كما كان، فقلت للذي أقامني: ما هذا؟ فقال: هذا رجل كذاب، يعذب في قبره إلى يوم القيامة». وقال عليه السلام: «ألا أخبركم باكب الكبائر: الإشراف بالله، وعقوق الوالدين، وقول الزور»: أى الكذب. وقال عليه السلام: «إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعه الملك منه مسيرة ميل من نتن ما جاء به». وقال عليه السلام: «إن للشيطان كحلاً ولعوقاً ونشوقاً. فأما لعوقه فالكذب، وأما نشوقه فالغضب، وأما كحله فالنوم»^(٢). وقال روح الله لأصحابه: «من كثر كذبه ذهب بهأوه». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يترك الكذب، هزله وجده». وقال عليه السلام: «أعظم الخطايا عند الله اللسان والكذب، وشر الندامة ندامة يوم القيامة». وقال على بن الحسين عليه السلام: «اتقوا الكذب الصغير منه والكبير في كل جد وهزل، فإن

(١) صحيحنا هذين الحديثين على (جامع الأخبار): الباب ١٢ الفصل ٧.

(٢) مثل مضمون هذه الرواية ورد في (الوسائل) في الموضوع الآتى الباب ١٣٨. وفي (المستدرک) في الموضوع الآتى. وفي (سفينة البحار): ٢: ٤٧٣، وفيه اختلاف عما في نسخ (جامع السعادات)، فإن الموجود بهذه الكتب بهذا النص: «إن لابلis كحلاً ولعوقاً وسعوطاً، فكحله النعاس، ولعوقه الكذب، وسعوطه الكبیر».

الرجل إذا كذب في الصغير اجترأ على الكبير». وقال أبو جعفر عليه السلام: «إن الله عز وجل جعل للشرا أقفالا، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شر من الشراب». وقال عليه السلام: «الكذب هو خراب الإيمان». وقال عليه السلام: «إن أول من يكذب الكذاب الله عز وجل، ثم الملكان اللذان معه، ثم هو يعلم أنه كاذب». وقال الامام الزكي العسكري عليه السلام: «جعلت الخبائث كلها في بيت، وجعل مفتاحها الكذب». والأخبار الواردة في ذم الكذب أكثر من أن تحصى. وأشد أنواع الكذب إثماً ومعصية الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأئمة، وكفاه ذماً أنه يبطل الصوم، ويوجب القضاء والكفارة على الأقوى. وقال الصادق عليه السلام: «إن الكذبة لتفطر الصائم»، قال الراوى: وأينا لا يكون ذلك منه، قال: «ليس حيث ذهبت، إنما الكذب على الله تعالى وعلى رسوله وعلى الأئمة عليهم السلام». وقال عليه السلام: «الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء عليهم السلام من الكبائر». وذكر عنده عليه السلام الحائك، وكونه ملعوناً، فقال: «إنما ذلك الذي يحوك الكذب على الله وعلى رسوله». وقال الباقر عليه السلام: «لا تكذب علينا كذبة، فتسلب الحنيفية»^(١).

فصل

(مسوغات الكذب)

الكذب حرام، لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره، أو لا يجابه اعتقاد المخاطب خلاف الواقع، فيصير سبباً لجهله. وهذا القسم مع كونه أهون الدرجات وأقلها إثماً، محرم أيضاً، إذ إلقاء خلاف الواقع على الغير وسببية جهله غير جائز، إلا أنه إذا كان مما يتوقف عليه تحصيل مصلحة مهمة، ولم يمكن التوصل إليها

(١) صححنا أكثر الأحاديث هنا على (الوسائل): الباب ١٣٨ - ١٤٠ من ابواب أحكام العشرة، وعلى

(المستدرک): ٢ / ١٠٠ - ١٠٢، وعلى (اصول الكافي): باب الكذب، وعلى (البحار): ٣ / ١٥ / ٣٥،

بالصدق، زالت حرمة وارتفع اثمه فان كانت المصلحة مما يجب تحصيلها، كانقاذ مسلم من القتل والاسر، أو حفظ عرضه أو ماله المحترم، كان الكذب فيه واجباً. وان كانت راجحة غير بالغة حد الوجوب، فالكذب لتحصيلها مباح أو راجح مثلها، كالاصلاح بين الناس والغلبة على العدو في الحرب، وتطبيب خاطر امرأته واسترضائها وقد وردت الأخبار المتكثرة بجواز الكذب إذا توقف عليه تحصيل هذه المقاصد الثلاثة، كما روى: «ان رسول الله ﷺ لم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث: الرجل يقول القول يريد به الاصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها»، وقال ﷺ: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً». وقال ﷺ: «كل الكذب يكتب على ابن آدم، إلا رجل كذب بين رجلين يصلح بينهما». وقال ﷺ: «كل الكذب مكتوب كذباً لا محالة، إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فان الحرب خدعة، أو يكون بين رجلين شحنة فيصلح بينهما، أو يحدث امرأته يرضيها». وقال ﷺ: «لا كذب على المصلح». وقال الصادق عليه السلام: «كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوماً، إلا كذباً في ثلاثة: رجل كايده في حروبه، فهو موضوع عنه. أو رجل اصلح بين اثنين يلقي هذا بغير ما يلقي به هذا، يريد بذلك الإصلاح ما بينهما. أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم». وقال عليه السلام: «الكلام ثلاثة: صدق وكذب، واصلاح بين الناس»، قيل له: ما الاصلاح بين الناس؟ قال: «تسمع في الرجل كلاماً يبلغه فيخبت نفسه، فتلقاه وتقول: قد سمعت من فلان فيك من الخير كذا وكذا، خلاف ما سمعت منه»^(١). وقد تقدمت اخبار اخر في هذا المعنى.

وهذه الأخبار وإن اختصت بالمقاصد الثلاثة، إلا أن غيرها من المقاصد

(١) صححنا هذه الاخبار على (اصول الكافي): باب الكذب، و(الوسائل): كتاب الحج، الباب ١٤١ من

ابواب العشرة، و(كنز العمال): ١٢٨/٢. و(احياء العلوم): ١١٩/٣.

الضرورية التي فوقها أو مثلها في المصلحة يلحقها من باب الأولوية أو اتحاد الطريق. والأخبار التي وردت في ذم هتك السر وكشف العيوب والفواحش تفيد وجوب القول بعدم الاطلاع، وإن كان مطلعاً مع كونه كذباً، فلا اثم على أحد بصدور الكذب عنه إذا كان وسيلة إلى شيء من المقاصد الصحيحة الضرورية له أو لغيره من المسلمين، فإن أخذه ظالم وسأله عن ماله فله أن ينكر، وإن أخذه سلطان وسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله فله أن ينكر، وإن سئل عما يعلمه عن عيب أخيه أو سره فله أن ينكره، ولو وقع بين اثنين فساد فله أن يكذب، توسلاً إلى الإصلاح بينهما وكذا يجوز له للإصلاح بين الضرات من نسائه أن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه، وإن كانت امرأته لا تطيعه إلا بوعده ما لا يقدر عليه، يجوز أن يعدها في الحال تطيباً لقلبها، وإن لم يكن صادقاً في وعده. ويلحق بالنساء الصبيان، فإن الصبي إذا لم يرغب فيما يؤمر به من الكتابة وغيرها إلا بوعده أو وعيد وتخويف، كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن في نيته الوفاء به. وكذا لو تكدر منه انسان، وكان لا يطيب قلبه إلا بالاعتذار إليه، بانكار ذنب واظهار زيادة تودد، كان ذلك جائزاً، وإن لم يكن صدقاً.

والحاصل: أن الكذب لدفع ضرر أو شر أو فساد جائز، بشرط صحة القصد. وقد ورد: ان الكذب المباح يكتب ويحاسب عليه لتصحيح قصده، فإن كان قصده صحيحاً يعفى، وإلا يؤاخذ به. فينبغي أن يجهد في تصحيح قصده، وأن يحترز عنه ما لم يضطر إليه، ويقتصر فيه على حد الواجب، ولا يتعدى إلى ما يستغنى عنه.

ولا ريب في أن ما يجب ويضطر إليه هو الكذب لأمر في فواتها محذور واضرار، وليس كل الكذب لزيادة المال والجاه وغير ذلك مما يستغنى عنه، فإنه محرم قطعاً، إذ فواته لا يوجب ضرراً وفساداً واعداماً للموجود بل إنما يوجب فوات حظ من حظوظ النفس. وكذلك فتوى العالم بما لا يحققه وفتوى من ليس له اهلية الافتاء، اظهاراً للفضل أو طلباً للجاه والمال، بل هو أشد أنواع الكذب إثماً وحرمة، لأنه مع كونه كذباً لا يستغنى عنه، كذب على الله وعلى رسوله.

فالكذب إذا كان وسيلة إلى ما يستغنى عنه حرام مطلقاً، وإذا كان وسيلة إلى ما لا يستغنى عنه ينبغي أن يوازن^(١) محذور الكذب مع محذور الصدق، فيترك أشدهما وقعاً في نظر الشرع. وبيان ذلك: أن الكذب في نفسه محذور، والصدق في المواضع المذكورة يوجب محذوراً، فينبغي أن يقابل أحد المحذورين بالآخر، ويوازننا بالميزان القسط، فإن كان محذور الكذب أهون من محذور الصدق فله الكذب، وإن كان محذور الصدق أهون وجب الصدق، وقد يتقابل المحذوران بحيث يتردد فيهما، وحينئذ فالميل إلى الصدق أولى، إذ الكذب أصله الحرمة، وإنما يباح بضرورة أو حاجة مهمة، وإذا شك في كون الحاجة مهمة، لزم الرجوع إلى أصل التحريم.

تنبيه

(التورية والمبالغة)

كل موضع يجوز فيه الكذب، إن أمكن عدم التصريح به والعدول إلى التعريض والتورية، كان الأولى ذلك. وما قيل: إن في المعارض لمندوحة عن الكذب، وإن فيها ما يغني الرجل عن الكذب، ليس المراد به أنه يجوز التعريض بدون حاجة واضطرار، إذ التعريض بالكذب يقوم مقام التصريح به، لأن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه، وهذا موجود في الكذب بالمعارض. فالمراد أن التعريض يجوز إذا اضطر الإنسان إلى الكذب، ومست الحاجة إليه، واقتضته المصلحة في بعض الأحوال في تأديب النساء والصبيان ومن يجرى مجراهم، وفي

(١) لم يثبت لهذه الموازنة على عمومها دليل من الشرع، وكل ما ثبت منه تلك المواضع المذكورة آنفاً، التي جاز فيها الكذب، وهي: الإصلاح والحرب والزوجة، وفي الحصر بالمواضع الثلاثة في الروايات المتقدمة دليل على عدم جواز الكذب في غيرها، لا سيما مثل قوله ﷺ: «كل كذب مسؤل عنه صاحبه يوماً، إلا كذباً في ثلاثة...»، ولكن ثبت استثناء بعض المواضع، كدفع الظلم، فلا يتعداها.

الحذر عن الظلمة والاشرار في قتال الأعداء. فمن اضطر إلى الكذب في شىء من ذلك فهو جائز له، لأن نطقه فيه إنما هو على مقتضى الحق والدين، فهو في الحقيقة صادق، وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه، لصدق نيته وصحة قصده واراדתه الخير والصالح، فمثل هذا النطق لا يكون خارجاً عن حقيقة الصدق، إذ الصدق ليس مقصوداً لذاته، بل للدلالة على الحق، فلا ينظر إلى قلبه وصورته، بل إلى معناه وحقيقته. نعم، ينبغى له في هذه المواضع أن يعدل إلى المعارض ما وجد إليه سبيلاً يصدق اللفظ حينئذ أيضاً وإن كان متشاركاً مع التصريح في تفهيم الشىء على خلاف ما هو عليه في الواقع. وقد كان رسول الله ﷺ إذا توجه إلى سفر وراه بغيره، لثلاً ينتهى الخبر إلى الأعداء فيقصدونه.

ومما يدل على جواز التعريض مع صحة النية، ما روى في الاحتجاج: «أنه سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى في قصة ابراهيم عليه السلام:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾^(١).

قال: ما فعله كبيرهم وما كذب ابراهيم. قيل: وكيف ذلك؟ فقال: إنما قال ابراهيم فاسألوهم إن كانوا ينطقون، أى إن نطقوا فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب ابراهيم عليه السلام: «وسئل عن قوله تعالى: ﴿أَيَّتْمَا أَلْعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾^(٢).

قال: انهم سرقوا يوسف من أبيه، ألا ترى أنه قال لهم حين قالوا: ماذا تفقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، ولم يقولوا: سرقت صواع الملك. انما سرقوا يوسف من أبيه». وسئل عن قول ابراهيم:

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾^(٣).

(١) الانبياء، الآية: ٦٣.

(٢) يوسف، الآية: ٧٠.

(٣) الصافات، الآية: ٨٨، ٨٩.

قال: ما كان ابراهيم سقيماً، وما كاذب، انما عني سقيماً في دينه، اى مرتاداً». وطريق التعريض والتورية: أن يخبر المتكلم المخاطب بلفظ ذي احتمالين احدهما غير مطابق للواقع واطهر في المقام، فيحمله المخاطب عليه، وثانيهما مطابق له يريد به المتكلم، كما ظهر من خبر الاحتجاج. ومن أمثلته: انه إذا طلبك ظالم وانت في دارك ولا تريد الخروج اليه، أن تقول لأحد أن يضع اصبعه في موضع ويقول: ليس ههنا. وإذا بلغ عنك شيء إلى رجل، وأردت تطيب قلبه من غير أن تكذب، تقول له: ان الله ليعلم ما قلت من ذلك من شيء، على أن يكون لفظة (ما) عندك للابهام، وعند المستمع للنفي. وقد ظهر مما ذكر: أن كل تعريض لغرض باطل كالتصريح في عدم الجواز، لأن فيه تقريراً للغير على ظن كاذب. نعم، قد تباح المعارض لغرض خفيف، كتطيب قلب الغير بالمزاح، كقول النبي ﷺ: «لا تدخل الجنة عجوز» و«في عين زوجك بياض» و«نحملك على ولد بعير»... وقس عليه أمثال ذلك.

ومن الكذب الذي يجوز ولا يوجب الفسق، ما جرت به العادة في المبالغة، كقولك: قلت لك كذا مائة مرة، وطلبتك مائة مرة، وأمثال ذلك لأنه لا يراد بذلك تفهيم المرات بعددها، بل تفهيم المبالغة. فان لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً، وان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة فلا يأثم، وان لم تبلغ مائة.

ومن الكذب الذي لا اثم عليه ما يكون في أنواع المجاز والاستعارات والتشبيهات، إذ الغرض تفهيم نوع من المناسبة والمبالغة، لا دعوى الحقيقة والمساواة من جميع الجهات.

ومن الكذب الذي جرت العادة به، ويتساهل فيه، قول الرجل إذا قيل له: كل الطعام: (لا اشتبهه)، مع كونه مشتتياً له. وهذا منهي عنه كما تدل عليه بعض الاخبار، إلا إذا كان فيه غرض صحيح، وما جرت العادة به قول الرجل: (الله يعلم) فيما لا يعلمه، وهو اشد أنواع الكذب، قال عيسى عليه السلام: «إن من أعظم الذنوب عند الله ان

يقول العبد: ان الله يعلم لما لا يعلم». ومن الكذب الذي عظم ذنبه ويتساهل فيه، الكذب في حكاية المنام، قال رسول الله ﷺ: «إن من اعظم الفرية ان يدعى الرجل الى غير أبيه، أو يرى عينيه في المنام ما لم ير، أو يقول على ما لم أقل». وقال ﷺ: «من كذب في حلم، كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعرتين».

تذنيب

(شهادة الزور، اليمين الكاذب، خلف الوعد)

من أنواع الكذب وافحشها: شهادة الزور، واليمين الكاذب، وخلف الوعد.

ويدل على ذم الاول قوله تعالى في صفة المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(١).

وقول النبي ﷺ: «شاهد الزور كعابد الوثن».

وعلى ذم الثاني قول النبي ﷺ: «التجارهم الفجار!» ف قيل: يا رسول الله، أليس

الله قد أحل البيع؟ فقال: «نعم! ولكنهم يحلفون فيأثمون، ويحدثون فيكذبون».

وقوله ﷺ: «ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر اليهم ولا يزكيهم: المنان

بعطيته، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر، والمسبل إزاره». وقوله ﷺ: «ما حلف

حالف بالله فادخل فيها مثل جناح بعوضة، إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة».

وقوله ﷺ: «ثلاث يشنأهم الله: التاجر أو البائع الحلاف، والفقير المختال، والبخيل

المنان».

وعلى ذم الثالث قول النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليف إذا

وعد». وقول الصادق عليه السلام: «عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن اخلف فبخلف الله

تعالى بدأ ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من النفاق، حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». فمن وعد وكان عند الوعد عازماً على ألا يفى، أو كان عازماً على الوفاء وتركه بدون عذر، فهو منافق. وأما إن عن له عذر من الوفاء، لم يكن منافقاً وأثماً. وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق، فالأولى أن يحترز عن صورة النفاق أيضاً كما يحترز عن حقيقته، وذلك بالألا يجزم في الوعد، بل يعلقه على المشية ومثلها.

إيقاظ

(علاج الكذب)

طريق معالجة الكذب: أولاً: أن يتأمل في ما ورد في ذمه من الآيات والاختبار، ليعلم أنه لو لم يتركه لادره الهلاك الأبدي. ثم يتذكر أن كل كاذب ساقط عن القلوب في الدنيا ولا يعتنى أحد بقوله، وكثيراً ما يفتضح عند الناس بظهور كذبه. ومن أسباب افتضاحه أن الله سبحانه يسلط عليه النسيان، حتى أنه لو قال شيئاً ينسى أنه قاله، فيقول خلاف ما قاله، فيفتضح. وإلى ذلك أشار الصادق عليه السلام بقوله: «إن مما أعان الله به على الكذابين النسيان». ثم يتأمل في الآيات والاختبار الواردة في مدح ضده، أعني الصدق كما يأتي، وبعد ذلك إن لم يكن عدواً لنفسه، فليقدم التروى في كل كلام يريد أن يتكلم به، فإن كان كذباً يتركه وليجتنب مجالسة الفساق وأهل الكذب، ويجالس الصالحاء وأهل الصدق.

وصل

(الصدق ومدحه)

ضد الكذب الصدق. وهو أشرف الصفات المرضية، ورئيس الفضائل النفسية، وما ورد في مدحه وعظم فائدته من الآيات والأخبار مما لا يمكن احصاؤه، قال الله سبحانه:

﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(١). وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(٢). وقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(٣). وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا - إِلَى قَوْلِهِ - أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(٤). وقال عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. ثُمَّ قَالَ: وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾^(٥).

وقال رسول الله ﷺ: «تقبلوا إلي بستان الجنة: إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا ائتمن فلا يخن و غضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم، واحفظوا فروجكم». وعن الصادق عليه السلام: «ان الرجل ليصدق حتى يكتبه الله صديقاً». وعن الصادق عليه السلام قال: «كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم، ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع». وعنه عليه السلام: «من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن بره بأهل بيته مد له في عمره». وعنه عليه السلام قال: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فان ذلك شيء اعتاده، ولو تركه لاستوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه واداء أمانته». وقال عليه السلام لبعض اصحابه: «انظر إلى ما

(١) الاحزاب، الآية ٢٣.

(٢) التوبة، الآية: ١١٩.

(٣) آل عمران، الآية: ١٧.

(٤) الحجرات، الآية: ١٥.

(٥) البقرة، الآية: ١٧٧.

بلغ به على ﷺ عند رسول الله ﷺ فالزمه، فان علياً ﷺ انما بلغ ما بلغ به عند رسول الله بصدق الحديث وأداء الامانة». وعنه ﷺ قال: «إن الله لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الامانة إلى البر والفاجر»^(١). وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كمل ايمانه ولو كان ما بين قرنه إلى قدمه ذنوب لم ينقصه ذلك - قال -: هي الصدق، وأداء الامانة، والحياء، وحسن الخلق». وقد وردت بهذه المضامين اخبار كثيرة اخر. ومن انواع الصدق الصدق في الشهادة، وهو ضد شهادة الزور والصدق في اليمين، وهو ضد الكذب فيه، والوفاء بالعهد، وهو ضد خلف الوعد، وهذا القسم من الصدق، أعنى الوفاء بالعهد، أفضل أنواع الصدق القولي وأحبها، ولذا اثنى الله تعالى على نبيه اسماعيل به، وقال:

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٢).

قيل: انه واعد انساناً في موضع فلم يرجع اليه، فبقى اثنين وعشرين يوماً في انتظاره. وروى: «أنه بايع رجل رسول الله ﷺ ووعدته أن يأتيه في مكانه ذلك، فنسى وعده في يومه وغده، واتاه في اليوم الثالث وهو في مكانه». وقال رسول الله: «العدة دين». وقال ﷺ: «الوأي - أي الوعد - مثل الدين أو أفضل».

تكميل

(أقسام الصدق)

الصدق كالكذب له أنواع ستة:

الاول - الصدق في القول، وهو الاخبار عن الاشياء على ما هي عليه، وكمال هذا النوع بترك المعارض من دون ضرورة، حذراً من تفهيم الخلاف وكسب القلب

(١) صححنا اغلب الاحاديث على (اصول الكافي): باب الصدق وأداء الامانة. وعلى (الوسائل): كتاب

الحج، باب وجوب الصدق. وعلى (المستدرک): ٢ / ٨٤ - ٨٩.

(٢) مريم، الآية: ٥٤.

صورة كاذبة، ورعاية معناه في الفاظه التي يناجى بها الله سبحانه، فمن قال: «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والارض» وفي قلبه سواء، أو قال: «اياك نعبد» وهو يعبد الدنيا بتقيد قلبه بها، إذ كل من تقيد قلبه بشيء فهو عبد له، كما دلت عليه الأخبار، فهو كاذب.

الثاني - الصدق في النية والارادة، ويرجع ذلك إلى الاخلاص، وهو تمحيض النية وتخليصها لله، بألا يكون له باعث في طاعاته، بل في جميع حركاته وسكناته، إلا الله. فالشوب يبطله ويكذب صاحبه.

الثالث - الصدق في العزم، أى الجزم على الخير: فان الانسان قد يقدم العزم على العمل، ويقول في نفسه: إن رزقنى الله كذا تصدقت منه كذا، وإن خلصنى الله من تلك البلية فعلت كذا. فان كان في باطنه جازماً على هذا العزم، مصمماً على العمل بمقتضاه، فعزمه صادق، وإن كان في عزمه نوع ميل وضعف وتردد، كان عزمه كاذباً، إذ التردد في العزيمة يضاد الصدق فيها، وكان الصدق هنا بمعنى القوة والتمامية، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، أى قوة تامة، أو شهوة كاذبة، أى ناقصة ضعيفة.

الرابع - الصدق في الوفاء بالعزم: فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لاشقة في الوعد، فإذا حان حين العمل بمقتضاه، هاجت الشهوات وتعارضت مع باعث الدين، وربما غلبته بحيث انحلت العزيمة ولم يتفق الوفاء بمتعلق الوعد، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال الله سبحانه:

﴿رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾^(١)

الخامس - الصدق في الاعمال: وهو تطابق الباطن والظاهر، واستواء السريرة والعلانية، أو كون الباطن خيراً من الظاهر، بألا تدل اعماله الظاهرة على أمر في باطنه

لا يتصف هو به، لا بأن يترك الاعمال بل بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر. وهذا أعلى مراتب الاخلاص، لإمكان تحقق نوع من الاخلاص بما دون ذلك، وهو أن يخالف الباطن الظاهر من دون قصد، فان ذلك ليس رياء. فلا يمتنع صدق اسم الاخلاص عليه.

توضيح ذلك: أن الرياء هو أن تقصد غير الله سبحانه في الاعمال، وقد تصدر عن انسان اعمال ظاهرة تدل على أنه صاحب فضيلة باطنة، من التوجه إلى الله والانس به، أو السكينة والوقار، أو التسليم والرضا وغير ذلك، مع أنه فاقد لها، لحصول الغلبة المانعة عن تحققها، أو اتفاق صدور الاعمال الظاهرة بهذه الهيئة من دون أن يقصد بها مشاهدة غيره سبحانه، فهذا غير صادق في عمله، كاذب في دلالة الظاهر على الباطن. وإن لم يكن مرائياً ولا ملتفتاً إلى الخلق، فاذن مخالفة الظاهر للباطن ان كانت من قصد سميت رياء، ويفوت بها الاخلاص، وان كانت من غير قصد سميت كذباً ويفوت بها الصدق، وربما لم يفت بها بعض مراتب الاخلاص. وهذا النوع من الصدق - أعني مساواة السر والعلانية أو كونه خيراً منها - أعز من الانواع السابقة عليه، ولذلك كرر طلبه من الله سيد الرسل ﷺ في دعواته بقوله: «اللهم اجعل سريري خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي سالحة». وورد: «أنه إذا ساوت سريرة المؤمن علانيته، باهى الله به الملائكة، يقول: هذا عبدي حقاً!». وكان بعض الأكابر يقول: «من يدلني على بكاء بالليل بسام بالنهار؟». ولنعم ما قيل:

إذا السر والاعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا
وان خالف الاعلان سرّاً فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا
كما خالص الدينار في السوق نافق ومغشوشه المردود لا يقتضى المنى
ومن جملة هذا الصدق: موافقة القول والفعل، فلا يقول ما لا يفعل ولا يأمر بما لا يعمل. فمن وعظ ولم يتعظ في نفسه كان كاذباً. ومن هنا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «انى والله ما احثكم على طاعة إلا واسبقكم اليها، ولا انهاكم عن معصية إلا وأتسهاى

قبلكم عنها».

السادس - الصدق في مقامات الدين: من الصبر، والشكر، والتوكل، والحب، والرجاء، والخوف، والزهد، والتعظيم، والرضا والتسليم، وغير ذلك. وهو اعلى درجات الصدق وأعزها، فمن اتصف بحقائق هذه المقامات ولوازمها وآثارها وغاياتها فهو الصديق الحق، ومن كان له فيها مجرد ما يطلق عليه الاسم دون اتصافه بحقائقها وآثارها وغاياتها فهو كاذب فيها. أما ترى أن من خاف سلطاناً أو غيره كيف يصفر لونه ويتعذر عليه أكله ونومه ويتنقص عليه عيشه ويتفرق عليه فكره وترتعد فرائضه وتتزلزل أركانه وجوانبه؟ وقد ينزح عن وطنه ويفترق عن أهله وولده، فيستبدل بالانس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة، فيعترض للاخطار ويختار مشقة الاسفار، كل ذلك من درك المحذور. فمثل هذه الخوف هو الخوف الصادق المحقق. ثم ان من يدعى الخوف من الله أو من النار، ولا يظهر عليه شيء من ذلك عند ارادة المعصية وصدورها عنه، فخوفه خوف كاذب. قال النبي ﷺ: «لم أر مثل النار نام هاربها، ولم أر مثل الجنة نام طالبها».

ثم لا غاية لهذه المقدمات حتى يمكن لأحد أن ينال غايتها، بل لكل عبد منها حظ بحسب حاله ومرتبته، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه غير متناهية، فلذلك لما رأى النبي ﷺ جبرئيل على صورته الأصلية، خر مغشياً عليه، وقال - بعد عودته إلى صورته الاولى وإفاقته -: «ما ظننت أحداً من خلق الله هكذا! قال له: فكيف لو رأيت اسرافيل؟ إن العرش على كاهله، وإن رجله قد مرقتا تخوم الارضين السفلى، وأنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع!»: أى كالعصفور الصغير. وقال ﷺ: «مررت ليلة اسرى بى - أنا وجبرئيل - بالملا الأعلى كالجلس البالى من خشية الله»: أى كالكساء الذي يلقي على ظهر البعير.

فانظر إلى اعظام الملائكة والنبيين، كيف تصير حالهم من شدة الخشية والتعظيم، وهذا انما هو لقوة معرفتهم بعظمة الله وجلاله، وفوق ما لم يدركوه من

عظمته وقدرته مراتب غير متناهية. باختلاف الناس في مراتب الخوف والتعظيم والحب والانس إنما هو بحسب اختلافهم في معرفة الله وليس يمكن ان يوجد من بلغ غايتها، باختلاف الناس إنما هو في القدر الذي يمكن أن يبلغ اليه، والبلوغ إليه في الجميع أيضاً نادر، فالصادق في جميع المقامات عزيز جداً.

ومن علامات هذا الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعاً، وكراهة اطلاع الخلق عليها. وقد روى: «أن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ: إنى إذا أحببت عبداً ابتليته ببلايا لا تقوى لها الجبال، لأنظر كيف صدقه، فان وجدته صابراً اتخذته ولياً وحبیباً، وان وجدته جزوعاً يشكونى إلى خلقى خذلته ولم ابال». وقال الصادق ﷺ: «إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب، فانظر في صدق معنك وعقد دعواك، وغيرهما بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة، قال الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُ بِالْحَقِّ﴾^(١).

فإذا اعتدل معنك بغور دعواك ثبت لك الصدق. وادنى حد الصدق الا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان، ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحته، إن لم ينزع فماذا يصنع»^(٢).

تنبيه

(اللسان أضر الجوارح)

اعلم أن أكثر ما تقدم من الرذائل المذكورة في هذا المقام: من الكذب والغيبة، والبهتان، والشماتة، والسخرية، والمزاح وغيرها، وفي المقام الثالث - أعنى التكلم بما لا يعنى والفضول والخوض في الباطل - من آفات اللسان وهو اضر الجوارح

(١) الاعراف، الآية: ٨

(٢) هذا الحديث في (مصباح الشريعة): الباب ٧٥ فصحنه عليه.

بالإنسان، واعظمها هلاكاً له، وآفاته اكثر من آفات سائر الأعضاء، وهي وان كانت من المعاصي الظاهرة، إلا أنها تؤدي إلى مساوئ الأخلاق والملكات. إذ الأخلاق انما ترسخ في النفس بتكرير الأعمال، والأعمال انما تصدر من القلب بتوسط الجوارح، وكل جارحة تصلح لأن تصدر منها الأعمال الحسنة الجالبة للأخلاق الجميلة، وأن تصدر منها الأعمال القبيحة المورثة للأخلاق السيئة، فلا بد من مراعاة القلب والجوارح معا بصرفهما إلى الخيرات ومنعهما من الشرور. وعمدة ما تصدر منه الذمائم الظاهرة المؤدية إلى الرذائل الباطنية هو اللسان، وهو أعظم آفة للشيطان في استغواء نوع الانسان، فمراقبته اهم، ومحافظة أوجب وألزم. والسرف فيه - كما قيل -: أنه من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فانه وإن كان صغيراً جرمه، عظيم طاعته وجرمه، إذ لا يتبين الايمان والكفر إلا بشهادته، ولا يهتدى إلى شيء من امور النشاطين إلا بدلالته، وما من موجود أو معدوم إلا وهو يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى، اذ كل ما يتناوله العلم يعبر عنه اللسان اما بحق أو باطل، ولا شيء إلا والعلم يتناوله.

وهذه خاصية لا توجد في سائر الاعضاء، اذ العين لا تصل إلى غير الالوان والصور، والاذن لا تصل إلى غير الأصوات، واليد لا تصل إلى غير الأجسام، وكذا سائر الأعضاء، واللسان رحب الميدان وسيع الجولان، وليس له مرد، ولا لمجاله منتهى ولا حد، فله في الخير مجال رحب، وفي الشر ذيل سحب، فمن اطلق عذبة اللسان واهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وأوقعه في اودية الضلالة والخذلان، وساقه الله شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى الهلاك والبوار، ولذلك قال سيد الرسل ﷺ: «هل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟»^(١). فلا ينجى من شر اللسان الا أن يقيد بلجام الشرع ولا يطلق الا فيما

(١) رواه في «اصول الكافي»: باب الصمت وحفظ اللسان، فصيحناه عليه.

ينفع في الدنيا والآخرة، ويكف عن كل ما يخشى غائلته في العاجلة والآجلة، وعلم ما يحمد اطلاق اللسان فيه أو يذم غامض عزيز، والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقیل عسير، وهو اعصى الأعضاء على الانسان، اذ لا تعب في تحريكه ولا مؤنة في اطلاقه، فلا يجوز التساهل في الاحتراز عن آفاته وغوائله، وفي الحذر عن مصائده وحبائله.

والآيات والأخبار الواردة في ذمه وفي كثرة آفاته وفي الأمر بمحافظته والتحذير عنه كثيرة، وهى بعمومها تدل على ذم جميع آفاته مما مر ومما يأتى. قال الله سبحانه:

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١). وقال: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ، إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «من يتكفل لى بما بين لحييه ورجليه، اتكفل له بالجنة». وقال ﷺ: «من وقى شر قبحه وذنبه ولقلقه، فقد وقى»^(٣): والقبب: البطن، والذبذب: الفرج، واللقلق: اللسان. وقيل له ﷺ: «ما النجاة؟ قال: إملك عليك لسانك». وقال ﷺ: «أكبر ما يدخل الناس النار الاجوفان: الفم، والفرج» والمراد بالفم: اللسان. وقال ﷺ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد السنتهم؟». وقال له رجل: «ما أخوف ما يخاف على؟ فاخذ بلسانه، وقال: هذا». وقال ﷺ: «لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه». وقال ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم أصبحت الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فانما نحن بك، فان استقممت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»^(٤).

(١) ق، الآية: ١٨

(٢) النساء، الآية: ١١٤.

(٣) تقدم هذا الحديث في ١ / ٢٨٧.

(٤) صححنا الحديث على (كنز العمال): ١١١ / ٢.

«وقال له رجل: أوصني! فقال ﷺ: أعبد الله كأنك تراه وعد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك لك من هذا كله - وأشار بيده إلى لسانه». وقال ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل، فليتنق الله امرؤ على ما يقول». وقال ﷺ: «من لم يحسب كلامه من عمله، كثرت خطاياه وحضر عذابه». وقال ﷺ: «يعذب الله اللسان بعذاب لا يعذبه به شيئاً من الجوارح، فيقول: أى رب! عذبتني بعذاب لم تعذب به شيئاً من الجوارح. فيقال له: خرجت منك كلمة بلغت مشارق الارض ومغاربها، فسفك بها الدم الحرام، وانتهب بها المال الحرام، وانتهك بها الفرج الحرام. وعزتي وجلالي! لأعذبنك بعذاب لا أعذب به شيئاً من جوارحك!». وقال ﷺ: «إن كان في شيء شؤم ففي اللسان». وقال أمير المؤمنين عليه السلام لرجل يتكلم بفضول الكلام: «يا هذا! إنك تملئ على حافظيك كتاباً إلى ربك، فتكلم بما يعينك، ودع ما لا يعينك»^(١).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «المرء مخبوء تحت لسانه، فزن كلامك، واعرضه على العقل والمعرفة، فإن كان لله وفي الله فتكلم، وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه، وليس على الجوارح عبادة أخف مؤنة وأفضل منزلة وأعظم قدراً عند الله كلام فيه رضى الله عز وجل ولوجهه ونشر آلائه ونعمائه في عباده، ألا إن الله لم يجعل فيما بينه وبين رسله معنى يكشف ما أسر اليهم من مكنونات علمه ومخزونات وحيه غير الكلام، وكذلك بين الرسل والامم، فثبت بهذا أنه أفضل الوسائل (والكلف والعبادة)^(٢). وكذلك لا معصية أثقل على العبد وأسرع عقوبة عند الله وأشدّها ملامة وأعجلها سامة عند الخلق منه، واللسان ترجمان الضمير وصاحب خبر القلب، وبه ينكشف ما في سر الباطن، وعليه يحاسب الخلق يوم القيامة، والكلام خمر يسكر

(١) صححتنا الاحاديث الاربعة على (اصول الكافي): باب الصمت وحفظ اللسان. وعلى (الوافي):

٣٤٠/٢. وعلى (البحار): ٢ مج ١٨٩، ١٨٨/١٥، باب السكوت والصمت.

(٢) وفي نسخ (جامع السعادات): «وألطف العبادة».

العقول ما كان منه لغير الله، وليس شيء أحق بطول السجن من اللسان»^(١). وقال السجاد عليه السلام: «إن لسان ابن آدم يشرف في كل يوم على جوارحه كل صباح، فيقول: كيف أصبحت؟ فيقولون بخير إن تركتنا! ويقولون: الله الله فينا! ويناشدون ويقولون: إنما نثاب ونعاقب بك». وقال الصادق عليه السلام: «ما من يوم إلا وكل عضو من أعضاء الجسد يكفر اللسان، يقول: نشدتك الله أن نعذب فيك!»^(٢).

تتميم

(الصمت)

لما علمت كون اللسان شر الأعضاء وكثرة آفاته وذمه، فاعلم أنه لانجاة من خطره إلا بالصمت، وقد اشير فيما سبق: أن الصمت ضد لجميع آفات اللسان، وبالمواظبة عليه تزول كلها، وهو من فضائل قوة الغضب أو الشهوة، وفضيلته عظيمة وفوائده جسيمة، فإن فيه جميع الهم، ودوام الوقار، والفراغ للعبادة والفكر والذكر، وللسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسناته في الآخرة. ولذا مدحه الشرع وحث عليه، قال رسول الله ﷺ: «من صمت نجا». وقال: «الصمت حكم، وقليل فاعله». وقال ﷺ: «من كف لسانه ستر الله عورته». وقال ﷺ: «ألا أخبركم بايسر العبادة وأهونها على البدن: الصمت وحسن الخلق». وقال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت». وقال ﷺ: «رحم الله عبداً تكلم خيراً فغنم، أو سكت عن سوء فسلم». وجاء إليه ﷺ أعرابي وقال: «دلتني على عمل يدخلني الجنة. قال: اطعم الجائع واسق الظمآن، وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، فإن لم تطق، فكف لسانك إلا من خير». وقال ﷺ: «اخزن لسانك إلا من خير، فانك بذلك

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٤٦.

(٢) الحديثان الاخيران مرويان في (الكافي): ج ٢ باب الصمت. قال في (الوافي): ٢ / ٣٤٠: «يكفر اللسان:

أى يذل ويخضع. والتكفير: هو ان ينحن الانسان ويطأطأ رأسه قريباً من الركوع».

تغلب الشيطان» وقال ﷺ: «إذا رأيتم المؤمن صموتاً وقوراً فادنوا منه، فإنه يلقي الحكمة». وقال ﷺ: «الناس ثلاثة: غانم، وسالم، وشاحب، فالغانم: الذي يذكر الله، والسالم: الساكت، والشاحب: الذي يخوض في الباطل». وقال ﷺ: «إن لسان المؤمن وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه، ثم أمضاه بلسانه. وإن لسان المنافق امام قلبه، فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه». وقال ﷺ: «أمسك لسانك، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك»... ثم قال: «ولا يعرف عبد حقيقة الايمان حتى يخزن من لسانه». وقال ﷺ لرجل اتاه: «ألا أدلك على امر يدخلك الله به الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله! قال: أنل مما أنالك الله! قال: فان كنت احوج ممن انيله؟ قال: فانصر المظلوم. قال: فان كنت أضعف ممن أنصره، قال: فاصنع للأخرق - يعني أشر عليه -. قال: فان كنت أخرج ممن اصنع له. قال: فاصمت لسانك إلا من خير، أما يسرك ان تكون فيك خصلة من هذه الخصال تجرك إلى الجنة؟». وقال ﷺ: «نجاه المؤمن حفظ لسانه». وجاء رجل اليه ﷺ فقال: «يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني! قال: احفظ لسانك. ويحك! وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟».

وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام: «دلنا على عمل ندخل به الجنة. قال: لا تنطقوا أبداً. قالوا: لا نستطيع ذلك. قال: فلا تنطقوا إلا بخير». وقال عليه السلام أيضاً: «العبادة عشرة اجزاء، تسعة منها في الصمت، وجزء في الفرار عن الناس». وقال: «لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله، فان الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون». وقال لقمان لابنه: «يا بني، إن كنت زعمت أن الكلام من فضة، فان السكوت من ذهب».

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «كان أبوذر يقول: يا مبتغي العلم، إن هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورقك».

وقال عليه السلام: «إنما شيعتنا الخرس». وقال الصادق عليه السلام لمولى له يقال له (سالم) - بعد أن وضع يده على شفتيه -: «يا سالم، احفظ لسانك تسلم، ولا تحمل الناس على رقابنا». وقال عليه السلام: «في حكمة آل داود: على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه. حافظاً للسانه». وقال عليه السلام: «لا يزال العبد المؤمن يكتب محسناً ما دام ساكناً، فإذا تكلم كتب محسناً أو مسيئاً». وقال عليه السلام: «النوم راحة للجسد، والنطق راحة للروح، والسكوت راحة للعقل». وقال عليه السلام: «الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل». وقال أبو الحسن الرضا عليه السلام: «احفظ لسانك تعز، ولا تمكن الناس من قيادك فتذل رقبتك». وقال عليه السلام: «من علامات الفقه: الحلم، والعلم، والصمت، ان الصمت باب من أبواب الحكمة، إن الصمت يكسب المحبة، انه دليل على كل خير». وقال عليه السلام: «كان الرجل من بنى اسرائيل إذا أراد العبادة صمت قبل ذلك بعشر سنين»^(١).

وفي (مصباح الشريعة) عن مولانا الصادق عليه السلام قال: «الصمت شعار المحققين بحقائق ما سبق وجف القلم به، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة، وفيه رضا الرب، وتخفيف الحساب والصون من الخطايا والزلل وقد جعله الله سترًا على الجاهل وزيناً للعالم، ومعه عزل الهوى، ورياضة النفس، وحلاوة العبادة، وزوال قسوة القلب، والعفاف والمروة والظرف. فاغلق باب لسانك عما لك منه بد، لا سيما إذا لم تجد أهلاً للكلام والمساعد في المذاكرة لله وفي الله. وكان ربيع بن خيثم يضع قرطاساً بين يديه، فيكتب كل ما يتكلم به ثم يحاسب نفسه عشية، ما له وما عليه، ويقول: آه آه! نجا الصامتون وبقينا. وكان بعض اصحاب رسول الله ﷺ يضع الحصاة في فمه، فإذا أراد ان يتكلم بما علم أنه لله وفي الله ولوجه الله أخرجها. وإن كثيراً من

(١) صححنا الاحاديث هنا على (اصول الكافي): باب الصمت. وعلى (الوسائل): كتاب الحج، الباب ١١٧

من احكام العشرة. وعلى (المستدرک): ٨٨/٢، ٨٩ وعلى (سفينة البحار): ٥٠/٢، ٥١. وعلى

(البحار): ٢ مج ١٨٩/١٥ باب السكوت والصمت. وعلى (احياء العلوم): ٩٣/٣-٩٥. وعلى (كنز

العمال): ٧٢/٢ و١١١.

الصحابة - رضوان الله عليهم - كانوا يتنفسون تنفس الغرقى، ويتكلمون شبه المرضى. وانما سبب هلاك الخلق ونجاتهم الكلام والصمت. فطوبى لمن رزق معرفة عيب الكلام وهوائه، وعلم الصمت وفوائده! فان ذلك من أخلاق الانبياء وشعار الاصفياء. ومن علم قدر الكلام أحسن صحبة الصمت ومن أشرف على ما في لطائف الصمت وأؤمن على خزائنه كان كلامه وصمته كله عبادة، ولا يطلع على عبادته هذه إلا الملك الجبار»^(١).

وقد ظهر من هذه الاخبار: أن الصمت مع سهولته أنفع للانسان من كل عمل، وكيف لا يكون كذلك، وخطر اللسان الذي هو أعظم الاخطار وآفاته التي هي أشد المهلكات لا ينسد إلا به؟ والكلام وان كان في بعضه فوائد وعوائد، إلا أن الامتياز بين الممدوح والمذموم منه مشكل، ومع الامتياز فالإقتصار على مجرد الممدوح عند اطلاق اللسان أشكل، وحينئذ فالصمت عما لا جزم بتضمنه للخير والثواب من الكلام أولى وأنفع.

وقد نقل: «أن أربعة من أذكى الملوك - ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر - تلاقوا في وقت، فاجتمعوا على ذم الكلام ومدح الصمت فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إنى إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكنى. وقال الثالث: عجبت للمتكلم، ان رجعت عليه كلمته ضرته، وان لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت». ومنها:

(١) مصباح الشريعة: الباب ٢٧.

حب الجاه والشهرة

والمراد بالشهرة: انتشار الصيت، ومعنى الجاه: ملك القلوب وتسخيرها بالتعظيم والاطاعة والانقياد له. وبعبارة أخرى: قيام المنزل في قلوب الناس، وانما تصير القلوب مملوكة مسخرة للشخص، باشتغالها على اعتقاد اتصافه بكمال حقيقى، أو بما يظنه كمالا، من علم وعبادة، أو ورع وزهادة، أو قوة وشجاعة، أو بذل وسخاوة، أو سلطنة وولاية، أو منصب ورياسة، أو غنى ومال، أو حسن وجمال، أو غير ذلك مما يعتقدونه الناس كمالا. وتسخير القلوب وانقيادها على قدر اعتقادها، وبحسب درجة ذلك الكمال عندها، فبقدر ما يعتقد أرباب القلوب تدعن له قلوبهم، وبقدر اذعانها تكون قدرته عليهم، وبقدر قدرته يكون فرحه وحبه للجاه. ثم تلك القلوب تبعث أربابها على المدح والثناء، فان المعتقد للكمال لا يسكت عن ذكر ما يعتقدونه فيثنى عليه، وعلى الخدمة والاعانة، فانه لا يبخل ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، وعلى الاثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقى والابتداء بالسلام وتسليم الصادر في المحافل والتقديم في جميع المقاصد.

(تنبيه) : حب الجاه والشهرة إن كان من حيث إيجابهما الغلبة والاستيلاء حتى ترجع حقيقة إلى حبهما، وكان طالبهما طالباً لهما، فهو من رذائل قوة الغضب، وإن كان من حيث التوصل بهما إلى قضاء الشهوات وحفظ النفس البهيمية، فهو من رذائل قوة الشهوة، وإن كان من الحيثيتين فهو من رذائلهما بالاشتراك، بمعنى مدخلية كل منهما في حدوث خصوص هذه الصفة. والاصل اشتراك القوتين في حدوث حب الجاه والشهرة - كما ذكرناه في جملة ما يتعلق بهما معاً - بخلاف حب المال، فان الغالب أن حبه من حيث التوصل به إلى قضاء حظوظ القوة الشهوية، وكونه لمجرد الاستيلاء عليه بالمالكية والتمكن على التصرف فيه نادر، ولذا ذكرناه فيما يتعلق بقوة الشهوة.

فصل

(ذم حب الجاه والشهرة)

اعلم ان حب الجاه والشهرة من المهلكات العظيمة، وطالبهما طالب الآفات الدنيوية والاخروية، ومن اشتهر اسمه وانتشر صيته لا يكاد أن تسلم دنياه وعقباه، إلا من شهره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب للشهرة منه. ولذا ورد في ذمهما ما لا يمكن احصاؤه من الآيات والاخبار: قال الله سبحانه:

﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ ۖ أَلَّذِينَ لَبِئْسَ لَهِمْ مَقِيلٌ ۚ لَا يَرْضَوْنَ لِبِئْسَ الْفِتْنَىٰ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١). وقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا نَفْسُهُ لَنُؤْفِقَنَّهُ ۚ لَنُؤْفِقَنَّهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْأُخْرَىٰ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وهذا بعمومه متناول لحب الجاه، لأنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا واكبر زينة من زينتها.

وقال رسول الله ﷺ: «حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل». وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الجاه والمال في دين الرجل المسلم». وقال ﷺ: «حسب امرئ من الشر إلا من عصمه الله أن يشير الناس إليه بالاصابع». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتذكر، وتعلم واكتم، واصمت تسلم، تسر الأبرار وتغيظ الفجار». وقال الباقر عليه السلام: «لا تطلبن الرياسة ولا تكن ذنباً، ولا تأكل الناس بنا فيفقرك الله». وقال الصادق عليه السلام: «اياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فو الله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك!». وقال عليه السلام: «ملعون من ترأس، ملعون من هم بها، ملعون من

(١) القصص، الآية: ٨٣.

(٢) هود، الآية: ١٥-١٦.

حدث بها نفسه!». وقال -عليه السلام-: «من أراد الرياسة هلك». وقال -عليه السلام-: «أترى لا أعرف خياركم من شراركم؟ بلى والله! إن شراركم من أحب أن يوطأ عقبه، أنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي»^(١).

والأخبار بهذه المضامين كثيرة، ولكثرة أفاتها لا يزال اكابر العلماء وأعاضم الاتقياء يفرون منهما فرار الرجل من الحية السوداء، حتى أن بعضهم إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة قام من مجلسه، وبعضهم يبكي لأجل أن اسمه بلغ المسجد الجامع، وبعضهم إذا تبعه أناس من عقبه التفت إليهم وقال: «على مَ تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجالان». وبعضهم يقول: «لا أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح». وآخر يقول: «لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس». وآخر يقول: «والله ما صدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه».

ومن فساد حب الجاه: أن من غلب على قلبه حب الجاه، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم والمرآاة لأجلهم، ولا يزال في اقواله وافعاله متلفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد، ويجر لا محالة إلى التساهل في العبادات والمرآاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل بها إلى اقتناص القلوب، ولذلك شبه رسول الله حب الشرف والمال وفسادهما للدين بذئبين ضارين، وقال: «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل»، إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول والفعل، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس يضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها، وذلك عين النفاق.

(١) الأحاديث الخمسة الأخيرة صحتها على (أصول الكافي): باب طلب الرياسة. (الوسائل): كتاب

الجهاد، الباب ٤٩ من أبواب جهاد النفس.

فصل

(الجاه أحب من المال)

إن لملك القلوب ترجيح على ملك المال بوجوه:

الأول - أن المال معرض التلف والزوال، لأنه يغصب ويسرق وتطمع فيه الملوك والظلمة، ويحتاج فيه إلى الحفظ والحراسة وتتطرق إليه أخطار كثيرة. وأما القلوب إذا ملكت، فهي من هذه الآفات محفوظة، نعم إنما يزول ملك القلوب بتغيير اعتقادها فيما صدقت به من الكمال الحقيقي أو الوهمي.

الثاني - أن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه، فالعالم أو الزاهد الذي تقرر له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال تيسر له بسهولة، لأن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب، ومبذولة لمن أذعنت له بالانقياد واعتقدت فيه أوصاف الكمال، وأما الخسيس العارى عن الكمال إذا ظفر بكثرة من المال ولم يكن له جاه يحفظ به ماله وأراد أن يتوصل به إلى الجاه، لم يتيسر له.

الثالث - أن ملك القلوب يسرى وينمو ويتزايد من غير حاجة إلى تعب ومشقة، إذ القلوب إذا أذعنت بشخص واعتقدت اتصافه بعلم أو عمل أو غيره، أفصححت اللسان بما فيها لا محالة، فيصف ما يعتقد له غيره وهو أيضا يذعن به ويصفه لآخر، فلا يزال يستطار في الاقطار، ويسرى من واحد إلى واحد، إلى أن يجتمع معظم القلوب على التعظيم والقبول. وأما المال، فمن ملك شيئاً منه فلا يقدر على استنمائه إلا بتعب ومقاساة. ولهذه الوجوه تستحق الأموال في مقابلة عظم الجاه وانتشار الصيت وانطلاق اللسان بالمدح والثناء.

فصل

(لا بد للانسان من جاه)

كما أنه لا بد من أدنى مال لضرورة المطعم والملبس والمسكن ومثله ليس

بمذموم، فكذلك لابد من ادنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق، إذ الانسان كما لا يستغنى عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام، فكذلك لا يستغنى عن خادم يخدمه ورفيق يعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار، فجهه لأن يكون له في قلب خادمه من المنزلة ما يدعوه إلى الخدمة وفي قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته، وفي قلب السلطان من المحل ما يدفع به الشر عنه، ليس بمذموم. إذ الجاه كالمال وسيلة إلى الاغراض، فلا فرق بينهما، إلا أن هذا يقضى إلى ألا يكون المال والجاه محبوبين باعيانهما بل من حيث التوصل بهما الى غيرهما. ولا ريب في أن كل ما يراد به التوصل إلى محبوب فالمحبوب هو المقصود المتوسل إليه دون الوسيلة.

ومثل هذا الحب مثل حب الانسان أن يكون في داره بيت الخلاء لقضاء حاجته، ولو استغنى عن قضاء الحاجة ولم يضطر اليه، كره اشتغال داره على بيت الخلاء، ومثل أن يحب زوجته ليدفع بها فضلة الشهوة، ولو كفى مؤنة الشهوة لأحب مهاجرتها، وإذا كان حبهما لضرورة البدن والمعيشة لذاتهما، لم يكن مذموماً، والمذموم أن يحبهما لذاتهما. وفيما يجاوز ضرورة البدن كحب زوجته لذاتها حب العشاق حتى لو كفى مؤنة الشهوة لَبقي مستصحباً لحبها.

ثم حبهما باعيانهما وان كان مذموماً مرجوحاً، لكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بكذب وخداع وتلبيس، كأن يظهر للناس قولاً أو فعلاً اعتقدوا لأجله اتصافه بوصف ليس فيه، مثل العلم والورع أو علو النسب، وبذلك يطلب قيام المنزلة في قلوبهم، وما لم يتوصل إلى اكتسابهما بعبادة، إذ التوصل إلى المال والجاه بالعبادة جناية على الدين وهو حرام، وإليه يرجع معنى الرياء المحذور، كما يأتي.

وأما طلبهما بصفة هو متصف بها، فهو مباح غير مذموم، وذلك كقول

يوسف عليه السلام:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾^(١).

حيث طلب المنزلة في قلب الملك بكونه حفيظاً عليهما، وكان صادقاً في قوله. وكذا طلبهما باخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه، حتى لا يعلمه فلا تزول به منزلته في قلبه، مباح غير مذموم، إذ حفظ الستر على القبائح جائز، بل لا يجوز هتك الستر وإظهار القبيح، وهذا ليس فيه كذب وتلبيس بل هو سد لطريق العلم بما لا فائدة للعلم به، كالذي يخفى عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع، فان قوله إنه ورع تلبيس، وعدم اقراره بالشرب لا يوجب اعتقاد الورع، بل يمنع العلم بالشرب، وهو جائز شرعاً وعقلاً.

فصل

(دفع اشكال في حب المال والجاه)

إن قيل: الوجه في حبهما بالعرض وفي حب قدر ما يضطر اليهما في المعيشة وضرورة البدن ظاهر، فما الوجه في حبهما باعيانهما وفي حب الزائد عن قدر الضرورة منهما؟ كحب جمع المال، وكنز الكنوز، وادخار الذخائر، واستكثار الخزائن وراء جميع الحاجات، وحب اتساع الجاه وانتشار الصيت إلى اقاصى البلاد التي يعلم قطعاً أنه قط لا يطؤها ولا يشاهد أهلها ليعضموه ويعينوه على غرض من أغراضه، فانه مع ذلك يلتذ به غاية الالتذاذ ويسر به غاية السرور، حتى لا يجد في نفسه لذة أقوى منه، ويراه فوق جميع لذاته وابتهاجاته.

قلنا: الوجه في ذلك أمران:

الاول - دفع ألم الخوف الناشئ من سوء الظن وطول الأمل. فان الإنسان وإن كان له من المال ما يكفيه في الحال، إلا انه لطول أمله قد يخطر بباله ان المال الذي

(١) يوسف، الآية: ٥٥.

فيه كفايته ربما يتلف فيحتاج إلى غيره، فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوف في قلبه، ولا يزال ألم الخوف إلا بالأمن الحاصل من وجود مال آخر يفرع إليه إن أصابت هذا المال آفة، فهو أبداً لحبه للحياة وشفقته على نفسه يقدر طول الحياة وهجوم الحاجات، ويقدر امكان تطرق الآفات إلى الاموال ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلب ما يدفع خوفه، وهو كثرة المال، حتى ان اصيب بطائفة من ماله يفرع إلى الأخرى. وهذا خوف لا موقف له عند مقدار مخصوص من المال، ولذلك لم يكن لميله موقف إلى أن يملك جميع ما في الدنيا، ولذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال». ومثل هذه العلة ترد في حب قيام المنزلة والجاه في قلوب الاباعد عن وطنه وبلده، فانه لا يخلو عن تقدير سبب يزعجه عن الوطن، أو يزعج أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاج إلى الاستعانة بهم ومهما كان ذلك ممكناً، كان للنفس لذة وسرور بقيام المنزلة في قلوبهم، لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

الثاني - أن الانسان مركب من اصول مختلفة: هي القوة الشهوية، والقوة السبعية، والقوة الشيطانية، والروح الذي هو أمر رباني، ولذلك له ميل إلى صفات بهيمية، كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبعية، كالقتل والايذاء، وإلى صفات شيطانية، كالمر والخديعة والاغواء، وإلى صفات ربوبية، كالعلم والقدرة والكبر والعز والفخر والاستعلاء. فهو لما فيه من الأمر الرباني يحب الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحد بالكمال، والتفرد بالوجود على سبيل الاستقلال، والاستيلاء على جميع الأشياء بالغلبة، واستناد الكل إليه بالصدور منه والمعلولية.

وبالجملة : مقتضى الربوبية التفرد بالوجود والكمال ورجوع كل وجود وكمال إليه، إذ هو التام فوق التمام، ولا يتحقق ذلك إلا بالتفرد بالوجود والكمال والقدرة والاستيلاء على جميع ما عداه. إذ المشاركة في الوجود نقص لا محالة، فكمال الشمس في أنها موجودة وحدها، فلو كانت معها شمس أخرى كان ذلك نقصاناً في

حقها، إذ لم تكن متفردة بكمال معنى الشمسية فإذا كان معنى الربوبية هو التفرد بالوجود والكمال، وكل انسان كان فيه أمر رباني، فالتفرد بالوجود والكمال محبوب له بالطبع، وضده - أعنى العبودية - قهر على نفسه، لأنه علم أن المتفرد بالوجود والكمال هو الله تعالى، اذ ليس معه موجود سواء، فان ما سواه أثر من آثار قدرته لا قوام له بذاته، بل هو قائم به، وليس له معية بالوجود بالنسبة إليه تعالى، إذ المعية توجب المساواة في الرتبة، وهى نقصان في الكمال، إذ الكمال الحقيقى من لا نظير له في الوجود، والكمال بوجه من الوجوه وان كان لغيره وجود وكمال بعد كونه صادراً منه معلولاً له، اذ تحقق الموجودات وذوات الممكنات لا يوجب نقصاناً في ذاته سبحانه بعد استنادها جميعها اليه، وكونها أضعف منه بمراتب غير متناهية في الوجود والكمال شدة وقوة، فكما ان اشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وانما نقصانها بوجود شمس أخرى مساوية لها في الرتبة مستغنية عنها، فكذلك وجود كل ما في العالم إذا كان من اشراق نور القدرة الإلهية تابعاً لها، لم يكن ذلك نقصاناً في الواجب سبحانه، بل كان كمالاته.

ولما علم ذلك، وتيقن بأن التفرد بالوجود والكمال والاستيلاء التام على جميع الاشياء لا يليق به، لأنه عبد مملوك مقهور تحت القدرة الإلهية، عرف أنه عاجز عن درك منتهى الكمال الذي هو التفرد بالوجود والاستيلاء اى كون وجود غيره منه. إلا أنه لم تسقط شهوته للكمال، بل هو محب له ملتذ به لذاته لا لمعنى آخر وراء الكمال، وطالب لتحصيل ما يتمكن منه. فمطلق الكمال محبوب عنده، إلا أن طلبه إنما يتعلق بالكمال الممكن في حقه ومن الكمال الممكن في حقه أن يحصل له نوع استيلاء على كل الموجودات، فكان ذلك محبوباً عنده ومطلوباً له. ولما كانت الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيير، كذات الواجب وصفاته وعالم المجردات، وإلى ما يقبل التغيير ولكن لا تستولى عليه قدرة الخلق بالتصرف، كالأفلاك والكواكب وملكوت السماوات ونبفس الملائكة والجن والشياطين

والجبال والبحار وغير ذلك، والى ما يقبل التغير وتستولى عليه قدرة العباد، كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الأدميين ونفوسهم لكونها قابلة للتغيير والتأثير مثل أجسادهم وأجساد سائر الحيوانات - فلم يكن للانسان أن يتصور إمكان استيلائه على الكل بالتصرف فيه، فلم يتعرض لطلب ذلك، بل أحب في كل منها نوع الاستيلاء الذي يمكن في حقه والاستيلاء الذي يمكنه في حقه بالنظر إلى القسمين الأولين هو الاحاطة عليه بالعلم والاطلاع على اسراره، لأن ذلك نوع استيلاء. اذ المعلوم المحاط به تحت القدرة، والعالم كالمستولى عليه. ولذلك أحب الانسان ان يعرف الواجب تعالى والملائكة والافلاك والكواكب وعجائب الملك والملكوت، لأن ذلك نوع استيلاء، والاستيلاء، نوع كمال.

وأما القسم الثالث، فيمكنه أن يستولى عليه بالتصرف فيه كيف يريد فيقدر على الأراضى والاملاك بأن يتصرف فيها بالحيازة والضبط والزرع والغرس، وعلى الأجساد الأرضية الحيوانية والنباتية والجمادية بالركوب والضبط والحمل والرفع والوضع والتسليم والمنع، وعلى نفوس الأدميين وقلوبهم بأن تكون مسخرة متصرفه تحت اشارته وارادته وصيرورتها محبة له باعتقاد الكمال فيه. ولكون هذا النوع من الاستيلاء نوع كمال، أحب الانسان هذا الاستيلاء على الأموال والقلوب، وإن كان لا يحتاج اليهما في ملبسه ومطعمه وفي شهوات نفسه، ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأحرار ولو بالقهر والغلبة. وقد ظهر مما ذكر: أن محبوب النفس بذاتها هو الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه محبوب لكونه من أسباب القدرة. ولما كانت المعلومات والمقدورات غير متناهية، فلا يكاد أن تقف النفس إلى حد من العلم والقدرة، ولهما درجات غير متناهية، فسرور كل نفس ولذتها بقدر الدرجة التي تدركها.

فصل

(الكمال الحقيقي في العلم والقدرة لا المال والجاه)

لما عرفت أن المحبوب عند الانسان هو العلم والقدرة والمال والجاه لكونها كمالا، فاعلم أنه اشتبه الأمر عليه باغواء الشيطان، حيث التبس عليه الكمال الحقيقي بالوهمي، وتيقن بكون جميع ذلك كمالا وأحبه. إذ التحقيق أن بعضها كمال حقيقي وبعضها كمال وهمي لا اصل له، والسعي في طلبه جهل وخسران وتضييع وقت وخذلان.

بيان ذلك: أنه لا ريب في عدم كون المال والجاه كمالا، لأن القدرة والاستيلاء على أعيان الاموال بوجوه التصرف وعلى القلوب والأبدان بالتسخير والانقياد ينقطع بالموت، فمن ظن ذلك كمالا فقد جهل. فالخلق كلهم في غمرة هذا الجهل، فانهم يظنون أن القدرة على الأجساد بقهر الحشمة، وعلى أعيان الأموال بسعة الغنى، وعلى تعظيم القلوب بسعة الجاه كمال. ولما اعتقدوا كون ذلك كمالا أحبوه، ولما أحبوه طلبوه، ولما طلبوه شغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقي الذي يوجب القرب من الله، أعنى العلم والحرية كما يأتي. فهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون، وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى:

﴿أَلَمْآلَ وَالنَّبُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالنَّبَقِيَّتُ الصَّٰلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾^(١).

فالعلم والحرية وفضائل الأخلاق هي الباقيات الصالحات التي تبقى كمالا للنفس بعد خراب البدن، والمال والجاه هو الذي ينقضى على القرب، وهو كما مثله الله تعالى، حيث قال:

(١) الكهف، الآية: ٤٦.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ...﴾^(١).

وكل ما تذروه رياح الموت فهو زهرة الحياة الدنيا، وكل ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات.

فقد ظهر أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال وهمي لا أصل له، وأن من قصر الوقت على طلبه وظنه مقصوداً فهو جاهل، إلا قدر البلغة منها إلى الكمال الحقيقي. وأما العلم، فلا ريب في كون ما هو حقيقة العلم كمالاً حقيقياً، إذ الكمال الحقيقي هو الذي يقرب من يتصف به من الله ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت. ولا شك في أن العلم بالله وبصفاته وأفعاله وحكمته في ملكوت السماوات والأرض وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به هو المقرب للعبد إلى الله، إذ هو علم ثابت لا يقبل التغيير والانقلاب، إذ معلوماته أزلية أبدية وليس لها تغيير وانقلاب، حتى يتغير العلم بتغيرها مثل التغيرات التي يتغير العلم بها بتغيرها وانقلابها، كالعلم بكون زيد في الدار.

فهو علم ثابت أزلاً وأبداً من دون تغير واختلاف، كالعلم بجواز الجائزات ووجوب الواجبات واستحالة المستحيلات. فهذا العلم - أعني معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله - هو الكمال الحقيقي الذي يبقى بعد الموت وينطوي فيه العلم بالنظام الجملي الأصلح وجميع المعارف المحيطة بالموجودات وحقائق الأشياء، إذ الموجودات كلها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعل الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والارادة والحكمة، كانت هذه المعرفة من تكملة معرفة الله التي تبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون نوراً للعارفين بعد الموت يسعى بين أيديهم وأيمانهم: «يقولون ربنا أتمم لنا نورنا»، وهي رأس مال يوصل إلى كشف مالم ينكشف في الدنيا، كما أن من معه سراج خفي، فانه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراج

آخر يقتبس منه، فيكمل النور بذلك النور الخفى على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصل السراج لا مطمع له في ذلك. فمن ليس له أصل معرفة الله لم يكن له مطمع في هذا النور، بل هو في «ظلمات في بحر لجى، يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض».

وما عدا هذه المعرفة من المعارف، إما لا فائدة فيه أصلاً، كمعرفة الشعر وأنساب العرب ومثلها، أو له منفعة في معرفة الله، كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، ومعرفة طريق تركية النفس التي تفيد استعداداً لقبول الهداية إلى معرفة الله، كما قال تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا﴾^(١). وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٢).

فهو من حيث إنه وسيلة إلى معرفة الله وإلى تحصيل الحرية مما لا بد منه بالعرض.

ثم ان المعرفة التي هي كمال حقيقى للانسان ليس كمال العلم وغايته، إذ لا يتصور كمال العلم ونهايته إلا للواجب تعالى، إذ كمال العلم انما يتحقق بامور ثلاثة: الأول - أن يحيط بكل المعلومات، ولا يتحقق ذلك في علم البشر. إذ ما أوتى من العلم إلا قليلاً، بل العلم الذي يحيط بجميع المعلومات هو علم الله تعالى، وعلم العبد انما يتحقق ببعض المعلومات، وكلما كانت معلوماته اكثر كان علمه أقرب إلى علم الله تعالى.

الثانى - ان يتعلق بالمعلوم على ما هو به، ويكون المعلوم منكشفاً واضحاً في غاية الإنكشاف والوضوح، بحيث لا يقبل انكشافاً أتم منه. وهذا أيضاً غير ممكن التحقيق في حق الانسان، إذ علمه لا يخلو عن كدرة وابهام، بل الكشف التام الذي

(١) الشمس، الآية: ٩.

(٢) العنكبوت، الآية: ٦٩.

هو غاية الظهور والانجلاء مختص بعلم الله تعالى، إذ معلوماته مكشوفة بآتم انواع الكشف على ما هي عليها، وعلم العبد له ببعض مراتب الانكشاف، فكلما كان اجلى وأوضح وأتقن وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفاته، كان أقرب إلى علم الله.

الثالث - أن يكون باقياً أبداً الآباد، بحيث لا يتغير ولا يزول. وهذا أيضاً مختص بعلم الله تعالى، إذ علمه تعالى باق لا يتصور أن يختلف ويتغير ويزول، وعلم الانسان يتغير ويزول، فكلما كان علمه بمعلومات لا تقبل التغير والانقلاب، كان اقرب إلى علم الله تعالى.

هذا، ومن الكمالات للانسان: التحلى بفضائل الأخلاق والصفات، لإيجابها صفاء النفس المؤدى إلى البهجة الدائمة والحرية، أعنى الخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر، تشبهاً بالملائكة الذين لا تستغرقهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب، إذ رفع آثار الشهوة والغضب من النفس كمال حقيقى، لأنه من صفات الملائكة. ومن صفات الكمال لله سبحانه عدم تطرق التغير والتأثير على حريم كبريائه، فمن كان عن التغير والتأثر بالعوارض أبعد كان إلى الله أقرب.

وأما القدرة، فقد قال بعض العلماء: «أما القدرة فليس فيها كمال حقيقى للعبد، إذ القدرة الحقيقية لله، وما يحدث من الأشياء عقيب ارادة العبد وقدرته وحركته، فهى حادثة باحداث الله تعالى. نعم، له كمال من جهة القدرة بالاضافة إلى الحال، وهى وسيلة إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوة يده للبطش، ورجله للمشى، وحواسه للادراك، فان هذه القوى آلة للوصول به إلى حقيقة كمال العلم، وقد يحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه للتوصل به إلى المطعم والملبس، وذلك إلى قدر معلوم، فان لم يستعمله للوصول به إلى معرفة الله فلا خير فيه ألبتة، إلا من حيث اللذة الحالية التي تنقضى على القرب، ولا طريق للعبد إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على كل شىء من الأرضيات، كالمال والأبدان والنفوس، تنقطع بالموت».

وأنت خبير بأن تحقق نوع قدرة للعباد مما لا ريب فيه، وإن كانت أسبابها وأصلها من الله سبحانه، إلا أن القدرة على الامور الدنيوية الفانية كالمال والأشخاص وغير ذلك، ليست كمالاتاً حقيقياً، لزوالها بالموت. نعم، الحق ثبوت القدرة النفسية للعبد - أعني تأثير نفسه في الغير من الكائنات تأثيراً روحانياً معنوياً، كما هو ظاهر من تأثير بعض النفوس في الانسان والحيوان والنبات والجماد بأنواع التأثيرات، ومثل هذه القدرة تبقى للنفوس بعد الموت ولذا ترى أن من يستغيث ببعض النفوس الكاملة من الأموات يرى منها عجائب التأثيرات والاستفاضات، فما ذكره بعض العلماء من عدم بقاء قدرة للنفوس بعد الموت محل النظر.

وقد ظهر بما ذكر: أن الكمال الحقيقي للانسان هو العلم الحقيقي وفضائل الأخلاق والحرية والقدرة.

فصل

(علاج حب الجاه)

اعلم ان علاج حب الجاه مركب من علم وعمل. وعلاجه العلمي: أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه - وهو كمال القدرة على اشخاص الناس وعلى قلوبهم ان صفا وسلم - فأخره الموت، فليس هو من الباقيات الصالحات بل لو سجد له كل من على وجه الأرض إلى خمسين سنة أو اكثر لا بد بالآخرة من موت الساجد والمسجود له، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوى الجاه مع المتواضعين له. ولا ينبغي للعاقل أن يترك بمثل ذلك الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها. ومن فهم الكمال الحقيقي والكمال الوهمي - كما سبق - صغر الجاه في عينه، إلا أن ذلك انما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ويستحققر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده، وأبصار اكثر الخلق ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب، كما قال الله تعالى:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرَ وَأَبْقَى﴾^(١). وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾^(٢).

فمن هذه مرتبته، فينبغي ان يعالج قلبه من حب الجاه بمعرفة الآفات العاجلة، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا فان كل ذى جاه محسود مقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ولا يزال في الاضطراب والخوف من أن تتغير منزلته في القلوب. مع أن قلوب الناس أشد تغيراً وانقلاباً من القدر في غليانه، وهى مرددة بين الاقبال والاعراض، فكلما يبنى على قلوب الخلق يضاهى ما يبنى على أمواج البحر فانه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع اذى الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والآجل كل ذلك غموم عاجلة مكدره للذة الجاه، فلا يبقى في الدنيا أيضاً مرجوها بمخوفها، فضلاً عما يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالج البصيرة الضعيفة وأما من نفذت بصيرته وقوى إيمانه فلا التفات له إلى الدنيا. فهذا هو العلاج العلمي.

وأما العلاج العملي: فاسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالانس بضد الجاه الذي هو الخمول ويقنع بالقبول من الخالق، وأقوى العلاج لقطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى مواضع الخمول، لا مجرد الاعتزال في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور، لأن المعتزل في بيته في البلدة التي هو فيها مشهور عند أهلها لا يخلو بسبب عزلته عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب، فربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور، وانما سكنت نفسه لأنها ظفرت بمقصودها، ولو تغير الناس عما اعتقدوا فيه ودموه أو نسبوه إلى امر غير لائق، ربما جزعت نفسه وتألمت وتوصلت الى الاعتذار من ذلك واماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن

(١) الأعلى، الآية: ١٦ - ١٧.

(٢) القيامة، الآية: ٢٠ - ٢١.

قلوبهم إلى كذب وتليس ولا يبالى به، وبه يتبين انه بعد محب للجاه والمنزلة، ولا يمكنه ألا يحب المنزل في قلوب الناس مادام يطمع في الناس، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة. فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب وزن عنده، بل من لم يطمع في الناس وكان من أهل المعرفة، كان الناس عنده كالبهائم، فكيف يكون طالباً لقيام منزلته في قلوبهم؟

والحاصل: أن الغالب والباعث على قيام المنزل في قلوب الناس هو الطمع منهم، ولذا ترى انك لا تطلب قيام منزلتك في قلوب من في أقصى المشرق أو المغرب، لعدم طمع لك فيهم، ثم ينبغي أن يستعين على المعالجة بالأخبار الواردة في ذم الجاه - كما مر - وفي مدح الخمول، كما يأتي.

فصل

(حب الخمول)

ضد حب الجاه والشهرة حب الخمول، وهو شعبة من الزهد، كما أن حب الجاه شعبة من حب الدنيا. فحب الدنيا والزهد ضدان.

ثم الخمول من صفات المؤمنين وخصال الموقنين، وقد كانت طوائف العرفاء المتوحدين ومن يماثلهم من سلفنا الصالحين محبين له طالبين إياه، وكل من عرف الله وأحبه وأنس به، كان محباً للخمول متوحشاً من الجاه وانتشار الصيت، كما تنادى به كتب السير والتواريخ. وقد وردت بمدحه أخبار كثيرة، كقول رسول الله ﷺ: «إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إذا غابوا لم يفقدوا، وإذا حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصاييح الهدى، يتحول من كل غبراء مظلمة». وقوله ﷺ: «رب ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، لو قال: اللهم أسألك الجنة! لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً». وقوله ﷺ: «ألا أدلكم على أهل

الجنة؟ كل ضعيف مستضعف، لو أقسم على الله لأبره». وقوله ﷺ: «إن أهل الجنة كل اشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الامراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم. حوائج أحدهم تتخلخل في صدره، لو قسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم». وقوله ﷺ: «إن من امتي من لو اتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه، أو يسأله درهما لم يعطه إياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه إياه، ولو سأل الدنيا لم يعطها إياه، وما منعها إياه لهوانه عليه». وقوله ﷺ: «قال الله عز وجل: إن من أغبط أوليائي عندي رجلاً حفيف الحال، ذا حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه بالغيب، وكان غامضاً في الناس، جعل رزقه كفافاً فصبر عليه، عجلت منيته فقل تراثه وقل بواكيه»^(١). وورد: «أن الله تعالى يقول في مقام الامتنان على بعض عبيده: ألم أنعم عليك؟ ألم استرك؟ ألم أخمل ذكرك؟». وقال بعض خيار الصحابة: «كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، احلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب: تعرفون في أهل السماء، وتخفون في أهل الأرض». ومن اطلع على أحوال اكابر الدين والسلف الصالحين من ايثارهم الخمول والذل على الجاه والشهرة والغلبة، ثم في ما ورد في مدحهما من الأخبار، تيقن بأنهما من أوصاف المؤمنين، ولا بد للمؤمن من الاتصاف بهما، ولذا ورد: «أن المؤمن لا يخلو عن ذلة أو علة أو قلة».

ومنها:

حب المدح

وكراهة الذم. وهما من نتائج حب الجاه، ومن المهلكات العظيمة، إذ كل محب للمدح والثناء خائف من الذم، يجعل أفعاله وحركاته على ما يوافق رضا الناس،

(١) تقدم الحديث في ١/ ١٢٨، وذكرنا في التعليقة تفسير معنى (حفيف).

رجاءاً للمدح وخوفاً من الذم. فيختار رضا المخلوق على رضا الخالق، فيرتكب المحظورات ويترك الواجبات، ويتهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعدى عن الانصاف والحق، وكل ذلك من المهلكات، وليس للمؤمن أن يحوم حولها، بل المؤمن من لم يؤثر قط رضا المخلوق على رضا الخالق، ولا تأخذه في الله لومة لائم. ولعظم فساد حب المدح وبغض الذم ورد في ذمهما ما ورد في الأخبار، قال رسول الله ﷺ: «إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء». وقال ﷺ: «رأس التواضع أن تكره أن تذكر بالبر والتقوى». وقال ﷺ: «لرجل اتنى على آخر بحضرته: لو كان صاحبك حاضراً فرضى بالذى قلت فمات على ذلك، دخل النار». وقال ﷺ: «لما مدح آخر: ويحك! قطعت ظهره! ولو سمعتك ما أفلح إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «ألا لاتمادحوا! وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب». وقال ﷺ: «ويل للصائم! وويل للقائم! وويل لصاحب التصوف! إلا من... فقليل: يا رسول الله، إلا من؟ فقال: إلا من تنزهت نفسه عن الدنيا، وأبغض المدحة واستحب المذمة».

فصل

(مراتب حب المدح وكراهة الذم)

اعلم أن لحب المدح وكراهة الذم مرتبتين: أولاهما: أن يفرح بالمدح ويشكر المادح، ويغضب من الذم ويحقد على الذام، ويكافيه أو يحب مكافاته. وهذا حال أكثر الخلق، ولاحد لاتمها. وأخراهما: أن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظ ظاهره من اظهار السرور، ويتبغض في الباطن على الذام، ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن مكافاته. وهذه وإن كانت نقصاناً، إلا أنها بالنظر إلى الاولى كمال.

وباعتبار آخر، لحب المدح درجات:

الاولى - أن يتمنى المدح وانتشار الصيت بحيث يتوصل إلى نيلهما بكل

ممکن، حتى يرائى بالعبادات ولا يبالى بمفارقة المحظورات، لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح. وهذا من الهالكين.

الثانية - أن يريد ذلك ويطلبه بالمباحات لا بالعبادات وارتكاب المحظورات، وهذا على شفا جرف الهلاك. اذ حدود الكلام والأعمال التي يستميل بها القلوب لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقع فيما لا يحل له ليتوصل به إلى نيل المدح. فهو قريب من الهالكين.

الثالثة - ألا يريد المدح ولا يسعى لطلبه، ولكن إذا مدح سر وارتاح، من غير وجدان كراهة في نفسه لهذا السرور والارتياح. وهذا أيضاً نقصان، وإن كان أقل اثماً بالاضافة إلى ما قبله.

الرابعة - أن يسر ويرتاح، ولكن كره هذا السرور والارتياح، وكلف قلبه كراهة المدح وبغضه، وهو في مقام المجاهدة، ولعل الله يسامحه إذا بذل جهده. ومع ذلك لم يقدر على ربط نفسه على كراهة المدح دائماً.

فصل

(أسباب حب المدح)

حب المدح والثناء له أسباب:

الأول - شعور النفس بكمالها، فإن الكمال لما كان محبوباً فمهما شعرت النفس بكمالها ارتاحت واهتزت وتلذذت، والمدح يشعر نفس الممدوح بكمالها، فإن كان ما به المدح وصفاً مشكوكاً فيه صادر عن خبير بصير لا يجازف في القول، كالوصف بكمال العلم والورع وبالحسن المطلق، فاللذة فيه عظيمة لأن الإنسان ربما كان شاكاً في كمال علمه وكمال حسنه ويكون شائقاً لزوال هذا الشك، فإذا ذكره غيره، (لا سيما إذا كان من أهل البصيرة أورث ذلك طمأنينة وثقة بوجود ذلك الكمال، فعظمت لذته، ولو كان صادراً ممن لا بصيرة له، كانت لذته أقل لقلة الاطمئنان بقوله.

وإن كان ما به المدح وصفاً جلياً، كاعتدال القامة وبياض اللون، كانت لذته في غاية القلة، لأن ثناءه لا يورث ما ليس له من الطمأنينة والثقة، إلا أنه لا يخلو عن لذة ما، إذ النفس قد تغفل عنه فتخلو عن لذته، فتنبهها عليه بالمدح يورث لذة ما. ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضاً، لأنه يشعر بنقصان في نفسه، والنقصان ضد الكمال.

الثاني - أن المدح يدل على أن قلب المادح ملك الممدوح، وأنه يريد له معتقد فيه ومسخر تحت مشيته، وملك القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيد، ولذلك تعظم اللذة مهما صدرت ممن تتسع قدرته وينتفع باقتناص قلبه كالمملوك والأكابر، ولضد هذه العلة يكره الذم ويتألم القلب به.

الثالث - أن المدح سبب اضطراب قلب كل من يسمعه، لاسيما إذا كان المادح ممن يعتنى بقوله، وهذا يختص بمدح يقع على الملاء.

الرابع - أن المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه طوعاً أو قهراً، والحشمة محبوبة لما فيها من الغلبة والقدرة، فشعور النفس بها يورث لذة، وهذه اللذة تحصل وإن علم الممدوح أن المادح لا يعتقد بما يقوله، إذ ما يطلبه يحصل منه، ولضد هذه العلة يبغض الذم أيضاً.

وهذه الأسباب قد تجتمع في مدح واحد فيعظم به الالتذاذ، وقد تفرق فينتقص ويندفع استشعار الكمال، بأن يعلم الممدوح أن المادح غير صادق في مدحه، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثانية أيضاً، وهو استيلاءه على قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة على اضطراب لسانه إلى النطق بالمدح.

فصل

(علاج المدح وكراهة الذم)

إذا علم أن حب المدح وكراهة الذم من المهلكات، فيجب أن يبادر إلى العلاج.

وعلاج الأول : أن يلاحظ اسبابه، ويعلم أن شيئاً منها لا يصلح حقيقة لأن يكون سبباً له. أما استشعار الكمال بالمدح، فلأن المادح ان صدق فليكن الفرح من فضل الله حيث أعطاه هذه الصفات، وإن كذب فينبغي أن يغمه ذلك ولا يفرح به لأنه استهزاء به، مع أن الفرح مطلقاً في صورة الصدق من السفاهة، اذ الوصف الذي مدح به إن كان مما لا يستحق الفرح به، كالثروة والجاه وغيرهما من المطالب الدنيوية، فالفرح به من قلة العقل، لأنها كجالات وهمية لا أصل لها، وإن كان مما يستحق الفرح به كالعلم والورع، فالفرح إنما هو لكونه مقرباً إلى الله، وهذا فرع حسن الخاتمة وهو غير معلوم. ففي الخوف من خطر الخاتمة شغل شاغل من الفرح بكل شيء. وأما دلالة المدح على تسخير قلب المادح وكونه سبباً لتسخير قلب من يسمعه، فحب ذلك يرجع إلى حب الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق طريق معالجته. وأما دلالته على الحشمة، فانها ليست إلا قدرة عارضة ناقصة لا ثبات لها، والعاقل لا يفرح بمثلها.

وأما علاج الثاني : - أعنى كراهة الذم - فيعلم بالمقايضة على علاج حب المدح. والقول الوجيز فيه: ان من يذمك إن كان صادقاً وقصده النصح والارشاد، فلا ينبغي أن تبغضه وتغضب عليه، بل ينبغي أن تفرح وتجتهد في ازالة الصفة المذمومة عن نفسك، وما أقبح بالمؤمن أن يغضب على من يحسن إليه ويريد هدايته. وإن كان قصده الإيذاء والتعنت، فلا ينبغي لك أيضا أن تبغضه وتكره ذلك، لأنه أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، وذكرك إياه إن كنت غافلاً عنه، وقبحه في عينك إن كنت متذكراً له. وعلى التقادير قد استفدت منه ما تنتفع به، وينبغي لك أن تغتنمه وتبادر الى ازالة عيبك. وإن كان كاذباً مفترياً عليك بما أنت منه برىء، فينبغي لك ايضا ألا تكره ذلك ولا تشغل بذهمه، لأنك وإن خلوت من ذلك العيب، إلا أنك لا تخلو من عيوب اخر مساوية له وأفحش منها، فاشكر الله تعالى على أنه سترها ولم يطلع أحداً عليها، ودفعها بذكر ما أنت منه برىء، مع أنه كفارة لبقية مساويك. ومن ذمك أهدي

اليك حسناته وجنى على دينه، حتى سقط من عين الله وأهلك نفسه بافترائه عليك، فما بالك تحزن بحط ذنوبك واهداء الحسنات اليك؟ ولم تغضب عليه، مع أن الله سبحانه غضب عليه وأبعده من رحمته؟ فإن ذلك كاف لانتقامك منه.

فصل

(ضد حب المدح)

ضد حب المدح وكراهة الذم: إما كراهة المدح وحب الذم، أو مساواتهما عنده بحيث لا تسره المدحة ولا تغمه المذمة. وقد تقدم بعض الأخبار الدالة على ذم من لم يتصف بالحالة الاولى. وهى وإن كانت نادرة الوجود، إذ ما أقل على بسيط الأرض - (لا) سيما في هذه الاعصار - من تستوى عنده المدحة والمذمة، فضلاً عما يكره المدح ويسر بالذم، إلا أن تحصيلها ممكن إذ كل من عرف أن المدح مضر بدينه وقاصم لظهره، فلا بد أن يكرهه ويبغض المادح، لو كان عاقلاً مشفقاً على نفسه. وكذا من عرف أن الذام له يرشده إلى عيوبه ويهتدي إليه بعض حسناته، لا بد أن يحبه ويسر بذهمه.

وأما الحالة الثانية، فهى أولى درجات الكمال، ومن لم يتصف بها فهو ناقص. فالاتصاف بها لازم على كل مؤمن. وربما ظن بعض الناس اتصافه بها، مع كونه فاقداً لها. فمن ظن ذلك من نفسه، فلا بد أن يمتحن نفسه بعلاماتها حتى يظهر له صدق ظنه وكذبه، وعلاماته: ألا يكون سعيه ونشاطه في قضاء حوائج المادح أكثر منهما في قضاء حوائج الذام، وألا يتفاوت همه وحزنه لأجل موتهما وابتلائهما بمصيبة، وألا تكون ذلة المادح أخف في قلبه وعينه من ذلة الذام، وألا يكون جلوس الذام عنده أثقل ولا قيامه أهون من جلوس المادح وقيامه. وبالجمله: أن يستويا عنده من كل وجه. فمن وجد نفسه استواءهما في جميع الجهات، فهو من يتساوى عنده المدح والذم.

ومنها:

الرياء

وهو طلب المنزلة في قلوب الناس بخصال الخير أو ما يدل عليها من الآثار. فهو من أصناف الجاه، إذ هو طلب المنزلة في القلوب بأى عمل اتفق، والرياء طلب المنزلة بآدائه خصال الخير أو ما يدل على الخير. ثم خصال الخير يشمل أعمال البر بأسرها، وهى أعم من العادات إن خصت العبادة بمثل الصلاة والصوم والحج والصدقة وأمثال ذلك، ومساوقة لها إن أريد بالعبادة كل فعل يقصد به التقرب ويترتب عليه الثواب. إذ على هذا كل عمل من أعمال الخير، سواء كان من الواجبات أو المندوبات أو المباحات في الأصل إذا قصد به القربة كان طاعة وعبادة، وإن لم يقصد به ذلك لم يكن عبادة ولا عمل خير، ولو كان مثل الصلاة. وربما خص الرياء عادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة بالمعنى الأخص.

والمراد بالآثار الدالة على الخيرية هي كل فعل ليس في ذاته براً وخيراً، وإنما يستدل به على الخيرية.

وهى إما متعلقة بالبدن، كإظهار النحول والصفار ليستدل بهما على قلة الأكل أو الصوم وسهر الليل، ويوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة الخوف من الله ومن أهوال الآخرة، وكخفض الصوت ليستدل به على أن وقار الشرع قد خفض صوته... وقس عليها غيرها من الأمور المتعلقة بالبدن، الدالة على الخيرية قصداً إلى تحصيل المنزلة في قلوب الناس، وكل ذلك يضر بالدين وينافي الورع واليقين، ولذا قال عيسى عليه السلام: «إذا صام أحدكم، فليدهن رأسه، ويرجل شعره، ويكحل عينيه»، خوفاً من نزع الشيطان بالرياء. ثم هذه مراآة أهل الدين بالبدن، وأما أهل الدنيا فيراؤن في البدن بإظهار السمن وصفاء اللون ونظافة البدن وحسن الوجه وأمثال ذلك.

أو متعلقة بالزى والهئية كحلق الشارب وإطراق الرأس في المشى، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود في الجبهة، ولبس الصوف أو الثوب الخشن أو الأبيض

وتعظيم العمامة ولبس الطيلسان والدراعة، وأمثال ذلك مما يدل على العلم والتقوى أو الانخلاع عن الدنيا.

والمراؤن من أهل الدين بالزى واللباس على طبقات: منهم من يرى طلب المنزل بالثياب الخشنة، ومنهم من يرى بالثياب الفاخرة، ومنهم من يرى بالوسخة، ومنهم من يراه بالنظيفة، وللناس فيما يعيشون مذاهب. وأما أهل الدنيا فلاريب في أنهم يراؤن في اللباس بلبس الثياب النفيسة وركوب المراكب الرفيعة وأمثال ذلك. أو متعلقة بالقول والحركات كإظهار الغضب والاسف على المنكرات ومفارقة الناس للمعاصي، ليستدل بها على حمايته للدين وشدة اهتمامه على الأمر بالمعروف. والنهى عن المنكر مع أن قلبه لم يكن متأثراً عن ذلك، وكإرخاء الجفون وتنكيس الرأس عند الكلام وإظهار الهدوء والسكون في المشى ليستدل بذلك على وقاره، وربما اسرع المرائي في المشى إلى حاجة فإذا اطلع عليه واحد رجع إلى الوقار خوفاً من أن ينسب إلى عدم الوقار، فإذا غاب الرجل عاد إلى عجلته. أو متعلقة بغير ذلك كمن يتكلف أن يكثر الزائرون له والواردون عليه (لا سيما من العلماء والعباد والامراء ليقال إن أهل الدين والعظماء يتبركون بزيارته.

فصل

(ذم الرياء)

الرياء من الكبائر الموبقة والمعاصي المهلكة وقد تعاضت الآيات والأخبار على ذمه، قال سبحانه:

﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

(١) الماعون، الآية: ٤ - ٧.

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا»^(١). وقال سبحانه ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢). وقال: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر»، قالوا: وما الشرك الاصغر؟ قال: «الرياء، يقول الله عز وجل يوم القيامة للمرائين إذا جازى العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء». وقال ﷺ: «استعينوا بالله من جب الحزن» قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «واد في جهنم أعد للقراء المرائين». وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: من عمل لى عملا اشرك فيه غيرى فهو له كله، وأنا منه برىء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك». وقال ﷺ: «لا يقبل الله تعالى عملا فيه مثقال ذرة من رياء». وقال ﷺ: «إن أدنى الرياء الشرك». وقال ﷺ: «إن المرائى ينادى عليه يوم القيامة يا فاجر يا غادر يا مرائى ضل عملك وحبط اجرک اذهب فخذ اجرک ممن كنت تعمل له». وكان ﷺ يبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: «إنى تخوفت على امتى الشرك أما انهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراؤن بأعمالهم». وقال ﷺ: «سيأتى على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم». وقال: «إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجين إنه ليس إياى اراد به»^(٤). وقال ﷺ: «ان الحفظة تصعد بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم

(١) الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) النساء، الآية: ١٤٢.

(٣) البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٤) صححنا الحديث وكذا ما قبله على (اصول الكافي): باب الرياء وباقي الاحاديث النبوية على (احياء

وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دوى كدوى الرعد وضوء كضوء الشمس معه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، اضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه، إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء وصيتاً في المدائن، أمرني أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء، ولا يقبل الله عمل المرأى، قال ﷺ: وتصدق الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى وتشيعه ملائكة السماوات حتى يقطع الحجب كلها إلى الله فيقفون به بين يديه ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال: فيقول الله تعالى لهم انتم الحفظة على عمل عبدى وأنا الرقيب على نفسه، انه لم يردنى بهذا العمل وأراد به غيرى فعليه لعنتى فتقول الملائكة كلهم عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «اخشوا الله خشية ليس بتعذير»^(١) واعملوا بغير رياء ولا سمعة فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى عمله يوم القيامة». وقال الباقر عليه السلام: «الابقاء على العمل أشد من العمل»، قيل: وما الابقاء على العمل؟ قال: «يصل الرجل بصلة وينفق نفقة لله وحده لا شريك له فكتب له سرّاً ثم يذكرها فتمحى فكتب له علانية ثم يذكرها فتمحى فكتب له رياء». وقال الصادق عليه السلام: «قال الله تعالى أنا خير شريك فمن عمل لى ولغيرى فهو لمن عمل له غيرى». وقال عليه السلام: «قال الله تعالى: أنا أغنى الاغنياء عن الشريك فمن اشرك معى غيرى في عمل لم أقبله إلا ما كان لى خالصاً». وقال عليه السلام: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس،

(١) قال في الوافي في باب الرياء ٣ / ٤٠٠: بيان (بتعذير) - بحذف المضاف - أى ذات تعذير، وهو بالعين

ومن عمل لله كان ثوابه على الله». وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قال: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه»، ثم قال: «ما من عبد أسر خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً». وقال عليه السلام: «ما يصنع أحدكم أن يظهر حسناً ويسر سيئاً أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك والله عز وجل يقول: (بل الإنسان على نفسه بصيرة). ان السريرة إذا صحت قويت العلانية». وقال عليه السلام: «من أراد الله بالقليل من عمله اظهر الله له اكثر مما أراده به ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعب من بدنه وسهر من ليله أبى الله إلا أن يقلله في عين من سمعه». وقال عليه السلام لعباد البصري: «ويلك يا عباد! إياك والرياء فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له». وقال عليه السلام: «اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فانه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فهو لا يصعد إلى الله». وقال الرضا عليه السلام لمحمد بن عرفة: «ويحك يابن عرفة! اعملوا لغير رياء ولا سمعة فانه من عمل لغير الله وكله الله إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملاً إلا أراده الله به إن خيراً فخييراً وإن شراً فشراً»^(١).

وكفى للرياء ذماً أنه يوجب الاستحقاق لله وجعله أهون من عباده الضعفاء الذين لا يقدرّون نفعاً ولا ضرراً، اذ من قصد بعبادة الله عبداً من عبيده فلا ريب في أن ذلك لأجل ظنه بأن هذا العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله وأنه أولى بالتقرب إليه منه تعالى وإى استحقاق بمالك الملوك اشد من ذلك.

(١) صححنا الاحاديث عن آل البيت عليهم السلام على (اصول الكافي): باب الرياء وعلى (البحار): مج ٤٣/٣: ١٥. وعلى (الوسائل): ج ١، الباب ١١، ١٢، ١٤ من أبواب مقدمة العبادات.

فصل

(أقسام الرياء)

الرياء إما في العبادات أو في غيرها (والاول) حرام مطلقاً وصاحبه ممقوت عند الله وهو يبطل أصل العبادة ولأن الاعمال بالنيات، والمرائي بالعبادة لم يقصد امثال أمر الله بل قصد ادراك مال أو جاه أو غرض آخر من الأغراض فلا يكون ممثلاً لأمر الله خارجاً عن عهدة التكليف، ثم مع بطلان عبادته وعدم خروجه عن عهدة التكليف يكون له اثم على حدة لأجل الرياء، كما دلت عليه الآيات والأخبار، فيكون أسوأ حالاً ممن ترك العبادة رأساً، كيف لا والمرائي بالعبادة جمع بين الاستهزاء بالله والتلبس والمكر لأنه خيل إلى الناس أنه مطيع لله من أهل الدين وليس كذلك.

وأما الرياء بغير العبادات، فقد يكون مذموماً، وقد يكون مباحاً، وقد يكون مستحباً، وقد يكون واجباً، إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وألا يفعل ما يعاب عليه، فلا يليق بذوى المروات أن يرتكبوا الامور الخسيسة بانفسهم عند مشاهدة الناس وان جاز لهم ذلك في الخلوة، ومن زين نفسه باللباس أو غيره في أعين الناس حذراً من لومهم واستثقالهم أو استقذارهم اياه كان ذلك مباحاً له، إذ الحذر من ألم الذم غير مذموم، إلا أن ذلك يختلف باختلاف الازمنة والبلاد والأشخاص من العباد، فربما كان بعض أقسام الرياء بغير العبادات مذموماً بالنظر إلى وقت أو شخص أو بلد غير مذموم بالنظر إلى آخر. روى: «ان رسول الله ﷺ اراد يوماً أن يخرج على أصحابه، فكان ينظر في حب من الماء ويسوى عمامته وشعره، ف قيل له: أو تفعل ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم، إن الله تعالى يحب من العبد أن يتزين لأخوانه إذا خرج اليهم». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «يتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة»، وقال الصادق عليه السلام: «الثوب النقي يكبت العدو». وروى: «أنه عليه السلام نظر إلى رجل من أهل المدينة قد اشترى لعياله شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال عليه السلام: اشتريته لعيالك وحملتة اليهم، أما والله لولا

أهل المدينة لا حبيت أن اشتري لعيالي الشيء ثم أحمله اليهم»^(١). أراد ﷺ لولا مخافة ان يعيبوه على ذلك لفعل مثل فعله، إلا أنه لما كان في زمان يعاب عليه بمثله لم يجز له أن يرتكبه، ولما لم يكن ذلك مما يعاب عليه في زمن أمير المؤمنين ﷺ كان يرتكبه وكان ذلك منقبة له وتعلima. فظهر أن ارتكاب بعض الامور وعدم ارتكاب بعض الافعال قد يكون رياء محبوباً وقد يكون رياء مذموماً.

فصل

(تأثير الرياء على العبادة)

الرياء إما أن يكون مجرداً عن قصد القربة والثواب بحيث لولاه والفرد صاحبه لترك العمل وهو أشد درجات الرياء وأعظمها اثماً، أو يكون مع قصدهما فان كان قصداً ضعيفاً مرجوحاً بحيث لو كان خالياً عن قصد الرياء لم يبعثه على العمل، ولو كان قصد الرياء خالياً عنهما بعثه عليه، كان قريباً من سابقه وان كان مساوياً لقصد الرياء بحيث لو كان كل واحد خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل، فالحق كونه مفسداً للعمل أيضاً لظواهر الاخبار. وان كان راجحاً على قصد الرياء غالباً عليه بأن يكون قصد الرياء واطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه بحيث لو لم يكن لم يترك العمل، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقدم على العمل، (فبعض العلماء) على أنه لا يحبط أصل العمل والثواب بل ينقص من الثواب أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرياء، ويثاب على مقدار قصد الثواب و(فيه نظر) إذ ظواهر الأخبار تفيد ابطاله اصل العمل والثواب لصدق الرياء عليه وصدق المرائي على صاحبه، لقول أمير المؤمنين ﷺ: «ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان

(١) تقدم هذا الحديث في ٢٩٢/١، والاحاديث الثلاثة الأخيرة صححناها على (الوسائل): كتاب الصلاة،

وحده، ويحب أن يحمد في كل اموره». وما تقدم من الأخبار الدالة على أن كل عمل اشرك مع الله تعالى غيره كان الله منه بريئاً ولم يقبله، صريح في المطلوب. وحملها على ما إذا تساوى القصد أو كان قصد الرياء أرجح خلاف الظاهر. ثم الظاهر أن البطلان في هذه الصورة إنما هو إذا رجع قصده إلى حبه اطلاع الناس عليه لتقع منزلة له في قلوبهم، ليتوسل بها إلى نيل غرض من الاغراض الدنيوية، وأما إذا كان سروره وقصده من اطلاع الناس لاحد المقاصد الصحيحة الآتية فلا بأس به ولا يبطل العمل.

تنبيه

(السرور بالاطلاع على العبادة)

من كان قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله، فإذا اتفق اطلاع الناس على طاعته فلا بأس بالسرور به، من حيث علمه بأن الله اطلعهم عليه واظهر الجميل من حاله، فيستدل به على حسن صنع الله به من حيث انه ستر الطاعة والمعصية، والله تعالى ابقى معصيته على الستر وأظهر طاعته، فيكون فرحه بجميل نظر الله وفضله له لا بمدح الناس وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١).

وكأنه ظهر له بظهور طاعته أنه عند الله مقبول وفرح به. أو من حيث استدلاله باظهار الله الجميل وستره القبيح في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة، قال رسول الله ﷺ: «ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر الله عليه في الآخرة». فالأول فرح بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل وهذا التفات إلى المستقبل. أو من حيث ظنه رغبة المطلعين في الاقتداء في الطاعة، فيتضاعف بذلك اجره. إذ يكون له اجر السر بما قصده أولاً، واجر العلانية بما اظهره آخراً، ومن اقتدى الناس به في

طاعة فله اجر اعمال المقتدين به من غير أن ينقص من اجورهم شيء. أو من حيث فرحه بطاعة المطلقين لله في مدحهم وحبهم للمطيع، وميل قلوبهم إلى الطاعة، إذ من الناس من يمقت أهل الطاعة ويحسدوهم أو يستهزئ بهم وينسبهم إلى الرياء، فهذا فرح بحسن ايمان عباد الله، وعلامة الاخلاص فيه: أن يكون سروره بمدحهم غيره مثل سروره بمدحهم اياه.

ويدل على عدم البأس بالسرور فيما ذكر ماروى: «أن رجلا قال لرسول الله ﷺ: انى اسر العمل لأحب أن يطلع عليه أحد فيطلع عليه فيسرني! قال: لك أجران: أجر السر وأجر العلانية». وما روى: «أنه سئل الباقر عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه انسان فيسره ذلك، قال: لأبأس، ما من احد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك». وهذان الخبران باطلاقهما يدلان على نفى البأس بالسرور لأجل المقاصد المذكورة، ويخصص منهما ما هو المذموم من الفرح الحاصل من اطلاع الناس، وإن كان قصده الاخفاء أولاً، وهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بحوائجه، وانما يخصص ذلك منهما مع شمول اطلاقهما له ايضا لمعارض أقوى.

هذا وقد تقدم أن قصده أولا - أى في حال عقد الطاعة - اطلاع الناس عليه وارتياحه به لأحد المقاصد المذكورة لأبأس به أيضا، فعدم البأس لا يختص بطرق القصد والارتياح بعد العقد أو بعد تمام العمل.

ثم كما لا بأس بالسرور من ظهور الطاعات للمقاصد المذكورة، فكذلك لا بأس بكتمان المعاصي واغتمامه باطلاع الناس عليها لاسباب نذكرها، بل الحق رجحان الكتمان ومزيته بعد ارتكابها، وان كان الاصل في الاخلاص استواء السريرة والعلانية. ولذا قال بعض الاكابر: «عليك بعمل العلانية وهو ما إذا ظهر لم تستح منه». وقال بعضهم: «ما عملت عملا ابالي ان يطلع الناس عليه إلا اتيانى أهلى والبول والغائط». إلا أن ذلك درجة عظيمة ليست شرعة لكل وارد، ولا يصل اليها إلا واحد بعد واحد.

إذ كل انسان - إلا من عصمه الله - لا يخلو من ذنوب باطنة، (لا) سيما ما يختلج بباله من الامانى الباطلة والامور الشهوية، والله مطلع عليها وهى مخفية عن الناس، والسعى في اخفائها وكراهة ظهورها جائز بل راجح، بشرط ألا يكون باعث اخفائها قصد أن يعتقدوا فيه الورع والصلاح، بل كان الباعث:

١- إما كون السر مأموراً به.

٢- أو كون الهتك واطهار المعاصي منهياً عنه. قال رسول الله ﷺ: «من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى». ويعرف صدق ذلك بكراهة ظهورها عن الغير، أو كون ستر الله عليه في الدنيا دليلاً على ستره في الآخرة، لما ورد في الخبر: «أن من ستر الله عليه في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة».

٣- أو كون ظهور المعاصي موجباً لذم الناس، والذم يؤلم القلب ويشغله عن طاعة الله، ويصدّه عن الاشتغال بتحصيل ما خلق لأجله، ولكون التألم بالذم جبلياً غير ممكن الدفع بسهولة يكون اخفاء ما ظهوره يؤدى إلى حدوثة جائزاً. نعم، كمال الصديق استواء المدح والذم، إلا أن ذلك قليل جداً، وأكثر الطباع تألم بالذم، لما فيه من الشعور بالنقصان. وربما كان التألم بالذم ممدوحاً إذا كان الذام من أهل البصيرة في الدين، فإن ذمه يدل على وجود نقصان فيه، فينبغى أن يتألم منه ويتشمر لدفعه.

٤- أو كون الناس شهداءه يوم القيامة، كما ورد فيجوز الاخفاء لثلا يشهدوا عليه يوم القيامة.

٥- أو خوف ان يقصد بشر أو سوء إذا عرف ذنبه.

٦- أو خوف صيرورة الذام عاصياً بذمه، وهذا من كمال الايمان، ويعرف بتسوية ذمه وذم غيره.

٧- أو خوف سقوط وقع المعاصي من نفسه أو اقتداء الغير به فيها وهذه العلة هى المبيحة لاطهار الطاعة، ويختص ذلك بمن يقتدى به من الائمة وامثالهم، ولهذه العلة ينبغى أن يخفى العاصي معصيته من أهله وولده أيضاً، لثلا يقتدوا به فيها.

٨- أو حبه محبة الناس له لا للتوسل بها إلى الاغراض الدنيوية، بل ليستدل بها على محبة الله تعالى له، لأن من أحبه الله تعالى جعله محبوباً في قلوب الناس.

٩- أو مجرد الحياء من ظهور قبائحه، وهو غير خوف الذم والقصد بالشكر، إذ هو من فضائل الاخلاق ومن كريم الطبع، قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله». وقال الصادق عليه السلام: «الحياء شعبة من الايمان». وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بالخير». وقال ﷺ: «إن الله تعالى يحب الحي الحليم». ومن صدر عنه فسق ولم يبال بظهوره للناس، فقد جمع إلى الفسق الهتك وعدم الحياء - أعنى الوقاحة -، فهو أسوأ حالا ممن يفسق ويستحي فيستره.

ثم كثيراً ما يشتهب الحياء بالرياء، فيدعى من يرائي بأنه يستحي، وأن تركه السيئات أو اخفاءها أو تحسينه للعبادات إنما هو لأجل الحياء من الناس دون الرياء، وذلك كذب. وبيان ذلك: أن الحياء خلق ينبعث من الطبع الكريم، ويمكن أن يهيج عقبيه داعية الرياء فيرائي معه، ويمكن أن يهيج داعية الاخلاص فيجمعه اليه. مثلاً من طلب من صديقه قرضاً، فإن رده صريحاً من غير مبالاة ومن دون أن يتعلل ارتكب الوقاحة وعدم الحياء، وإن اعطاه بمجرد انقباض نفسه من استشعار قبح رده مشافهة من دون رغبة في الثواب ولا خوف من ذمه أو حب إلى مدحه حتى لو طلبه مراسلة أو بتوسط غيره من الأجانب لرده، فاعطاؤه هذا صادر عن مجرد الحياء من دون ترتب رياء أو إخلاص عليه. وإن تعسر عليه الرد للحياء وكان ما في نفسه من البخل مانعاً من الاعطاء فحدث خاطر الرياء، ويخاطب نفسه بأنه ينبغي أن تعطيه حتى يمدحك بالسخاء ولا يذمك بالبخل فاعطاه لذلك فهو مزج الرياء بالحياء، والمحرك للرياء هو هيجان الحياء. وإن تعسر عليه الرد للحياء والاعطاء للبخل، فهيج باعث الاخلاص، ويقول له: ان الصدقة بواحدة والقرض بثمانية، ففيه أجر عظيم، وادخال السرور على قلب مسلم صديق من أقرب القربات، فسخت نفسه بالاعطاء، فهو جمع بين الحياء والاخلاص ثم الحياء لا يكون إلا في القبائح الشرعية أو العقلية

أو العرفية، كالبخل ومقارفة الذنوب والظلم وصدور بعض الحركات القبيحة عرفاً في المحافل، والرياء يكون في المباحات أيضاً، حتى أنه لو عاد الضاحك إلى الانقباض والمستعجل في المشى إلى الهدوء بعد اطلاع الناس كان مرئياً، وربما أن باعث ذلك هو الحياء وهو الجهل، إذ باعثه مجرد الرياء. وما قيل: إن بعض الحياء ضعف، فالمراد أن الحياء مما ليس بقبيح ناش من ضعف النفس، كالحياء من وعظ الناس واقامة الصلاة، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا إذا وجد عذر يحسن الحياء معه، كأن يشاهد معصية من شيخ فيستحي من شيبته أن ينكر عليه، لأن من اجلال الله اجلال ذى الشبهة المسلم، ولو استحيى من الله ولا يضيع الأمر بالمعروف لكان أحسن. وأقوياء النفوس من أهل الايمان يؤثرون الحياء من الله على الحياء من الخلق، وأما ضعفاء النفوس منهم فقد لا يقدرّون على ذلك.

فصل

(متعلقات الرياء)

الرياء إما باصل الايمان، وهو اظهار الشهادتين مع التكذيب باطناً، وهذا هو كفر النفاق، وقد كان في صدر الاسلام كثيراً، وقل ما يوجد في أمثال زماننا، وإن كثر فيه انكار بعض ضروريات الدين، كالجنة والنار والثواب والعقاب واعتقاد طى بساط أحكام الشرع باطناً، ميلاً إلى قول الملاحدة وأهل الاباحه، مع اظهار الخلاف ظاهراً، وهذا أيضاً معدود من كفر النفاق، وصاحبه ينسل عن الدين مخلص بالنار. وصاحب كفر النفاق مطلقاً أسوأ حالا من الكافر المحارب، لأنه جمع بين الكفر الباطن والنفاق الظاهر. أو بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين، كأن يصلى في الملاء دون الخلوة، ويصوم مع اطلاع الناس عليه ويفطر بدونه، ومثله وإن لم ينسل من أصل الدين، إلا أنه شر المسلمين، لترجيحه الخلق على الخالق، وكون التقرب اليهم أحب من التقرب لديه، وكون خوفه من ذمهم أشد من خوفه من عقابه سبحانه. أو بالنوافل

والسنن، وهذا أيضا مذموم مهلك، ولكنه دون ما قبله، لأن صاحبه وإن قدم مدح الخلق على مدح الخالق، إلا أنه لم يقدم خوف ذمهم على خوف عقابه، لعدم ترتب عقاب على ترك النافلة. أو بأوصاف العبادة الواجبة أو المستحبة، كفعل ما في تركه نقصان أو كراهة أو ترك ما في فعله أحدهما أو بزيادات خارجة عن نفس النوافل، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الاول، وأمثال ذلك. وكل ذلك مذموم، إلا أن بعضه أشد من بعض.

فصل

(بواعث الرياء)

باعت الرياء إما التمكن من المعصية، كإظهار الورع والتقوى لتفوض إليه الحكومة والقضاء، لينال الجاه والاستيلاء، ويحكم بالجور، ويأخذ الرشأ، أو تسلم إليه الودائع والصدقات وأموال اليتامى وأمثال ذلك، فيأخذ لنفسه منها ما يقدر عليها، وكحضوره مجالس العلم والوعظ والتعزية لملاحظة النسوان والصبيان، وهذا أشد درجات الرياء اثمًا، ويقرب منه إظهار الديانة والتقوى ليدفع عن نفسه تهمة ما اقترفه من الجرائم، أو نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا، كاشتغال بالوعظ والتذكير والامامة والتدريس وإظهار الصلاح والورع، كاشتغال بالوعظ والتذكير والامامة والتدريس وإظهار الصلاح والورع، لتستبدل له الأموال وترغب في تزويج النسوان أو خوف أن ينظر إليه بعين النقص والحقارة، أو ينسب إلى الكسالة والبطالة كترك العجلة، والضحك بعد اطلاع الناس عليه، خوفاً من أن يعرف باللهو والهزل فيستحقر، وكالقيام للتهجد وإداء النوافل إذا وقع بين المتهجدين والمتنفلين لئلا ينسب إلى الكسالة، ولو خلى بنفسه لم يتنفل مطلقاً، وكذا الامتناع من الأكل والشرب في اليوم الذي يصام فيه تطوعاً، وتصريحه بأنى صائم، خوفاً من أن ينسب إلى البطالة، وربما لم يصرح بكونه صائماً، بل يقول: لى عذر، وحينئذ قد جمع بين

رياءين: الرياء بكونه صائماً، والرياء بكونه مخلصاً غير مرء. ثم إن ألجأته الكسالة والشهوة إلى عدم القيام إلى النوافل وعدم الصبر عن الأكل والشرب، ذكر لنفسه عذراً، تصريحاً أو تعريضاً، كأن يتعلل الترك بمرض أو ضعف أو شدة العطش أو تطيب خاطر فلان، وقس عليها غيرها من الكلمات والاعذار، فانها لا تسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في النفس، والمخلص لا يريد غير الله والتقرب إليه، ولا يعتنى بالخلق وحصول المنزلة في قلوبهم، فان لم يصم لم يحب أن يعتقد غيره فيه ما يخالف علم الله ليكون ملبساً، وان صام قنع بعلم الله ولم يشرك فيه غيره. ثم هذه البواعث لما كان بعضها صادراً من رداءة قوة الغضب وبعضها من رداءة قوه الشهوة، فيكون بعض أنواع الرياء من رذائل الاولى وبعضها من رذائل الثانية.

تنبيه

(الرياء الجلى والخفى)

الرياء جلى وخفى، والجلى: ما يبعث على العمل لولا قصد الثواب، والخفى: ما لا يبعثه بمجردة إلا أنه يخفف العمل الذي أريد به التقرب في الخلوة، ويعرف بالسرور إذا اطلع عليه الناس، لا للمقاصد المتقدمة، بل لطلب نوع منزلة في قلوب الناس، ويتوقع التعظيم والتوقير وقضاء الحوائج منهم ووجدان الاستبعاد من نفسه لو قصر في احترامه، كأن نفسه تتقاضى الاكرام والاحترام على الطاعة التي اخفاها مع أنه لم يطلع عليه أحد. ولا شك أن هذا التقاضى لا ينفك عن شوب خفى من الرياء أخفى من ديبب النمل، ولو كان عنده وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق وقنع بعلم الله فيها لم يكن لهذا التوقع وجه. فعلامه خلوص العمل من الرياء ألا يجد تفرقة بين أن يطلع على عبادته انسان أو بهيمة، ومهما وجد تفرقة في ذلك فلا يكون

منفكا عن توقع ما (عن)^(١) الناس في طاعته، وذلك مما يحبط العمل. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله تعالى يقول للقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدؤون بالسلام؟ ألم تكونوا تقضى لكم الحوائج؟ فلا اجر لكم، قد استوفيتم اجركم!».

فصل

(كيف يفسد الرياء العمل)

لو عقد العمل على الخلاص واستمر إلى الفراغ، لم يحبطه السرور بظهوره بعده، لامن قبله كمداد عليه بعض الظواهر السالفة. ولا يعصى به أيضاً إن كان لأجل أحد المقاصد السالفة، ويكتب له معصية إن كان لظنه حصول منزلة له في القلوب. ولو كان ظهوره بعده من نفسه بالتحدث مع الرغبة والسرور بذلك، فربما قيل باحباطه العمل، إذ حب التحدث به يدل على أن قلبه عند العبادة لم يخل عن عقد خفي من الرياء. وقد أيد ذلك بما روى: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إني صمت الدهر. فقال ﷺ: لا صمت ولا أفطرت!». وما روى: «أن ابن مسعود سمع رجلاً يقول: قرأت البارحة سورة البقرة. فقال: ذلك حظه منها».

والظاهر أنه لا يحبط عمله، بل يثاب عليه، وإن عوقب على ما صدر منه بعد الفراغ من الرياء. والتعليل لو تم لا يفيد البطالان، إذ العقد الذي لم يشعر به صاحبه لا يؤاخذ به، وإلا لزم التكليف بالمحال. والخبر لو صح فانكاره ﷺ لأجل كراهية صوم الدهر لا لأظهاره. وقول ابن مسعود لو ثبت لا حجية فيه.

ولو عقد العمل على الاخلاص، وورد في اثنا عشر وأرد السرور باطلاع بعض الناس عليه، فإن لم يكن باعثاً على العمل ومؤثراً فيه بحيث لو لم يحدث لأتم العمل

(١) كذا في النسخ، ولعل (عند) مكان (عن).

على الاخلاص، من غير فتور، وكان أيضاً لأحد المقاصد الصحيحة المتقدمة، فلا بطلان ولا اثم، لما تقدم من الأخبار. وإن لم يكن باعثاً ولكن لم يكن لشيء من المقاصد المذكورة، بل كان لظنه نيل الجاه أو المال بالظهور، فالحق بطلان العمل وكونه آثماً للعمومات السالفة. وإن كان باعثاً ومؤثراً فهو الرياء المحرم، سواء كان غالباً على قصد التقرب أو مساوياً له أو مغلوباً عنه، فيحبط العمل وعليه الاعادة لو كان فريضة، لما تقدم من العمومات، ولقوله عليه السلام: «العمل كالوعاء، إذا طاب آخره طاب أوله». وقوله عليه السلام: «من رأى بعمله ساعة، حبط عمله الذي كان قبله». ثم هذا في العمل المركب الذي له اجزاء، ويتوقف صحته على صحة كل واحد منها، كالصوم والصلاة والحج. وأما العمل الذي كل جزء منه منفرد، كالصدقة والقراءة، فما يطرأ من الرياء في اثناهما إنما يفسد الباقي دون الماضي فطرؤه فيه في الاثناء بالنسبة الى الماضي كطرؤه بعد الفراغ في الاول. وهذا حكم الرياء الطارئ بعد عقد الطاعة على الاخلاص أو قبله، سواء لم يرجع عنه حتى يتمها، أو ندم بعده في الاثناء أيضاً ورجع واستغفر وأما المقارن حال العقد، بأن يتبدى بالصلاة مثلاً على قصد الرياء، فإن اتمها عليه فلا خلاف في كونه إثمياً وعدم الاعتداد بها. وإن ندم عليه في الاثناء ورجع واستغفر، فإن مجرد القصد إلى الغير الباعث إلى اطلاع الناس لبعض المقاصد المتقدمة وارتياحه به فلا بأس به ولا يحبط العمل، وإن كان غير ذلك أفسده، سواء في ذلك جميع شقوقه المتقدمة، كما علم وجهه.

فائدة

(شوائب الرياء مبطللة للعمل)

لما كان المناط في الأعمال، صحة وفساداً، هو القصد والنية، إذ الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فكل عمل تدخله شوائب الرياء فهو فاسد، سواء وقع سرّاً أو علانية، وكل عمل كان خالصاً لله وأمن صاحبه من دخول الرياء فيه فلا بأس

باسراره ولا باظهاره. ثم لو تعلق قصد صحيح باظهار نفس العمل أو التحدث به بعد الفراغ عنه، كترغيب الناس في الخير وتنبيههم على الاقتداء به فيه، كان اظهاره أفضل من اسراره بشرط عدم اشتماله على رياء أو فساد آخر، كاهانة الفقير في التصدق، ولو اشتمل على شيء من ذلك، كان اسراره أفضل من اعلانه، وبذلك يجمع بين الاقوال والأخبار.

والحاصل: أنه متى انفك القلب عن شوائب الرياء، بحيث يتم الاخلاص على وجه واحد في الحالتين، فما فيه القدوة وهو العلانية أفضل ومهما حصلت فيه شوائب الرياء لم ينفعه اقتداء غيره، لكونه مهلكا له، فالسر أفضل منه. فعلى من يظهر العمل أن يعلم أو يظن انه يقتدى به، وان يراقب قلبه لئلا يكون فيه حب الرياء الخفي، فربما اظهر العمل لعذر الاقتداء وكان في نفسه قصد التجمل بالعمل وكونه مقتدى به، وهذا حال كل من يظهر العمل، إلا من أيدته الله بقوة النفس وخلوص النية، فلا ينبغي لضعيف النفس أن يخدع نفسه فيضل ويضل ويهلك ويهلك من حيث لا يشعر. فان الضعيف مثاله مثال الغريق الذي يعلم سباحة ضعيفة، فينظر إلى جماعة من الغرقى فيرحمهم، وأقبل عليهم لينجيهم، فتشبثوا به، وهلك وهلكوا. وهذه المواضع مزال أقدام العلماء والعباد، فانهم يتشبثون بالاقوياء في الاظهار ولا تقوى قلوبهم على الاخلاص، فتحبط اجورهم بالرياء. ودرك ذلك غامض جداً لا يبلغه إلا الخائضون في غمرات علم الاخلاق. ويعرف الخلوص في ذلك بالألا يتفاوت حاله باقتداء الناس به وبغيره من اقرانه وأمثاله، فان كان قلبه أميل إلى أن يكون هو المقتدى به، فاظهاره العمل غير خال عن شوائب الرياء.

إيقاظ

لما عرفت أن المناطق في صحة الأعمال وفسادها هو القصد والنية، تعلم أن كل عمل لم يكن خالصاً لوجه الله وأريد به غيره سبحانه ينبغي أن يترك ويعرض عنه،

وإن كان خالصاً له تعالى مقصوداً على قصد صحيح، لا ينبغي تركه لمجرد بعض الوسوس والخواطر الشيطانية. فإن الشيطان يدعو أولاً إلى ترك العمل فإن لم يجب يدعو إلى الرياء، فإذا أيس منه يقول: هذا العمل ليس خالصاً، بل هو رياء، فأى فائدة منه؟!

ثم الاعمال إما من الطاعات اللازمة التي لا تعلق لها بالغير، كالصلاة والصوم والحج وأمثالها، أو من الطاعات المتعدية التي لها تعلق بالخلق، كالامامة والقضاء والحكومة والافتاء والوعظ والتذكير والتعليم والتدريس وانفاق المال وغير ذلك.

والقسم الاول : إن دخله الرياء قبل الفعل، بأن يكون باعته الرياء دون الخلوص والقربة، فينبغي أن يترك ولا يشرع فيه، وإن دخله بعد العقد أو معه، فلا ينبغي أن يترك لأنه وجد له باعث ديني، وإنما طراه باعث الرياء، فليجاهد في دفع الرياء وتحصيل الاخلاص، ويرد نفسه إليه قهراً بالمعاجلات التي نذكرها. ومهما كان في مقام المجاهدة مع نفسه معاتباً لها قاهراً عليها في ميلها إلى الرياء، ووجد من طبعه كراهية هذا الميل، فالنجاة في حقه مرجوة، ولعل الله يسامحه بعظيم رحمته. وأما إذا لم يكن في مقام المجاهدة، ولم يكن كارهاً مما يجد في نفسه من الميل إلى الرياء، بل أعطى زمام الاختيار إلى النفس الامارة، وهي ترائي في الاعمال، وهو يتبعها في ذلك من غير قهر عليها وكراهية لفعلها، فلا ريب في فساد أعماله وأولوية تركها، وإن كان باعثها ابتداء محض القربة ودخلها الرياء مع العقد أو بعده.

وأما القسم الثاني : المتعلق بالخلق - أعنى امامة الصلاة والقضاء والتدريس والافتاء والوعظ والارشاد وأمثال ذلك - فأخطارها عظيمة، ومثوبتها جسيمة. فمن له أهلية ذلك من حيث العلم - إن كان ذا نفس قوية لا يعتنى بالناس ولا تزعجها وسوس الخناس وله معرفة تامة بعظمة ربه وقدرته وسائر صفاته الكمالية، بحيث شغله ذلك عن الالتفات إلى الخلق وما في أيديهم حتى يرائي لأجلهم أو يختار رضاهم على رضا ربه - فالأولى لمثله ألا يترك هذه المناصب ليفوز بمثوبتها العظيمة. وإن كان ذا

نفس ضعيفة، كخيطة مرسل في الهواء تفيثها^(١) الريح مرة هكذا ومرة هكذا، فهو لا يأمن الرياء وسائر أخطارها. فاللازم لمثلها تركها. ولذلك كان أهل اليقين من السلف يتدافعون هذه المناصب ما وجدوا إليه سبيلا. وورد ما ورد من الأخبار في عظم خطرها وكثرة آفاتها ولزوم الثبوت والاحتياط لمن يزاولها وما ورد من الوعيد الشديد في حق علماء السوء يكفي للزوم الحذر عن فتن العلم وغوائله. ومما يقصم ظهور أمثاله من الذين يقولون ما لا يعلمون ويأمرون بما لا يفعلون، قول عيسى بن مريم عليه السلام: «يا علماء السوء! تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون! أو تدرسون ما لا تعلمون فيا سوء ما تحكمون! تتوبون بالقول والاماني، وتعملون بالهوى، وما يغني عنكم أن تتقوا جلودكم وقلوبكم دنسة! بحق أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة! كذلك انتم! تخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغل في صدوركم! يا عبيد الدنيا! كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته ولا تنقطع منها رغبته! بحق أقول لكم: إن قلوبكم تبكى من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم بحق أقول لكم: أفسدتم آخرتكم بصلاح دنياكم، فصالح الدنيا أحب إليكم من صلاح الآخرة! فأي ناس أخس منكم لو تعلمون! ويلكم! حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محلة المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليركوها لكم! مهلا مهلا! ويلكم! ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه وحش مظلم! كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه وحشة معطلة. يا عبيد الدنيا! توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم، ثم تكبكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم! يدفعكم العلم من خلفكم، ثم يسلمكم إلى الملك الديان حفاة عراة فرادى! فيوقفكم على سواتكم، ثم يخزيكم بسوء

(١) وفي نسختنا الخطية (تعليها).

أعمالكم!!»^(١). هذا ويعرف الصادق المخلص من أهل هذه المناصب بأنه إذا ظهر من هو أعدل وأحسن وعظاً وأكثر علماً منه وأشد قبولاً للناس فرح به ولم يحسده، وإذا حضر الأكابر والأعظم مجلسه أو اقتدوا به لم يتغير كلامه ولم يتفاوت حاله، بل يبقى على ما كان عليه، وينظر إلى عباد الله بعين واحدة.

(تنبيه): لما عرفت حقيقة الرياء، تعلم أنه إذا صار عمل بعض الصالحين أو قولهم محركا لغيرهم على الاشتغال بالطاعة لم تكن هذه الطاعة رياء إذا عقدت على الخلو، وإن لم يكن هذا الغير ليفعل هذه الطاعة إذا لم يشاهدها من بعض الصالحين أو لم يسمعها منه. فمن لم تكن عادته التهجد وبات مع قوم متهجدين في موضع، فإذا قاموا للتهجد انبعث نشاطه للموافقة ووافقهم في التهجد، ولم يكن ذلك رياء بعد أن يكون قصده منه الثواب والتقرب إلى الله، إذ كل مؤمن راغب في عبادة الله وفي قيام الليل، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعه الغفلة، فإذا شاهد قوما يتهجدون ربما صارت مشاهدة طاعتهم سبباً لزوال غفلته، كما يصير قولهم ووعظهم سبباً لذلك، فيتحرك باعث الدين دون الرياء ويدعوه إلى موافقتهم. وربما كان الموضع مما ليس فيه عائق، فيغتنم الفرصة ويبعث ما فيه من الإيمان إلى الطاعة. وقس على التهجد غيره: من الصوم، والتصدق، والقراءة، والذكر، وغيرها من أعمال البر.

فصل

(علاج الرياء)

لما كانت الأسباب الباعثة على الرياء هي حب لذة المدح والفرار من ألم الذم والطمع بما في أيدي الناس، فالطريق في علاجه أن يقطع هذه الأسباب وقد تقدم طريق العلاج في قطع الأولين، ويأتي طريق إزالة الثالث. وما نذكره هنا من العلاج

(١) روى هذا الحديث في (أحياء العلوم): ٢٨١/٣، فصحنا عليه. وهو يرويه عن (الحارث المحاسبي).

العلمى للرياء، هو أن يعلم أن الشيء إنما يرغب فيه لكونه نافعا، وإذا علم أنه ضار ليعرض عنه البتة. وحينئذ، فينبغى لكل مؤمن أن يتذكر مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من المقت والعذاب ومتى تذكر ذلك وقابل ما يحصل له في الدنيا من الناس الذين رآى لأجلهم بما يفوته في الآخرة من ثواب الاعمال، لتترك الرياء لا محالة. مع أن العمل الواحد ربما تترجح به كفة حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات، فترجح به ويهوى إلى النار. هذا مع أن المرائى في الدنيا متشتت الهم متفرق البال بسبب ملاحظة قلوب الناس، فان رضاهم غاية لا تدرك، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه وأسخطهم أيضاً. ثم أى غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل مدحهم ولا يزيده مدحهم رزقاً ولا اجلالاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته وهو يوم القيامة؟! ومن كان رياؤه لاجل الطمع بما في ايدى الناس، ينبغى أن يعلم ان الله هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء، وان الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل عن الذل والخسة. وان وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، وإذا قرر ذلك في نفسه ولم يكن منكراً لأمره، زالت غفلته وفترت عن الرياء رغبته وأقبل على الله بقلبه، وانقطع بشراشره إلى جناب ربه. وكيفيه أن يعلم أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء واظهار الاخلاص لمقتوه، وسيكشف الله عن سره حتى يبغضه اليهم، ولو أخلص لله لكشف الله لهم اخلاصه وحببه اليهم وسخرهم له، وأطلق ألسنتهم بمدحه وثنائه، مع أنه لا يحصل له كمال بمدحهم ولا نقصان بذهمهم.

ثم من تنور قلبه بنور الايمان وانشرح صدره باليقين والعرفان، وعرف معنى الواجب وحقيقة الممكن، وتيقن بأن الواجب - أى الحقيقة التي تقتضى بنفس ذاته التحقق والبقاء، وهو صرف الوجود - يجب أن يكون تاماً فوق التمام، ولا يتصور حقيقة أتم كمالاً منه، والحقيقة التي هذا شأنها يجب أن يكون ما سواها بأسره

مستنداً إليها وصادراً عنها على أشرف انحاء الصدور وأقواها. وهذا النحو الأشرف الأقوى الذي لا يتصور نحوه أقوى منه في الاختراع وأدل منه على كمال عظمة الموجد وقدرته، وهو كون ما سواه سبحانه من الموجودات، إما اعتبارات وشؤونات لدرجات ذاته واشراقات لتجليات صفاته، كما ذهب إليه قوم، أو كونها ماهيات امكانية اختراعية علماً وعيناً، صادرة عنه سبحانه بوجودات خاصة متعددة ارتباطية بمحض ارادته ومشيته، كما ذهب إليه آخرون^(١). ولو لم يكن غيره من الموجودات مستنداً إليه على أقوى أنحاء الاستناد، لم يكن تاماً فوق التمام، إذ تكون الذات التي يستند الكل إليها باحد النحوين اكمل منه وأشرف. وإذا عرف انه سبحانه كذلك، يعرف أنه ليس في الوجود حقيقة أحد سواه وغيره حقيقة العدم وما له من الوجود والظهور منه سبحانه، وبعد هذه المعرفة لا يختار غيره تعالى عليه، ويعلم أن العباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة، فلا يتغير قلبه بمشاهدة الخلق، ولا يلتفت اليهم إلا بخطرات ضعيفة لا يشق عليه ازالتها، فيعمل عمل من لو كان على وجه الأرض وحده لكان يعمل.

وأما العلاج العملى، فهو أن يعود نفسه على اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به. وذلك وإن شق في بداية

(١) القول الاول مبنى على اصالة الوجود، والثانى على اصالة الماهية. وهذا البحث الذي ذكره المؤلف من دقائق الفلسفة الالهية واعلاها، ولقد أحسن فيه البيان جداً. فانه مبنى على فهم معنى واجب الوجود لذاته، وهو الذي يكون ذاته بذاته، مع قطع النظر عن كل ماعداه، ومن حيث هو هو منشأ لانتزاع انه موجود، فلذلك يجب ان يكون صرف الوجود انه لاشئ له الوجود وإلا لكان ممكناً، ويجب ان يكون متصفاً بجميع الكمالات بل اكمل الكمالات ومن جملتها ان تكون الموجودات مستندة إليه على اقوى أنحاء الاستناد. وإذا لم يتصف بجميع الكمالات لا يتصف باعدامها، فيدخل في حقيقة العدم، فلم يكن صرف الوجود، فلم يكن واجب الوجود لذاته، وهذا خلاف الفرض، أو بهذه الطريقة يستدل على اتصافه بجميع صفات الجمال والجلال

المجاهدة، لكن إذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه بتواصل الطاف الله وما يمدّه به عبادة من حسن التوفيق والتأييد:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١).

فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

تتميم

القالع مغارس الرياء من قلبه بقطع الطمع واستحقار مدح الناس وذمهم ربما لا يتركه الشيطان، (لا) سيما في اثناء العبادة، فعارضه بخطرات الرياء ونزعاته، حتى احدث في قلبه ميلاً خفياً إلى الرياء وحباً له. والحق أن ذلك ليس من الرياء المحرم، ولا تفسد به العبادة، مع كونه كارها لهذا الميل والحب وقاهراً على نفسه ماقتاً لها في تأثرها وتغيرها عن نزعات الشيطان ومنازعا للشيطان ومجاهداً آياه لدفع خطراته، لأن الله لم يكلف عباده الا ما يطيقون، وليس في وسعهم منع الشيطان عن نزعاته ولا قمع الطبع حتى لا يميل إلى شهواته، وغاية ما يقدرّون عليه أن يقابلوا نزعاته وميل الطبع بالكراهة والقهر على النفس في هذا الميل، مع المجاهدة في دفع ذلك بتذكر المعالجات المقررة لدفع الرياء والوساوس، وإذا فعلوا ذلك أدوا ما يجب عليهم. ويدل على ذلك أيضاً ما تقدم من الأخبار الدالة على عدم المؤاخذة بمجرد الوسوسة، وقول النبي ﷺ: «الحمد لله الذي رد كيد الشيطان الوسوسة». فوسوسة الشيطان وميل النفس لا يضران مع ردهما بالكراهة والاباء، اذ الوسواس والخواطر والتذكرات والتخيلات المهيجة للرياء من الشيطان، والميل والرغبة بعد تلك

(١) الرعد، الآية: ١١.

(٢) التوبة، الآية: ١٢٠.

الخواطر من النفس، والإباء والكراهة من الايمان ومن آثار العقل فلا يضر ما من النفس والشيطان إذا قوبل بما من العقل والايمان. ولذا قال بعض الاكابر: «ما كان من نفسك فكرهته نفسك لنفسك، فلا يضر ك ما هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه».

ثم الطرق المتصورة في دفع خطرات الرياء في اثناء العبادة مع كراهتها أربع:

الأولى - أن يشتغل بمجادلة الشيطان في رد نزعاته، ويطيل معه الجدل.

الثانية - أن يقتصر على تكذيب الشيطان ودفعه من غير اشتغال بمجادلته.

الثالثة - ألا يشتغل بتكذيبه أيضاً، بل يكتفى بما قرر في عقد ضميره من كراهة الرياء وكذب الشيطان، فيستمر على ما كان عليه مستصحباً له غير مشغول بالمخاصمة والتكذيب.

الرابعة - أن يزيد فيما هو فيه من الاخلاص والاشتغال بالله، أو ما يؤدي اليهما، كاخفاء العبادة والصدقة غيظاً للشيطان، لأن ذلك يغيظ الشيطان ويوجب بأسه، ومهما عرف من العبد هذه العادة، كف عنه خوفاً من أن يزيد في حسناته.

ولا ريب في أن الاشتغال بالمجادلة والتكذيب واطالتهما يمنع الحضور ويصد عن التوجه إلى الله، وهو نقصان لأهل السلوك. فالصواب لكل مؤمن ان يقرر دائماً في عقد ضميره كراهية الرياء وتكذيب الشيطان، ويعزم أبداً على أنه إذا تهجم عليه الشيطان وعارضه بنزعات الرياء زاد ما هو فيه مما يغيظ الشيطان ويوجب بأسه، فإذا حدثت خطرات الشيطان في الاثناء، اكتفى بما عقد عليه أولاً مستصحباً له، وزاد في الاخلاص وما يؤدي إليه فان ذلك يوجب قنوط الشيطان. وإذا عرف العبد بهذه الصفة لا يتعرض له لئلا يزيد فيما يغيظه. وينبغي لكل مؤمن أن يكون هذا ديدنه في جميع الصفات والملكات، مثلاً إذا حصل اليقين والعقيدة الجازمة بالمبدأ وصفاته الكمالية، وقرر ذلك في نفسه، وأثبت في قلبه كراهية الشك وخطور الوسوس، فإذا حدث بعض الوسوس في اثناء عبادة أو غيرها، ينبغي ألا يشتغل بطول المجاهدة

مع الشيطان، ويكفى بما تقرر في قلبه من اليقين وكراهية الشك والوسوسة، معتقداً بأن هذه الوسوس لا أصل لها ولا عبرة بها. وكذا إذا قرر في نفسه النصيحة للمسلمين وكراهية الحسد، فإذا أوقع الشيطان نزعات الحسد في قلبه، ينبغى ألا يلتفت إليها، ويستصحب ما كان عليه من النصيحة والكراهة، وقس عليها سائر الصفات والأخلاق.

ثم مثل من يشتغل بطول المجاهدة مع الشيطان مثل من قصد مجلساً من مجالس العلم والوعظ لينال فائدة وهداية فعارضه ضال فاسق ودعاه إلى مجلس فسق فابى وانكر عليه، فإذا عرف الضال إياه، اشتغل بالمجادلة معه، وهو أيضاً يساعده على ذلك ليرد ضلاله، طائفاً أن ذلك مصلحته، مع أنه غرض الضال إذ قصده من المجادلة أن يؤخره عن نيل مقصوده. ومثل من يشتغل بالكذب مثل من لا يشتغل بالقتال مع الضال بعد دعوته إلى مجلس الضلال، بل وقف بقدر أن يدفع في منحره، وذهب مستعجلاً، ففرح الضال بقدر توقفه للدفع. ومثل من يكتفى بعقد الضمير مثل من لم يلتفت إلى الضال بعد دعوته أصلاً، واستمر على ما كان عليه من المشى. ومثل من يزيد فيما كان له من الاخلاص أو ما يؤدي إليه مثل من يزيد في عجلته بعد دعوته ليغيظه. ولا ريب في أن الضال يمكن أن يعاود الجميع في الدعوة إلى الضلالة إذا مروا عليه مرة أخرى إلا الأخير، مخافة أن يزداد فائدة باستعجاله.

فصل

(الاخلاص وحقيقته)

ضد الرياء الاخلاص، وهو تجريد القصد عن الشوائب كلها. فمن عمل طاعة رياء فهو مرء مطلق، ومن عملها وانضم إلى قصد القرية قصد غرض دنيوى انضماماً غير مستقل فعمله مشوب غير خالص، كقصد الانتفاع بالحماية من الصوم، وقصد التخلص من مؤنة العبد أو سوء خلقه من عتقه، وقصد صحة المزاج أو التخلص من

بعض الشرور والاحزان من الحج، وقصد العزة بين الناس أو سهولة طلب المال من تعلم العلم، وقصد النظافة والتبرّد وطيب الرائحة من الوضوء والغسل، والتخلص عن ابرام السائل من التصدق عليه، وهكذا. فمتى كان باعث الطاعة هو التقرب ولكن انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات، خرج عمله من الاخلاص. فالاخلاص تخلص العمل عن هذه الشوائب كلها، كثيرها وقليلها. والمخلص من يكون عمله لمحض التقرب إلى الله سبحانه، من دون قصد شيء آخر أصلاً.

ثم أعلى مراتب الاخلاص - وهو الاخلاص المطلق واخلاص الصديقين - ارادة محض وجه الله سبحانه من العمل، دون توقع غرض في الدارين. ولا يتحقق إلا لمحبه لله تعالى مستهتراً به، مستغرق الهم بعظمته وجلاله، بحيث لم يكن ملتفتاً إلى الدنيا مطلقاً. وأدناها - وهو الاخلاص الاضافي قصد الثواب والاستخلاص من العذاب، وقد أشار سيد الرسل ﷺ إلى حقيقة الاخلاص بقوله: «هو أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت»^(١)، تعمل لله، لا تحب أن تحمد عليه! اي لا تعبد هواك ونفسك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم في عبادتك كما امرت». وهذا اشارة إلى قطع ما سوى الله سبحانه عن مجرى النظر، وهو الاخلاص حقاً. ويتوقف تحصيله على كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد في الآخرة، بحيث ما يغلب ذلك على القلب والتفكر في صفات الله تعالى وافعاله والاشتغال بمناجاته حتى يغلب على قلبه نور جلاله وعظمته، ويستولى عليه حبه وأنسه، وكم من اعمال يتعب الانسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى، ويكون فيها مغروراً لعدم عثوره على وجه الآفة فيها، كما حكى عن بعضهم أنه قال: «قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الاول، لأنى تأخرت يوماً لعذر وصليت في الصف الثانى، فاعترتنى خجلة من الناس حيث رأونى في الصف الثانى، فعرفت أن نظر

(١) اشارة إلى قوله تعالى، مخاطباً لنبيه ﷺ: «فاستقم كما أمرت».

الناس إلى في الصف الأول كان يسرنى، وكان سبب استراحة قلبى من ذلك من حيث لا أشعر». وهذا دقيق غامض، وقلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له، والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات، وهم المرادون بقوله تعالى:

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾^(١). و﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَّ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَخْتَسِبُونَ﴾^(٢). وبقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا؟ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَخْشَوْنَ أَنَّهُمْ يُخْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٣).

فصل

(مدح الاخلاص)

الاخلاص منزل من منازل الدين، ومقام من مقامات الموقنين. وهو الكبريت الأحمر، وتوفيق الوصول إليه من الله الاكبر، ولذا ورد في فضيلته ما ورد من الآيات والأخبار، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾^(٤). وقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(٥). وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾^(٦). وقال: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٧).

نزل فيمن يعمل لله ويحب أن يحمده عليه.

(١) الجاثية، الآية: ٣٣.

(٢) الزمر، الآية: ٤٧.

(٣) الكهف، الآية: ١٠٣، ١٠٤.

(٤) البينة، الآية: ٥.

(٥) الزمر، الآية: ٣.

(٦) النساء، الآية: ١٤٦.

(٧) الكهف، الآية: ١١٠.

وفي الخبر القدسي: «الخلاص سر من اسراري، استودعته قلب من أحببت من عبادي». وقال رسول الله ﷺ: «اخلص العمل يجزك منه القليل». وقال ﷺ: «ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه». وقال ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن»: وعد منها قلب رجل مسلم أخلص العمل لله عز وجل. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تهتموا قللة العمل، واهتموا للقبول». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره!». وقال الباقر عليه السلام: «ما أخلص عبد الايمان بالله أربعين يوماً - أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً - إلا زهده الله تعالى في الدنيا وبصره داءها ودواءها، وأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه». وقال الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل:

﴿يَبْلُغُكُمْ أَتْيَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾

«ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وانما الاصابة خشية الله والنية الصادقة»... ثم قال: «الايفاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل، ألا وان النية هي العمل»... ثم تلا قوله عز وجل «قل كل يعمل على شاكلته»: يعني على نيته.

وقال الصادق عليه السلام: «الخلاص^(١) يجمع فواضل الاعمال، وهو معنى مفتاحه القبول وتوفيقه الرضا، فمن تقبل الله منه ورضى عنه فهو المخلص وان قل عمله، ومن لا يتقبل الله منه فليس بمخلص وان كثر عمله، اعتباراً بآدم عليه السلام وابليس. وعلامة القبول وجود الاستقامة ببذل كل المحاب مع اصابة علم كل حركة وسكون،

(١) صححت الاخبار المروية عن أهل البيت عليه السلام على (الكافي): باب الخلاص. وعلى (الوافي): ٣٢٨/٣،

والمخلص ذائب روحه باذل مهجته في تقويم ما به العلم والأعمال والعامل والمعمول بالعمل، لأنه إذا أدرك ذلك فقد أدرك ذلك الكل، وإذا فاته ذلك فاته الكل، وهو تصفية معاني التنزيه في التوحيد كما قال الاول: هلك العاملون إلا العابدون، وهلك العابدون إلا العالمون وهلك العالمون إلا الصادقون، وهلك الصادقون إلا المخلصون، وهلك المخلصون إلا المتقون، وهلك المتقون إلا الموقنون، وأن الموقنين لعلی خطر عظیم! قال الله لنبيه ﷺ: واعبد ربك حتى يأتيك اليقين. وأدنى حد الاخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة بعمله، لعلمه أنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز، وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة في جميع الآثام، وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة^(١).

ومن تأمل في هذه الاخبار وفي غيرها مما لم يذكر، يعلم أن الاخلاص رأس الفضائل ورئيسها، وهو المنأط في قبول الأعمال وصحتها، ولا عبرة بعمل لا اخلاص معه، ولا خلاص من الشيطان إلا بالاخلاص، لقوله:

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾^(٢).

وما ورد في الاسرائيليات من حكاية العابد والشيطان والشجرة مشهور وفي الكتب مسطور^(٣).

(١) صححنا الرواية على (مصباح الشريعة): الباب ٧٧. وعلى (البحار): مج ١٥: ٢ / ٨٦ باب الاخلاص عن (مصباح الشريعة).

(٢) الحجر، الآية: ٤٠.

(٣) راجع (احياء العلوم): ٣٢٢ / ٤.

فصل (آفات الاخلاص)

الآفات التي تكدر الاخلاص وتشوشه لها درجات في الظهور والخفاء اجلاها الرياء الظاهر، وهو ظاهر. ثم تحسين العبادة والسعى في الخشوع فيها في الملاء دون الخلوة ليتأسى به الناس، ولو كان عمله هذا خالصاً لله لم يتركه في الخلوة، إذ من يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضى لغيره تركه، فكيف يرتضى ذلك لنفسه في الخلوة؟ ثم تحسينها في الخلوة أيضاً بقصد التسوية بين الخلوة والملاء، وهذا من الرياء الغامض، لأنه حسن عبادته في الخلوة ليحسنها في الملاء، فلا يكون فرق بينهما في التفاته فيهما إلى الخلق، إذ الاخلاص الواقعي ان تكون مشاهدة الخلق لعبادته كمشاهدة البهائم لها، من دون تفاوت اصلا، فكأن نفسه لا تسمح باساءة العبادة بين اظهر الناس، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول باستواء عبادته في الخلوة والملاء، وليس كما ظنه، إذ زوال ذلك موقوف على عدم التفاته إلى الخلق في الملاء والخلوة كما لا يلتفت إلى الجمادات فيهما مع أنه مشغول بهم بالخلق فيهما جميعاً. واخفاها أن يقول له الشيطان - وهو في العبادة في الملاء بعد يأسه عن المكائد السابقة :- «أنت واقف بين يدي الله سبحانه، فتفكر في جلاله وعظمته، واستحي من أن ينظر إلى قلبك وهو غافل عنه! فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه». وهذا أخفى مكائد الشيطان وخداعه، ولو كانت هذه الخطرة ناشئة عن الاخلاص لما انفكت عنه في الخلوة ولم يخص خطورها بحالة حضور غيره، وعلامة الامن من هذه الآفة: أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاء، ولا يكون حضور الغير سبباً لحضوره، كما لا يكون حضور بهيمة سبباً له، فما دام العبد يفرق في أحواله وأعماله بين مشاهدة انسان ومشاهدة بهيمة، فهو بعد خارج عن صفو الاخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة

الصماء، كما ورد به الخبر ولا يسلم منه إلا من عصمه الله بخفى لطفه، اذ الشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة ليحملهم على الرياء في كل واحد من أفعالهم وأعمالهم.

تتميم

الحق - كما أشير إليه - أن الشوب الممزوج بالاخلاص إن كان من المقاصد الصحيحة الراجعة شرعاً، لم يبطل العمل والاخلاص ولم ينقص الأجر والثواب. اذ نية الخيرات المتعددة توجب تضاعف الثواب بحسبها وإن كان من الاغراض الدنيوية الراجعة إلى حب جاه أو طمع مال فهو مبطل للعمل والثواب، سواء كان الباعث الديني أضعف من الباعث النفسى أو مساوياً له أو أقوى منه، لظواهر الاخبار المتقدمة. ومع ابطاله العمل، يترتب عليه عقاب على حدة أيضاً، إذ الرياء في العبادة في نفسه منهى عنه محرم، سواء كان هو الباعث وحده أو انضم إلى نية التقرب انضماماً مستقلاً أو غير مستقل، فمن ارتكبه كان أثماً لأجل الرياء في نفسه وتاركا للعبادة من حيث دخول الرياء فيها، فإن كانت واجبة تترتب اثم آخر على تركها إلا أن يسقطه بقضائها، وإن كانت مستحبة لم يلزم قضاؤها ولم يترتب اثم على تركها، بل كان اثمها منحصراً بما يترتب على الرياء في نفسه. ثم المترتب على الرياء المحض اشد واغلظ من المترتب على الرياء الممزوج بالقربة، ويتزايد اثم الممزوج بحسب ازدياد قوة باعث الرياء بالنظر إلى باعث الاخلاص، وينقص بحسب نقصان ذلك.

وعلى ما ذكرناه، فما العقد عليه اجماع الائمة من أن من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه واثب عليه، مع أن سفره ليس خالصاً للحج، فالوجه فيه أن التجارة تعرض للرزق، وهو أيضاً عبادة. وقد تقدم أن نية الخيرات المتعددة موجبة لتضاعف الثواب بحسبها، فلا حاجة إلى ما قيل: «إن التاجر إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكة وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص، وإنما المشترك طول المسافة،

ولا ثواب فيه مهما قصد تجارة»، ولا إلى ما قيل: «مهما كان الحج هو المحرك الأصلي، وكان غرض التجارة كالمعين والتابع، فلا ينفك نفس السفر عن الثواب». نعم، إذا كان التجارة للجمع والادخار من غير حاجة، فلا يبعد أن يقال ذلك، وكذا إذا انضم إلى قصد الحج قصد التفرج ودفع التوحش عن الأهل انضماماً غير مستقل، ومثله إذا انضم إلى نية الوضوء التبرد، وإلى نية الصوم قصد الحمية، وإلى نية العتق الخلاص من المؤنة وسوء الخلق، إلى غير ذلك، إذا لم تكن المنضمات مستقلة.

ومن العلماء من قال: «إن الباعثين إن تساوا تساقطا، وصار العمل لاله ولا عليه، وإن كان باعث الرياء أقوى لم يكن العمل نافعا، بل كان مضراً وموجباً للعقاب، وإن كان عقابه أخف من عقاب الذي تجرد للرياء وإن كان باعث التقرب أقوى فله ثواب بقدر ما فضل من قوته، لقوله تعالى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾^(٢).

فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان قصد التقرب غالباً على الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة، وإن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد. والسر: أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها، فداعية الرياء من المهلكات، وقوة هذا المهلك بالعمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وقوته بالعمل على وفقه، فإذا اجتمعت الصفات في القلب فهما متضادتان، فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء قويت تلك الصفة، وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة، واحدهما مهلك والآخر منج. فإن كانت تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما، وإن كان احدهما غالباً زاد تأثيره بقدر الفاضل من قوته، كما

(١) الزلزلة، الآية: ٧، ٨.

(٢) النساء، الآية: ٤٠.

في تأثير الأدوية والأغذية المتضادة» انتهى^(١)

وفيه: أن اطلاق الظواهر يفيدكون شوب الرياء محبطاً للعمل والثواب وقد تقدم بعضها. ومنها ما روى: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ: عمن يصطنع المعروف - أو قال يتصدق - فيحب أن يحمد ويؤجر، فلم يدر ما يقول له، حتى نزل قوله تعالى:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

ولا ريب في أنه قصد الحمد والأجر جميعاً، ومع ذلك نزلت في حقه هذه الآية.

ومنها ما روى: «أن اعرابياً أتاه ﷺ وقال: يار سول الله، الرجل يقاتل حمية، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله! فقال ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله». وحملها على صورة تساوى القصدين أو غلبة قصد الرياء خلاف الظاهر. وما ذكره من أن لكل قصد وفعل تأثيراً خاصاً على حدة، ففيه أن ذلك إذا لم يبطله ضده. ونحن نقول: إن مقتضى الاخبار كصريح العقل يدل على أن قصد الرياء يبطل قصد القرية إذا تواردا على فعل واحد، فلا يبقى لقصد التقرب تأثير حتى يتصف بالزيادة على تأثير قصد الرياء.

ومنها:

(١) أبو حامد الغزالي: (احياء العلوم): ٤ / ٣٢٨. ونقله المؤلف باختصار وتصرف قليلين.

(٢) هذه مروية في (البحار): مج ١٥ / ٣ / ٥٩، باب ذم السمعة والاعتزاز بمدح الناس، عن عدة الداعي بمضمون يقارب ما هنا. ونصه عن سعيد بن جبير، قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: انى اتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلا لله فيذكر عنى وأحمد عليه، فأسر في ذلك وأعجب به فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً، فنزل قوله تعالى: إنما أنا بشر... الآية».

النفاق

وهو مخالفة السر والعلن، سواء كان في الايمان أو في الطاعات أو في المعاشرات مع الناس، وسواء قصد به طلب الجاه والمال أم لا. وعلى هذا فهو أعم من الرياء مطلقاً، وإن خص بمخالفة القلب واللسان أو بمخالفة الظاهر والباطن في معاملة الناس ومصاحبتهم، فبينهما عموم وخصوص من وجه. وعلى التقادير، إن كان باعته الجبن فهو من رذائل قوة الغضب من جانب التفريط، وإن كان باعته طلب الجاه فهو من رذائلها من جانب الإفراط وإن كان منشأ تحصيل مال أو منكح فهو من رداءة قوة الشهوة. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمه. وأشد أنواع النفاق - بعد كفر النفاق - كون الرجل ذا وجهين ولسانين، بأن يمدح أخاه المسلم في حضوره ويظهر له المحبة والنصيحة، ويذمه في غيبته ويؤذيه بالسب والسعاية إلى الظالمين وهتك عرضه واتلاف ماله وغير ذلك، بأن يتردد بين متعادين ويتكلم لكل واحد بكلام يوافقه، ويحسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعادة مع صاحبه ويمدحه^(١) على ذلك، أو يعد كل واحد منهما أنه ينصره، أو ينقل كلام كل واحد إلى الآخر. وهذا شر من النميمة التي هي النقل من أحد الجانبين. وبالجملة: هو بجميع أقسامه مذموم محرم، قال رسول الله ﷺ: «من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة». وقال ﷺ: «تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين: الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه». وقال ﷺ: «يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالماً لسانه في قفاه وآخر من قدمه يلهب ناراً حتى يلهبها خده، ثم يقال: هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة». وورد في التوراة: «بطلت الأمانة والرجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين، يهلك الله يوم القيامة كل شفتين مختلفتين». وعن علي بن

(١) وفي النسخ (اثناه) بدل (يمدحه)، ولم نر لها وجهاً.

اسباط، عن عبدالرحمن بن حماد، رفعه قال: قال الله تبارك وتعالى لعيسى: «يا عيسى، ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً، وكذلك قلبك، إنى احذر نفسك، وكفى بى خبيراً! لا يصلح لسانان في فم واحد، ولا سيفان في غمد واحد، ولا قلبان في صدر واحد، وكذلك الاذهان!». وقال الباقر عليه السلام: «لبئس العبد عبد يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطرى أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطى حسده وإن ابتلى خذله».

ثم لا يخفى أن الدخول على المتعاضدين والمجاملة مع كل منهما قولاً وفعلاً لا يوجب كونه منافقاً ولا ذا لسانين إذا كان صادقاً، إذ الواحد قد يصادق متعاضدين، ولكن صداقة ضعيفة، إذ الصداقة التامة تقتضى معاداة الاعداء وكذا من ابتلى بذى شر يخاف شره، يجوز أن يجامله ويتقيه ويظهر له في حضوره من المدح والمحبة ما لم يعتقد به قلبه، وهو معنى المداراة، وهو وإن كان نفاقاً إلا أنه جائز شرعاً للعذر، قال الله سبحانه:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾^(١).

وروى: «أنه استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال: ائذنوا له فبئس رجل العشيرة. فلما دخل، ألان له القول، حتى ظن أن له عنده منزلة. فلما خرج، قيل له: لما دخل قلت الذي قلت، ثم ألنت له القول؟! فقال: إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من أكرمه الناس اتقاء لشره». ويدل على جواز ذلك جميع أخبار التقية وأخبار المداراة. وفي خبر: «ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة». وقال بعض الصحابة: «كنا نبشر في وجوه أقوام نلعنهم بقلوبنا». ثم جواز ذلك إنما إذا اضطر إلى الدخول على ذى الشر ومدحه مظنة الضرر، أما لو كان مستغنياً عن الدخول والثناء أو عن أحدهما، ومع ذلك أبدى بلسانه ما ليس في قلبه من المدح، فهو نفاق محرم.

(١) المؤمنون، الآية: ٩٦.

ثم ضد النفاق استواء السر والعلانية، أو كون الباطن خيراً من الظاهر، وهو من شرائف الصفات، وكان الاتصاف به والاجتناب من النفاق أهم مقاصد المؤمنين من الصدر الاول. ومن تأمل في ما ورد في ذم النفاق وفي مدح موافقة الباطن مع الظاهر، وتقدم الروية في كل قول وفعل لم يصعب عليه أن يحافظ نفسه من رذيلة النفاق. ومنها^(١):

الغرور

معنى الغرور - ذمه - طوائف المغرورين: المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون من أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور الفطنة والعلم والزهد. وهو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور. ولما كان أكثر الناس ظانين بانفسهم خيراً، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والأفعال وخيريته، مع أنهم مخطئون فيه، فهم مغرورون، مثلاً من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها، يظن أن هذا خير له وسعادة مع أنه محض الغرور، حيث خدعه الشيطان وأراه ما هو شر له خيراً، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته، يظن أنه في طاعة الله، مع أنه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته. ثم لا ريب في أن سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه عن

(١) أي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث أو بجميعها: وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية وهذه الرذيلة هي الرذيلة (الواحدة والعشرون) منها.

شبهة ومخيلة، مركب من أمرين: (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع، (وثانيهما) حبها وطلبها باطناً لمقتضيات الشهوة أو الغضب. فإن الواعظ إذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقداً أنه يجلب به الثواب، تكون له رغبة إلى الجاه واعتقاد بكونه خيراً له، إذ الغنى إذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة، وواظب على العبادة معتقداً أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وإن كان بخيلاً، يكون له حب للمال واعتقاد بأنه على الخير. ثم الاعتقاد المذكور راجع إلى نوع معين من الجهل المركب، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى، فيكون من رذائل القوة العاقلة، والحب والطلب للجاه والمال من رذائل قوتى الغضب والشهوة. فالغرور يكون من رذائل القوى الثلاث، أو من رذائل العاقلة مع احدهما.

فصل

(ذم الغرور)

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وأم كل شقاوة، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والأخبار، قال الله سبحانه:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١). وقال عز وجل: ﴿وَلَنَكِنِّيَنَّكُمْ فَتَنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَأَرْتَبْتُكُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «حبذا نوم الأكياس وفطرمهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من

(١) لقمان، الآية: ٣٣. فاطر، الآية: ٥.

(٢) الحديد، الآية: ١٤.

المغترين». وقال الصادق عليه السلام: «المغرور في الدنيا مسكين، وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى، ولا تعجب من نفسك، فربما اغتررت بمالك وصحة جسدك أن لعلك تبقى. وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالك وميتك واصابتك مأمولك وهواك، فظننت أنك صادق ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك. وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص. وربما افتخرت بعلمك ونسبك، وأنت غافل عن مضمرة ما في غيب الله تعالى. وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه. وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريد لهم لنفسك أن يميلوا اليك. وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها على الحقيقة»^(١).

فصل

(طوائف المغرورين)

إعلم أن فرق المغترين كثيرة، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر، إلا ويوجد فيهم فرق من المغترين. إلا أن بعض الطوائف كلهم مغترون، كالكفار والعصاة والفساق، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور، وإن كان معظم كل طائفة أرباب الغرور. ونحن نشير إلى مجارى الغرور، وإلى غرور كل طائفة، ليتمكن طالب السعادة من الإحتراز عنه، إذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه أن يأخذ منها حذره، ويبني على الجزم والبصيرة أمره. فنقول:

(١) صححناه على مصباح الشريعة: الباب ٣٦.

الطائفة الأولى (الكفار)

وهم مغرورون بأسرهم، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا، وبين من غره الشيطان بالله، وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم: (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة. (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها، واليقيني خير من المشكوك، فلا يترك به. وهذه اقيسة فاسدة، تشبه قياس ابليس، حيث قال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾^(١).

وعلاج هذا الغرور - بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقبة النبي ﷺ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والأدلة - إما أن يتبع مقتضى إيمانه ويصدق الله تعالى في قوله:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣). وقوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٤). وقوله: ﴿وَمَا الْآخِرَةُ إِلَّا دُنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾^(٥). وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٦).

وإما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين، حتى يزول عن نفسه ما تأديا إليه من الغرور. وطريق معرفة الفساد في (القياس الأول): أن يتأمل في أن كون الدنيا نقداً

(١) الأعراف، الآية: ١١، ص، الآية: ٧٦.

(٢) النحل، الآية: ٩٦.

(٣) الأعلى، الآية: ١٧.

(٤) القصص، الآية: ٦٠، الشورى، الآية: ٣٦.

(٥) آل عمران، الآية: ١٨٥، الحديد، الآية: ٢٠.

(٦) لقمان، الآية: ٣٣، فاطر، الآية: ٥.

والآخرة نسيئة صحيح، إلا أن كون كل نقد خيراً من النسيئة غير صحيح، بل هو محل التلبس، إذ المسلّم خيرية النقد على النسيئة إن كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء، وأما إن كان أقل منها في ذلك وأدون، فالنسيئة خير، ألا ترى أن هذا المغرور إذا حذره الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفاً من ألم المرض في الإستقبال، ويبدل درهماً في الحال ليأخذ درهماً نسيئة، ويتعب في الأسفار ويركب البحار في الحال لأجل الراحة والريح نسيئة. وقس عليه جميع اعمال الناس وصنائعهم في الدنيا: من الزراعة والتجارة والمعاملات، فإنهم يبذلون فيها المال نقداً ليصلوا إلى أكثر منه نسيئة، فإن كان عشرة في ثانی الحال خيراً من واحد في الحال، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة إلى لذة الآخرة من هذه الحثيات، فإن من عرف حقيقة الدنيا والآخرة، يعلم أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة إلى الآخرة، على أن لذة الدنيا مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء من المكدرات.

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصله: هو أن يعرف أن كون لذات الآخرة مشكوكاً فيها خطأ، وأن كل يقيني خير من المشكوك غلط: (أما الأول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة. وليقينهم مدركان: - أحدهما - ما يدركه عموم الخلق، وهو اتفاق عظماء الناس من الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء، فإن ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته إذا إتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا، فإنه تطمئن نفسه إلى تصديقهم ولا يظالهم بتصحيح ذلك بالبراهين، بل يثق بقولهم ويعمل به، وإن كذبهم صبى أو معتوه أو سوادى. ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والبطالين بالنظر إلى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الأنبياء والأولياء أدون حالاً وأقل رتبة من صبى أو معتوه أو سوادى بالنظر إلى أطباء بلد أو مملكة.

- وثانيهما - ما لا يدركه إلا الأنبياء والأولياء، وهو الوحي والإلهام، فالوحي

للأنبياء والإلهام والكشف للأولياء، فإنه قد كشفت لهم حقائق الأشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد، ولا تظنن أن معرفة النبي ﷺ لأمر الآخرة ولأمر الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي، هيهات! فإن الأنبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت، وينظرون إليها بعين البصيرة واليقين، وإن أكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه.

وأما المغرورون بالله، وهم الذين يقدرّون في انفسهم ويقولون بألسنتهم: إن كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظاً وأسعد حالاً من غيرنا، كما أخبر الله سبحانه عن قول الرجلين المتحاورين، إذ قال:

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُذِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾^(١).

وباعث ذلك: ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة إلى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون إلى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال الله تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشْسِ الْقَمَصِيرُ﴾^(٢).

ومرة ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراء محتاجون، فيقولون: لو احبهم الله لأحسن إليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن إلينا فيها، فلما لم يحسن إليهم في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محباً لنا ولا يكون محباً لهم، فيكون الأمر في الآخرة كذلك، كما قال الشاعر:

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

(١) الكهف، الآية: ٣٦.

(٢) المجادلة، الآية: ٨.

ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة، فإن من ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والإكرام فقد اغتر بالله، إذ ظن أنه كريم عند الله، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولى البصائر على الهوان والخذلان، لأن نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله، وأن الله يحمي أحبائه في الدنيا كما يحمي الوالد الشفيق ولده المريض لذائذ الأطعمة، ومثل معاملة الله سبحانه مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق، حيث يزوى الدنيا عن الأول ويصب نعمها ولذاتها على الثانى، مثل من كان له عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر، فيمنع الأول من اللعب ويلزمه المكتب ويحبسه فيه، ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائذ الأطعمة والفواكه التي تضره ويسقيه الأدوية البشعة التي تنفعه، ويهمل الثانى ليعيش كيف يريد ويلعب ويأكل كل ما يشتهى، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن مشتتهاته، كان مغروراً أحمق، وقد كان الخائفون من ذوى البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنب عجلت عقوبته، وإذا أقبل عليهم الفقر قالوا: مرحباً بشعار الصالحين! وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك، لظنهم أن إقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن إدبارها عنهم هوان لهم، كما أخبر الله تعالى عنه بقوله:

﴿فَإِذَا مَا ابْتَلَيْتُ رِبِّي فَكَرَّمَهُ نِعْمَةً فَيقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِي وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْتُهُ فَقَدَرْتُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِي﴾^(١).

وعلاج هذا الغرور: أن يعرف أن إقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان دون الكرامة والاحسان، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب إلى الله سبحانه والطريق إلى هذه المعرفة: إما ملاحظة أحوال الأنبياء والأولياء وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الأتقياء أو التدبر في الآيات والخبار. قال الله سبحانه:

(١) الفجر، الآية: ١٥-١٦.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١). وقال الله سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا﴾^(٤)... إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

ومنشأ هذا الغرور: الجهل بالله وبصفاته، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة، كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميراً، وقد حذر الله عباده عن مكره واستدراجه فقال:

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٥). وقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾^(٦).

الطائفة الثانية

(العصاة والفساق من المؤمنين)

وسبب غرورهم وغفلتهم: إما بعض بواعث غرور الكافرين - كما تقدم - أو ظنهم أن الله تعالى كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته، ويقولون: إنا موحدون ومؤمنون، فكيف يعذبنا مع التوحيد

(١) المؤمنون، الآية: ٥٥ - ٥٦.

(٢) الأعراف، الآية: ١٨٢.

(٣) الأنعام، الآية: ٤٤.

(٤) آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٥) الأعراف، الآية: ٩٩.

(٦) آل عمران، الآية: ٥٤.

والإيمان، ويقرّرون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء - كما تقدم - . وربما اغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبهم، كاغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف والورع. وعلاج هذا الغرور: أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمنى المذموم، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحاً، بل هو تمنى مذموم، كما قال رسول الله ﷺ: «الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْأَحْمَقُ مَنْ اتَّبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ». فإن الرجاء لا ينفك عن العمل، إذ من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدأ وهو لم ينكح، أو نكح ولم يجامع، أو جامع ولم ينزل، فهو مغرور أحمق، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يترك المعاصي، أو تركها ولم يعمل صالحاً، فهو مغرور جاهل، كيف وقد قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَآلَّذِينَ هَآجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةً مِّنَ اللَّهِ﴾^(١).

يعنى أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم، وذلك لأن ثواب الآخرة أجزء وجزاء على الأعمال، كما قال تعالى:

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢). وقال: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَأَن لِّىْسَ لِلْإِنْسَنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَن سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ﴾^(٤). وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ﴾^(٥).

أفترى أن من إستوَجِر على إصلاح أو ان وشرط له أجرة عليها، وكان الشارط

(١) البقرة، الآية: ٢١٨.

(٢) السجدة، الآية: ١٧. الاحقاف، الآية: ١٤. الواقعة، الآية: ٢٤.

(٣) آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٤) النجم، الآية: ٣٩ - ٤٠.

(٥) المدثر، الآية: ٣٨.

كريماً يفى بوعده وشرطه، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسدها جميعاً، ثم جلس ينتظر الأجر زعماً منه أن المستأجر كريم، أفيراه العقلاء في انتظاره راجياً أو مغروراً متمنياً؟ وبالجمله: سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق.

ثم إن المغرور بعلو رتبة آبائه، ظاناً إن الله تعالى يحب آباه، ومن أحب انساناً أحب أولاده، أشد حمقاً من المغرور بالله، لأن الله سبحانه يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لأبائهما، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع، وليس يمكن أن يسرى من الأب إلى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى، إذ لا ترز وزارة وزر أخرى، فمن زعم أنه ينجو بتقوى أبيه، كان كمن زعم أنه يشبع بأكل أبيه، أو يصير عالماً بتعلم أبيه، أو يصل إلى الكعبة بمشى أبيه، فهيهات هيهات! إن التقوى فرض عين على كل أحد، فلا يجزى والد عن ولده شيئاً، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه وبنيه، ولا ينفع أحد أحداً إلا على سبيل الشفاعة، بعد تحقق شرائطها.

ثم العصاة المغرورون، إما ليست لهم طاعات، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل - كما مر -، أو لهم طاعات ولكن معاصيهم أكثر، وهم عالمون بأكثرية المعاصي، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على سيئاتهم، وهو أيضاً غاية الجهل، إذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفة ميزان وفي الكفة الأخرى ألفاً أو ألفين، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخفيفة، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتد بها، كالذي يحج طول عمره وحجة ويبني مسجداً، ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره، ويقول: كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت

مسجداً؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبخته مع غفلته عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، فهو يتأمل دائماً في فضيلة التسييحات، ولا يلتفت إلى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتائبين والنمامين والفحاشيين، ولو كان كتبه أعماله يطلبون منه اجرة الزايد من هذيانه على تسييحاته، لكان عند ذلك يسعى في كَفِّ لسانه عن آفاته وموازناتها بتسييحاته، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه اجرة نسخ الزائد. فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً أن يفوته مقدار قيراط ولا يحتاط خوفاً من فوت العليين ومجاورة رب العالمين.

الطائفة الثالثة

(أهل العلم)

والمغتربون منهم فرق:

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب المناظرة، ليتفاخر في أندية الرجال ويتوفق على الأقران والأمثال، من غير أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد، بل يختار تارة ذلك وتارة هذا، وتكون عقيدته كخيطة مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا ومرة هكذا، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته.

(ومنهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة، أو الشعر أو المنطق، واغتر به وأفنى عمره فيها، وزعم أن علم الشريعة والحكمة موقوف عليها، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة إلى ما هو مقصود لذاته يجب أن يقتصر عليه بقدر الضرورة، والتعمق فيه إلى درجات لا تتناهى فضول مستغنى عنها، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته.

(ومنهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه، المتضمن لكيفية الحكم والقضاء بين الناس، واشتغل بإجراء الأحكام، وأعرض عن علم العقائد والأخلاق، بل عن فن العبادات من الفقه، وأهمل تفقد قلبه ليتخلى عن رذائل الأخلاق ويتحلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن المعاصي وإلزامها بالطاعات.

(ومنهم) من حصل فن العبادات أيضاً، بل أحكم العلوم الشرعية بأسرها وتعمق فيها واشتغل، ولكن ترك العلم الإلهي وعلم الأخلاق، ولم يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي، ولم يعمرها بالطاعات.

(ومنهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية، وتعمق فيها واشتغل بها، إلا أنه أهمل العمل رأساً، أو واطب على الطاعات الظاهرة وأهمل صفات القلب، وربما تفقد صفات القلب وأخلاق النفس أيضاً، وجاهد نفسه في التبري عنها، وقلع من قلبه منابتها الجلية القوية، ولكن بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان، وخبايا وتلبيسات النفس مادي وغمض مدركه فلا يتفطن بها.

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون، إذا كان اعتقادهم أنهم على خير وسعادة، وإن كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة، إذ سعادة النفس وخلاصها عن العذاب لا تحصل إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وأحوال النشأة الآخرة، والعلم برذائل الأخلاق وشرائفها، ثم تهذيب الباطن بفضائل الأخلاق وعمارة الظاهر بصوالح الطاعات والأعمال، فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم - أعنى معرفة سلوك الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول إلى الله - وظن أنه على خير كان مغروراً، وإذا مات ملوثاً بتلك الصفات كان محجوباً على الله، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره، فهو كمن له مرض خاص مهلك فاحتاج إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلم مرض آخر يضاد مرضه في المعالجة، كما أن من أحكم العلوم بأسرها وترك العمل، مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا يستعمله قط لنفسه، فإنه لا ريب

في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه، بل لو كتبت منه الف نسخه وعلمه الف مريض حتى شفى جميعهم وكرره كل ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئاً، حتى يشتري هذا الدواء ويشربه كما تعلم في وقته، ومع شربه واستعماله يكون على خطر من شفائه، فكيف إذا لم يشربه اصلاً، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه فهو مغرور، فكذلك من احكم علم الطاعات ولم يعملها، واحكم علم المعاصي ولم يجتنبها، واحكم علم الأخلاق ولم يترك نفسه عن رذائلها ولم يتصف بفضائلها، فهو في غاية الغرور، إذ قال الله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّيْهَا﴾^(١).

ولم يقل: قد افلح من علم طريق تزكيتها.

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الأخلاق والغرور، أدى بهم إلى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها، وإنما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم. ثم إذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال: ما هذا تكبراً، إنما هو طلب اعزاز الدين، و اظهار شرف العلم، وارغام أنف المخالفين. ومهما ظهرت منه آثار الحسد، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئاً من كلامه، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد، بل يقول: إن هذا غضب للحق وردّ على المبطل في عداوته وظلمه، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم، وردّ عليه قوله، ومنع من منصبه، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن، بل ربما يفرح به، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه، لاستوى غضبه في الحالين. وإذا خطر له خاطر الرياء قال: غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بى، ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله. ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد

(١) الشمس، الآية: ٩.

من كان، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخلية الشيطان، بل يقول: إنما ذلك لأنهم إذا إهتدوا بى كان الأجر والثواب لى، ففرحى إنما هو بثواب الله لا بقبول الخلق، هذا ما يظن بنفسه، والله مطلع على سريره، إذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعاً بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة، من تدريس أو وعظ أو امامة أو غير ذلك. وإذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويثنى عليهم ويتواضع لهم، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام، قال له الشيطان: ان ذلك عند الطمع في مالهم، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند ذلك السلطان، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل احد، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين، يثقل ذلك عليه، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى أن يأخذ من أموالهم المحرمة، وإذا خطر له أنها حرام، قال له الشيطان: هذا مال مجهول المالك يجب أن يتصدق به إمام المسلمين، وأنت إمامهم وعالمهم، وبك قوام دين الله، فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف الباقي على مصالح المسلمين، فيغتر بهذا التلبس، ولا يزال يأخذها من غير أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره. وربما انتهى الغرور في بعضهم إلى حيث إنه إذا حضرت مائدتهم واكل طعامهم وقيل له: إن هذا لا يليق بمثلك، قال: الاكل جائز بل واجب، اذ هذا مال لا يعلم مالكة، فيجب التصدق به على الفقراء، ويجب على مثلى بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في استخلاصه من يد الظالم وايصاله إلى اهله - أعنى الفقراء -، وأكلى منها نوع قدرة على استخلاصه، فأكل منه وأتصدق بقيمته على الفقراء، والله يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله، وإنما هو تلبس ألقاه الشيطان في روعه، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه، وربما كان بحيث لا يبالي من اخذ مالهم واكل طعامهم خفية، ولو علم أنه يطلع عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به،

امتنع منه غاية الامتناع. وربما كان بعضهم في الباطن ماثلاً إلى الدخول على السلاطين والامراء وتاركاً له في الظاهر، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قبول العامة، ومع ذلك يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه. وربما كان بعضهم إمام قوم يظن أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الإسلام، ومع ذلك لو أمّ غيره ممن هو اعلم واورع منه في مسجده، أو يتخلف بعض من يقتدى به عن الاقتداء به، قامت عليه القيامة، وربما لم يكن باعته على الحركة إلى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتثال لأمر الله، بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة واعتقاد العامة، أو مركباً منه ومن نية الثواب. وربما اتخذ بعضهم الامامة شغلاً ووسيلة لأمر المعاش، ومع ذلك يظن أنه مشغول بامر الخير، والظاهر في امثال زماننا ندور الإمام الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب إلى الله، من دون وجود شيء من حب طلب المنزلة في القلوب، أو تحصيل المال، أو دفع بعض الشرور عن نفسه في زوايا قلبه، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب أن تشد الرحال من المواضع البعيدة إليه ليقبض به، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب إلى المسجد للامامة ذهب، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف، وصلى منفرداً، وهو الذي يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقلتهم، بل يكون حاله عند صلاته وهو إمام لجم غفير كحاله عند صلاته منفرداً، من دون أن يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين.

وبالجملة: اصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الاعصار - كثيرة، والمتأمل يعلم أن الغرور أو التلبس أو غيرهما من ذمائم الأفعال انتهى في بعضهم إلى أن وجودهم مضر بالإسلام والمسلمين وموتهم أنفع للإيمان والمؤمنين، لأنهم دجالو الدين وقوامو مذهب الشياطين، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي، فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص إلى الزرع».

الطائفة الرابعة

(الوعاظ)

والمغتترون منهم كثيرون:

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، والصبر، والشكر، ونظائرها، ويظن أنه إذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفاً بها، وهو منك عنها في الواقع، إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين، ويزعم أن غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من اقرانه وصلحوا على يديه، وكان أقوى منه في الارشاد والاصلاح، لمات غمًا وحسدًا، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض اقرانه، لصار ابغض خلق الله اليه.

(ومنهم) من اشتغل بالشطح والطامات، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة، وتصنع التشبيهات والمقدمات، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، طلباً للاعوان والأنصار، وشوقاً إلى تكثر البكاء والرقه والتواجد والرغبات في مجلسه، والتذاذاً بتحريك الرأس على كلامه والبكاء عليه، وفرحاً بكثرة الأصحاب والمستفيدين والمعتقدين به، وسروراً بالتخصيص بهذه الخاصة من بين سائر الاقران، وربما لم يبال بالكذب في نقل الأخبار والآثار، ظناً منه أنه أوقع في النفوس وأشدّ تأثيراً في رقة العوام وتواجدهم. ولا ريب في أن هؤلاء شرّ الناس، بل شياطين الانس، ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، إذ الأولون إن لم يصلحوا أنفسهم، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا كلامهم ووعظهم، وأما هؤلاء فإنهم يصدون عن سبيل الله، ويجرون الخلق إلى الغرور بالله، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة، ليصلوا به منهم إلى اغراضهم الفاسدة، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء، ويزيدهم جرأة على المعاصي ورغبة في الدنيا، (لا) سيما إذا كان هذا الواعظ أيضاً ممن يرغب إلى الدنيا، ويسر بوصول المال اليه،

ويتزين بالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة، وغيرهما من زينة الدنيا. فمثله ممن يضل ويكون افساده أكثر من اصلاحه، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين، فهو أشد المغرورين والغافلين.

(ومنهم) من هذب أخلاقه، وراقب قلبه، وصفاه عن جميع الكدورات، وصغرت الدنيا في عينه، وانقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت اليهم، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله إلى نصحهم واستخلاصهم عن امراض المعاصي بالوعظ، فلما استقل به وجد الشيطان مجال الفتنة، فدعاه إلى الرئاسة دعاء خفياً - اخفى من ديبب النملة - لا يشعر به، ولم يزل ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه إلى التصنع والتزيّن للخلق: بتحسين الالفاظ والنعمات والحركات، والتصنع في الزى والهيئة والشماثل، وأقبل الناس إليه يعظمونه ويوقرونه توقيراً يزيد على توقير الملوك، إذ رأوه شافياً لأمرضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع، فأثروه بآبدانهم وأموالهم، وصاروا له كالخدم والعبيد، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه، وذاق لذة يا لها من لذة، وأصاب من الدنيا شهوة يستحقّر معها كل شهوة، فوقع في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا، فقد غره الشيطان على ما لا يشعر به. وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه: أنه لو ظهر من اقرانه من مالت القلوب إلى قبوله، وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه، شق ذلك عليه، إذ لولا أن النفس قد استبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك.

وعلى هذا فينبغى ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ إلا إذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم إلى الله تعالى، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على ارشادهم أو اهتدائهم من عند أنفسهم، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأموالهم، واستوى عنده حمدهم وذمهم، ولم يبال بزمهم إذا كان الله يمدحه، ولم يفرح بمدحهم إذا لم يقترب به مدح الله، ونظر اليهم كما ينظر إلى من هو أعلم منه وأورع، حيث لا ينكر عليه ويراه خيراً من نفسه، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله

بالخاتمة، وإلى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزل في قلوبهم، فإنه لا يبالى كيف يراه البهائم، فلا يتزين لها، إذ راعى الماشية إنما غرضه رعايتها ودفع الذئب عنها، دون نظر الماشية إليه بعين المدح والثناء.

ثم لو ترقى الواعظ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان، واشتغل بنفسه وترك النصيح، أو نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور، وهو المهلك الأعظم من كل ذنب، ولذلك قال الشيطان: «يا ابن آدم! إذا ظننت أنك بعملك تخلصت منى فبجهلك قد وقعت في حبالى». ثم لو دفع عن نفسه العجب، وعلم أن ذلك من الله تعالى لا منه، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه إلا بتوفيق الله، وأنه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء أصلاً، فضلاً عن دفع الشيطان، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والأمن من مكره، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل. ولا ريب أن الأمن من مكر الله خاسر مغرور، فسبيل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها، أن يرى ذلك كله من فضل الله، وكان خائفاً على نفسه من سلب حاله في كل لحظة، وغير آمن من مكر الله، وغير غافل عن خطر الخاتمة. وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه، إلا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة، ولذلك لما ظهر الشيطان لبعض الأولياء في وقت النزع - وكان قد بقى له نفس - قال: (أفلت منى يا فلان!؟)، فقال: (لا! بعد).

الطائفة الخامسة

(اهل العبادة والعمل)

والمغرورون منهم فرق كثيرة:

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في إزالة النجاسة وفي الوضوء، فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة

الموجبة للنجاسة، وإذا آل الأمر إلى الأكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملاً بعيداً لحله، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الأولياء. ثم من هؤلاء من يخرج إلى الإسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب إحدى يديه على وجهه أو يده الأخرى، ولا يدرى هذا المغرور أن هذا العمل إن كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعاً فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه، وإن كان بدونه بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء إلى البشرة، فما باله يتيقن بوصول الماء إلى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط، مع أن حصول القطع بإيصال الماء إلى البشرة في الغسل ألزم وأوجب. ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء، زاعماً أن هذا يكفي لنجاته، فهو مغرور في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها، فلا يدعه الشيطان حتى يعتقد نية صحيحة، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة أو فضيلة الوقت، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته، ولا يحضر قلبه، ويغتر بذلك، ويظن أنه إذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير. وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة، وإخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار عن مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة، من غير اهتمام فيما عدا ذلك، من حضور القلب والتفكير في معاني الأذكار، ظناً منه أنه إذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة، وهذا أقبح أنواع الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالصوم، وربما صام الأيام الشريفة، بل صام الدهر، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا بطنه عن الحرام عند الإفطار، ثم يظن بنفسه الخير، وذلك في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بالحج، فيخرج إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال، ويضيع في الطريق الصلاة، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، ومع ذلك يظن أنه على خير، فهو في غاية الغرور.

(ومنهم) من اغتر بقراءة القرآن، فيهدّ هذا، وربما يختم في اليوم واللييلة مرة، فيجري به لسانه، وقلبه مردد في أودية الأمانى، وربما اسرع في القراءة غاية السرعة، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات، ويتفاخر به على الأمثال والأقران.

(ومنهم) من اغتر ببعض النوافل، كصلاة الليل، أو مجرد غسل الجمعة، أو امثال ذلك، من غير اعتداد بالفرائض، زاعماً أن المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة، فهو أيضاً من المغرورين.

(ومنهم) من ترهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن، ظاناً أنه ادرك رتبة الزهاد، ومع ذلك راغب في الرئاسة باشتهاره بالزهد، فهو ترك أهون المهلكين باعظمتها، إذ حب الجاه اشد فساداً من حب المال، ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان اقرب إلى السلامة، فهو مغرور، إذ ظن أنه من الزهاد، ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة، وهو يحبها، فكيف يكون زاهداً؟

الطائفة السادسة

(المتصوفة)

والمغترون فيهم اكثر من ان يحصى:

(فمنهم) ارباب البوقات، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى التصوف ولا شيئاً من مراسيم الدين، وصرفوا اوقاتهم في التكدى والسؤال من الناس، ويظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة، مع أنهم لو ظفروا بشيء من امور الدنيا لأخذوه بجميع جوارحهم، فهؤلاء ارذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى.

(ومنهم) من اغتر بالزى، والمنطق، ولبس الصوف، واطراق الرأس وادخاله في الجيب، وخفض الصوت، وتنفس الصعداء، وتحريك البدن في الطول والعرض، والسقوط إلى الأرض، (لا) سيما إذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما. وربما تجاوز بعضهم من ذلك إلى الرقص والتصفيق، وابداء الشهيق والنهيق، واختراع الاذكار، والتغنى بالاشعار... وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة، ويظن أن العبد بهذه الحركات والأفعال يصل إلى الدرجات العالية، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد إلى سخط الله وعذابه.

(ومنهم) من وقع في الاباحة، وطوى بساط الشرع والاحكام، وترك الفصل بين الحلال والحرام، يتكالب على الحرام والشبهات، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلطين. وربما قال: المال مال الله والخلق عيال الله، فهم فيه سواء. وربما قال: ان الله مستغن عن عملي، فأى حاجة إلى أن أتعب نفسي فيه؟ وربما قال: لا وزن لأعمال الجوارح، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة إلى حب الله واصلة إلى معرفة الله. وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية، وقالوا: إنها لا تصدنا عن طريق الله، لقوة نفوسنا وقوة اقدامنا فيها، وإنما يحتاج العوام إلى تهذيب النفس بالأعمال البدنية، ونحن مستغنون عنه. فهو لاء يرفعون درجاتهم عن درجة الأنبياء ﷺ إذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلاً عن الخطايا والمعاصي يصددهم عن طريق الله، حتى ييكون سنين متوالية على ترك الراجع وفعل المرجوح، فهم أشد الناس غروراً، وأعظم الخلق حماقة وجهلاً.

(ومنهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول إلى درجات المقربين، ومشاهدة المعبود، ومجاورة المقام المحمود، والملازمة في عين الشهود، وتلقف من الطامات كلمات يردددها، ويظن أنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن السماء وينظر إلى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الحقارة والإزدراء، يقول في العباد: إنهم أجراء مبعوثون، وفي العلماء: إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون،

ويدعى لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه نبي ولا ولي، ويدعى كونه واصلاً إلى الحق فارغاً عن أعباء التكليف، لا علماً أحكم ولا عملاً هذب، لم يعرف من المعارف إلا أسماء يتفوه بها عند الأغنياء للوصول إلى بعض حطامهم الخبيثة، فهو عند الله من الفجار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، مع ظنه أنه من المقربين، فهو أشد الغافلين المغرورين.

(ومنهم) ملامية يرتكبون قبائح الأعمال وشنائع الأفعال الموجبة للبعد عن طريق المروة، ظناً منهم أن هذا موجب لكسر النفس وإزالة ذمائم الأخلاق، ولم يعلموا أن هذه الأفعال من الذمائم، وقد نهى صاحب الشرع عنه.

(ومنهم) من اشتغل بالرياضة والمجاهدة، وقطع بعض المنازل، ووصل إلى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته، إلا أنه لم يتم سلوكه وإنقطع عن سائر المقامات، إما لإعتراض مفسد في أثناء السلوك، أو لوقوعه في الأثناء ظناً منه أنه وصل إلى الله ولم يصل بعد، فإن الله سبعين حجاباً من نور، ولا يصل السالك إلى حجاب من تلك الحجب في الطريق إلا ويظن أنه قد وصل، وإليه الإشارة في حكاية الخليل، حيث رأى أولاً كوكباً، فقال: «هذا ربّي»، ثم انتقل إلى القمر، ثم عنه إلى الشمس، فإنه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الأجسام المضيئة، فإن شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة، بل هذا ينافي شأنه ورتبته، فالمراد بها الأنوار التي هي من حجب الله، ويراها السالك في الطريق، ولا يتصور الوصول إلى الله إلا بالوصول إلى هذه الحجب، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض، فاستعير لفظ الكواكب لصغره لأقل مراتبها، والقمر لوسطها، والشمس لأعظم مراتبها، والخليل عليه السلام لم يزل عند سيره في الملكوت يصل إلى نور بعد نور، ويتخيل إليه في أول ما يلقاه أنه قد وصل، ثم انكشف له أن وراءه امر، فيترقى إليه حتى وصل إلى الحجاب الأقرب، فقال: هذا أكبر، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال، قال:

﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ... إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...﴾^(١).

فسالك هذا الطريق قد يغتر في الوقوف على بعض هذه الحجب، وربما يغتر بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه، فإنه - أيضاً - أمر رباني ونور من أنوار الله، تتجلى فيه حقيقة الحق كله، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتنجلي فيه صورة الكل، وعند ذلك يشرق نوره اشراقاً عظيماً، إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه، وهو في أول الأمر كان محجوباً، فإذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله تعالى ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه، وربما يسبق لسانه في هذه الدهشة، فيقول: أنا الحق! فإن لم يتضح له ما وراء ذلك، إغتر به، ووقف عليه وهلك، وكان قد اغتر بكوكب صغير من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعد إلى القمر، فضلاً عن الشمس، فهو مغرور. وهذا محل الالتباس، إذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه، كما يلتبس لون ما يترأى في المرأة فيظن أنه لون المرأة، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن أنه لون الزجاج، كما قيل:

رقّ الزجاج ورقّت الخمر فتشابهها وتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا اشراق نور الله قد تلاً فيهِ، فغلطوا فيه، كمن يرى كوكباً في مرآة أو في ماء، فيظن أن الكوكب في المرآة أو في الماء، فيمد اليد اليه، فهو مغرور. وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله كثيرة لا تخفى على أرباب البصيرة.

ثم أكثر المتلبسين بلباس العارفين - مع كذبهم فيما يدعونه، ونقصانهم في طريق السلوك، وجهلهم بحقيقة الامر، وعدم قطعهم جل المقامات - يتشبهون

(١) الأنعام، الآية: ٧٦ و ٧٩.

بالصادقين من العرفاء في زِيَّهم وهيئتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم، طائنين أنهم بهذا التشبه يصلون إلى مراتبهم، فهيهات هيهات! إن الوصول إلى درجة كل أحد إنما تحصل بالإتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفيسة، دون التشبه به في حالاته الظاهرة وقد شبههم بعض الأكابر بامرأة عجوز سمعت أن الشجعان من المقاتلين تثبت أسماؤهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من أقطار المملكة، فتاقت نفسها إلى أن تكون مثلهم، فلبست درعا، ووضعت على رأسها مغفراً، وتعلمت من رجز الأبطال أبياتا، وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان، وتلقفت جميع شمائلهم في الزى والمنطق والحركات والسكنات، وتوجهت إلى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان، فلما وصلت اليه، أنفذت إلى ديوان العرض، وأمرت بأن تجرد عن المغفر والدرع، وينظر إلى حقيقتها، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعته، فلما جردت فإذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء، ف قيل لها: أجيئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته؟ خذوها والقوها قدام الفيل، فداسها ونحتها. فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة، إذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا إلى القاضى الحق الذي لا ينظر إلى الزى واللباس بل إلى سر القلب وصفاته.

الطائفة السابعة

(الأغنياء وأرباب الأموال)

والمغتربون فيهم أكثر من المغترين من سائر الطوائف:

(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالأموال المحرمة، وربما غصب أرض المساجد والمدارس، وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة، ولذا يسعى في كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت أثره، ويظن

المسكين أنه قد استحق المغفرة بذلك، وأنه مخلص فيه، ولم يدر أنه تعرض لسخط الله في كسب هذه الأموال وفي انفاقها، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله، وإذا عصى الله واخذها، كان الواجب عليه التوبة وردها إلى اهله، فإن لم يبق من اخذها منه ولا ورثته، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين، مع انه ربما كان في بلده أو في جواره مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما.

(ومنهم) من ينفق الأموال في الصدقات، إلا أنه يطلب الفقراء الذين عادتهم الشكر والافشاء للمعروف، ويكره التصدق في السر، بل يطلب المحافل الجامعة ويتصدق فيها، وربما يكره التصدق على فقراء بلده ويرغب أن يعطى اهل البلاد الآخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده، طلباً لاشتهاره بالبذل والعطاء في البلاد الخارجية البعيدة، وربما يصرف كثيراً منه إلى رجل معروف في البلاد وإن لم يكن مستحقاً، ليشتهر ذلك في البلاد، ولا يعطى قليلاً منه إلى فقير له غاية الاستحقاق إذا كان خامل الذكر، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الأجر والثواب، ولم يدر المغرور أن هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه.

(ومنهم) من يجمع مالا من غير حله، ولا يبالي باخذ المال من أى طريق كان، ثم يمسكه غاية الامساك، إلا أنه لا يبالي بصرف بعضه في طريق الحج، إما لنفسه فقط، أو لأولاده وازواجه أيضاً، إما للاشتهار، أو لما وصل اليه: أن تارك الحج يبتلى بالفقر.

(ومنهم) من غلب عليه البخل، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله، فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة، ظناً منه أن ذلك يكفى لنجاته، ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها، وعلاجه: بذل المال دون العبادات البدنية. ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية، وقد اشرف على الهلاك، وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفراء، وغافل بأن الحية تقتله الآن، ومن قتلت الحية فأى حاجة له إلى السكنجبين؟

وصل

(ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد)

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب. فضده الفطانة والعلم والزهد، فمن كان فطناً كيساً عارفاً بربه ونفسه وبالآخرة والدنيا، وعالماً بكيفية سلوك الطريق إلى الله وبما يقربه إليه وبما يبعده عنه، عالماً بآفات الطريق وعقباته وغوائله، ولاجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان في شيء من الأمور، إذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريباً في هذا العالم اجنبياً من هذه الشهوات البهيمية، عرف كون هذه الشهوات مضرّة له وأن الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر إلى وجهه، فلا يسكن نفسه إلى شهوات الدنيا، ومن عرف ربه وعرف الدنيا والآخرة ولذاتهما وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة إلى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا ولذاتهما، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها، فإن أكل - مثلاً - أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الاغراض والنزوع إلى الدنيا وإلى الجاه والمال، وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله، لم يمكنه الخلاص من الغرور. فالأصل في علاج الغرور: أن يفرغ القلب من حب الدنيا، ويغلب عليه حب الله، حتى تتقوى به الإرادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور. قال الصادق (عليه السلام): «واعلم أنك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمنى إلا بصدق الإنابة إلى الله، والاختبات له، ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم، ولا يحتمله الدين والشرعية وسنن القدوة وأئمة الهدى، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعملك منك وأضيع عمراً، فاورثت حسرة يوم القيامة»^(١).

(١) صححناه على مصباح الشريعة، الباب ٣٦.

ومنها:

طول الأمل

معنى طول الأمل ومرجهه - علاجه - ضده قصر الأمل - اختلاف الناس في طول الأمل - ذكر الموت مقصر للأمل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت أعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت.

وهو أن يقدر ويعتقد بقاءه إلى مدة متمادية، مع رغبته في جميع توابع البقاء: من المال والأهل والدار وغير ذلك، وهو من رذائل قوتى العاقلة والشهوة، إذ الاعتقاد المذكور راجع إلى الجهل المتعلق بالعاقلة، وحب لجميع توابع البقاء وميله إليه من شعب حب الدنيا. وجهله راجع إلى تعويله: إما على شبابه، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشاب، أو على صحته وقوته، ويستبعد مجيء الموت فجأة، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد، إذ كل مرض إنما يقع فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً. ولو تفكر هذا الغافل، وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من شباب وشيب وكهولة، ومن شتاء وخريف وصيف وربيع، وليل ونهار، وحضر وسفر، لكان دائماً مستشعراً غير غافل عنه، وعظم اشتغاله بالاستعداد له، لكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الأمل، فهو أبداً يظن أن الموت بين يديه، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته، لأن هذا قد تكرر عليه، والفه بتكرر مشاهدة موت غيره. وأما موت نفسه، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه، لأنه لم يقع، وإذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده، فهو الأول وهو الآخر!

وأما حبه لتوابع البقاء: من المال والدار والمراكب والضياع والعقار، فراجع إلى

الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة، فيثقل على قلبه مفارقتها، فيمنع قلبه عن التفكير في الموت الذي هو سبب مفارقتها، إذ كل من كره شيئاً يدفعه عن نفسه. والانسان لما كان مشغولاً بالاماني الباطلة، وبالدينا وشهواتها ولذاتها وعلائقها، فتتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده، ومراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه، ويقدر توابع البقاء من اسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قرب، فإن خطر له في بعض الأحيان امر الموت والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه إلى أن يكبر فيتوب. وإذا كبر آخر التوبة إلى أن يصير شيخاً، وإذا صار شيخاً يؤخرها إلى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، ولا يزال يسوف ويؤخر إلى أن يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته، وقد ورد أن اكثر أهل النار صياحهم من سوف، يقولون واحزنانه من سوف! والمسوف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا، إذ الخائض في الدنيا لا يتصور له الفراغ منها قط، إذ ما قضى من اخذ منها لبانته، وانما فرغ منها من أطرحها.

فصل

(علاج طول الأمل)

لما عرفت أن طول الأمل منشأ الجهل وحب الدنيا، فينبغي أن يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى، وبسماع الوعظ من النفوس الطاهرة، فإن من تفكر يعلم أن الموت اقرب إليه من كل شيء، وأنه لا بد أن تحمل جنازته ويدفن في قبره، ولعل اللبن الذي يغطي به لحدّه قد ضرب وفرغ منه، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به. وأما حب الدنيا فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة، وما ورد في الأخبار من الدم والعقاب في حب الدنيا

والرغبة إليها، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها، وقد تقدم ما يكفى لهذا البيان، وينبغي - أيضاً - أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الأمل - أعنى قصر الأمل كما يأتى - وما ورد في ذم طول الأمل، كقوله عليه السلام: «إن أشد ما اخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا - ثم قال -: إن الله يعطى الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبداً أعطاه الايمان، ألا إن للدين ابناء وللدنيا ابناء، فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية، ألا إن الآخرة قد اتت مقبلة، ألا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل»^(١). وقوله عليه السلام: «نجا أول هذه الامة باليقين والزهد، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والأمل». وقول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء الأمل».

وصل

(قصر الأمل)

ضد طول الأمل قصره، وهو من شعار المؤمنين وثمار الموقنين، ولذا ورد في الأمر به والنهي عن ضده ما ورد، قال رسول الله ﷺ: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من دنياك لآخرتك، ومن حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك لا تدري ما اسمك غداً». وقال عليه السلام بعد ما سمع أن اسامة اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر: «إن اسامة لطويل الأمل، والذي نفسى بيده! ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفىرى لا يلتقيان

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم: ٤ / ٣٨٤، وهو يرويه عن على عليه السلام عن النبى ﷺ، ولكن في كنز العمال: ٢ / ١٦٩، يرويه: أنه من كلام على عليه السلام نفسه، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء، وعبارة الكنز أبلغ وأرصن، وفيه كلمة (الآخرة) بدل (الدين)، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضاً (وهو أبلغ وأعلى من العبارتين)، مروي في نهج البلاغة: رقم ٤١ من باب الخطب، فراجع.

حتى يقبض الله روحى، ولا رفعت طرفي فظننت أنى واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيعها حتى اغص بها من الموت»، ثم قال: «يا بني آدم! إن كنتم تعقلون فعدّوا انفسكم من الموتى، والذي نفسى بيده! إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين». وروى: «أنه عليه السلام قد اطلع ذات عشية إلى الناس، فقال: أيها الناس! أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون». وقال عليه السلام: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟ قالوا: نعم يا رسول الله! قال: قصرُوا من الأمل، واجعلوا آجالكم بين ابصاركم، واستحيوا من الله حق الحياء». وكان عليه السلام يقول في دعائه: «ألهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل». وكان عليه السلام يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة، ويقول لعلى لا أبلغه. وقال عيسى عليه السلام: «لا تهتموا برزق غد، فإن لم يكن غداً من آجالكم فستأتى أرزاقكم مع آجالكم، وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم».

فصل

(اختلاف الناس في طول الأمل)

الناس في طول الأمل وقصره مختلفون: (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهيها أبداً، كما قال الله سبحانه:

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ^(١).

وهو الذي إنغمر في الدنيا وخاض في لذاتها، وليس له من الآخرة نصيب. (ومنهم) من يأمل البقاء إلى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره، وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً، ويشغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة، وربما يجتهد

بجمع الأزيد منه. (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من سنة، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل، فإن بلغه حمد الله على ذلك، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف، وإذا جمع ما يكفيه السنة اشتغل بالعبادة. (ومنهم) من يأمل أقل من السنة إلى أن ينتهي إلى من لا يأمل أزيد من يوم وليلة، فلا يستعد إلا لنهاره دون غده. و(منهم) من يكون الموت نصب عينيه، كأنه واقع به وهو ينتظره، ومثله يصلى دائماً صلاة المودعين. وروى: «أن النبي ﷺ سأل بعض الصحابة عن حقيقة إيمانه، قال: ما خطوات خطوة إلا ظننت أني لا أتبعها أخرى». وكان بعضهم إذا يصلى يلتفت يمينا وشمالا، ولما قيل له: ما هذا الالتفات؟ قال: «انتظر ملك الموت من أي جهة يأتي». »

ثم أكثر الخلق - (لا) سيما في أمثال زماننا - قد غلبهم طول الأمل، بحيث لا يأمل أقل من أقصى مدة السن، وقَلَّ فيهم من قصر أمله والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الأمل، وفي عصرنا أكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم أكثر من الشبان، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان: الحرص وطول الأمل». وقال ﷺ: «حب الشيخ شاب في طلب الدنيا، وإن التفت ترقواته من الكبر، إلا الذين اتقوا، وقليل ما هم».

ثم يعرف طول الأمل وقصره بالأعمال: فمن اعتنى بجمع اسباب لا يحتاج إليها في سنة فهو طويل الأمل، وكذلك من انتشرت اموره، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات إلى مدة معينة، كالسنة وأزيد منها، وكان عليه ديون من الناس كذلك، ومع ذلك لم يكن مضطرباً ولا خائفاً فهو طويل الأمل. فعلامة قصر الأمل: أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوماً، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة. ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد.

فصل

(ذكر الموت مقصر للأمل)

ذكر الموت يقصر الأمل ويدفع طوله، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود، ولذا ورد في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة، قال رسول الله ﷺ: «اكثرُوا ذكر هادم اللذات»، قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «الموت، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه». وقال ﷺ: «تحفة المؤمن الموت». وقال ﷺ: «الموت كفارة لكل مسلم». وقيل له ﷺ: هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم! من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة». وقال ﷺ: «اكثرُوا من ذكر الموت، فإنه يمحص الذنوب، ويزهد في الدنيا». وقال ﷺ: «كفى بالموت واعظاً». وقال ﷺ: «الموت الموت، إلا ولا بد من الموت، جاء الموت بما فيه، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة إلى جنة عالية لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم». وقال ﷺ: «إذا استحققت ولاية الله والسعادة، جاء الأجل بين العينين وذهب الأمل وراء الظهر، وإذا استحققت ولاية الشيطان والشقاوة، جاء الأمل بين العينين وذهب الأجل وراء الظهر». وذكر عنده ﷺ رجل، فاحسنوا الثناء عليه، فقال ﷺ: «كيف ذكر صاحبكم للموت؟»، قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، قال: «فان صاحبكم ليس هنالك». وسئل: أى المؤمنين أكيس وأكرم؟ فقال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدّهم استعداداً له، أولئك هم الاكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة». وقال الباقر عليه السلام: «اكثرُوا ذكر الموت، فإنه لم يكثر ذكره انسان إلا زهد في الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «إذا انت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف»، ثم قال عليه السلام: «عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم، ثم نودى فيهم بالرحيل وهم يلعبون». وقال عليه السلام لأبى بصير - بعد ما شكى إليه الوسواس -: «أذكر يا أبا محمد تقطع أوصالك في قبرك، ورجوع أحبائك عنك إذا دفنوك في حفرتك،

وخروج بنات الماء من منخريك، واكل الدود لحملك، فإن ذلك يسلى عليك ما أنت فيه»، قال أبو بصير: فو الله! ما ذكرته إلا سلى عني ما أنا فيه من هم الدنيا. وقال عليه السلام: «من كان كفته معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجوراً كلما نظر اليه»^(١). وقال عليه السلام: «ذكر الموت يمت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة، ويقوى القلب بمواعد الله، ويرق الطبع، ويكسر اعلام الهوى، ويطفى نار الحرص، ويحقر الدنيا، وهو معنى ما قال النبي ﷺ: (فكر ساعة خير من عبادة سنة)، وذلك عندما يحل أطناب خيام الدنيا ويشدها في الآخرة، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة، ومن لا يعتبر بالموت، وقلة حيلته، وكثرة عجزه، وطول مقامه في القبر، وتحيره في القيامة: فلا خير فيه. وقال النبي ﷺ: (اكثرُوا ذكر هادم اللذات...)، ثم ذكر تمام الحديث كما مر... ثم قال عليه السلام: والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبى لمن اكرم عند النزول باولها، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها، والموت أقرب الأشياء من بنى آدم، وهو بعده ابعده، فما أجراً الانسان على نفسه، وما أضعفه من خلق، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين، ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت وكره من كره، قال النبي ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)»^(٢).

فصل

(العجب ممن ينسى الموت)

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه، وهو اظهر اليقينيّات والقطعيّات في العالم، واسرع الأشياء إلى بنى آدم، قال الله سبحانه وتعالى:

(١) صححنا اكثر الاحاديث على الوسائل - ج ١: الباب ٢٣ من أبواب الاستحضار في كتاب الطهارة -،

وعلى احياء العلوم: ٢٨٣ / ٤.

(٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: الباب ٨٤.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢).

وقال الصادق عليه السلام: «ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما انزل الموت حق منزلته من عدّ غداً من أجله». وقال عليه السلام: «لو رأى العبد أجله وسرعته اليه، لأبغض العمل من الدنيا». وقال الصادق عليه السلام: «ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلا وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات». وقد تقدمت اخبار آخر في هذا المعنى.

فصل

(الموت أعظم الدواهي)

اعلم أن الموت داهية من الدواهي العظمى، ومن كل داهية اشد وادهى، وهو من الأخطار العظيمة والاهوال الجسيمة، فمن علم أن الموت مصرعه والتراب مضجعه، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره، والدود أنيسه والعقارب والحيات جليسه، فجدير أن تطول حسرته وتدوم عبرته، وتنحصر فيه فكرته وتعظم بليته، وتشتد لأجله رزيته، ويرى نفسه في اصحاب القبور ويعدها من الاموات، إذ كل ما هو آت قريب، والبعيد ما ليس بآت، وحقيق ألا يكون ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده إلا فيه وله، قال رسول الله ﷺ: «لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلتم منها سمياً». وقال عليه السلام لقوم يتحدثون ويضحكون: «اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»، ومرّ ﷺ

(١) النساء، الآية: ٧٨.

(٢) آل عمران، الآية: ١٨٥.

بمجلس قد استعلاه الضحك، فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات». قالوا: وما مكدر اللذات؟ قال: «الموت».

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له، ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها، فلا ينفع ذكره في قلبه، فالطريق فيه: أن يفرغ القلب عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه، كالذي يريد أن يسافر إلى بلد بعيد ما بينهما مفازة خطيرة، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه، فإنه لا يتفكر إلا فيه، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك، لأثر ذكره في قلبه، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا، وتنزجر نفسه عنها، وينكسر قلبه، ويستعد لأجله. وأوقع طريق فيه: أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله، ونقلوا من انس العشرة إلى وحشة الوحدة ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحد ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مصاحبة الهوام والديدان، ويتذكر مصرعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ثم يتفكر كيف محى التراب الآن حسن صورتهم، وكيف تبددت اجزائهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم وأيتما أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم وأوحشت ديارهم، فهما تذكر رجلا رجلا، وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمؤثرات الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف دبر لنفسه الأمور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه إليه على مرّ الأعوام والشهور وكرّ الأزمنة والدهور. ثم يتأمل أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وسيصير حاله في القبر كحالهم، فملازمة هذه الأفكار وامثالها، مع دخول المقابر وتشجيع الجنائز ومشاهدة المرضى، تجدد ذكر الموت في قلبه، حتى يغلب عليه

بحيث يصير الموت نصب عينيه، وعند ذلك ربما يستعد له ويتجافي عن دار الغرور، وأما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في التنبيه والايقاظ ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتها. كما نقل: أن بعض الاكابر نظر يوماً إلى داره فاعجبه حسننها فبكى وقال والله لولا الموت لكنت بها مسروراً.

فصل

(مراتب الناس في ذكر الموت)

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها، وبين تائب مبتدئ، وعارف منتهى.

(فالأول): لا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره ليذمه لصدده عما يحبه من الدنيا، وهو الذي يفر منه، وقال الله تعالى فيه:

﴿قُلْ إِنْ أَلْمُوتَ أَلَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ...﴾ الآية (١).

وهذا يزيده ذكر الموت بعداً من الله، إلا إذا استفاد منه التجافي عن الدنيا، ويتنصص عليه نعيمه، ويتكدر صفو لذته، وحينئذ ينفعه، لأن كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته.

(والثاني): يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية، فيفنى بتمام التوبة، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل تحت قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله، وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره، وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغولاً بالاستعداد للقاءه على وجه

يرضاه، فلا يعد كارهاً للقاءه. وعلامة هذا: «أن يكون دائم الاستعداد للموت لاشغل له سواء، وإن لم يكن مستعداً له عاملاً بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول.

(وأما الثالث): فانه يذكر الموت دائماً، لانه موعد للقاء حبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب، وهذا في غالب الامر يستبطنه مجيء الموت ويحب مجيئه، ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين، كما روى: «أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من رده، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحب إليّ من الحياة، فسهل عليّ الموت حتى ألقاك». وأعلى رتبة منه: من يفوض امره إلى الله، ولا يختار لنفسه شيئاً: من الموت أو الحياة، والفقر والغنى، والمرض والصحة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه، وهذا قد انتهى بفطر الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضى، وهو الغاية والانتها.

تتميم

(المبادرة إلى الحسنات)

من علامات قصر الامل وذكر الموت: المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات، ولذا ورد فيه الترغيب والحدز عن آفة التأخير، قال رسول الله ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». وقال ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»^(١). وكان ﷺ إذا احس من اصحابه غفلة وغرة، نادى فيهم بصوت عال: «اتكلم المنية، إما بشقاوة أو بسعادة». وروى: أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى: أيها الناس! الرحيل الرحيل! وقال

(١) صححنا الحديث على احياء العلوم: ٤ / ٣٩٠. وفي نسخ الكتاب (أولج ومن أولج).

بعض الأكابر: التؤدة في كل شيء خير، إلا في أعمال الآخرة.

ومنها:

العصيان

ولاريب في كونه من رذائل قوتى الغضب والشهوة معاً، لأن بعض انواعه من رذائل احدهما من جانب الافراط أو التفريط، أو من باب رداءتها، وبعض آخر من انواعه من رذائل الأخرى. وضده (التقوى والورع)، وبالمعنى الأعم: اعنى الاجتناب عن مطلق المعصية خوفاً من سخط الله، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما، فتذكر.

ومنها:

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية، وكونه من رداءة قوتى الغضب والشهوة ظاهر.

وضدها (الحياء)، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذراً من الذم واللوم، وهو أعم من التقوى، إذ التقوى اجتناب المعاصى الشرعية، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف أيضاً، فهو من شرائف الصفات النفسية، ولذا ورد في فضله ما ورد، قال الصادق عليه السلام: «الحياء من الايمان، والايمان في الجنة». وقال عليه السلام: «الحياء والعفاف والعى - أعنى عى اللسان لا عى القلب - من الايمان». وقال عليه السلام: «الحياء والايمان مقرونان في قرن، فإذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه». وقال عليه السلام: «لا ايمان لمن لا حياء له». ثم حقيقة الحياء - كما عرفت - هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعاً أو عقلاً أو عرفاً، فالانفعال عن غير ذلك حمق، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخمود عما ينبغى شرعاً وعقلاً لا يعد حياء بل حمقاً، ولذا قال رسول الله ﷺ: «الحياء حياءان: حياء

عقل وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل»^(١).

ومنها:

الإصرار على المعصية

رجوع رذيلة الاصرار إلى أى القوى وذمها - ضد الاصرار التوبة وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟ - وجوب التوبة - تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها - فضيلتها - قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبعيض فيها؟ - أقسام التائبين - مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الاصرار على الذنوب - الانابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما - حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس.

* * *

وهو إما ناشئ من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة أو عن رداءتهما معاً، فيكون من رذائل القوتين، وكل ما يدل على ذم مطلق المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية بطريق أولى واوكد. والأخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما يظفر بجملتها منها في هذا الكتاب عند ذكر كل معصية، وأما الأخبار الواردة في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جداً، كقول النبي ﷺ: «ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يناديان باربعة اصوات، يقول أحدهما: يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا، ويقول الآخر: يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فيقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا. عملوا بما علموا، فيقول الآخر: يا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا مما عملوا.

(١) صححنا الأحاديث هنا على اصول الكافي (باب الحياء).

واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام، وأنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تبدين عن واضحة وقد عميت الأعمال الفاضحة، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة». وقال عليه السلام: «ما من شيء أفسد للقلب من خطيئته، إن القلب ليوافق الخطيئة، فما يزال به حتى يغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله». وقال عليه السلام: «إن العبد ليذنب الذنب فيزوى عنه الرزق». وقال الصادق عليه السلام: «يقول الله تعالى: إن أدنى ما اصنع بالعبد إذا أثر شهوته على طاعتي أن احرمه لذيق مناجاتي». وقال عليه السلام: «من همّ بسيئة فلا يعملها، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه الرب تعالى فيقول: وعزتي وجلالي! لا أغفر لك بعد ذلك أبداً». وقال عليه السلام: «أما إنه ليس من عرق يضرب، ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١).

قال عليه السلام: «وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به». وقال عليه السلام: «إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم». وقال الكاظم عليه السلام: «حق على الله ألا يعصى في دار إلا اضحاها الشمس حتى يطهرها»^(٢).

والأخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل إليه أثر الذنب ووباله، فإن هذا محال، فإنه لم يتجاوز عن الأنبياء في تركهم الأولى فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي. نعم، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً، ويعذبوا في الآخرة عذاباً أكبر واشد، أما سمعت أن أباك آدم قد أخرج من الجنة بتركه الأولى؟

(١) الشورى، الآية: ٣٠.

(٢) صححنا الأحاديث هنا على أصول الكافي (باب الذنوب).

حتى روى: «أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدأت عورته، وجاء جبرئيل عليه السلام وأخذ التاج من رأسه وخلقى الاكليل عن جنبه، ونودى من فوق العرش: اهبطا من جوارى، فإنه لا يجاورنى من عصانى، فالتفت آدم إلى حواء باكياً، وقال: هذا أول شؤم المعصية، أخرجنا من جوار الحبيب». وروى: «أنه تعالى قال: يا آدم! أى جار كنت لك؟ قال: نعم الجار يا رب! قال: يا آدم! اخرج من جوارى وضع عن رأسك تاج كرامتى، فإنه لا يجاورنى من عصانى». وقد روى: «أن آدم بكى على ذنبه مائتى سنة، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الأولى». فإن كانت مؤاخذته في نهى تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى.

وصل

(التوبة وتعريفها)

ضد الاصرار (التوبة)، وهي الرجوع من الذنب القولى والفعلى والفكرى، وبعبارة اخرى: هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد إلى القرب، وبعبارة اخرى: ترك المعاصى في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير. وكما أن الاصرار على العصيان من رذائل قوتى الغضب والشهوة، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما، بمعنى أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احدهما، ومن فعل النفس باعانتها وانقيادها للعاقلة، وإن كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين المحبوب، ويمكن أن يقال: إن التوبة هو الرجوع عن الذنب، وهو من ثمرات الخوف والحب، فإن مقتضى الحب أن يمثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من المحب، فتكون من فضائل القوتين أيضاً. ويمكن أن يقال: إن التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر

الذنوب، وكونها حجاباً بينه وبين الله والندم الحاصل منه، والقصد المتعلق بالترك حالاً واستقبالا، والتلافي للماضي والندم، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين أو فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة، والعلم المذكور من العاقلة، فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث.

وتوضيح حقيقة التوبة: أنه إذا علم العبد علماً يقينياً أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب، وصار متأسفاً على ما صدر عنه من الذنوب، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات، ويسمى تألمه - بسبب فعله أو تركه المفوت لمحبوبه - ندماً. وإذا غلب هذا الندم على القلب، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملائماً له، وبلاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحبوبه إلى آخر عمره، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء. فالعلم - أعني اليقين بكون الذنوب سموماً مهلكة - هو الأول، وهو مطلع البواقي، إذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب، فيتألم به القلب، حيث ينظر باشراف نور الايمان واليقين أنه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب، فيرى محبوبه قيد اشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحب في قلبه، وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك. فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معان مترتبة في الحصول، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها. وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم، وجعل العلم كالسابق والمقدمة، والترك كالثمرة والتابع للمتأخر، وإلى هذا الاعتبار يشير قوله ﷺ: «الندم توبة»، إذ لا يخلو الندم عن علم أو حبه واثمره، أو عن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفاً بطرفيه، أعني ثمرته وثمره، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب، وربما اطلقت على

مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا، وبهذا الاعتبار قيل في حدها: إنها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وإنها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، أو إنها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود إليه استقبالا. وعلى هذا لا يكون داخلا في حقيقة التوبة، وقد صرح بعض الاعاظم بخروجه عنها، محتجاً بأن الندم - وهو تألم القلب وحزنه على الذنب - غير مقدور، ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدوراً، وإنما المقدور تحصيل أسبابه، أعنى الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه. وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة، إذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها، فاللازم فيها التندم دون الندم. وغير خفى بأن الندم كغيره من صفات النفس، فإن أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك، وإلا لزم بطلان علم الأخلاق بالكلية، وأيضاً إذا امكن تحصيل سبب الندامة - أعنى العلم بفوات المحبوب - لزم ترتب المسبب - أعنى الندامة عليه - فما معنى عدم كونه مقدوراً، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الأخلاق النفسية. وبعضهم يعدّ ما عدا التندم من شرائط التوبة، قال: «وأما الندم - أعنى تألم القلب على الذنب الذي هو روح التوبة - فغير مقدور، وهو التوبة حقيقة، وإنما المقدور تحصيل أسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه» انتهى. وفيه ما لا يخفى بعلاوة ما سبق، قال الصادق عليه السلام: «التوبة حبل الله ومدد عنايته، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال، وكل فرقة من العباد لهم توبة، فتوبة الأنبياء من اضطراب السرّ وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات، وتوبة الأصفياء من التنفيس، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله، وتوبة العام من الذنوب، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصول توبته ومنتهى أمره، وذلك يطول شرحه هنا.

وأما توبة العام، فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة، والاعتراف بجنايته دائماً، واعتقاد الندم على ما مضى، والخوف على ما بقى من عمره، ولا يستصغر

ذنبه فيحمله ذلك إلى الكسل، ويديم البكاء والاسف على ما فاتته من طاعة الله، ويحبس نفسه عن الشهوات، ويستغيث إلى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود إلى ما سلف، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة، ويقضى عن الفوائت من الفرائض، ويرد المظالم، ويعتزل قرناء السوء، ويسهر ليله ويظماً نهاره، ويتفكر دائماً في عاقبته، ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوايين، فان في ذلك طهارة من ذنبه، وزيادة في عمله، ورفعته في درجاته. قال الله عز وجل:

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾^(١) .^(٢)

تتمة

(هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟)

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله، (أما)^(٣) ترك ذنب لم يسبق مثله حالاً والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة، بل يسمى تقوى، ويسمى صاحبه متقياً لا تائباً ولذا يصح القول بأن النبي ﷺ كان متقياً عن الكفر، ولا يصح القول بأنه كان تائباً عنه. ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلاً في الصورة أو المنزلة، فالشيخ الهم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق، ولم يقدر الساعة على فعلهما إذا أراد التوبة عنهما، ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة، كالفذف والسرقة واماثلهما، إذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة - اعنى نفس الزنا وقطع الطريق - مع عدم قدرته عليهما، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء، لزم أن يكون باب التوبة مسدوداً بالنسبة إلى مثل الشيخ الهم وكل

(١) العنكبوت، الآية: ٣.

(٢) صححنا هذه الرواية على (مصباح الشريعة: الباب ٨٠).

(٣) وفي النسخ (أو) بدل (أما)، والصحيح ما أثبتناه.

من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها، وهو باطل، لانفتاح باب التوبة إلى الموت، ولما ذكر، قال بعض المشايخ في حد التوبة: «إنها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لاصورة، تعظيماً لله وحذراً من سخطه». فقوله: «سبق مثله» احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله، فإنه لا يسمى توبة بل تقوى، وقوله: «منزلة لاصورة» لإدخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله، وعلى هذا فتوبة العنين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، والظاهر أن بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن، على أنه لو كان قادراً على الزنا لتركه أيضاً، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة، فلو كان قادراً عليه لتركه أيضاً.

قال أبو حامد الغزالي: «إن قلت: هل تصح توبة العنين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة؟ قلت: لا! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله، فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه»، ثم قال: «ولكني أقول: لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه، وثار منه احتراق وتحسر وندم، بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها، فاني ارجو أن يكون ذلك مكفراً لذنبه وماحياً عنه سيئته، إذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين، وإن لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر اسباب قضاء الشهوة، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده، فاذا لا يستحيل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا المبلغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه، فإن كل من لا يشتهي شيئاً يقدر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه، فعساه يقبله منه، بل الظاهر انه يقبله. والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة المعصية تمنحى عن القلب بشيئين: - أحدهما - حرقه الندم، والآخر - شدة المجاهدة بالترك في المستقبل، وقد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة، ولكن

ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة، ولولا هذا لقلنا: ان التوبة لا تقبل ما لم يعيش التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة، وذلك مما يدل الظاهر الشرع على اشتراطه».

فصل

(وجوب التوبة)

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة: بالاجماع، والنقل، والعقل:
أما الاجماع - فلا ريب في انعقاده. وأما النقل - فكقوله تعالى:
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١). وقوله تعالى: «يَتَّيِبُهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ»^(٢).
ومعنى النصوح: الخالص لله خالياً عن شوائب الأغراض، من مال أو جاه أو
خوف من سلطان أو عدم اسباب، والأمر للوجوب، فتكون التوبة واجبة بمقتضى
الآيتين.

وأما العقل - فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك في ثبوته
لها. (بيان ذلك): أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف عليه الوصول إلى سعادة
الأبد والنجاة من هلاك السرمد، ولولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم
يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد. ولا ريب في أنه
لا سعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله والانس به، فكل من كان محجوباً عن اللقاء
والوصال محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقى لا محالة، محترق بنار
الفراق ونار جهنم. ثم لا مبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس

(١) النور، الآية: ٣١.

(٢) التحريم، الآية: ٨.

بهذا العالم الفانى، والاكباب على حب ما لا بد من مفارقتة قطعاً، ويعبر عن ذلك بالذنوب. ولا مقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم، والاقبال بالكلية على الله، طلباً للانس به بدوام الذكر، والمحبة له بدوام الفكر في عظمتة وجلاله وجماله على قدر طاقته. ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول إلى القرب الذي هو السعادة، ولا يتم ذلك إلا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم، ولا يتم الواجب إلا به، فهو واجب، فالتوبة واجبة قطعاً.

تذنيب

(تحقيق في وجوب التوبة)

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة، مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لا ريب فيه، والعالم بهذا العلم إذا لم يعمل به فكما لا يعلمه أو ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان، لأن كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل، فلا يقع التفصى عن عهده ما لم يصير باعثاً، فالعلم بضرر الذنوب إنما اريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان، وهو المراد بقول النبي ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»، وما اراد به نفى الايمان بالله ووحديته وصفاته وكتبه ورسله، فإن ذلك لا ينافى الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفى الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه، وليس الايمان باباً واحداً، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون باباً، أعلاها الشهادتان وادناها اماطة الأذى عن الطريق، ومثاله قول القائل: ليس الانسان موجوداً واحداً، بل هو نيف وسبعون موجوداً، أعلاها الروح والقلب وادناها اماطة الأذى عن البشرية، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الأظفار نقى البشرة عن الخبث، حتى يتميز عن البهائم المرسلة المتلوثة باروائها، المستكرهة الصور بطول مخالبتها واظفارها،

فالإيمان كالإنسان، وفقد الشهادتين كفقْد الروح الذي يوجب البطْلان بالكلية، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر اجزائه من الأعمال، فهو كإنسان مقطوع الأطراف مقفوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الظاهرة والباطنة، إلا أصل الروح. وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة، فالمحجوب عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل، كما أن الشخص الفاقْد لجميع الأطراف التي هي فروع ليساق إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل، فلا بقاء للأصل دون الفرع، ولا وجود للفرع دون الأصل، ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد، وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل، وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع، ولكن بقاءه يستدعي وجود الفرع، فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن كمساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة، وإنما يظهر الفرق إذا عصفت الرياح القوية، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على أصلها وفرعها. ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لأجل معصيته اتكالا على إيمانه بالتوحيد والرسالة، كمثل الصحيح الذي يأكل الأغذية المضرة والسمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والأغذية إلى المرض والمرض إلى الموت، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي إلى سوء الخاتمة وسوء الخاتمة إلى الخلود في النار، فالمعاصي للإيمان كالسمومات والماكولات المضرة للبدان، فكما أن مضرة

السمومات لا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة، فكذلك آثار المعاصى لا تزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان، فالخائف من الموت في هذه النشأة القصيرة إذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات، فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ترك الذنوب، ومن تناول السم وندم إذا وجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة، فمتناول سموم الايمان وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن ما دام مهلة التدارك.

فالبدار البدار معاشر اخوانى إلى التوبة! قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملا لا ينفع بعده الاحتماء، ويخرج الأمر فيه عن ايدى اطباء القلوب، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين، وتحق عليكم كلمة العذاب. وتدخلون تحت عموم قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١).
وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾^(٢)... وغير ذلك من الآيات.

ثم مقتضى الأدلة المذكورة: كون التوبة واجبة على الفور، فيجب على كل مسلم أن يتوب عن ذنوبه فوراً، ولا يجوز له التأخير. قال لقمان لابنه: «يا بنى! لا تؤخر التوبة، فإن الموت يأتي بغتة». ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويق كان بين خطرين عظيمين: - احدهما - أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو. - والثانى - أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد: أن اكثر صياح أهل النار من التسويق، فما هلك من

(١) يس، الآية: ٩.

(٢) البقرة، الآية: ٧.

هلك إلا بالتسوية.

فصل

(عموم وجوب التوبة)

وجوب التوبة يعم الأشخاص والاحوال، فلا ينبغي أن ينفك عنه احد في حالة، قال الله تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

وهو يعم الكل في الكل. ومما يدل على وجوبها على الكل: أن كل فرد من أفراد الناس إذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة بدنه، بين الشهوات جنود الشياطين، وبين العقول احزاب الملائكة، إذ لا تكمل غريزة العقل في أحد إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة، وإذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع أن يغلب جنود الله على جنود الشيطان. بقمعها بكسر الشهوات، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات، ولا معنى لوجوب التوبة إلا هذا. ومما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو أن كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والهم بالذنوب بالقلب، فإن خلا عن ذلك أيضاً فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة.

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص وأصله في حالة، وإن تفاوتوا في المقادير، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة، ولو خلا عن التوبة عن جميع

(١) النور، الآية: ٣١.

الذنوب في لحظة واختطفه الموت، لزم خروج روحه بلا توبة، لعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة، فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من أنفاسه، قال بعض العرفاء^(١): «لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره إلا على فوت ما مضى من عمره في غير طاعة الله، لكان حقيقاً أن يخزبه^(٢) ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ما مضى من جهله». ومن عرف قدر العمر وفائدته، وما يكتسب به من سعادة الأبد، يعلم أن ما يضيع منه في المعصية وغير التوبة أى حسرة وندامة يترتب عليه، فإن العاقل إذا ملك جوهره نفيسة، فإن ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشد، وكل نفس من العمر جوهره نفيسة لا عوض لها، لا يصلها العبد إلى سعادة الأبد وانقاذها إياه من شقاوة السرمد، وأى جوهر انفس من هذا، فمن ضيعها في الغفلة خسر خسرانا مبيئاً، ومن صرفها في معصية فقد هلك هلاكاً أبدياً. وقد قيل: إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام: - أحدهما - إذا خرج من بطن أمه يقول له: عبدى! قد أخرجتك إلى الدنيا طاهراً لطيفاً، واستودعتك عمرك واثمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة، وانظر كيف تلقانى. - والثانى - عند خروج روحه يقول: عبدى! ماذا صنعت في أمانتى عندك، هل حفظتها حتى تلقانى على العهد فالقاك على الوفاء؟ أو اضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب؟ وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾^(٣). وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٤).

(١) هو أبو سليمان الدراني فيما نقل عنه في إحياء العلوم: ٤ / ١٠.

(٢) في نسخ جامع السعادات (يجزبه).

(٣) البقرة، الآية: ٤٠.

(٤) المؤمنون الآية ٨ المعارج، الآية: ٣٢.

وقد روى: أن ملك الموت إذا ظهر للعبد عند موته أعلمه أنه قد بقى من عمره ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والأسف ما لو كانت له الدنيا بحذافيرها لأعطاها بدل أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليتدارك فيها تفريطه، ولا يجد إليها سبيلاً. وقد روى - أيضاً - : أنه إذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت: أخرنى يوماً اعتذر فيه إلى ربي واتوب، وانزود صالحاً لنفسى، فيقول: فנית الأيام فلا يوم، فيقول: أخرنى ساعة، فيقول: فנית الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة، فيغرغر بروحه، وتتردد انفاسه في شراسيفه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك، وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال، فإذا زهقت نفسه، فإن سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، وذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقوة - والعياذ بالله - خرجت روحه على الشك والاضطراب، وذلك سوء الخاتمة.

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصي المذكورة - أعنى المحرمات وترك الواجبات - واجب بفتوى الشرع، بمعنى أن التارك لهذه التوبة والمركب لهذه المعاصي يكون معذباً بالنار، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق، وتكليف الجميع به لا يوجب فساداً في النظام الكلى. وأما التوبة عن بعض آخر منها، كالخواطر والهمم الطارئة على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك، فليس واجباً بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم. إذ لو كلف الخلق كلهم أن يتقوا الله حق تقاته، لتروكا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدي إلى بطلان التقوى رأساً، لأنه إن فسدت المعاش لم يتفرغ أحد للتقوى. فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار، بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به إلى غاية القرب إلى الله، وإلى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى بأصل النجاة وقنع به لم

تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول إلى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوباً شرطياً، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الأنبياء والأولياء واکابر العرفاء والعلماء، ولأجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية. وعلى هذا فما ورد من استغفار الأنبياء والأوصياء وتوبتهم إنما هو من ترك دوام الذكر وغفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لأجل اشتغالهم بالمباحات. لا عن ذنوب كذنوبنا، لتعاليمهم وتقديسهم عن ذلك. قال الصادق عليه السلام: «إن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب. إن الله تعالى يخص أوليائه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذنوبنا، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله». وبمضمونه أخبار آخر.

فصل

(لا بد من العمل بعد التوبة)

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، إذ كل شهوة ومعصية صدرت من الإنسان ارتفعت منها ظلمة إلى قلبه، كما ترتفع من نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرأة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً، كما قال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١).

فإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه، كما أن الخبث في وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وفسده، وصار بحيث لا يقبل التصقيل بعده، فالتائب من الذنوب لا بد له من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه،

(١) المطففين، الآية: ١٤.

ولا يكفى مجرد تركها في المستقبل، كما لا يكفى في تصقيل المرأة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسوَّدة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الآثار، وكما ترتفع إلى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها، ولهذا النور تمنحى ظلمة المعاصي والشهوات، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «اتبع السيئة الحسنة تمحها». فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات، بمعنى أن تكون الحسنة التي تتركب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة، لقوله ﷺ: «اتق الله حيث كنت»، ولأن المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليه من حسنة تضادها، إذ الضد إنما يرتفع بالضد، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنباً بالعبادة فيه، ويكفر مس المصحف محدثاً باكرامه وتقيله وكثرة قراءته، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو أحب إليه... إلى غير ذلك وليس ذلك - أى ايقاع المناسبة - شرطاً في المحو، فقد روى: «أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: إني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء إلا المسيس، فاقض على بحكم الله، فقال: أما صليت معنا؟ قال: بلى! فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات».

وينبغي أن تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو آثارها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾^(١)

عن قرب عهد بعمل السوء. وقال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا

حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ أَلْتَنُّ^(١).

قال الصادق عليه السلام: «ذلك إذا عاين أمر الآخرة». وقد ورد مثله عن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً.

فصل

(فضيلة التوبة)

اعلم أن التوبة أول مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين، ومطلع التقرب إلى رب العالمين، ومدحها عظيم، وفضلها جسيم، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». وقال الباقر عليه السلام: «إن الله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها». وقال عليه السلام: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله يحب من عباده المفتن التواب». يعني كثير الذنب كثير التوبة. وقال عليه السلام: «إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أحبه الله فستر عليه»، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: «ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه، ويوحى إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكنمى عليه ذنوبه، فليقى الله عز وجل حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله عز وجل اعطى التائبين ثلاث خصال لو اعطى خصلة منها جميع أهل السماوات

(١) النساء: الآية: ١٨.

(٢) البقرة، الآية: ٢٢٢.

والأرض لنجوا بها: قوله عز وجل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ...﴾ إلى آخره ^(١)، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا...﴾ إلى قوله - وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(٢).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ...﴾ إلى قوله - وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ^(٣).

وقال أبو الحسن عليه السلام: «أحب العباد إلى الله المنيون التوابون».

فصل

(قبول التوبة)

التوبة المستجعة لشرائطها مقبولة بالاجماع، ويدل عليه قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ ^(٤). وقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّنُوبِ﴾ ^(٥). وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ^(٦).

وقول النبي ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسئء الليل إلى النهار ولمسئء النهار إلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»، وبسط اليد كناية عن طلب

(١) البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٢) غافر، الآية: ٧-٩.

(٣) الفرقان، الآية: ٦٨-٧٠.

(٤) الشورى، الآية: ٢٥.

(٥) غافر، الآية: ٣.

(٦) النساء، الآية: ١١٠.

التوبة، وطالب التوبة يقبله ألبته. وقوله ﷺ: «إن الحسنات يذهبن السيئات، كما يذهب الماء الوسخ». وقوله ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم، لتاب الله عليكم». وقوله ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة»، قيل: كيف ذلك يا رسول الله؟! قال: «يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة». وقوله ﷺ: «كفارة الذنب الندامة». وقوله ﷺ: «من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته. ثم قال: إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته. ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين ملك الموت قبل الله توبته». وقال الباقر عليه السلام لمحمد بن مسلم: «ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الايمان»، فقال له: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب، وعاد في التوبة، قال: «يا محمد بن مسلم! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟»، قال: فانه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر، فقال: «كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنط المؤمن من رحمة الله». وقوله عليه السلام: «إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم تكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة». وقوله عليه السلام: «إن آدم - صلى الله عليه - قال: يا رب! سلطت علي الشيطان، وأجريت منى مجرى الدم، فاجعل لى شيئاً، فقال: يا آدم! جعلت لك: إن من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومن هم منهم بحسنة، فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشرأ، قال: يا رب! زدنى، قال: جعلت لك: إن من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له، قال: يا رب! زدنى، قال: جعلت لهم التوبة وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه، قال: يا رب! حسبي». وقول الصادق عليه السلام: «إن الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة»، قيل: يدخله الله بالذنب الجنة؟ قال:

«نعم! إنه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله فيدخله الجنة». وقوله ﷺ: «العبد المؤمن إذا ذنب ذنباً أجله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينسى من ساعته». وقوله ﷺ: «ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بديع السماوات والأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب علي، إلا غفرها الله له، ولاخير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة»^(١).

وروى: «أن الله تعالى لما لعن ابليس سأله النظرة، فأنظره إلى يوم القيامة، فقال: وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح، فقال الله تعالى: بعزتي لأحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح». وورد في الاسرائيليات: «أن شاباً عبد الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرأة، فرأى الشيب في لحيته، فسأه ذلك، فقال: إلهي أعطتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت اليك اتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول: أجبتنا فأجبناك، فتركنا فتركناك، وعصيتنا فامهلتناك، فإن رجعت إلينا قبلناك». والأخبار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى، وفي بعض الأخبار المتقدمة دلالة عليه أيضاً.

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى إلى بيان، إذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله، ويعلم أن القلب خلق في الأصل سليماً صافياً، إذ كل مولود يولد على الفطرة، وإنما مرض واسودّ بأمراض الذنوب وظلماتها، ودواء التوبة يزيل هذه الأمراض،

(١) صححنا الأحاديث الواردة في هذا الباب على أصول الكافي: باب الاعتراف بالذنوب، وباب من بهم بالحسنة أو السيئة، وباب التوبة، وباب الاستغفار من الذنوب، وباب فيما أعطى الله عز وجل آدم وقت التوبة.

ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار. نعم إذ تراكمت الذنوب بحيث صارت ريناً وطبعاً، وافسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك، فمثل هذا القلب لا تفيده التوبة، بمعنى أنه لا يرجع ولا يتوب، وإن قال باللسان تبت، إذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير، ولو بولغ فيه أدى إلى انخراق القلب وهلاكه، ولصيرورة الاوساخ جزءاً من جوهره، كما أن الثوب الذي غاص الوسخ في تجاويفه وخلله وتراكم فيه، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون أدى ذلك إلى انخراقه. وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين عن الله، فانهم لا يرجعون ولا يتوبون، لصيرورة ذمائم الأخلاق وردائلها ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم، بحيث لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة، ولو قصدوها فانما هو بمجرد اللسان، والقلب غافل خال عن الايمان، بل تتعذر عليه التوبة لبطلان حقيقتها.

فصل

(طرق التوبة عن المعاصي)

إعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب، وهي - كما ذكرناها - لا تخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة بالوهم، والصفات والأفعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية، والصفات والأفعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية. ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية الخروج عنها ينقسم إلى اقسام ثلاثة:

أحدها - ترك الطاعات الواجبة: من الصلاة، والصوم، والزكاة، والخمس، والكفارة وغيرها. وطريق التوبة عنها: أن يجتهد في قضائها بقدر الامكان.

وثانيها - المحرّمات التي بين العبد وبين الله، أعنى المنهيات التي هي حقوق

الله: كشرب الخمر، وضرب المزامير، والكذب، والزنا بغير ذات بعل. وطريق التوبة عنها: أن يندم عليها، ويوطن قلبه على ترك العود إلى مثلها أبداً.

وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد، وهي المعبر عنها بحقوق الناس، والأمر فيها أصعب وأشكل، وهي إما في المال، أو في النفس، أو في العرض، أو في الحرمة، أو في الدين:

فما كان في (المال): يجب عليه أن يرده إلى صاحبه إن أمكنه، فإن عجز عن ذلك لعدم أو فقر، وجب أن يستحل منه، وإن لم يحله أو عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة أو موته وعدم بقاء وارث له، فليصدق عنه إن أمكنه وإلا فعليه بالتضرع والابتهاال إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له، ليكون يوم القيامة عوضاً عن حقه، إذ كل من له حق على غيره لا بد أن يأخذ يوم القيامة عوضاً عن حقه، إما بعض طاعاته أو بتحمل هذا الغير بعض سيئاته. وما كان في (النفس): فإن كانت جنائية جرت عليه خطأ وجب أن يعطى الدية، وإن كان عمداً وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو أولياءه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه، أو يجعل في حل، وإن عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب، لأن ذلك نوع احياء ويجاد لا يقدر الانسان على اكثر منه، فيقابل به الاعدام والاماتة، وعليه الرجوع أيضاً إلى الله بالتضرع والابتهاال أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (العرض): بأن شتمه، أو قذفه، أو بهته، أو اغتابه، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه، ويستحل من صاحبه مع الامكان، إن لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره، فإن خاف ذلك، فليكثر الاستغفار له، ويبتهل إلى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة.

وما كان في (الحرمة): بأن خان مسلماً في اهله وولده أو نحوهما، فلا وجه للاستحلال، إذ اظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن أن يحل من خان في حرمة ووطىء زوجته، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه

عرق من الديانة، فاللزام لمثله أن يكثر التضرع والابتهاال إلى الله المتعال، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيانه، وإن كان حياً فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الأموال، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج، ويسعى في مهماته واغراضه، ويتلطف به، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال، فإن أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيانه، فإن كل ظلم وايداء وحق من حقوق العباد إذا لم يحل صاحبه يوم القيامة يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهرى بأخذ العوض، سواء رضى الظالم أم لا، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا، كما أنه يحكم في الدنيا على من اتلف مال غيره باعطاء المثل، ويقهر على ذلك، ويحكم على هذا الغير بقبوله، ويجبر عليه إن امتنع عن الابراء وعن القبول، فكذلك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة القيامة، فيقتص من كل ظالم موز بأخذ حسناته ووضعها في موازين أرباب المظالم، فإن لم تف بها حسناته، حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك المسكين بسيئات غيره. وبذلك يعلم: انه لا خلاص لأحد في القيامة إلا برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات، ومع الرجحان - ولو بقدر مثقال - تحصل النجاة، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى في تكثير الحسنات وتقليل السيئات، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع والابتهاال في الليل والنهار إلى الله سبحانه، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم تبلى السرائر، ويرضى خصمه بخفى ألطافه.

وما كان في (الدين): بأن نسب مسلماً إلى الكفر أو الضلالة أو البدعة، فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده، ويستحل من صاحبه مع الامكان، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهاال إلى الله ليرضيه عنه يوم القيامة.

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس: ارضاء الخصوم مع الامكان،

وبدونه التصديق وتكثير الحسنات والاستغفار، والرجوع إلى الله بالتضرع والابتهال، وليرضيهم عنه يوم القيامة، ويكون ذلك بمشية الله، فلعله إذا علم الصدق من قلب عبده، ووجد ذله وانكساره، ترحم عليه وأرضى خصماءه من خزائنه فضله، فلا ينبغي لأحد أن يئأس من روح الله.

فصل

(تكفير الصغائر ومعنى الكبائر)

اعلم أن صاحب الشرع قسم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة، وحكم بأن اجتناب الكبائر يكفر الصغائر، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر الصغائر، قال الله تعالى:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^(١). وقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهما ان اجتنبت الكبائر». واجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواععتها، فيكف نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس، فإن مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع أشد تأثيراً في تنوير قلبه من اقدمه على النظر في اظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان امتناعه لعجز أو خوف أو نحو ذلك، فلا يصلح للتكفير، فكذلك من لا يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه. فاجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدّماته كسماع الملاهي والأوتار ومثله.

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع

(١) النساء، الآية: ٣١.

(٢) النجم، الآية: ٣٢.

والعرف، لأن الكبير والصغير من المصافات، وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه، وصغير بالإضافة إلى ما فوقه. وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلافاً لا يكاد يرجى زواله واختلفت الروايات فيها أيضاً.

والأظهر بالنظر إلى الروايات وإلى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعده بالنار على فعله أو ما ورد في نصّ الكتاب النهي عنه، ويعنى بوصفه بالكبيرة: أنَّ العقوبة بالنار عظيمة، أو أنَّ تخصيصه بالذكر في القرآن يدلُّ على عظمه. ويمكن أن يقال: إن الشرع لم يعينها، وأبهمها ليكون العباد على وجل منها، فيجتنبون جميع الذنوب، كما أبهم ليلة القدر ليُعظم جدُّ الناس في طلبها، ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات، وكما أبهم الاسم الأعظم ليواظبوا على جميع أسماء الله. والحاصل: أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق إليه الإبهام والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة، فإن موجبات الحدود معلومة بأساميتها، وإنما حكم الكبيرة أنَّ اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها، وهذا أمر يتعلق بالآخرة، والإبهام أليق به، حتى يكون الناس على وجل وحذر، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر.

فصل

(الصغائر قد تكون كبائر)

اعلم أنَّ الصغيرة تكبر بأسباب:

أحدها - الاصرار والمواظبة، ولذلك قال الصادق عليه السلام: «لا صغيرة مع الاصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار». والسرفه: أن الصغيرة لقلّة تأثيرها لا تؤثر في القلب باطلامه مرة أو مرتين، ولكن إذا تكررت وتراكمت آثارها الضعيفة صار قوية وأثرت على التدريج في القلب، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه، وذلك القدر من الماء لو صبَّ عليه دفعة لم يؤثر، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«خير الأعمال أدومها، وإن قل». وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلت، فكذلك الضر هو السيئة الدائمة وإن قلت. ثم معرفة الاصرار موكلول إلى العرف، قال الباقر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١):

«الاصرار: أن يذنب الذنب، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الاصرار».

وثانيها - استصغار الذنب، فإن العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله، وكلما استصغره كبر عند الله، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به، واستصغاره يصدر عن الألف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤخذ بما يجري عليه في الغفلة، لعدم تأثيره به. ولذلك ورد في الخبر: «أن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره». وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا المحقرات من الذنوب، فإنها لا تغفر»، قيل: وما المحقرات؟ قال: «الرجل يذنب الذنب، فيقول طوبى لى لو لم يكن غير ذلك». وروى: «أنه ﷺ نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: ائتونا بالحطب، فقالوا: يا رسول الله! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كل انسان بما قدر عليه. فجاءوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال ﷺ: هكذا تجتمع الذنوب، إياكم والمحقرات من الذنوب فإن لكل شيء طالبا، ألا وإن طالبا يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبين». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تصغر ما ينفع يوم القيامة، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين». وقال الباقر عليه السلام: «اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها

طالباً، يقول أحدكم: أذنب واستغفر الله. إن الله تعالى يقول:

﴿وَنَكُتِبْ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(١). وقال عز وجل: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٢).

وقال الصادق عليه السلام: «إن الله يحب العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير». وقال الكاظم عليه السلام: «لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف»^(٣). والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن: كونه عالماً بجلال الله وكبريائه، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغير كبيراً، وقد أوحى الله إلى بعض انبيائه: «لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها». ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين: «إنكم تعملون اعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعوذها على عهد رسول الله من الموبقات»، إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله كبائر.

وثالثها - أن يأتي بالصغائر ولا يبالى بفعالها، اغتراراً بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إياه، ولا يعلم أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالامهال اثماً، فتزهق أنفسهم وهم كافرون، فمن ظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله به، فهو جاهل بمكان الغرور، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه إلا الكافرون.

ورابعها - السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونها نقمة وسبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم أثرها في

(١) يس، الآية: ١٢.

(٢) لقمان، الآية: ١٦.

(٣) صححتنا الاحاديث كلها على اصول الكافي (باب التوبة، وباب تفسير الذنوب).

تسويد قلبه، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله، أو غبنه في ماله في المعاملة، ثم فرح به، ويقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟ وكيف فضحته؟ وكيف روجت عليه الزيف؟ كانت معصيته أشد مما إذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه، إذ الذنوب مهلكات، وإذا ابتلى بها العبد فينبغي أن يتأسف من حيث إن العدو اعنى الشيطان - ظفر به وغلب عليه، لأن يفرح بغلبة العدو عليه، فالمرضى الذي يفرح بانكسار إنائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من ألم شربه، لا يرجى شفاؤه.

وخامسها - أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد اتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره، فإن ذلك خيانة منه على الله الذي أسد له عليه، وتحريك الرغبة والشرفيمن أسمع ذنبه أو أشهده فعله، فهما خيانتان انضمتا إلى خيانتة فتغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهئية الأسباب له صارت خيانتة رابعة، وتفاش الأمر. وهذا لأن من صفات الله أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر، فلاظهار كفران لهذه النعمة، قال رسول الله ﷺ: «المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة، والمذيع بالسيئة مخذول، والمستتر بها مغفور له». وقال الصادق عليه السلام: «من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه، ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله فنحوه».

وسادسها - أن يكون الآتى بالصغيرة عالماً يقتدى به الناس، فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطلعوا عليه، كبر ذنبه، وذلك كلبسه الذهب والابريسم، وأخذ مال الشبهة، وإطلاقه اللسان في أعراض الناس، ونحو ذلك. فهذه ذنوب يقتدى العالم فيها ويتبع عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، وفي الخبر: «من سن سنة سيئة فعلية وزرّها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء». قال الله تعالى:

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآءَانَرَهُمْ﴾^(١).

والآثار: ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل. فعلى العالم وظيفتان: - احدهما - ترك الذنب، والأخرى - اخفاؤه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيئات إذا اتبع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتبع.

فصل

(شروط كمال التوبة)

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بما مر: من طول الندم، وقضاء العبادات، والخروج عن مظالم العباد. وطول البكاء والحزن والحسرة، واسكاب الدموع، وتقليل الأكل، وارتياض النفس، ليزوب عن بدنه كل لحم نبت من الأغذية المحرمة والمشتبهة، قال أمير المؤمنين عليه السلام لمن قال بحضرة: استغفر الله: «ثكلتك امك! أتدرى ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى، والثانى: العزم على ترك العود عليه ابداً، والثالث: أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعتمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدى حقها، والخامس: أن تعتمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد، والسادس: أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أذفته حلاوة المعصية، فعند ذلك تقول: استغفر الله».

(١) يس، الآية: ١٢.

فصل

(هل يصح التبعيض في التوبة)

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح، بشرط ألا تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيانة وتلبساً أو غصباً أو قهراً، أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر، كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر. والدليل على امكان ذلك وصحته: أن العبد إذا علم أن الكبائر اعظم اثماً عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى طرق العفو إليها، فلا يبعد أن يتوب عن الأعظم دون الأصغر، وكذا إذا تصور أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله من بعض، فلا يبعد أن يتوب عن الأغلظ دون الأخف، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة، فلا يقدر على الصبر عنها، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل، فيمكنه الترك بسهولة، فيتوب عنه دون الأول، وإن كان الأول أغلظ وأشد اثماً، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافهما نوعاً بأي نحو كان ممكن وصحيح، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل، إذ كثر التائبون في الأعصار الخالية والقرون الماضية، ولم يكن أحد منهم معصوماً، فيكون كل منهم جازماً بأنه يصدر عنه معصيته البتة. ويدل على الصحة قوله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، حيث لم يقل: التائب من الذنوب. نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تماثلها غير صحيح وغير معقول، لاستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر، إذ لو كان

ذلك صحيحاً لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز، أو عن اخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم... وهكذا. والحاصل: أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح، ومع تماثلهما فيها غير معقول. ومن العلماء من قال: إن التوبة عن البعض دون البعض لا تصح مطلقاً، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم، وإنما يندم على السرقة - مثلاً - لكونها معصية لا لكونها سرقة، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية، إذ العلة شاملة لهما، لأن من يتوجع على قتل ولده بالسيف يتوجع على قتله بالسكين، لأن التوجع إنما هو بفوات المحبوب، سواء كان بالسيف أو بالسكين، وكذلك توجع التائب إنما هو لفوات المحبوب بالمعصية. سواء عصى بالسرقة أو بالزنا، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه.

فصل

(أقسام التائبين)

التائبون بين من سكت نفسه عن الشروع إلى الذنوب فلا يحوم حومها، وبين من بقى في نفسه الشروع إليها والرغبة فيها وهو يجاهد ها ويمنعها: والأول بين من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة، ومن سكونه وانقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط: والأول من الأول أفضل من الثاني، والثاني منه أدون من الثاني، والوجه ظاهر. وأيضاً التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكير فيه، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندماً عليه. ولاريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر إلى المبتدى ومن يخاف عليه العود أفضل، لأنه يصدّه عنه، والنسيان بالنظر إلى المنتهى السالك والواصل إلى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه انه لا يعود أفضل، لأنه شغل مانع عن سلوك الطريق، وحاجب من الحضور بلا فائدة. ولا ينافيه بكاء الأنبياء وتناجيهم من الذنوب، لأنهم

قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللائقة بالأمة، فإنهم بعثوا لارشادهم، فعليهم التلبس بما ينتفع الأمة بمشاهدته، وإن كان نازلاً عن ذروة مقامهم. ولذا قال رسول الله ﷺ: «أما إني لا أنسى، ولكن أنسى لأشعر»^(١). ولا تعجب من هذا، فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء، وكالمواسي في كنف الرعاة، والأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصغير ينزل إلى درجة نطق الصبي، والراعي لشاة أو طائر يصوت به رغاء أو صغيراً شبيهاً بالبهيمة والطائر، تلطفاً في تعليمه.

فصل

(مراتب التوبة)

اعلم أن التائب إما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرط، ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلا الزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه التوبة هي التوبة النصوح، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية، أو يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على امهات الطاعات، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجارى احواله غفلة وسهوة وهفوة، لا عن محض العمد وتجريد القصد، وإذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف، وجدد عزمه على ألا يعود إلى مثله، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي إليه، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله:

﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْأَثْمِ وَالفَوْحِشَ إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾^(٢).

وإلى مثلها الإشارة بقوله ﷺ: «خياركم كل مفتن تواب». وفي خبر آخر:

(١) الحديث نبوى مروي في احياء العلوم: ٤ / ٣٨.

(٢) النجم، الآية: ٣٢.

«المؤمن كالسنبلة، يفىء أحياناً ويميل أحياناً». وفي خبر آخر: «لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة»^(١): أى الحين بعد الحين. وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصّرّين، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله إلى درجة التائبين فهو ناقص، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات نادرة. ولا ريب في نقصانه، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات، إذ امثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يبطلها بحيث لا يقبل الاصلاح، أو يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب، فيقدم عليه عمداً وقصداً، لعجزه عن قهر الشهوة وقمعها، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات، وتارك لأكثر الذنوب مع القدرة والشهوة، وانما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ عنها يتندم، ويقول سأتوب عنها، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوماً بعد يوم، والنفس التي هذه درجاتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤول صاحبها، وإليها الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَخْرَجُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(٢).

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما يتعاطاه مرجو، فعسى الله أن يتوب عليها ولكن يخاف عليها من حيث تسويّفها وتأخيرها، فربما اختطفها الموت قبل التوبة، ويقع أمرها في المشيئة، فيدخل في زمرة السعداء أو يسلك في

(١) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم: ٣٩ / ٤.

(٢) التوبة، الآية: ١٠٢.

سلك الأشقياء، أو يتوب ويجرى مدة على الاستقامة، ثم يعود إلى الذنوب عمداً وقصداً، من غير أن يحدث نفسه بالتوبة، ومن غير أن يتأسف ويتندم، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب واتباع الشهوات. وهذا معدود من المصيرين، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء الفرارة من الخير، ومثله إن مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة، وإن ختم له بالسوء كان من أهل النار، وإن مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره إلى الله، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته، ثم يخلص منها بعميم لطفه.

فصل

(عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة)

اعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي أن يمنعه ذلك عن التوبة، علماً منه أنه لافائدة فيه، فإن ذلك من غرور الشيطان، ومن أين له هذا العلم، فلعله يموت تائباً قبل أن يعود إلى الذنب.

وأما الخوف من العود، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم، فإن وفي به فقد نال مطلبه، وإلا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها، وليس عليه إلا هذا الذنب الذي أحدثه الآن. وهذا من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة، فلا يمنعك خوف العود من التوبة، فإنك من التوبة أبداً بين إحدى الحسينين: - احدهما - العظمى: وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود إلى ذنبه في الاستقبال. - وثانيتهما - وهي الصغرى: غفران الذنوب الماضية، وإن لم يمنع العود إلى الذنب في المستقبل. ثم إذا عاد إلى الذنب ينبغي أن يتوب عنه دفعة، ويتبعه بحسنة لتمحوها، فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. والحسنات المكفرة للذنوب إما متعلقة بالقلب: وهي الندم، والتضرع إلى الله، والتذلل له، وازممار الخير للمسلمين، والعزم

على الطاعات، أو باللسان: وهي الاعتراف بالظلم والاساءة، وكثرة الاستغفار، أو بالجوارح: وهي أنواع الطاعات والصدقات. وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها. وفي الخبر: ان الذنب إذا اتبع بثمانية اعمال كان العفو عنه مرجواً: أربعة من اعمال القلوب، وهي: التوبة أو العزم على التوبة، وحب الافلاع عن الذنب، وتخوف العقاب عليه، ورجاء المغفرة. وأربعة من اعمال الجوارح وهي: أن تصلى عقب الذنب ركعتين، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، ثم تتصدق بصدقة، ثم تصوم يوماً. وفي بعض الأخبار: تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلى ركعتين، وفي بعضها: تصلى أربع ركعات. ولا تظن أن الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لا فائدة فيه أصلاً، بل هو توبة الكذابين، لما ورد من: أن المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله، لأن الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلاً هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة، أي ما يكون مجرد حركة اللسان من دون مدخلة للقلب، كما إذا سمع شيئاً مخوفاً، فيقول على الغفلة: استغفر الله، أو نعوذ بالله، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه، وأما إذا انضاف إليه تضرع القلب وابتهاله في سوال المغفرة عن صدق ارادة وخلوص رغبة وميل قلبي إلى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها، وإن علم أن نفسه الامارة ستعود إلى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لأن يدفع بها السيئة، فالاستغفار بالقلب وإن خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة، وليس وجوده كعدمه. وقد عرف ارباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعتريها ريب وشبهة صدق قوله تعالى:

﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١).

ولذا جزموا وقطعوا بانه لا تخلو ذرة من الخير عن اثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن اثر، ولو كانت كل شعيرة خالية عن اثر لكان لا يرجح الميزان باجتماع الشعيرات، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات ألى أن يثقل فتسل كفة السيئات، فإياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها، وتستحق ذرات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعللاً بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد، وأى غنى يحصل منه، وما وقع ذلك في الثياب، ولا تدرى أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة، وربما ترتب على عمل قليل ثواب جزيل، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات. قال الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث: رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه. وغضبه في معاصيه، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه. وخبأ ولايته في عبادته، فلا تحقروا منهم احداً فلعله ولى الله». فإذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع اصلاً، بل ربما قيل: الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالنظر إلى السكوت عنه، وإن كان نقصاً بالإضافة إلى عمل القلب، فينبغى ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار، ويجتهد في اضافة حركة القلب إليها، ويتضرع إلى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير.

فصل

(علاج الاصرار على الذنوب)

اعلم أن الطريق إلى تحصيل التوبة، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب: أن يتذكر ما ورد في فصلها - كما مر - ويتذكر قبح الذنوب وشدة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين، ويتأمل في حكايات الأنبياء وأكابر العباد، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية، بسبب تركهم الأولى وارتكابهم

بعض صفات المعاصي، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته - كما دل عليه الأخبار الكثيرة - ويتذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب: كالخمر، والزنا، والسرقه، والقتل والكبر، والحسد والكذب والغيبة، وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من آحاد المعاصي مما لا يمكن حصره، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا، ويتذكر خسارة الدنيا وشرف الآخرة، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب، ولا يغتر بعدم الأخذ الحالي، إذ لعله كان من الأملاء والاستدراج. فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة، إذ لو لم ينزعج إلى التوبة بعد ذلك، فهو إما معتوه احمق أو غير معتقد بالمعاد، وينبغي أن يجتهد في قلع اسباب الاصرار من قلبه: اعنى الغرور، وحب الدنيا، وحب الجاه، وطول الأمل... وغير ذلك.

فصل

(الانابة)

اعلم أن الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله، والاقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل، حتى يكون دائماً في فكره وذكره وطاعته، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها، إذ التوبة هو الرجوع عن الذنب إلى الله، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضاً إليه سبحانه، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية. قال الله سبحانه:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾^(١). وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن

يُنِيبُ^(١)». وقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ^(٢)».

وانابة العبد تتم بثلاثة امور:

- الأول - أن يتوجه إليه بشرائش باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره.
- الثاني - ألا يكون خالياً عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه.
- الثالث - أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية.

المحاسبة والمراقبة

(تذنب) - اعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضديتهما من وجه الاصرار على الذنوب ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتى الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها، فنحن نشير هنا إلى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والأعمال التي يتوقف تماميتهما عليهما في فصول.

فصل

(المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة)

(المحاسبة): أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه، ليعاتب نفسه، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة لمعصية، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة.

(١) غافر، الآية: ١٣.

(٢) ق، الآية: ٣١-٣٥.

(والمراقبة): أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائماً، حتى لا يقدم على شيء من المعاصي، ولا يترك شيئاً من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة، ويأتى اعتبار امور واعمال آخر فيه عرفاً.

فصل

(حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا)

اعلم أن الكتاب والسنة واجماع الأمة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب، والمطالبة بمثاقيل الذر من الأعمال والخطرات واللحظات، قال الله سبحانه:

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١). وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصِيهِ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢). وقال: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فِى ذُرِّ السَّجْدِ وَالْمُجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصِيهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٣). وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٤). وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سَوْءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾^(٥). وقال: ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦).

(١) الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) المجادلة، الآية: ٦.

(٣) الكهف، الآية: ٤٩.

(٤) الزلزلة، الآية: ٦-٨.

(٥) آل عمران، الآية: ٣٠.

(٦) البقرة، الآية: ٢٨١. آل عمران، الآية: ١٦١.

وقال: ﴿قَوِّرَبَكَ لَنَسْتَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا ويسأله رب العالمين، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان». وورد بطرق متعددة: أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدماً عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن جسده فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. والآيات والأخبار الواردة في محاسبة الأعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقيير والقطمير أكثر من أن تحصى، وبأزائها أخبار دالة على الأمر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا، والترغيب عليها، وعلى كونها سبباً للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة، وخطره ومناقشته. فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب، وطالبها في الأنفاس والحركات، وحاسبها في الخطرات واللحظات، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله: خَفَ في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومأبه. ومن لم يحاسب نفسه: دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته إلى الخزي سيئاته، قال الله سبحانه:

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(٢).

والمراد بهذا النظر: المحاسبة على الأعمال. وقال رسول الله ﷺ: «حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا». وقال الصادق عليه السلام: «إذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه فليأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله تعالى، فإذا علم الله تعالى ذلك من قبل لم يسأله شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً، وكل موقف مقام ألف سنة. ثم تلا:

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾^(٣).

وتفريع المحاسبة على الأمر باليأس عن الناس والرجاء من الله، يدل على أن

(١) الحجر، الآية: ٩٢-٩٣.

(٢) الحشر، الآية: ١٨.

(٣) المعارج، الآية: ٤.

الإنسان إنما يرجو الناس من دون الله في عامة أمره وهو غافل عن ذلك، وأن عامة المحاسبات إنما ترجع إلى ذلك، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الأمر بمحاسبة النفس يدل على أن الوقفات هناك إنما تكون للمحاسبات، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوماً فيوماً لم يحتج إلى تلك الوقفات في ذلك اليوم، وقال ﷺ: «لو لم يكن للحساب مهول إلا حياء العرض على الله تعالى وفضيحة هتك الستر على المخفيات، لحقّ للمرء ألا يهبط من رؤس الجبال، ولا يأوى إلى عمران، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا ينام، إلا عن اضطرار متصل بالتلف، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة، كأنه إلى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل، قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(١)

وقال الكاظم ﷺ: «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب اليه». وفي بعض الأخبار: ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب فيها نفسه...

فصل

(مقامات مرابطة العقل للنفس)

اعلم أن العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة، ورأس ماله العمر، وقد استعان في تجارته هذه بالنفس، فهي بمنزلة شريكه أو غلامه الذي يتجر في ماله، وربح هذه التجارة تحصيل الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة الموصلة إلى نعيم الأبد وسعادة

(١) الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٢) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٨٥ ص ١٨٦.

السرمد، وخسرانها المعاصى والسيئات المؤدية إلى العذاب المقيم في دركات الجحيم، أو نقول: رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصى، وموسم هذه التجارة مدة العمر، وكما أن التاجر يشارط شريكه أولاً، ويراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، وإن قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاقبه ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس إلى أن يرتكب هذه الأعمال، ومجموع هذه الأعمال يسمى بـ (المحاسبة والمراقبة) تسمية الكل باسم بعض أجزائه، وقد يسمى (مرابطة) أيضاً.

فأول الأعمال في المرابطة (المشارطة): وهي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مَرَّة ألا يرتكب المعاصى، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس! مالى بضاعة سوى العمر، ومهما فنى فنى رأس المال. ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد أمهلنى الله فيه بعظيم لطفه، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً، فاحسبى أنك توفيت ثم رددت، فأياك أن تضيعى هذا اليوم، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقت له بإزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فينالها من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الاحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح ننتها

ويتغشأ ظلامها، فينالها من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لينقص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بازاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزان، وعند ذلك يتحسر العبد على إهماله وتقصيره، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانك، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك، ولا تركنى إلى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك، فتدرك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة: أعنى العين، والأذن، واللسان، والفرج، والبطن، واليد، والرجل، ويسلمها إليها، لأنها رعايا خادمة لها في التجارة، ولا يتم أعمال هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرار المشاركة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشاركة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشاركة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقي، وكل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا: من ولاية، أو تجارة، أو تدريس، أو أمثال ذلك: لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعة حادثة لها حكم جديد، والله فيها حق، فعليه أن يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والانقياد للحق في مجاريها، وينبغي أن يوصيها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة. وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها، وقد روى: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله! أوصنى، فقال له: فهل أنت مستوص إن أنا أوصيتك؟ - حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل: نعم يا

رسول الله! فقال له رسول الله ﷺ: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك راشداً فامضه، وإن يك غياً فانتبه». ويظهر من هذا الخبر: أن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة، فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الأبق، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجرى مجراه هو المشاركة، وهو أول مقامات المرابطة.

وثانيها (المراقبة): وهو أن يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال، فيلاحظها بالعين الكالئة، فإنها إن تركت طغت وفسدت، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون، بأن يعلم أن الله تعالى مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على اعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١). وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾^(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». وفي الحديث القدسي: «إنما يسكن جنات عدن، الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبونى، والذين انحنت اصلا بهم من خشيتي، وعزتي وجلالى! إنى لأهم بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب». وحكى: «أن زليخا لما خلت بيوسف، فقامت وغطت وجه صنمها، فقال يوسف: ما لك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار؟!». وهذه المعرفة - اعنى معرفة اطلاع الله على العباد واعمالهم وسرائرهم

(١) النساء، الآية: ١.

(٢) العلق، الآية: ١٤.

وكونه رقيباً عليهم - إذا صارت يقيناً - أي خلت عن الشك - ثم استولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهممة اليه، والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين: - أحدهما - مراقبة المقربين، وهي مراقبة التعظيم والاجلال، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة الجلال، ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير، وهذا هو الذي صارت همه هماً واحداً وكفاه الله سائر الهموم، - وآخرهما - مراقبة الورعين من اصحاب اليمين، وهم قوم غلب عليهم يقين اطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم، ولكن لا تدهشهم ملاحظة الجلال والجمال، بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات إلى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها، وغلب عليهم الحياء من الله، فلا يقدمون ولا يجمعون إلا بعد التثبت، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة، فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة. ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها.

وحالاته لا تخلو عن ثلاثة، لأنه إما أن تكون في طاعة، أو معصية، أو مباح. فمراقبته في الطاعة: بالقرب، والاخلاص والحضور، والاكمال، وحراستها عن الآفات، ومراعاة الأدب. ومراقبته في المعصية: بالتوبة، والندم، والاقلاع، والحياء، والاشتغال بالتكفير. ومراقبته في المباح: بمراعاة الأدب، بأن يأكل بعد التسمية، وغسل اليدين، وسائر الآداب المقررة في الشرع للأكل، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على اليد اليمنى مستقبل القبلة وبالصبر عند ابتلائه ببلىة ومصيبة، وبالشكر عند كل نعمة، ويتذكر شهود المنعم وحضوره. ويكف النفس عن الغضب وسوء الخلق عند حدوث أمر تميل النفس عنده إلى الغضب والتضجر والتكلم بما لا يحسن من الأقوال، فإن لكل واحد من أفعاله وأقواله حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه. وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الأفضل، كالذكر والفكر وتخليص النية، فإن الطعام الذي

يتناوله من عجائب صنع الله، فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان ذلك أفضل من كثير من اعمال الجوارح، والناس عند الأكل على أقسام: (قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعة وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك، وهؤلاء هم أولو الألباب. (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطراب إليها، ويتمنون الاستغناء عنه، وعدم كونهم مقهورين مسخرين بشهوته، وهؤلاء هم الزهاد. (وقسم) يرون فيه خالقه، ويشاهدون في الصنع الصانع، ويترقون منه إلى صفات الخالق، من حيث إن كل معلول اثر من العلة، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته، فمشاهدته تذكر العلة، بل التأمل يرشدك إلى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك وخالقك وإيجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه إليك وقربه منك أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على وجوده وحضوره عندك، وسر ذلك ظاهر واضح. وهؤلاء المشاهدون الصانع في كل مصنوع، والخالق في كل مخلوق، هم العرفاء المحبون، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب إليه اشتغل قلبه بالمحبوب، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر إليه من الموجودات هو صنع الله تعالى، فله في النظر منها إلى الصانع مجال إن فتحت له أبواب الملكوت. (وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة، وليس نظرهم إلى الطعام إلا من حيث يوافق شهوتهم وتلتذ به ذائقته، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم، وهؤلاء أكثر أهل الدنيا.

وثالثها - أي ثالث مقامات المرابطة واعمالها - هو (المحاسبة) بعد العمل، فإن العبد كما يختار وقتاً في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق، ينبغي له أن يختار وقتاً في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء. وهذا

أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة، وقد ورد في الأخبار: أن العاقل ينبغي أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب. ولذلك كان الصدر الأول من الخائفين ومن تقدّمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعى والاهتمام في محاسبة النفس، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه اتم من محاسبة شريكه، وأن من لا يحاسب نفسه إما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة، إذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجهه من الخجلة والحياء والافتضاح، إذا علم أن محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أن توجب خفته، كيف يجوز له أن يتركها؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل: أن يطالب نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله، فإن ادتها على وجهها شكر الله عليها ورغبها في مثلها، وإن فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء، وإن ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعبابها وتعذيبها ومعاقبتها، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط، كما يصنع التاجر بشريكه. وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها، كذلك ينبغي أن يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها، وليتق غائلتها وحيلتها، فإنها خداعة مكارة ملبسة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله: من نظره، وقيامه، وقعوده، ونومه، وأكله، وشربه، حتى عن سكوته لم سكت، وعن سكونه لم سكن، وعن خواطره، وأفكاره، وصفاته النفسية، وأخلاقه القلبية، فإن خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع، بحيث أدت

الحق في الجميع، ولم تترك شيئاً مما يجب عليها، ولم ترتكب شيئاً من المعاصي: حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم، ولم يكن شيئاً باقياً عليها، وإن أدت الحق في البعض دون البعض، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوباً لها، ويبقى غيره باقياً عليها فيثبته عليها، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته. ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها برد عينه، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء.

ورابعها - وهو آخر مقامات المrabطة - (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة، وإلزامها الرياضات الشديدة، فإنه إذا حاسب نفسه، فوجدها خائنة في الأعمال، مرتكبة للمعاصي، مقصرة في حقوق الله، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل، فلا ينبغي أن يهملها، إذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي، وأنس بها بحيث عسر بعد ذلك فطامها عنها. فينبغي للعاقل أن يعاتبها أولاً، ويقول: أف لك يا نفس! أهلكيتني وعن قريب تعذبين في النار مع الشياطين والأشرار، فيا ايتهنا النفس الأمارة الخبيثة! أما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين؟! فما اعظم جهلك و حماقتك! أما تعرفين أن بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة إلى احدهما عن قريب؟ فما لك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين؟ أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير إخبار، وهو أقرب اليك عن كل قريب؟ فما لك لا تستعدين له؟ أما تخافين من جبار السماوات والأرض، ولا تستحيين منه؟ تعصين بحضرتة وأنت عالمة بأنه مطلع عليك؟! ويحك يا نفس! جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنه لا يراك فما اعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك، وما أعجب نفاقك، وكثرة دعاويك الباطلة! فإنك تدعين الايمان بلسانك، وأثر النفاق ظاهر عليك! فتنبهي عن

رقدتك وخذى حذرك! لو أن يهودياً أخبرك في ألد اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركته! ولو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعته! فقول الله وقول انبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الأولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيراً عندك من قول يهودى أو طفل؟!... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات والمعاتبات، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق بما يحبه، جبراً لما فات منها وتداركا لما فرط فيها، فإذا أكل لقمة مشتبهة ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلى غير محرم يعاقب العين بمنع النظر، وإذا اغتاب مسلماً يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة، وكذلك يعاقب كل عضو من أعضائه إذا صدرت منه معصية بمنعه من شهواته، وإذا استخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها. وإذا استهان بفقر اعطاه صفو ماله، وهكذا الحال في سائر المعاصي والتقصيرات.

وطريق العلاج في إلزام النفس - بعد تقصيرها في العمل على هذه العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات - أمران:

الأول - تذكر ما ورد في الأخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها، والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات، قال الصادق عليه السلام: «طوبى لعبد جاهد في الله نفسه وهواه! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء الله، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزاً عظيماً، ولا حجاب أظلم وأوحش بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى، وليس لقتلهما وقطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله، والخشوع، والجوع والظماء بالنهار، والسهر بالليل، فإن مات صاحبه مات شهيداً وإن عاش واستقام اداه عاقبته إلى الرضوان الأكبر، قال الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

وإذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد، فويخ نفسك ولمها وعيرها، تحثيثاً على الازدياد عليه، واجعل لها زمماً من الأمر، وعناً من النهي، وسقها كالرابض للفارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته إلا وقد صح اولها وآخرها، وكان رسول الله ﷺ يصلي حتى تورمت قدماه، ويقول: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، أراد أن يعتبر به امته. فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبد والرياضة بحال. ألا وإنك لو وجدت حلاوة عبادة الله، ورأيت بركاتها، واستضأت بنورها، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت ارباً ارباً، فما أعرض عنها من اعرض إلا بحرمان فوائد السلف من العصمة والتوفيق^(٢). قيل لربيع بن خثيم: مالك لاتنام بالليل؟ قال: «لأنى اخاف البيات». والأخبار الواردة في فضل السعي والاجتهاد ومخالفة النفس والهوى اكثر من أن تحصى.

الثاني - مصاحبة أهل السعي، والاجتهاد في العبادة، ومجالسة المجاهدين
المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات وإلزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات، فملاحظة احوالهم ومشاهدة أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وافعالهم، حتى قال بعضهم: «إذا اعترتنى فترة في العبادات، نظرت إلى بعض العباد واجتهاده في العبادة فكنت بعد ذلك اعمل اسبوعاً». إلا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا، إذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة اجتهاد الأولين، وليس فينا من تقرب عبادته عبادة ادنى رجل من سلفنا الصالحين. فينبغي أن يعدل عن المشاهدة إلى سماع احوالهم، ومطالعة حكاياتهم واخبارهم، ومن لاحظ حكاياتهم وسمع احوالهم واطلع عن كيفية اجتهادهم في طاعة الله، يعلم أنهم عباد

(١) العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) الحديث بطوله مروي عن (مصباح الشريعة): باب ٨١ ص ١٨٤، مع اختلاف يسير هنا، فصححناه عليه

كما كان هناك.

الله واحبائه وأنهم ملوك الجنة، قال بعض اصحاب أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - : «صلينا خلفه الفجر، فلما سلم انتقل إلى يمينه وعليه كآبة، فمكث حتى طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً شبههم، وكانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً، فقد باتوا الله سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله عز وجل، ويراوحون بين أقدامهم وجباههم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح، وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم وكأن القوم باتوا غافلين». وكان اويس القرني يقول في بعض الليالي: «هذه ليلة الركوع»، فيحیی الليل كله في ركعة، ويقول في بعضها: «هذه ليلة السجود» فيحیی الليل كله في سجدة. وقال ربيع بن خثيم: «أتيت أويساً فوجدته جالساً قد صلى الفجر، فجلست موضعاً، وقلت: لا أشغله عن التسييح. فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب، ثم ثبت حتى صلى العشاء، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح، ثم جلس فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نائمة وبطن لا تشبع». وروى: «أن رجلاً من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذاها، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت^(١) عقوبة لها. وبعضهم نظر إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش. ومر بعضهم بغرفة فقال: متى بنيت هذه الغرفة؟ ثم اقبل على نفسه وقال: تسألين عما لا يعينك؟! لأعاقبك بصوم سنة، فصامها». وروى: «أن أبا طلحة الأنصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة، فتصدق بالحائطة جبراً لما فاته من الحضور في الصلاة». وكان بعضهم اعتلت إحدى قدميه فيصلی على قدم واحدة حتى يصلی الصبح بوضوء العشاء. وكان بعضهم يقول: «ما اخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل». وحكى رجل: «أنه نزل بعض أهل الله

(١) النشيش: صوت غليان الماء.

عندنا بالمحصب^(١) وكان له أهل وبنات، وفي كل ليل يقوم ويصلى إلى السحر، فإذا كان السحر ينادى بأعلى صوته: ايها الركب المعرسون!^(٢) أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب، فيتواثبون بين باك وداع، وقارىء ومتوضىء وإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى». وهكذا كان عمل عمال الله، وسلوك سالكي طريق الآخرة، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء، اشرنا إلى انموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها، ويعلمون ان عباد الله ليسوا امثالنا، بل هم قوم آخرون. قال بعض الحكماء: «ان الله عبادة أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر اليه، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوايت للعظمة، وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوز^(٣) بحجب العيوب، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ما لا يمكن لواصف أن يصفها، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً، وطريقهم لا يبلغ إليها بالتكليف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء». فعليك يا حبيبي بمطالعة أحوالهم وحكاياتهم، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك، ولعمري! قل في أمثال زماننا من يذكرك الله رؤيته، ويعينك في طريق الدين صحبتته، فإن تطع أكثر من في بلدك وعصرك يضلوك عن سبيل الله.

ومنها:

(١) المحصب - بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد -: موضع بمكة على طريق منى ويسمى (بطحاء).

(٢) التعريس: نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة، من قولهم: عرس القوم.

(٣) في القاموس: اللوز - بالزاي -: الملاذ والملجأ.

الغفلة

وهي فتور النفس عن الالتفات والتوجه إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً أو آجلاً. وضدها: النية، وترادفها: الإرادة والقصد، وهي انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها حالاً أو مآلاً. والموافق لغرض النفس إن كان خيراً لها وسعادة في الدنيا أو الدين، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس إلى تحصيله رذيلة، والتقصان والنية له والقصد إليه فضيلة وكمال، وإن كان شراً وشقاوة، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة، والنية له وإرادته رذيلة. ثم باعث النفس على النية أو الغفلة والكف، إن كان من القوة الشهوية كانت النية أو الغفلة متعلقة بها فضيلة أو رذيلة، وإن كان من قوة الغضب كانت النية أو الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك. فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين متعلقة بقوة الغضب، والنية في العبادات مع انضمام التقرب إليها تسمى اخلاصاً. ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطلوب لما كان ما هو كذلك عند العقلاء وأرباب البصيرة، فيكون المراد منه ما هو مرغوب ومطلوب في نفس الأمر وما تحصيله خير وسعادة، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك، كان بهذا الاعتبار. والآيات والأخبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار، كما وصف الله الغافلين وقال:

﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١). وقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^(٢).

(تنبيه): الغفلة بالمعنى المذكور أعم من أن يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث إلا ما يراه موافقاً للغرض مع الجهل بالموافق والملائم، أو مع العلم به ومع النسيان عنه، أو مع التذكر له، وربما خص في عرف أهل النظر بصورة الذهول وعدم

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) الأعراف، الآية: ١٧٩.

التذكر. ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات.

تتميم

(الغفلة موجبة للحرمان)

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان عن سعادة الدارين، وتؤدي إلى شقاوة النشأتين، إذ الإهمال في رعاية أمر المعيشة ومصالحها يؤدي إلى هلاكة الشخص وانقطاع النوع، والغفلة عن اكتساب المعارف والأخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر إلى إبطال غاية الإيجاد - أعني بلوغ كل شخص إلى كماله المستعدله -، وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة أبد الآباد.

وصل

(ضد الغفلة: النية)

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عبادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخلص النية.



قد عرفت أن ضد الغفلة النية، وهي انبعاث النفس وتوجهها إلى ما يراه موافقاً لغرضها، وقد عرفت أيضاً أن النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهي واسطة بين العلم والعمل، إذ ما لم يعلم أمر لم يقصد، وما لم يقصد لم يفعل، فالعلم مقدم على النية وشرطها، والعمل ثمرتها وفرعها، إذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فإنه لا يتم إلا بعلم وشوق وارادة وقدرة، إذ كل انسان خلق

بحيث يوافق بعض الأمور ويلائم غرضه، ويخالفه بعض الأمور، فاحتاج إلى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع، والمنافي الضار، إذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه أو الهرب عنه، وهو العلم، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه، وهو الشوق، إذ من أدرك الغذاء، أو النار لا يكتفيه ذلك للتناول والهرب، ما لم يكن شوق إلى التناول والهرب، وعلى القصد والشروع والتوجه إليه، وهو النية، إذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق إليه لا يريده لكونه مؤذياً أو حراماً أو لعذر آخر، وعلى القدرة المحركة للأعضاء إليه أى إلى جلب الملائم أو دفع المضار - وبها يتم الفعل، فهى الجزء الأخير للعللة التامة التى بها يتم فعل الفاعل المختار، فالأعضاء لا تتحرك إلى جانب الفعل ولا توجد إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر النية، والنية تنتظر الداعية الباعثة - أعنى الشوق -، والشوق ينتظر العلم أو الظن بكون ما يفعل موافقاً له، فإن كان الشوق صادراً عن القوة البهيمية، بأن يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة: كأكل، وشرب، وجماع، وكسب مال، وأمثال ذلك من الالتذات الشهوية، كانت النية والقصد أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها، وإن كان مما تقتضيه القوة السبعية: من دفع مود، أو طلب الاستعلاء، أو تفوق، وأمثال ذلك، كانت النية أيضاً متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها أو رذائلها. وقد ظهر بما ذكر: أن المحرك الأول هو الغرض المطلوب - أعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به - وهو الباعث الأول، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثانى، ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاضها على تحريك الأعضاء إلى جانب العمل.

فصل

(تأثير النية على الأعمال)

العمل غرضه الباعث، أى باعته الأول، إما واحد: كالقيام للاكرام، أو للهرب من

السبع المتهم عليه، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثة متساوياً أو متفاوتاً: كالتصدق للفقر والقربة بالنظر إلى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سبباً للاعطاء، أو بدون استقلال واحد لو انفرد، بل المستقل المجموع، كالمثال المذكور بالنظر إلى من يعطى ماله قربه الفقير ويمتنع عند الانفراد، أى لا يعطيه قربه الغنى، ولا الأجنبي الفقير، أو مع استقلال بعض دون بعض: بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث، إن خيراً فخير: كالدخول في المسجد لزيارة الله، ولانتظار الصلاة، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر. وترك الذنوب، وملاقة الاتقياء واخوانه المؤمنين، واستماع المواعظ واحكام الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن شراً فشر: كالقعود فيه للتحدث بالباطل، وملاحظة النساء، والمناظرة للمباهاة والمرآة، وربما كان بعض البواعث خيراً وبعضها شراً: كالتصدق للثواب والرياء، ودخول المسجد لبعض البواعث الأول، وبعض البواعث الثانية، والعمل الذي باعته من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص. ثم باعث العمل المباح إن كان خيراً بجعله عبادة، كالتطيب يوم الجمعة لاقامة السنة، وتعظيم المسجد واليوم، ودفع الأذى بالتتن، والأكل لقوة العبادات، والجماع للولد وتطبيب خاطر الزوجة، والترفة بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة، وإن كان شراً بجعله معصية، كالتطيب للتفاخر باظهار الثروة، والتزين للزنا، ولا يؤثر في الحرام، فلا يباح شرب الخمر لموافقة الأقران والاخوان، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية بخلاف الطاعات والمباحات، فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات، وبالفاسدة، تصير أعظم المهلكات، فما أعظم خسران من يغفل عن النية، ويتعاطى الأعمال تعاطى البهائم المهملة على قصد حظوظ النفس أو على السهو والغفلة، وقد كانت غاية سعى السلف أن يكون لهم في كل شيء نية صحيحة، حتى في أكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء.

ولا ريب في إمكان تصحيح النية في كل مباح، بحيث يترتب عليه الثواب، بل

يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي، فإن من تلف له مال، فإن قال: هو في سبيل الله، كان له أجر، وإن سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوى كونه من ذخائر الآخرة، وإذا بلغه اغتيال غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيجعل عليه سيئاته وينقل إلى ديوانه حسناته، فإياك أن تستحق شئاً من نياتك وخطرات قلبك، ولا تقدم على عمل إلا بنية صحيحة، فإن لم تحضرك النية توقف، إذ النية لا تدخل تحت الاختيار، وقد قيل: «إن من دعا أخاه إلى طعام بدون رغبة باطنة في إجابته، فإن أجابه فعليه وزران: النفاق، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه، وإن لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق!». فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون، لأنه إذا لم يكن كذلك كان غافلاً، والغافلون قد وصفهم الله تعالى فقال:

﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١).

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم، قال الصادق عليه السلام: «صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم، لأنه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الأمور كلها، قال الله عز وجل:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢).

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الأوقات في معنى قوته وضعفه، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مهوورتان تحت سلطان تعظيم الله تعالى والحياء منه، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه، في تعب، والناس منه في راحة»^(٣).

(١) الفرقان، الآية: ٤٤.

(٢) الشعراء الآية: ٨٨-٨٩.

(٣) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة - الباب الرابع ص ١٣٥، وفي البحار - الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر، باب النية وشرائطها ومراتبها، ص ٧٧، ط أمين الضرب -. لكن المذكور في

فصل

(النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها)

النية روح الأعمال وحقيقتها، والجزاء يكون حقيقة عليها، فإن كانت خالصة لوجه الله تعالى كانت ممدوحة، وكان جزاؤها خيراً وثواباً، وإن كانت مشوبة بالأغراض الدنيوية كانت مذمومة، وكان جزاؤها شراً وعقاباً، قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(١).

والمراد بالارادة: النية، لترادفهما - كما تقدم - وأوحى الله إلى داود: «يا داود! لا تطاول على المريرين، ولو علم أهل محبتي منزلة المريرين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود! لئن تخرج مريداً من كربة هو فيها تستعده، كتبتك عندي حميداً، ومن كتبه حميداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين». وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر اليه»، وإنما قال ذلك حين قيل له: إن بعض المهاجرين إلى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة إلا أخذ الغنائم من الأموال والسبايا أو نيل الصيت عند الاستيلاء، فبين ﷺ: أن كل أحد ينال في عمله ما يبغيه، ويصل إلى ما ينويه، كائناً ما كان، دنيوياً كان أو أخروياً. وهذا الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول ما يعلمونه أولادهم، وكانوا يقولون: انه نصف العلم. وقال ﷺ: «ان الله لا ينظر إلى صوركم واموالكم، وانما ينظر إلى قلوبكم واعمالكم، وانما ينظر إلى القلوب لأنها مظنة النية». وقال ﷺ: «ان العبد ليعمل اعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختمة، فتلقى بين يدي الله تعالى، فيقول: القوا هذه

٥٥ البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح، فصحناه على البحار، لكون المذكور في البحار أصح مما في المصباح.

(١) الأنعام، الآية: ٥٢.

الصحيفة، فإنه لم يرد بما فيها وجهى، ثم ينادى الملائكة: اكتبوا له كذا وكذا، فيقولون: يا ربنا! انه لم يعمل شيئاً من ذلك، فيقول الله تعالى: انه نواه. وقال ﷺ: «الناس أربعة: رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الأجر سواء، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، فهو يتخبط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل، فهما في الوزر سواء، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه؟». ولما خرج ﷺ إلى غزوة تبوك، قال: «ان بالمدينة اقواماً، ما قطعنا وادياً، ولا وطأنا موطئاً يغيب الكفار، ولا انفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا اشار كونا في ذلك وهم في المدينة»، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله، وليسوا معنا؟! فقال: «حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية». وفي الخبر: «أن رجلاً من المسلمين قتل في سبيل الله بأيدي بعض الكفار، وكان يدعى بين المسلمين قتيل الحمار، لأنه قاتل رجلاً من الكافرين نية أن يأخذ حماره وسلبه، فقتل على ذلك فاضيف إلى نيته. وهاجر رجل إلى الجهاد مع اصحاب النبي ﷺ، وكانت نيته من المهاجرة أن يأخذ امرأة كانت في عساكر الكفار ويتزوجها - وتسمى أم قيس - فاشتهر هذا الرجل عند اصحاب النبي بمهاجر أم قيس». وفي أخبار كثيرة: «من هم بحسنة ولم يعملها كتب له حسنة» كما تقدم، وقد ورد: أنه إذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل في النار، وكذا المقتول، لأنه أراد قتل صاحبه. وقال ﷺ: «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية، ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله إلا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا». وقال ﷺ: «من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان، ومن استدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق، ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه انتن من الجيفة»^(١)، وكل ذلك

(١) صححنا النبويات كلها على احياء العلوم: ٤/ ٣١٠، ٣١١، ٣١٧، باب فضيلة النية.

مجازاة على حسب النية. وقال الصادق عليه السلام: «إن العبد المؤمن الفقير ليقول: يا رب! ارزقني حتى أفعل كذا وكذا من البر ووجوه الخير، فإذا علم الله عز وجل ذلك منه بصدق النية كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لو عمله، إن الله واسع كريم». وسئل عليه السلام عن حدّ العبادة التي إذا فعلها فاعلها كان مؤدياً، فقال: «حسن النية بالطاعة». وقال عليه السلام: «وإنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله تعالى أبداً، وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء، ثم تلى قوله تعالى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾^(١).

قال: على نيته^(٢) وأمثال هذه الأخبار أكثر من أن تحصى. وأى شبهة في أن عماد الأعمال النيات، والعمل مفتقر إلى النية ليصير خيراً، والنية في نفسها خير وأن تعذر العمل، وعون الله تعالى للعبد على قدر النية، فمن تمت نيته تم عون الله له، وإن نقصت نقص بقدره، فرب عمل صغير تعظمه النية، ورب عمل كبير تصغره النية، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للعمل كما يتعلمون العمل، ونقل: «أن بعض المريدين كان يطوف على العلماء ويقول: من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فإنني لأحب أن تأتي عليّ ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله تعالى. فقال له بعض العلماء: أنت قد وجدت حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا فترت أو تركته فهم بعمله، إذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به». ثم السر في مجازاة الأعمال على حسب النية، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحاً له: إن العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه، وإنما فائدته للأثر الذي يصل منه إلى النفس

(١) الإسراء، الآية: ٨٤

(٢) صححنا الأخبار كلها على أصول الكافي الجزء الثاني، باب النية..

من النورانية والصفاء ولا يزال يتكرر وصول هذا الأثر من الأعمال إليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة، ولا ريب في أن وصول هذا الأثر من الأعمال إنما هو مع صحة النية وخلوصها، وكونها لله سبحانه من دون شوب الأغراض، بل التأمل يعطى أن هذا الأثر إنما هو حقيقة من محض النية، وإن كانت حادثة لأجل العمل.

فصل

(عبادة الاحرار والأجراء والعبيد)

قد ظهر مما ذكر: أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الأجر في الآخرة إلا ما يراد التقرب إلى الله والدار الآخرة أى يراد به وجه الله من حيث هو، من دون غرض آخر من الأغراض الدنيوية، أو يراد به التوصل إلى ثوابه، أو الخلاص من عقابه، فمن أراد بعبادته محض وجه الله، واخلصها له لكونه أهلاً للعبادة، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله، فاحبه واشتاق إليه، ولا يريد سواه، ولا يبتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه إليه بطاعته: فجزاؤه أن يحبه الله ويحبته، ويقربه إلى نفسه وبدنه قرباً معنوياً ودنواً روحانياً، كما قال في حق بعض من هذا صفته:

﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ﴾^(١).

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب، نظراً إلى أنه لم يعرف من الله سوى كونه إلهاً صانعاً للعالم قادراً قاهراً عالماً، وأن له جنة ينعم بها المطيعين، ناراً

(١) ص، الآية: ٢٥، ٤٠.

يعذب بها العاصين، فعبد له ليفوز بجنته أو يتخلص من ناره: فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخله جنته، وينجيه من ناره، لأن جزاء الأعمال على حسب النيات، كما أخبر الله تعالى عنه في غير موضع من كتابه، فإن لكل امرئ ما نوى، ولا تصنع إلى قول من ذهب إلى بطلان العبادة إذا قصد بفعلها الثواب أو الخلاص من العقاب زعماً منه أن هذا القصد مناف للاخلاص الذي هو إرادة وجه الله وحده، وأن من قصد ذلك إنما قصد جلب النفع إلى نفسه، ودفع الضرر عنها، لا وجه الله سبحانه، فإن هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها، فإن حقيقة النية عبارة عن انبعاث النفس وميلها وتوجهها إلى ما فيه غرضها ومطلبها، إما عاجلاً أو آجلاً، لا مجرد قول النوى عند العبادة: أفعل كذا قربة إلى الله، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وإن لم يكن لنفسه انبعاث إلى التقرب، هيهات هيهات! إنما هذا تحريك لسان وحديث نفس، وما ذلك إلا كقول الشبان: اشتهى هذا الطعام، قاصداً حصول الاشتها، وهذا الانبعاث إذا لم يكن حاصلًا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور، وأكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقرباً إليه، لأنهم لا يعرفون من الله تعالى إلا المرجو والمخوف، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا أنفسهم عقابها، ويتذكروا الجنة ويرغبوا أنفسهم ثوابها، وخصوصاً من كان ملتفتاً إلى الدنيا، فإنه قلما تنبعث له داعية إلى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة، فضلاً عن عبادته على نية اجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية، فإنه قل من يفهمها فضلاً عما يتعاطاها، فلو كلف بها لكان تكليفاً بما لا يطاق، وليس معنى الاخلاص في العبادة إلا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحظوظ العاجلة للنفس، كمدح الناس، ونيل المال، والخلاص من النفقة لعنت العبد ونحو ذلك، وظاهر أنه لا تنافيه إرادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة، وإن كان من جنس المألوف في الدنيا، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثاً، إذ كل ما

وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى، قال الله سبحانه:

﴿وَيَذْعُونَآ زَعْبًا وَرَهْبًا﴾^(١).

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياتا ولا شيئا مما ينفعه ويؤذيه، أن يستغنى عن جلب النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها من مولاه. ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة بإحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته إلى إحداهما وهو لا يشعر به.

ومما يدل صريحا على ما ذكرناه قول الصادق عليه السلام: «العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفا، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الاجراء. وقوم عبدوا الله عز وجل حبا له، فتلك عبادة الأحرار، وهي افضل العبادة»^(٢). وهذا يدل على أن العبادة على الوجهين الأولين لا تخلو من فضل ايضا، فضلا عن أن تكون صحيحة. نعم، لا ريب في أن العبادة على الوجه الأخير لا نسبة لمنزلتها ودرجتها إلى درجة العبادة على الوجهين الأولين، فإن من تنعم بلقاء الله والنظر إلى وجهه الكريم، يسخر ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجه الحور العين بالملتفت إلى الصور المصنوعة من الطين، وكما يسخر المتنعم بالنظر إلى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر إلى وجوههن وتلتفت إلى صاحبته وتألف بها، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطراب، إذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين أو النسوان الجميلة أعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين

(١) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) صححنا الرواية على اصول الكافي: الجزء الثاني، باب العبادة.

وبين جمال النسوان الجميلة والخنفساء، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الأول غير متناه، وأى نسبة للمتناهى إلى غير المتناهى؟

فصل

(نية المؤمن خير من العمل)

لما عرفت أن النية روح العمل وحقيقته، وتوقف نفع العمل عليها دون العكس، وكون الغرض الأصلي من العمل تأثير القلب بالميل إلى الله تعالى وتوقفه على النية، فهي خير من العمل، بمعنى أن العمل إذا حلل إلى جزئيه يكون جزؤه القلبي - اعنى النية - خيراً من جزئه الجسماني - اعنى ما يصدر من الجوارح -، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه، ولذا قال الله سبحانه:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤَهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ اتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾^(١).

فإن المقصود من اراقه دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا، وبذلها ايثاراً لوجه الله، دون مجرد الدم واللحم، وميل القلب إنما يحصل عند جزم النية والهم، وإن عاق عن العمل عائق، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم)، والتقوى صفة القلب، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته، ولذا ورد: أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى، وهو غاية الأعمال الحسنة، وإنما الاتمام بالعمل يزيدها تأكيداً. وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الكافر شر من عمله». وكل عامل يعمل على نيته.

وحاصله: أن كل طاعة تتضمن نية وعملاً، وكل منهما من جملة الخيرات، وله

(١) الحج، الآية: ٣٧.

أثر في المقصود، وتكون النية خيراً من العمل وأثرها أكثر من أثره. والغرض: أن للمؤمن اختياراً في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما، أى النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر.

فإن قيل: ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل إذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيراً وذا ثواب وإذا كان بدونها لا يكون خيراً ولا يكون له ثواب، والمقصود كون النية خيراً من العمل في الصورة الاولى وكون ثوابها اعظم، ولم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت.

قلت: ذلك وإن ظهر اجمالاً، إلا أنه لا بد لتوضيحه لتظهر جليلة الحال، فنقول: الوجه في كون النية خيراً من العمل وراجحة عليه في الثواب: أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بقاء الله سبحانه، والوصول إلى اللقاء موقوف على معرفة الله وحبه وانسه، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها إلى الله سبحانه، فإذا حصل بمجرّد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه إلى الله تعالى كان ضعيفاً غير راسخ، وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح، لأن بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لأجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى أن العضو إذا أصابته جراحة تتألم بها النفس، وأن النفس إذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم أمر مخوف تأثرت الأعضاء وارتعدت الفرائص، فالطاعات التي هي فعل الجوارح إنما شرعت للتوصل بها إلى صفة النفس - اعنى التوجه والميل إلى الله سبحانه، فالنفس هو الأصل والمتبوع والأمير، والجوارح كالخدم والأتباع، وصفات القلب هي المقصودة لذاتها، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس - اعنى الميل والنية والتوجه - ولا ريب في أن ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض، وثوابه أعظم من ثوابه.

ومن المعانى الصحيحة للحديث: أن المؤمن بمقتضى ايمانه ينوى خيرات كثيرة لا يوفق لعملها، إما لعدم تمكنه من الوصول إلى أسبابها، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول إلى أسبابها، كالذي ينوى إن آتاه الله ما لا ينفقه في سبيله، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق، فهذا نيته خير من عمله، وايضاً المؤمن ينوى دائماً أن تقع عباداته على أحسن الوجوه، لأن ايمانه يقتضى ذلك. ثم إذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك. ولا يأتى بها كما يريد، فما ينويه دائماً خير مما يعمل به في كل عبادة. وإلى هذا أشار الباقر عليه السلام حيث قال: «نية المؤمن خير من عمله». وذلك لأنه ينوى الخير ما لا يدركه ونية الكافر شرّ من عمله، وذلك لأن الكافر ينوى الشر ويأمل من الشر ما لا يدركه». وقيل للصادق عليه السلام: سمعتك تقول: نية المؤمن خير من عمله، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال عليه السلام: «لأن العمل إنما كان رياءاً للمخلوقين، والنية خالصة لرب العالمين، فيعطى عز وجل على النية ما لا يعطى على العمل»، ثم قال: «إن العبد لينوى من نهاره أن يصلى بالليل فتغلبه عينه فينام، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة». وبعض الأخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكداه أيضاً. وقيل: معنى الحديث: «إن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد بلانية». وفيه: أن العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلاً فلا معنى للترجيح في الخيرية، وقيل: سبب الترجيح: «إن النية سرّ لا يطلع عليه الا الله، والعمل ظاهر، وفعل السرّ أفضل». وهذا وإن كان في نفسه صحيحاً، إلا أنه ليس مراداً من الحديث، لأنه لو نوى أحد أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكر في مصالح المؤمنين، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيراً من العمل الذي هو الذكر والتفكر، مع اشتراك النية والعمل في السرية، وبداهة كون الذكر والتفكر خيراً من نيتهما.

فصل

(النية غير اختيارية)

النية غير داخلية تحت الاختيار، وذلك لما عرفت من أنها انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى ملائم ظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلاً أو آجلاً، وهذا الميل إذا لم يكن حاصلًا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإختطار بالبال والاجراء على اللسان، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أستهي الطعام وأميل إليه، أو قول الفارغ: نويت أن أعشق فلاناً وأحبه، فلا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجهه نحوه، إلا باكتساب اسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وإنما قد تنبعث النفس إلى الفعل اجابة للغرض الباعث، الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه قصده نحوه، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائماً، وإذا اعتقد فإنما يتوجه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والأحوال والأعمال، فإذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتزوج على نية الولد، بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة، إذ النية اجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوى الولد، ولذا كان أهل السلوك من السلف كثيراً ما يمتنعون عن جملة من الطاعات إذا لم تحضرهم النية، وكانوا يقولون: ليس تحضرني نية وذلك لعلمهم بأن النية روح الأعمال وقوامها، وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لا سبب قرب. وروى: «أنه أتى الصادق عليه السلام مولى له فسلم عليه وجلس، فلما انصرف عليه السلام انصرف معه الرجل، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل، فقال له ابنه اسماعيل: يا أبة! ألا كنت عرضت عليه الدخول؟ فقال: لم يكن من شأنى ادخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بنى! إنى اكره أن يكتبني الله عراضاً».

تتميم

(الطريق في تخليص النية)

الطريق في تخليص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية، وإذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة إلى فعل الطاعة مع خلوص النية. مثلاً من لم تكن له نية الولد في النكاح، بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة، فينبغي له أن يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد ﷺ ويدفع عن نفسه جميع المنفردات عن الولد، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره، وإذا فعل ذلك انبعثت من نفسه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب. ومنها:

الكراهة

وهي نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب، فإذا قويت سميت مقتناً. وضدها الحب، وهو ميل الطبع إلى الشيء الملذ، فإن تأكد ذلك الميل وقوى سمي عشقاً.

اعلم أن عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة بعضها على بعض، وكذا اضدادها - اعنى الشوق والنية والحب والانس - امور متناسبة يترتب بعضها على بعض، فنحن هنا نشير اجمالاً إلى معانيها والفرق بينها، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب.

فتقول: قد عرفت أن الغفلة والنية ضدان، وهما عبارتان عن عدم انبعاث النفس وانبعاتها إلى ما فيه غرضها الملائم إما عاجلاً أو آجلاً، وأما عدم الرغبة والشوق فهما أيضاً ضدان ومبدآن للغفلة والنية.

بيان ذلك: أن معنى عدم الرغبة ظاهر، والشوق عبارة عن الرغبة إلى الشيء الذي لم يصل إليه وكان مفقوداً عنه بوجه، فالشوق لا يخلو عن ألم المفارقة، ولو

زالت المفارقة وحصل الوصال انتفى الشوق. ثم فرق الشوق عن النية ظاهر، فإن الشوق مجرد الرغبة إلى الشيء من دون اعتبار انبعاث النفس إلى طلبه في مفهومه، والنية هي الانبعاث المذكور، فالشوق مبدأ النية، والنية مترتبة عليه، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضاً - اعنى عدم الرغبة والغفلة.

وأما (الكراهة والحب): فقد عرفت أنهما عبارتان عن نفرة الطبع عن المؤلم، وعن ميله إلى الملمذ، سواء انبعتت النفس عن طلبه أم لا، وبهذا يفترق الحب عن النية، فإن النية هي انبعاث النفس، وهو مغاير لمجرد الميل، بل الميل منشأ للانبعاث وسواء حصل الوصول إلى الملمذ أم لا، وبهذا يفترق عن الشوق، فإن الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول، فالشوق والنية والارادة لا ينفكان عن الحب، والحب يكون مقارنا لهما ألبتة، فإذا حصل الوصول إلى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونهما. وبما ذكر يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة.

وأما (الانس): فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظه من المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه، والبعد عبارة عن عدم الوصول إلى المحبوب أو الوصول إلى ما لا يستبشر ولا يستهيج بملاحظته، لعدم الرغبة إليه أو للتنفر عنه، فالحب منشأ الأنس، والأنس يترتب عليه، وهو غاية المحبة، فلا يخلو انس عن المحبة، والمحبة قد تكون بدونها، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوباً للقوة العاقلة، كالعلم بحقائق الأشياء، وقد يكون مطلوباً للقوة الغضبية، كالأستلاء والغلبة، وقد يكون مطلوباً للقوة الشهوية، كالمال والأزواج، وعلى كل تقدير تكون الامور المذكورة - اعنى عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - وأضدادها - اعنى الشوق والارادة والحب والانس - متعلقة بتلك القوة، معدودة من رذائلها أو فضائلها. ثم المحبوب إن كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعاً وعقلاً، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل وأضدادها من الرذائل، وإن كان مما يذم حبه وطلبه شرعاً وعقلاً كان بالعكس.

فصل (الشوق)

الشوق - افضل مراتب الشوق الشوق إلى الله - تعلق الحب بجميع القوى - أقسام الحب بحسب مبادئه - لا محبوب حقيقة إلا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سريان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله اقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطريق إلى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب اظهر الموجودات - علائم محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الانس - الانس قد يثمر الادلال.



قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة.

وأما الشوق، فنقول في بيانه: قد عرفت أن الشوق عبارة عن الميل والرغبة إلى الشيء عند غيبته، فإن الحاصل الحاضر لا يشقائق إليه، إذ الشوق طلب يسوق إلى نيل امر، والموجود لا يطلب، فالشوق لا يتصور إلا إلى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه، فما لا يدرك أصلاً لا يشقائق إليه، إذ لا يتصور أن يشقائق أحد إلى شخص لم يره ولم يسمع وصفه، وما ادرك بكماله لا يشقائق إليه ايضاً، إذ المداوم لمشاهدة المحبوب والوصل إليه من جميع الوجوه لا يتصور أن يكون له شوق، فالشوق يختص بتعلقه بما ادرك من وجه دون وجه، وهذا إنما يكون باحد وجهين:

(احدهما) أن يتضح الشيء اتضاحاً ما، ولم يستكمل الوضوح، فاحتاج إلى استكماله فيكون الشوق إلى ما بقي من المطلوب مما لم يحصل. مثال ذلك: أن من غاب عنه معشوقه، وبقي في قلبه خياله، يشقائق إلى استكمال خياله بالرؤية، ومن رأى معشوقه في ظلمة، بحيث لا تنكشف له حقيقة صورته، يشقائق إلى استكمال رؤيته باسراق الضوء عليه، فلو رآه بتمام الرؤية انتفى الشوق، كما انه لو انمحي عن

قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده.
 (ثانيهما) أن يدرك بعض كمالات المحبوب، ووصل اليه، وعلم اجمالاً أن له كمالات أخرى، ولم يدركها ولم يصل إليها، فيكون له شوق إلى ادراك تلك الكمالات. مثال ذلك: أن يرى وجه محبوبه، ولا يرى شعره ولا سائر أعضائه، فيشتاق إلى رؤية ذلك.

فصل

(أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله)

أفضل مراتب الشوق هو الشوق إلى الله سبحانه وإلى لقائه، وهي المظنة إلى الوصول اليه، وإلى حبه وانسه والتقرب لديه، وهو رأس مال السالكين، ومفتاح أبواب السعادة للطالبيين، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين، فلا يخلو عارف من الشوق إلى الله:
 أما الوجه الأول، فلأن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن بلغ غاية الوضوح، فكأنه من وراء ستر رقيق، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح، بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والممانعة عن ظهورها اليقيني، (لا) سيما إذا انضاف إليها شواغل الدنيا، فكمال الوضوح في الأمور الإلهية إنما هو بالمشاهدة واشراق التجلي، ولا يكون ذلك في هذا العالم، بل يكون في الآخرة، فهذا أحد الموجبين لشوق العارفين إلى الله سبحانه، وهو الشوق إلى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحاً ما.

وأما الثاني، فلأن الأمور الإلهية لانهاية لها، وإنما ينكشف لكل عارف بعضها، وتبقى أمور غير متناهية خفية عنه، والعارف اجمالاً وجودها، وكونها معلومة لله تعالى، ويعلم أن ما غاب من علمه من المعلومات أكثر مما حضر، فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله وجلاله وصفاته وأفعاله بما

لا يعرفها اصلاً، لامع الوضوح ولا مع الابهام والاجمال. والشوق الأول ربما انتهى في الآخرة إذا حصل الشهود واللقاء المعنوي لأجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد التام لها، وأما الشوق الثاني فلا يمكن أن ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة، إذ نهاية ذلك أن ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله وصفاته واحكامه وافعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال، إذ معلومات الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة، فتمتنع احاطة الانسان بها، فلا يزال العبد عالماً بأنه قد بقى من جلال الله وعظمته ومن صفته وفعله ما لم يتضح له، فلا يسكن قط شوقه، وما من عبد إلا ويرى فوق درجته درجات كثيرة لانهاية لها، فيشتاق إليها ألبتة، وإذا كان اصل الوصال واللذة حاصلًا، فربما كان الشوق إلى المراتب التي فوق مرتبتها شوقاً لذيقاً لا يظهر فيه ألم، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتهما متوالية إلى غير النهاية، وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدرّج، فلا يزال العبد يتصاعد ويترقى إليها، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له أبد الأبد من غير انقطاع له، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلاً له عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل له المم، فإن امكن في الآخرة حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا، لكان حصول المعارف والابتهاجات والانوار وتجدها في الآخرة ممكناً، وإن لم يكتسب اصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار من دون أن ينتهي إلى حد وربما كان قوله تعالى:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا﴾^(١)

إشارة إلى هذا المعنى، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى الظهور، ثم إلى زيادة الاستكمال والاشراق، وإن اختص

حصول نعم الآخرة وانوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الأنوار والابتهاجات، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيما حصل له أصله، وعلى هذا، فربما انتهى إلى حد ووقف هناك ولا يتضاعف، وقوله تعالى: «نورهم يسعى... إلى آخر الآية» يحتمل لهذا المعنى أيضاً، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله. (قيل): وقوله تعالى:

﴿أَنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾^(١):

يدل على أن الأنوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا، ثم يزداد في الآخرة اشراقاً، فأما أن يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا.

ثم لا يخفى أن تعيين الأصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل، وليس لنا طريق إلى القطع بأن أي شيء أصل لأي نور وبهجة، وربما كان المظنون عندنا: أن أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال، وأنه تام فوق التمام، وكل ما سواه من الماهيات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدلها على العظمة، وأنه لا موجود ولا شيء إلا الواجب وصفاته وأفعاله، وأن ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الأذهان العالية، ولا لمدرک من المدارك المتعالية، عقلاً كان أو نفساً أو غيرهما، لو أمكن أن يكون مدرکاً، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتاً يمكن أن تكون فوقه أو مثله، بل كلما تصور اجمالاً فهو فوقه، وكذا صفاته الكمالية وافعاله، وأن صفاته الكمالية: من عظمته، وجلاله، وقدرته، وجماله، وعلمه، وحكمته، وغير ذلك غير متناهية وليس لها حد وغاية، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لانهاية له كثرة وقوة وكمالا، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة

(١) الحديد، الآية: ١٣.

والجلال ما لا يطيق اشرف الموجودات واقواها لادراك أولها، فمن عرف ذلك وتيقن به، وعلم ان هذا العالم وما فيه لا نسبة له إلى عالم الآخرة وما فيه، وأن أطافه ومزاياه إلى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه، وتيقنوا بأن لا شرافة ولا كمال للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب إليه والوصول إلى حبه وانسه، فقد وصل إلى أصل كل سعادة ونور وبهجة، لا سيما إذا دفع عن نفسه ذمائم الأخلاق واتصف بفضائلها. وقد ظهر مما ذكر: أنه لا ريب في ثبوت الشوق للعباد إلى الله سبحانه، والعجب ممن انكر حقيقة الشوق إلى الله سبحانه لانكاره المحبة له - كما يأتي -، إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب، وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار. ولا ريب في ثبوته - ايضاً - من الآيات والأخبار: قال الله سبحانه:

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...﴾ إلى آخر الآية^(١).

فإن الرجاء لا ينفك عن الشوق. وقال رسول الله ﷺ في دعائه: «اللهم إني أسألك الرضاء بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقاً إلى لقائك». وفي بعض الكتب السماوية: «طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا إلى لقائهم لأشدَّ شوقاً». وفي اخبار داود عليه السلام: «إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري، ونعمتها بجلالي». وفيها ايضاً: «انه تعالى اوحى إلى داود: يا داود! إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلىي؟ قال: يا رب! من المشتاقون اليك؟ قال: إن المشتاقين إلىي الذين صفيتهم من كل كدر، ونبهتهم بالحذر، وخرقت من قلوبهم إلىي خرقاً ينظرون إلىي، وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي، ثم ادعو بملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوني، فأقول: اني لم اجمعكم لتسجدوني، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلىي، وأباهي بهم اياكم، فإن قلوبهم لتضئ في سمائي لملائكتي كما تضئ الشمس لأهل الأرض، يا داود! اني خلقت قلوب

المشتاقين من رضوانى، ونعمتها بنور وجهى، فاتخذتهم لنفسى محدثين، وجعلت
 ابدانهم موضع نظرى إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلى،
 يزدادون في كل يوم شوقاً». واوحى الله إليه أيضاً: «يا داود! لو يعلم المدبرون عنى
 كيف انتظاري لهم ورفقى بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم، لमतوا شوقاً إلى، وتقطعت
 اوصالهم عن محبتى». وفي بعض الأخبار القدسية: «ان لى عبداً يحبوننى واحبهم،
 ويشتاقون إلى واشتاق اليهم، ويذكروننى واذكرهم، واول ما اعطيتهم ان اقذف من
 نورى في قلوبهم، فيخبرون عنى كما اخبر عنهم، ولو كانت السماوات والأرض وما
 فيهما في موازينهم لاستعد بها لهم، واقبل بوجهى عليهم، لا يعلم أحد ما أريد أن
 أعطيه». وقال الصادق عليه السلام: «المشتاق لا يشتهى طعاماً ولا يلتذ شرباً، ولا يستطيع
 رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوى داراً، ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ثياباً، ولا يقر
 قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق اليه، ويناجيه بلسان الشوق
 معبراً عما في سريره، كما أخبر الله تعالى عن موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله:
 (وعجلت اليك رب لترضى)، وفسر النبي صلى الله عليه وآله عن حاله: (أنه ما أكل ولا شرب
 ولا نام، ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوماً شوقاً إلى ربه)، فإذا
 دخلت ميدان الشوق، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا، وودع جميع المألوفات،
 واصرفه عن سوى مشوقك، ولب بين حياتك وموتك: لبيك اللهم لبيك! أعظم الله
 أجرك، ومثل المشتاق مثل الغريق، ليس له همة إلا خلاصه، وقد نسى كل شيء
 دونه^(١). وما ورد في الأدعية المعصومية من طلب الشوق أكثر من أن يحصى،
 والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت الشوق أيضاً.

وأما (الكراهة والبغض وضدهما - اعنى الحب -) فنقول: قد عرفت أن الكراهة
 والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب، والحب الذي هو ضدهما عبارة

(١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة: باب ٩٩، ص ١٩٣ - ١٩٤.

عن ميل الطبع إلى الملائم الملد.

وتوضيح ذلك: أنه لا يتصور حب إلا بعد معرفة وإدراك، وكذلك لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الإنسان ما لا يعرفه ولم يدركه، فالحب من خاصية الحى الدارك، بعد حصول الإدراك بالفعل.

ثم لما كانت المدركات منقسمة إلى ما يوافق طبع المدرك ويلذه، وإلى ما يخالفه ويؤلمه، وإلى ما لا يؤثر فيه بالذاذ وإيلاء، فالقسم الأول يكون مرغوباً عند المدرك، ويسمى رغبة، وميله إليه حباً، والقسم الثانى يكون منفوراً عنده، وتسمى نفرتة عنه كراهة وبغضاً، والثالث لا يوصف بميل وكراهة، فلا يوصف بكونه محبوباً، ولا مكروهاً. ثم اللذة لما كانت عبارة عن إدراك الملائم الملد ونيله، فالحب الذي هو الميل والرغبة إليه لا يخلو عن لذة محققة أو خيالية، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بإدراك الملائم ونيله، هذا فإنك قد عرفت أن المدرك إن كان مما يستحسن حبه شرعاً وعقلاً، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل، وإن كان مما يذم حبه، كان بالعكس من ذلك.

فصل

(تعلق الحب بجميع القوى)

الحب والكراهة لما كانا تابعين للإدراك، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة، التي هي الحواس الظاهرة، والحواس الباطنة، والقوة العاقلة. فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الجميلة المرئية، والنغمات الموزونة، والروائح الطيبة، والمطاعم النفيسة، والملبوسات اللينة بالنظر إلى الخمس الظاهرة. ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة، بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالصور الملائمة، الخيالية، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة إلى المتخيلة والواهمة. ومنه ما يتعلق بالعاقلة،

بمعنى أن المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها، كالمعاني الكلية، والذوات المجردة. ولا ريب في أن العقل من الحب والذات أقوى اللذات وابلغها، إذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى إدراكاً وأشد غوصاً ونفوذاً في حقائق الأشياء وبواطنها من الحس، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة، فتكون لذة العقل وحبها بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي جلت عن ادراك الحواس اتم وابلغ، ولذا جعل رسول الله ﷺ الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا، حيث قال: «حب إلى من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»، فإن الإلتذاذ بالصلاة لذة عقلية، كما أن الإلتذاذ بالطيب لذة شمية، وبالنساء نظرية ولمسية.

فإن قيل: حقيقة الانسان نفسه الناطقة، ولها ثلاث قوى، وهى: العاقلة، والشهوية، والغضبية، وقوى اخرى هى: الحواس الظاهرة والحواس الباطنة وشأن العاقلة - كما ذكرت - ادراك المعانى الكلية، والحقائق المجردة، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشومات والمذوقات والملموسات، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعانى الجزئية، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتى الغضب والشهوة، من الغلبة والاستيلاء والوصول إلى المناكح والمطاعم وضدهما، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره؟

قلنا: المحب والملتذ أولاً في كل من هذه المدركات هو المدرك، وثانياً وبواسطة هو النفس، إذ كل ادراك يتعلق بإحدى القوى، ليصل بالآخرة إلى النفس، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والألم، إلا أن ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتى الشهوة والغضب لا بد أن يصل اليهما ايضاً، فيحصل لهما اللذة أو الألم، وبواسطتهما يصل إلى النفس، فالمدرك أولاً للغلبة أو العجز هو الوهم، فيلتذ أو يتألم، ثم يصل منه

أثر الادراك والالتذاذ والألم إلى القوة الغضبية، ويصل منها الأثر إلى النفس فيلتذ أو يتألم، والمدرک للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة، فالالتذاذ والتألم لها أولاً وبواسطتها للقوة الشهوية، وهذا إن كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة، وإن كانت معنى جنسياً شاملاً لجميعها فالأمر ظاهر. وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى.

فصل

(أقسام الحب بحسب مبادئه)

اعلم أن اسباب الحب ومبادئها لما كانت متعددة فينقسم الحب لأجلها على أقسام:

الأول - حب الانسان وجود نفسه وبقائه وكماله، وهو أشد اقسام الحب واقواها، لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه، ولهذا جعلت معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه^(١). وكيف لا يكون حب الشيء لذاته أقوى المراتب، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب والمحبوب أوكد وأبلغ؟ وأى اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة، كما بين الشيء ونفسه، فالمحب والمحبوب واحد، وسبب الحب غريزة في الطباع بحكم سنة الله:

﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢)

ومعنى حبه لنفسه كونه محباً لدوام وجوده، ومكرها لعدمه وهلاكه، فالبقاء ودوام الوجود محبوب، والعدم ممقوت، ولذا يبغض كل أحد الموت، لا بمجرد ما

(١) كما قال امير المؤمنين عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

(٢) الاحزاب، الآية: ٦٢. الفتح، الآية: ٢٣.

يخافه بعده، أو لمجرد ما يلزمه من سكراته، بل لظنه أنه يوجب انعدام كله أو بعضه، ولذا لو اختطف من غير الم وتعب، وأميت من غير ثواب وعقاب، كان كارهاً لذلك، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك كمال الوجود محبوب، لأن فاقد الكمال ناقص: والنقص عدم بالاضافة إلى القدر المفقود، فالوجود محبوب في اصل الذات وبقائه وفي صفات كماله، والعدم ممقوت فيها جميعاً.

والتحقيق: أن المحبوب ليس إلا الوجود، والمبغوض ليس إلا العدم، وجميع الصفات الكمالية راجعة إلى الوجود، وجميع النقائص راجعة إلى العدم، إلا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود، وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب الموجودات، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة، فإذا فقد بعضها فكأنه فاقد لبعض اجزاء وجوده، وبذلك يظهر: أن الموجود كلما كان أقوى وكان نحو وجوده أتم، كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة والعدة، وكانت صفاته الكمالية اقوى واكثر، لكونها من مراتب الوجودات، فالوجود الواجب الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوى فيه جميع الوجودات، ويكون محيطاً بالكل، ثم محبة الأولاد من التحقيق يرجع إلى هذا القسم، لأن الرجل إنما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله، وإن لم يصل منه إليه نفع وحظ، لعلمه بأنه خليفته في الوجود بعد عدمه، فكان بقاءه نوع بقاء له، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه، ولعدم كون بقاءه هو بقاءه بعينه يكون بقاء نفسه أحب إليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه لكمال نفسه فانه يرى نفسه كبيراً قوياً لأجلهم، متجماً بسببهم، إذ العشيرة كالجنح المكمل الانسان^(١).

(١) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبي - عليهما

الثاني - حبه لغيره لأجل انه يلتذ منه لذة حيوانية، كحب كل من الرجل والمرأة للآخر ولأجل الجماع، وحب الانسان المأكولات والملبوسات، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة، وهو سريع الحصول وسريع الزوال، واضعف المراتب، لخساسة سببه وسرعة زواله.

الثالث - حبه للغير لأجل نفعه واحسانه، فان الانسان عبد الاحسان، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، ولذا قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي». فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان إلى القسم الأول، لأن المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود، وسبب اللذة باعث لحصول الحظوظ التي بها يتهيا الوجود.

والفرق أن الأعضاء، والصحة، والعلم، والطعام، والشراب، والجماع: محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال، وأما الطبيب الذي هو سبب الصحة، والعالم الذي هو سبب العلم، ومعطى الطعام والشراب والمرأة التي هي آلة الوقاع: محبوبة لالذواتها، بل من حيث إنها وسائل إلى ما هو محبوب لذاته، فاذا يرجع الفرق إلى تفاوت الرتبة، والكل يرجع إلى محبة الانسان نفسه، فمن أحب المحسن لاحسانه فما احب ذاته تحقيقاً، بل أحب احسانه، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته، ولو نقص نقص الحب، ولو زاد زاد. وبالجمله: يتطرق إلى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه.

الرابع - أن يحب الشيء لذاته، لاحظ يناله منه وراء ذاته، بل تكون ذاته عين حظه، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به، وذلك كحب الجمال والحسن،

فإن كل جمال محبوب عند مدركه، وذلك لعين الجمال، لأن ادراك الجمال عين اللذة، واللذة محبوبة لذاتها لا غيرها. ولا تظن أن حب الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فإن قضاء الشهوة لذة حيوانية، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها، وادراك نفس الجمال لذة أخرى روحانية، يكون محبوباً لذاتها، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الأولى مدموم، وبالجهة الثانية ممدوح، والعشق الذي يقع لبعض الناس من استحسان الصور الجميلة يكون مدموماً إن كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية، ويكون ممدوحاً إن كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال، ولأجل التباس السبب في هذا العشق اختلف العقلاء في مدحه وذمه، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر، مع أن الخضرة والماء الجارى محبوبان لا تتوكل الخضرة ويشرب الماء، أو ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية، وقد كان رسول الله ﷺ تعجبه الخضرة والماء الجارى والطباع الصافية السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الانوار والازهار والأطياف المليحة الألوان الحسنة النفس المناسبة الشكل، حتى الانسان لتتفرج عنه الغيوم بمجرد النظر إليها من دون قصد حظ آخر منها. وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول، حيث زعموا أنه لا يتصور أن يحب الانسان غيره لذاته، ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى ادراك ذاته، ولم يعلموا أن الحسن والجمال ليس مقصوراً على مدركات البصر، ولا على تناسب الخلقة، إذ يقال: هذا صوت حسن، وهذا طعم حسن، وهذا ريح طيب، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر، وكذا ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس، لوجودهما في غيرها، فإن أكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة، إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة، ولا يدرك شيء من هذه الصفات بالحواس، بل يدرك بالبصيرة الباطنة، وكل هذه الخصال المدركة حسننها بالعقل محبوبة بالطبع، والموصوف بها أيضاً محبوب عند من عرف صفاته.

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوباً: أن الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة عليهم السلام مع أنهم لم يشاهدوهم، حتى أن الرجل قد تجاوز حبه لصاحب مذهبه حد العشق، فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذب عنه، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه أو متبوعه، مع أنه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه، فما حمله على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة: من الورع، والتقوى، والتوكل، والرضا وغزارة العلم، والاحاطة لمدارك الدين، وانتهاضه لافاضة علم الشرع، ونشره هذه الخيرات في العالم، وجملتها ترجع إلى العلم والقدرة، إذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الأمور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات، وهما - اعنى العلم والقدرة - غير مدركين بالحواس، مع أنهما محبوبان بالطبع. ومن الشواهد على المطلوب: أن الناس لما وصفوا (حاتماً) بالسخاء و(انوشيران) بالعدالة، أحبهما القلوب حباً ضرورياً، من دون نظرهم إلى صورهما المحسوسة، ومن غير حظ ينالونه منهما، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية، كان حبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعاني الظاهرة فشتان بين من يحب نقشاً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب سيد الرسل ﷺ لجمال صورته الباطنة.

الخامس - محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية، أو مجانسة معنوية، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال، ولا طمع في جاه ومال، بل بمجرد تناسب الأرواح، كما قال النبي ﷺ: «الارواح جنود مجنده، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

السادس - محبته لمن حصل بينه وبينه الألف والاجتماع في بعض المواضع،

لا سيما إذا كان من المواضع الغريبة، كالسفن والاسفار البعيدة. والسبب فيه: كون افراد الانسان مجبولة على المؤانسة مع التلاقى والاجتماع، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمى انساناً، فهو مشتق من الانس دون النسيان - كما ظن -، والمؤانسة لا تنفك عن المحبة، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين أهل البلد، أو بينهم وبين أهل القرى، أو بين أهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة، من جملة اسرار الأمر بالجمعة والجماعة، وصلاة العيدين، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد.

السابع - محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر، كميل الصبى إلى الصبى لصباه، والشيخ إلى الشيخ لشيخوخته، والتاجر إلى التاجر لتجارته، وهكذا... فإن كل شخص مائل إلى من يشاركه في وصفه وصنعتة وشغله وحرفته، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة.

الثامن - حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس، فإن المعلول لما كان مثالا من العلة، ومترشحاً عنها ومنبجساً منها، ومناسباً لها لكونه من سنخها، فالعلة تحبه لأنه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منظوية فيها، والمعلول يحبها لأنها اصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه فكان كلاً منهما في حبه للآخر يحب نفسه.

ثم السبب إن كان علة حقيقية موحدة، تكون سببية أقوى في حصول المحبة والاتحاد مما إذا كان علة معدة. فأقوى اقسام المحبة ما يكون للواجب سبحانه بالنسبة إلى عباده، وبعد ذلك لا محبة أقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة إليه سبحانه، فإن محبتهم له من حيث كونه موحداً مخرجاً لهم من العدم الصرف إلى الوجود، ومعطياً لهم ما احتاجوا إليه في النشأتين، ومن حيث انه تعالى تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية، والنفس بذاتها مشتاقة إلى الكمال المطلق، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل بدونها، ولذا قال سيد الرسل ﷺ: «ما اتخذ الله ولياً جاهلاً قط». وحب الأب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم، من حيث إن الأب

سبب ظاهر لوجود الابن، وإن لم يكن سبباً حقيقياً، بل علة معدة له، فيحبه لأنه يراه بمنزلة نفسه، ويظنه مثلاً من ذاته، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته، ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه، فيظنه أنه جزؤه وفي الخلق والخلق مثله، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له، ويفرح بترجيحه عليه، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال: إنه في الآن أفضل من السابق، ومما يؤكد محبته له: أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في حياته ومماته، وليست محبة الابن للأب كمحبة الأب للابن، بل هو أضعف، لفقد بعض الأسباب الباعثة له، ولذا أمر الأولاد في الشريعة بحب الآباء دون العكس، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم، لأن المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية عليه، كما أن الأب كالسبب لحياته الجسمية ورتبته الصورية، فهو والد روحاني له، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الأب، وعلى هذا ينبغي أن تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر من محبة الأب، وقد ورد في الحديث: «أن آباءك ثلاثة: من ولدك، ومن علمك، ومن زوّجك، وخير الآباء من علمك». وسئل من ذى القرنين: أن أباك أحب إليك أم معلمك؟ قال: «معلمي أحب إليّ، لأنه سبب لحياتي الباقية، وأبى سبب لحياتي الفانية». وقال امير المؤمنين عليه السلام: «من علمني حرفاً فقد صيرني عبداً». وعلى هذا ينبغي أن يكون حب النبي صلى الله عليه وآله وأوصياؤه الراشدين عليهم السلام أؤكد من جميع أقسام الحب بعد محبة الله سبحانه، لأنه المعلم الحقيقي والمكمل الأول، ولذا قال صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله وولده».

التاسع - محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض، كمحبة الاخوان والأقارب. وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أؤكد، ولذا تكون محبة الأخوين أشد من محبة أبناء الأعمام مثلاً، ومن عرف الله وانتساب الكل إليه، وبلغ مقام التوحيد، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته، يحب جميع

الموجدات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي. ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة أو أكثرها في شخص واحد، فيتضاعف الحب، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة، حسن الخلق، كامل العلم، حسن التدبير، محسن إلى والده وإلى الخلق، كان حب والده له في غاية الشدة، لاجتماع أكثر أسباب الحب فيه، وربما أحب شخصاً آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه، من دون عكس، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه، وقد تختلف فيهما أسباب الحب، فيحب كل منهما الآخر من جهة، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب، فكلما كان السبب أكثر واقوى كان الحب أشد وأوكد.

فصل

(لا محبوب حقيقة إلا الله)

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله سبحانه، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا هو، ولو كان غيره تعالى قابلاً للحب وموضعاً له فإنما هو من حيث نسبته إليه تعالى، فمن أحب غيره تعالى لا من حيث نسبته اليه، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله، وكيف يكون غيره سبحانه من حيث هو، لا من جهة انتسابه اليه، مستحقاً للحب، وهو في نفسه مع قطع النظر عنه تعالى وعن انتسابه إليه ليس إلا العدم، والعدم كيف يصلح للحب، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة، أى من حيث إنها منه تعالى، وآثاره، ومعلولاته، أضواؤه واطلاله، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة إليه تعالى، كالحب، والانس، والمعرفة، والإطاعة لخصوص النسبة ايضاً.

ومما يوضح المطلوب: أن جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله تعالى، ولا توجد في غيره حقيقة، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل ومجاز محض لا حقيقة له.

أما السبب الأول - اعني محبة النفس: فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له، ولا وجود له من ذاته، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف، فوجوده وداوم وجوده وكمال وجوده من الله وبالله وإلى الله، فهو الموجد المخترع له، وهو المبقى له، وهو المكمل لوجوده بإيجاد صفات الكمال فيه، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالإيجاد وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء، وناقص بعد بقاءه لولا فضله عليه بالتكميل، فليس، في الوجود شيء له قوام بنفسه إلا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره. وحينئذ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع إلى محبة ربه، وإن لم يشعر المحب به، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل، ومن أحب النور أحب لا محالة الشمس التي بها قوام النور، وكل ما في الوجود بالاضافة إلى قدرة الله تعالى كالظل بالاضافة إلى الشجر والنور بالاضافة إلى الشمس، إذ الكل من آثار قدرته، ووجوده تابع لوجوده، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص، ووجود النور تابع لوجود الشمس، بل هذا المثل إنما هو للتفهيم، وبالاضافة إلى أوهم العوام، حيث يتوهمون أن الظل والنور تابعان للشخص والشمس وفايضان عنهما، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما، بل هما فايضان من الله تعالى، موجودان به بعد حصول الشرائط، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتهما وسائر صفاتهما منه تعالى.

وأما السبب الثاني والثالث - اعني الإلتذاذ والاحسان، سواء كان متعدياً إلى المحب أم لا: فمعلوم أنه لا لذة ولا احسان إلا من الله تعالى، ولا محسن سوى الله، فإنه خالق الإحسان وذويه، وفاعل اسبابه ودواعيه، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله، وقطرة من بحار كماله وافضاله.

وأما الرابع - اعني الحسن والجمال والكمال: فلاريب في أنه تعالى هو الجميل بذاته والكمال بذاته، وهو الجمال الخالص، والكمال المطلق، وحقيقتهما منحصرة

به تعالى، وما يوجد في غيره تعالى من الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان، إذ النقص شامل لجميع الممكنات، وانما تتفاوت في درجات النقص. وقد عرفت أن الجمال المعنوي اقوى من الجمال الصوري، ومن كان من أهل البصيرة والكمال يكون حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر واقوى من حبه للجمال الصوري، وحقيقة الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود، وكمال العلم والقدرة، والاستيلاء على الكل، واستناد الجميع اليه، منحصر بالله تعالى فإذا كان الجمال المشوب بالنقص محبوباً، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي لا يتصور جمال فوقه محبوباً، بل المحبوب حقيقة ليس إلا هو.

باده خاك آلودتان مجنون كند صاف اگر باشد ندانم چون كند^(١)

على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري، أو بالجمال الباطن المعنوي، رشفة من رشحات جماله، وكل كامل فكماله فرع كماله، فكل من احب جميلاً أحب خالقه، وما احب احداً غير الله تعالى، لكنه احتجب عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب، هذا مع أن عمدة جمال المخلوقين إنما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة الرذائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب إلى الله تعالى، وباتصافهم بمعالي الصفات وشرائفها المقربة إلى الله، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد والسياسة، ومعلوم أن هذه الامور اضافات إلى الله سبحانه، فحبها يرجع إلى حبه تعالى..

وأما الخامس - أعنى المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية: فلا ريب في أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدتها، إذ هي شعلة من شعلات جلاله، وبارقة من بوارق جماله، ولذا قال الله سبحانه:

(١) إن خمركم الملوث بالغبار يجتنى!! فلست أدري ما هو مفعوله إن كان صافياً!!!

﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١). وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢).

اذ لم يستحق آدم خلافة الله إلا بتلك المناسبة، وبهذه المناسبة ينقطع العبد إلى ربه، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبليّة، وهذه المناسبة لا تظهر ظهوراً تاماً إلا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض، كما قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». وهذا موضع تزل فيه الاقدام، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر، وآخرون في الحلول والاتحاد، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد، وفساد طرفي التفريط والافراط، واتضحت لهم حقيقة السر، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها: هم الاقلون. ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والاخلاق الإلهية: كالعلم، والبر، والاحسان، واللطف. وافاضة الخير والرحمة على الخلق، وارشادهم إلى الحق... إلى غير ذلك من الصفات الإلهية، ولذا قيل: تخلقوا باخلاق الله. ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد إلى الله، ويصيره مناسباً له وأما العلية والمعلولية فالأمر فيه ظاهر، وباقي الأسباب أسباب ضعيفة نادرة، اعتبارها في حق الله نقص.

وقد ظهر مما ذكر: أن أسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً، وفي أعلى الدرجات لا أدناها، ثم كل من يحب أحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته اياه في السبب. والشركة نقصان في الحب، لا يتصف احد بوصف محبوب إلا ويوجد شريك له فيه، والله سبحانه هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال، لا وجوداً ولا امكاناً، فلا جرم لا يكون في حبه شركة، فلا يتطرق إليه نقصان، كما لا تتطرق الشركة والنقصان إلى

(١) الإسراء، الآية: ٨٥

(٢) البقرة، الآية: ٣٠

أوصاف كماله، فهو المستحق لأصل المحبة وكمالها، ولا متعلق للمحبة إلا هو، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا العارفون من أوليائه وأحبائه، كما قال سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفه بقوله: «وَأَنْتَ الَّذِي أزلت الاغيار عن قلوب أحبائك، حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك».

تكميل

(الشهود التام هو نهاية درجات العشق)

قد صرح اساطين الحكمة: (أن الأشياء المختلفة لا يمكن أن يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة، وأما الأشياء المتماثلة المتشكلة فيشتاق بعضها إلى بعض ويسر بعضها ببعض، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد).

والتوضيح: أن الجواهر البسيطة لتشاكلها وتمائلها يحن بعضها إلى بعض فيحصل بينها التآلف التام، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق، بحيث يرتفع عنها التغير والاختلاف، إذ التغير من لوازم المادية. وأما الماديات فلا يمكن أن يحصل بينها هذا التآلف والتوحد، ولو حصل بينهما تآلف وشوق، فإنما هو بتلاقى السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات، وليس يمكن أن يبلغ مثل هذه الملاقاة إلى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال. فالجواهر البسيط المودع في الإنسان - أعنى النفس الناطقة - إذا صفى عن الكدورات الطبيعية، وتطهر عن الأخبات الجسمانية، وتخلي عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية، انجذب بحكم المناسبة إلى عالم القدس، وحدث فيه شوق تام إلى أشباهه من الجواهر المجردة، ويرتفع منها إلى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي، ومطالعة جمال الخير المحض، وينمحي في أنوار تجلياته القاهرة، ويصل إلى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات، فيفيض عليه من أنواره ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على خاطر، فيحصل له من البهجة واللذة ما

يضمحل عنده كل بهجة ولذة، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيراً في حالتى التعلق بالبدن والتجرد عنه، إذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة:

امروز در آن كوش كه بينا باشى
حيران جمال آن دلارا باشى
شرمت بادا چو كودكان در شب عيد
تا چند در انتظار فردا باشى؟^(١)

نعم، الشهود التام، والابتهاج الصافي عن الشوب، يتوقف على تجردها الكلى عن البدن، فانها وإن لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة، إلا أن ملاحظتها لا تخلو عن شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلى، ولذا تشتاق أبداً إلى رفع هذا الحجاب، ويقول:

حجاب چهره جان مى شود غبار تنم
خوشا دمی که از این چهره پرده بر فکنم
چنین قفس نه سرای چو من خوش الحانى است
روم بروضة رضوان كه مرغ آن چمنم^(٢)

وهذه المحبة نهاية درجات العشق، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان،

(١) اسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة

ولتكون متلهفاً لجمال ذلك الحبيب الفتان!

أما تستحيى انك على غرار الأطفال في ليلة العيد؟!!

إلى متى تنتظر اليوم الغد؟!!

(٢) ان غبار الجسد يكون حجاباً لروحي ونقاباً!

فما أحلى اللحظة التي أطرح فيها عن وجهي هذا الستار!!

ان هكذا قفصاً لا يليق لذى تغريد بهيج مثلى!!

سأذهب إلى (روضة الرضوان)... فاني من طيور ذلك المرح والبستان!!

وذروة مقامات الواصلين، وغاية مراتب الكاملين، فما بعدها مقام إلا وهو ثمرة من ثمراتها، كالانس والرضا والتوحيد، ولا قبلها مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالصبر والزهد وسائر المقامات. وهذا العشق هو الذي افطر العرفاء وارباب الذوق في مدحه، وبالغوا في الثناء عليه نثراً ونظماً، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق، ولا كمال إلا هو، ولا سعادة إلا به، كما قيل:

عشق است هر چه هست بگفتم وگفته اند

عشقت بوصل دوست رساند بضرب دست^(١)

وقيل:

جز محبت هر چه بردم سود در محشر نداشت

دين ودانش عرض كردم كس بچيزي برنداشت^(٢)

فصل

(سريان الحب في الموجودات)

اكثر اقسام المحبة فطرية طبيعية، كمحبة المتناسبين والمتجانسين، والعلة والمعلول، ومحبة الجمال وغير ذلك، والارادى الكسبى منها قليل، كمحبة المتعلم للمعلم، وربما أمكن ارجاعه ايضاً إلى الطبيعى. وإذا كان الحب طبيعياً، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون ايضاً طبيعياً، فيكون لذلك افضل من العدالة التي تقتضى الاتحاد الصناعى. ثم مع وجود المحبة لا حاجة إلى العدالة، إذ هي فرع الكثرة المحوجة إلى الاتحاد القشرى، فمع وجود الاتحاد الطبيعى لا يقع الاحتياج اليه،

(١) كل ما يكون هو العشق - كما قالوا وقلنا - ...

فعشقتك يوصلك إلى الحبيب بالجهد والشاطرة!!

(٢) سوى الحب لم يفد في الحشر مما صحبته!!

عرضت الدين والعلم فلم يعرفهما احد اهتماماً!!!!

وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وانتظامها بالمحبة، والمحبة الفطرية ثابتة بينها، وليس شيء من الموجودات خالياً عنها، كما أنه ليس شيء منها خالياً عن الوجود والوحدة، وقد صرحوا بأنه كل الوحدة، فهو سار في جميع الكائنات: من الافلاك والعناصر والمركبات، إذ الحب والشوق إلى التشبه بالفاعل رقص الافلاك، وأدار رحاها، (بسم الله مجراها ومرساها)، والحب هو سبب ميل العناصر إلى اجسادها الطبيعية، وميل المركبات بعضها إلى بعض:

سرّ حب ازلى بر همه اشيا ساريست ورنه بر گل نردى بلبل بيدل فرياد^(١)
ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال، وضدها موجباً للفساد والاختلال، ولكل منهما مراتب ودرجات، فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان. والمتأخرون خصصوا الحب بذوى العقول، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر إلى مراكزها، وميل المركبات بعضها إلى بعض، كميل الحديد إلى المغناطيس، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها، كمنافرة الحجر الباغض الحل من الحل، بل يسمونها بالميل والهرب، وكذا الموافقة والمعاداة اللتين بين العُجم من الحيوانات، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض، بل يسمونها بالآلف والنفرة.

فصل

(رد المنكرين لحب الله)

قد ظهر مما ذكر: ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله تعالى، وأنه المستحق للحب دون غيره، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكر امكان حصول

(١) ان (سر الحب الازلى) لسار في جميع الموجودات!

والإلام تغرد البلبل على الأزهار والأوراد!!

محبة العبد لله تعالى وقال: (لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله، وأما حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثل).

ولما انكروا المحبة، انكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه، ويدل على فساد هذا القول - مضافاً إلى ما ذكر - اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضاً، وما ورد في الآيات والأخبار والآثار من الأمر به والمدح عليه، واتصاف الأنبياء والأولياء به، وحكايات المحبين، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حداً لا يقبل الكذب والتأويل، فمن شواهد القرآن قوله تعالى:

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١). وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ...﴾ إلى قوله -: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ إلى آخر الآية^(٣).

وأما الأخبار الواردة والآثار، فقد قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». وقال ﷺ: «الحب من شروط الايمان». وقال ﷺ: «احبوا الله لما يغدوكم به من نعمة، احبوني لحب الله». وقد نظر ﷺ إلى بعض اصحابه مقبلاً وعليه إهاب كبش، فقال ﷺ: «انظروا إلى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه، لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حب الله وحب رسوله إلى ما ترون». وقال ﷺ في دعائه: «اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد». وفي الخبر المشهور: «أن ابراهيم عليه السلام قال لملك الموت، إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى اليه: هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت! الآن فاقبض». وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا ابن عمران! كذب من زعم

(١) المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) البقرة، الآية: ١٦٥.

(٣) التوبة، الآية: ٢٤.

أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على احبائي، إذا جنهم الليل حولت ابصارهم إلى من قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين اعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران! هب لي من قلبك الخشوع، ومن بدنك الخضوع، ومن عينك الدموع في ظلم الليل، فإنك تجدني قريباً». وروى: «أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت ابدانهم وتغيرت ألوانهم، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار، فقال: حقّ على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً، فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة أخرى، فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيراً، كأن على وجوههم المرايا من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حب الله عز وجل، فقال: انتم المقربون». وفي بعض الروايات: «أنه عليه السلام قال للطائفتين الأوليين: مخلوقاً خفتم، ومخلوقاً رجوتم. وقال للطائفة الثالثة: أنتم اولياء الله حقاً، معكم أمّرت ان اقيم». وقال رسول الله ﷺ: «إن شعيباً عليه السلام بكى من حب الله عز وجل حتى عمى، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمى، فردّ الله عليه بصره، فلما كانت الرابعة أوحى الله اليه: يا شعيب! إلى متى يكون هذا أبداً منك، إن يكن هذا خوفاً من النار فقد اجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد ابحتك. فقال: إلهي وسيدي! أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك، ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي، فلست أصبر أو أراك. فأوحى الله: أما إذا كان هذا هكذا سأخدمك كليماً موسى بن عمران». وروى: «أنه جاء اعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! متى الساعة؟ فقال ﷺ: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، فقال له النبي: المرء مع من احب». وفي أخبار داود: «قل لعبادي المتوجهين إلى محبتي: ما ضرركم إذا احتجبتكم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم، وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذ

بسطت ديني لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذ التستم رضاي». وفيها ايضاً: «يا داود! انك ترعم انك تحبني، فإن كنت تحبني فاخرج حب الدنيا عن قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب». وقال أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «فهبني يا إلهي وسيدى ومولاي وربى صبرت على عذابك، فكيف اصبر على فراقك». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى شرباً لأوليائه، إذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طربوا، وإذا طربوا طابوا، وإذا طابوا ذابوا، وإذا ذابوا خلصوا، وإذا خلصوا طلبوا، وإذا طلبوا وجدوا، وإذا وجدوا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، وإذا اتصلوا لافرق بينهم وبين حبيهم»^(١). وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة: «أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب احبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك». وقال عليه السلام: «يا من أذاق احبائه حلاوة الموانسة فقاموا بين يديه متملقين». وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى سيد الساجدين عليه السلام: «وعزتك! لقد أحبيتك محبة استقرت في قلبي حلوتها، وانست نفسي بشارتها، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدى محبتك». وفي مناجاته الأخرى: «إلهي فاجعلنا من الذين توسحت اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»... ثم قال: «والحقنا بعبادك الذين هم بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، واياك في الليل والنهار يعبدون، وهم من هيبتك مشفقون، الذين صفيت لهم المشارب، وبلغتهم الرغائب، وانجحت لهم المطالب، وقضيت لهم من وصلك المآرب، وملأت لهم ضمائرهم من حبك، ورويتهم صافي شرابك، فبك إلى لذيد مناجاتك وصلوا، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا»... ثم قال: «فقد انقطعت اليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتى، فأنت لا غيرك مرادى، ولك لا سواك سهري وسهادى، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك منى نفسي، واليك شوقى، وفي محبتك

(١) لم نعثر على مصدر لهذه الرواية في كتب اصحابنا الامامية - رضوان الله عليهم -.

ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحى وراحتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي... ثم قال: «ولا تقطعني عنك، ولا تباعدني منك، يا نعيمى وجنتى! ويا دنيأى وآخرتى!». وقال ﷺ أيضاً: «إلهى! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا، إلهى! فاجعلنى ممن اصطفيته لقربك وولايته، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقاءك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرك»... ثم قال: «وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك»... ثم قال: «ألهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح اليك والحنين، ودهرهم الزفرة والأنين، وجباههم ساجدة لعظمتك، وعيونهم ساهرة في خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك» وقلوبهم معلقة بمحبتك، وافئدتهم منخلعة من مهابتك، يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة، وسبحات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة! يا منى قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين! أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل إلى قربك، وأن تجعلك أحب إلي ممن سواك». وقال ﷺ أيضاً: «إلهى! ما ألد خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير اليك في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك». وقال ﷺ أيضاً: «وغلتي لا يبردها إلا وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلا لقاءك، وشوقى اليك لا يبله إلا النظر إلى وجهك، وقرارى لا يقر دون دنوى منك، ولهفتى لا يردها إلا روحك، وسقمى لا يشفيه إلا طبك، وغمى لا يزيله إلا قربك، وجرحى لا يبرؤه إلا صفحك، ورين قلبى لا يجلوه إلا عفوك، ووسواس صدرى لا يزيحه إلا أمرك»^(١). وقال الصادق ﷺ: «حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى

(١) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الأخرى على (البحار): باب ادعية المناجاة: مج ١٩ / ١٠٧

الله، والمحب أخلص الناس سرّاً لله، وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفتخر برؤيته، وبه يعمر الله بلاده، وبكرامته يكرم الله عباده، ويعطيهم إذا سألوه بحقه، ويدفع عنهم البلايا برحمته، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا إلى الله إلا بتراب قدميه». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «حب الله نار لا يمر على شيء إلا احترق، ونور الله لا يطلع على شيء إلا اضاء، وسماء الله ما ظهر من تحته شيء إلا غطاه، وريح الله ما تهب في شيء إلا حركته، وماء الله يحيى به كل شيء، وأرض الله ينبت منها كل شيء، فمن أحب الله أعطاه كل شيء من الملك والمملك». وقال النبي صلى الله عليه وآله: «إذا أحب الله عبداً من امتي قذف في قلوب اصفياه وأرواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليجوه، فذلك المحب حقاً، طوبى له ثم طوبى له! وله عند الله شفاعة يوم القيامة»^(١)، إلى هنا كلام الصادق عليه السلام وما ورد في الحب من الأخبار والأدعية المعصومية أكثر من أن يحصى، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حداً يمكن انكاره، وقد روى: «أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبته، فقال له: ائت جبل لبنان، فإن فيه أربعة عشر نفساً، فيهم شبان وكهول ومشايخ، وإذا أتيتهم فاقراهم منى السلام، وقل لهم: يقول ربكم: ألا تسألونى حاجة، فانكم أحبائى وأصفياى وأوليائى، أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم. فاتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون، يتفكرون في عظمة الله وملكوته، فلما نظروا إلى داود، نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال لهم داود: أنا رسول الله اليكم، جئكم لأبلغكم رسالة ربكم. فاقبلوا نحوه، والقوا أسمعهم نحو قوله، والقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم: ألا تسألونى حاجة، ألا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنكم أحبائى وأصفياى وأوليائى، أفرح لفرحكم وأسارع إلى

(١) صححنا الاحاديث الثلاثة على (مصباح الشريعة) - الباب السابع والتسعون، ص ١٩٣ -.

محببتكم، وانظر اليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرقيقة. ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق».

فصل

(معرفة الله اقوى سائر اللذات)

قد عرفت أن الحب هو الميل إلى الشيء الملذ الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله، واللذة هي نفس ادراك الملائم الملذ ونيله، وهذا الادراك إن كان متعلقاً بالقوة العاقلة - أى ان كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة، وقد عرفت أنه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية، التي هي الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس.

ثم هذا الادراك - أعنى العلم والمعرفة - يختلف أيضاً في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك، أى المعلوم، فكلما كان المدرك أجل وأشرف كان الادراك - أى المعرفة به - أجل وأعلى. ولا ريب في أن الواجب سبحانه أشرف الموجودات وأجلها، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها، ويثبت من ذلك: أن أجّل اللذات واعلاها هو معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم، ولا يتصور أن يؤثر عليها لذة اخرى إلا من حرم هذه اللذة. وبيان ذلك بوجه أوضح: أن اللذات تابعة للادراكات، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز، ولكل قوة وغريزة لذة، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذي خلقت له، فغريزة الغضب لما خلقت للشفى والانتقام، فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام، فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والابصار والاستشمام، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنية خلقت لتعلم بها حقائق الأشياء كلها، فلذتها في العلم والمعرفة، والعلم لكونه منتهى الكمال وأخص

صفات الربوبية، يكون اقوى اللذات والابتهاجات، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه، فيعجب بنفسه، ويلتذ به.

والتحقيق: أن الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس إلا العلم، وسائر الادراكات - اعني نيل الغلبة والغذاء والاسماع والايصار والاستشمام - لا تعد كمالات، ثم ليست لذة كل حلو واحدة، فإن لذة العلم بالحرارة والخياطة والحياسة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمور الخلق، ولا لذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والأرض، بل لذة العلم بقدر شرف العلم، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم، فإن كان في المعلومات ما هو الأشرف والأجل والأعظم والأكمل، فالعلم به ألد العلوم وأشرفها وأكملها وأطيبها، وليت شعري هل في الوجود شيء أعلى وأجمل وأشرف وأكمل من خالق الأشياء كلها وقيومها، ومكملها ومربيها، ومبدئها ومعيدها، ومدبرها ومرتبها، وهل يتصور أن يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية، فان كنت لا تشك في ذلك، فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به اقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة العظيمة وغريزة المعرفة، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة، كمخالفة لذة الشبق المغتلم^(١) من الجماع، ولذة الفاتر الشهوة منه، ومخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل ولذة النظر إلى الوجه الأجمل، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات، وإنما يعرف اقوى اللذتين من اضعفهما، بأن يؤثر عليه، فان المخير بين النظر إلى صورة جميلة وبين

(١) الغلظة - وزان غرفة - : شدة الشهوة. وغلم غلماً: من باب تعب، إذا اشتد شبقه. المغتلم: المنقاد للشهوة.

استنشاق روائح طيبة، إذا اختار الأول كان عنده ألد من الثاني، والمخير بين الأكل واللعب بالشطرنج، إذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات.

وحينئذ نقول: لا ريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء، فإن كان عالى الهمة كامل العقل، اختار الرئاسة وترك الأكل، وصبر على الجوع أياماً كثيرة فضلاً عن مدة قليلة، نعم، إن كان خسيس الهمة ميت القلب، ناقص العقل والبصيرة، كالصبي والمعتوه، ربما اختار لذة الأكل، وفعل مثله ليس حجة. ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة أغلب وأرجح من اللذات الحسية عند من جاوز نقصان الصبي والسفاهة، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية الذ عنده من لذة الرئاسة، بشرط أن يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلاً للترجيح ومحلاً للكلام، لاختصاص لذة المعرفة ممن نال رتبته وذاقها، ولا يمكن اثبات ذلك عند من ليس له قلب، كما لا تثبت لذة الابصار عند الأعمى، ولذة الاستماع عند الأصم، ولذة الوقاع عند العنين، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه، وليت شعري من لا يفهم إلاحب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر إلى وجه الله تعالى، وليس له شبه وشكل وصورة، فحقيقة الحال كما قيل: (من ذاق عرف)، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعاً، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت، ويختار لذة المعرفة بالله، ومطالعة صفاته وأفعاله، ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل السافلين، فإنها خالية عن الانقطاع والمكدرات، متسعة للمتواردين عليها، لا تضيق بكثرتهم دائماً، وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والأرض، ومن حيث الواقع ونفس الأمر فلانهاية لعرضها، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية

الأطراف والأقطار، يرتع في رياضها، ويكرع^(١) في حياضها، ويقطع من أثمارها، وهو آمن من انقطاعها، إذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت، إذ الموت لا يهدم النفس الناطقة التي هي محل المعرفة، وإنما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها، فإذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض، بل أقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية، ميدان للعارفين، يتنبؤون منها حيث يشاؤون، من غير حاجة إلى حركة اجسامهم، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً، إلا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الأنظار وسعة المعارف:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾^(٢).

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم، ومن عرف هذه اللذة انمحت همومه وشهواته، وصار قلبه مستغرقاً بنعيمها، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها، وكان في الدنيا والآخرة مشغولاً بربه، فلو ألقى في النار لم يحسّ به لاستغراقه، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية، ولعل سيد الرسل ﷺ عبر عن هذه اللذة - أى لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكياً عن الله سبحانه: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذه اللذة هي المرادة من قوله تعالى:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٣).

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء، قلبه إلى الغاية، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول إلى كنهها، ما لم يحصل التجرد

(١) كرع - من باب نفع - هو الشرب بفيه من موضعه.

(٢) الأنعام، الآية: ١٣٢، الأحقاف، الآية: ١٩.

(٣) السجدة، الآية: ١٧.

الكلى وخلع البدن العنصرى، ولذلك قال بعضهم: إننى أقول: «يا رب يا الله! فأجد ذلك أثقل على قلبى من الجبال، لأن النداء يكون من وراء حجاب، وهل رأيت جليساً ينادى جليسه»، ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة، عرف أن اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منطوية تحت هذه اللذة، كما قيل:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين اهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائى
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا دينى ودنيائى

فصل

(تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه)

اعلم أن معرفة الله إذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما - كما اشير إليه - إلا أنه إذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية، إلى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب، فالاختلاف بين ما يحصل في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء إنما هو بزيادة الانكشاف والجلاء.

مثال ذلك: أن من رأى انسانا، ثم غض بصره، وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر، ادرك تفرقة بين حالتي غض العين وفتحها، ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين، لا تحادهما، بل الافتراق إنما هو بمزيد الكشف والوضوح، فالصورة المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافا، فإذا الخيال أول الادراك، والرؤية استكمال لادراك الخيال، وهي غاية الكشف، لأنها في العين، بل لو خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى في الصدر أو الجبهة أو أى عضو فرض، استحق أن يسمى رؤية. وإذا فهمت هذا في المتخيلات - أى المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والأجسام - فقس عليه الحال في المعلومات - أى

ما يدرك بالعقل -، ولا يدخل في الخيال كذات الباري، وكل ما ليس بجسم، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها، فإن لمعرفتها وادراكها أيضاً درجتين: احدهما: أولى، والثانية: استكمال لها، وبينهما من التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي، فتسمى الثانية بالاضافة إلى الأولى لقاء ومشاهدة ورؤية، وهذه التسمية حق، لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات، فكذلك ستنه أن النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته، لم يحصل لها تمام الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجية عن الخيال، فإذا ارتفع بالموت حجاب البدن، وخلصت النفس، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا، بل كانت ملوثة بها، إلا أن النفوس مختلفة في ذلك: فمنها: ما تراكم عليه الخبث والبصدي، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم ابد الآباد، نعوذ بالله من ذلك، ومنها: ما لم ينته إلى حد الرين والطبع، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب، إذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع، وبين التزكية التامة والتجرد الكلى الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات، وهذه النفوس المتلثة على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج إلى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلى الحق فيها، وتطهيرها إنما هو بنوع عقوبة من العقوبات الأخروية، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات، أولها سكرة الموت، وآخرها الدخول في النار، وما بينهما عقوبات البرزخ واهوال القيامة بانواعها، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها: فمنها: ما يتطهر بمجرد سكرة الموت وشدة النزاع، ومنها: ما يتطهر بها، وينقص عقوبات البرزخ، ومنها: ما لا يتطهر إلا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة، ومنها ما لا يحصل تطهيره إلا بالعرض على النار عرضاً يجمع منها الخبث الذي تدنست به، فربما كان

ذلك لحظة حقيقة، وربما كان سبعة آلاف سنة - كما وردت به الأخبار - وربما كان اقل أو أكثر، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا الله سبحانه والمحجوبون الذين بلغوا حدَّ الرين والطبع يكونون مخلدين في النار.

ثم النفوس القابلة للتطهير إذا اكمل الله تطهيرها وتركيتها، وبلغ الكتاب أجله، استعدت حينئذ لصفائها ونقاؤها عن الكدورات لأن تتجلى فيها جليلة الحق، فتتجلى فيها تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما علمته وعرفته كانكشاف تجلى المراتب بالإضافة إلى المتخيلات، وهذه المشاهدة والتجلى تسمى رؤية، لأنه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤية بالبصر، بل هو فوقه بمراتب شتى، إذ الرائي في الأول العقل، وفي الثاني البصر، وشتان ما بينهما، فإن الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك، وأى نسبة لنورية البصر إلى نورية العقل واشراقه، وما للعقل من النفوذ في حقائق الأشياء وبواطنها أنى يكون للبصر.

وقد ظهر مما ذكر: أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة إلا العارفون في الدنيا، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً، ومن لا نواة له كيف يحصل له النخل، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى، إذ لا يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا، فلا يحصد المرء إلا ما زرع، ولا يحشر إلا على ما مات عليه، ولا يموت إلا على ما عاش عليه.

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة، يكون التجلى أيضاً على درجات متفاوتة، فاختلاف التجلى بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذور إذ يختلف لا محالة: بكثرتها، وقلتها، وجودتها، ورداءتها، وضعفها. ثم كلما كان التجلى والمشاهدة أقوى، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى، وكلما كان الحب والانس أزيد، كان ما يترتب عليه من البهجة

واللذة أعلى وأقوى، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تأثر عليها لذة أخرى من نعيم الجنة، بل ربما بلغت حدًا تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله، وحب الله بقدر معرفته، فاصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ (الايمان).

فإن قيل: اللقاء والمشاهدة إن كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة، وإن كانت أضعاف لذة المعرفة، إذ هي في الدنيا ضعيفة، فتضاعفها إلى أي حد فرض لا ينتهي في القوة، إلا أن يستحق في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها.

قلنا: هذا الاستحقاق والتقليل للذة المعرفة باعته عدم المعرفة أو ضعفها، فإن من خلا عن المعرفة، أو كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا، لا يدرك لذتها، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته، قويت بهجته واشتدت لذته بحيث لا توازنها لذة، فإن للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلًا عنها لم يستبدلوها بها، ثم هذه اللذة مع كمالها لا نسبة لها أصلًا إلى لذة اللقاء والمشاهدة، كما لا نسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته، ولا للذة استنشاق روائح الأطعمة الطيبة إلى ذوقها وأكلها، ولا للذة اللمس باليد إلى لذة الوقاع.

ومما يوضح ذلك، أن لذة النظر إلى وجه المعشوق تتفاوت بأمور:

أحدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه.

وثانيها - كمال قوة الحب والشهوة وضعفه.

وثالثها - كمال الإدراك وضعفه، فإن الإلتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة، أو من

بعد، أو من وراء، ستر رقيق ليس كالإلتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء.

ورابعها - عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها، فإن التذاذ

الصحيح الفارغ المتجرد للنظر إلى المعشوق ليس كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألم، أو المشغول قلبه بمهم من المهمات، فلو كان العاشق ضعيف الحب، ناظراً إلى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق، مشغول القلب بمهمات، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدعه، لم يكن خالياً عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه، إلا أنه إذا فرض ارتفاع الستر واشراق الضوء، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية، وفراغ قلبه من المهمات، وحدوث عشق مفرط، وشهوة قوية، بحيث بلغت أقصى الغايات، تضاعفت لذته، بحيث لم تكن للذته الأولى نسبة إليها بوجه، فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال بمهمات، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها: من الجوع، والعطش والشبق، والغضب، والحزن، والهم، ومع ضعف النفس وقصورها ونقصانها في الدنيا عن التشوق إلى الملأ الأعلى، لالتفاتها إلى أسفل السافلين إلى لذة اللقاء والمشاركة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وإن قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته، وإن ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الأحوال وبقي سالماً، لاح له من جمال المعرفة ما تعظم لذته وبهجته ويدهش عقله، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته، إلا أن ذلك كالبرق الخاطف، ولا يمكن أن يدوم، إذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن أن يدوم، بل هو آنئ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية، فلا تزال هذه اللذة منقصة إلى الموت، وإنما الحياة الطيبة بعده، وإنما العيش عيش الآخرة، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه، إلا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة، فإن المعرفة - كما عرفت - بمنزلة البذر، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته، قويت المشاهدة واشتدت، وكثر النعيم في الآخرة وعظم، كما أنه كلما كثر

البذر وحسن كثر الزرع وحسن. ولا ريب في أن المعرفة لا تنتهى إلى مرتبة لا تكون فوقها مرتبة، إذ بحر المعرفة لا ساحل له، والاحاطة بكنهه جلال الله محال، فالعارف وإن قويت معرفته، ربما أحب طول العمر، وكره الموت لتزداد معرفته.

ثم أهل السنة قالوا: «إن الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصور والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان: تكون بالعين دون القلب»: (وهو عندنا باطل): إذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر، فكذلك لا تجوز في الآخرة، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعنى غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد، فإن العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع احوالهم ومنصرفاتهم، وإن كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافاً وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلاً -، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة، روى شيخنا الأقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن على بن بابويه) عليهما السلام باسنادهما الصحيح عن الصادق عليه السلام: «أنه سئل عما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحاب». وباسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال: «كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس، فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئى هواء ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئى لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه، لأن الرائي متى ساوى المرئى في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب

الاشتباه وكان ذلك التشبيه، لأن الأسباب لا بد من اتصالها بالمسببات، وعن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: «قلت له: أخبرني عن الله عز وجل هل يراه المؤمنون يوم القيامة؟ قال: نعم! وقد رأوه قبل يوم القيامة. فقلت: متى؟ قال: حين قال لهم: ألسنت بربكم، قالوا: بلى... ثم سكت ساعة، ثم قال: وإن المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة، ألسنت تراه في وقتك هذا؟ قال أبو بصير: فقلت له: جعلت فداك! فحدث بهذا عنك؟ فقال: لا! فإنك إذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله، ثم قدر أن ذلك تشبيه كفر، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون». وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: «هل رأيت ربك حين عبدته؟ فقال: ويلك! ما كنت أعبد رباً لم أره. قيل: وكيف رأيت؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان»^(١). وقال سيد الشهداء عليه السلام: «كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك نصيباً»، وقال عليه السلام أيضاً: «تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء»، وقال: «وأنت الذي تعرفت إلى كل شيء، فرأيتك ظاهراً في كل شيء، وأنت الظاهر لكل شيء»^(٢). وأمثال ذلك مما ورد عنهم عليه السلام أكثر من أن تحصى.

(١) صححنا الأحاديث كلها على (أصول الكافي): الجزء الأول، باب إبطال الرؤية. وعلى (الوافي): ١/ ٦٩.

باب إبطال الرؤية.

(٢) صححنا فقرات دعاء عرفة على (مفاتيح الجنان): ص ٢٧٢ - ٢٧٤، طبعة الكراوى.

فصل

(الطريق إلى الرؤية واللقاء)

الطريق إلى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران:
 احدهما - تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها، والتبذل إلى الله بالذكر والفكر، ثم اخراج حب غير الله من القلب، إذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء -
 مثلاً - ما لم يخرج منه الخل. وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه، وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه، وما دام يلتفت إلى غيره، فزاوية من قلبه مشغولة بغيره،
 وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله، إلا أن يكون إلتفاتة إلى الغير من حيث إنه صنع الله تعالى وفعله، ومظهر من مظاهر اسماء الله تعالى، وإلى هذا التجريد والتفريد الاشارة بقوله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾^(١).

وثانيهما - تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب،
 والأول، اعنى قطع العلائق، بمنزلة تنقية الأرض من الحشائش، والثاني، أى المعرفة،
 بمنزلة البذر فيها، ليتولد منه شجر المحبة.
 ثم لتحصيل المعرفة طريقان:

احدهما - الأعلى، وهو الاستدلال بالحق على الخلق، وذلك بأن يعرف الله بالله، وبه يعرف غيره، أى افعاله وآثاره. وإلى هذا اشير في الكتاب الألهى بقوله:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢).

وهذا الطريق غامض، وفهمه صعب على الأكثرين. وقد اشرنا إلى كيفيته في بعض كتبنا الإلهيات.

(١) الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) فصلت، الآية: ٥٣.

وثانيهما - وهو الأدنى، الاستدلال بالخلق على الحق سبحانه، وهذا الطريق في غاية الوضوح، وأكثر الافهام يتمكن من سلوكه، وهو متسع الاطراف، ومتكثر الشعوب والاكناف، إذ ما من ذرة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات وغرائب بينات، تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته، وذلك مما لا يتناهى.

﴿قُلْ لَّوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾^(١).

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق إلى معرفة الله مع وضوحه، إنما هو للاعراض عن التفكير والتدبر والاشتغال بشهوات الدنيا وحظوظ النفس. ثم سلوك هذا الطريق، أى الاستدلال على الله تعالى وعلى كمال قدرته وعظمته، لتفكير في الآيات الأفاقية والأنفسية، خوض في بحار لا ساحل لها، إذ عجائب ملكوت السماوات والأرض مما لا يمكن أن تحيط به الأفهام، فإن القدر الذي تبلغه افهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضى الاعمار دون ايضاحه، ولا نسبة لما احاط به علمنا إلى ما احاط به علم العلماء، ولا نسبة له إلى ما احاط به علم الأنبياء، ولا نسبة له إلى ما احاط به الخلائق كلهم، ولا نسبة له إلى ما استأثر الله بعلمه، بل كلما عرفه الخلائق جميعاً لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله، ونحن قد اشرنا إلى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكير.

(١) الكهف، الآية: ١٠٩.

فصل

(تفاوت المؤمنين في محبة الله)

اعلم أن المؤمنين جميعاً مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في أصل الايمان، ولكنهم متفاوتون في قدرها، وسبب تفاوتهم امران:

احدهما - اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا، فإن أكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلا ما قرع اسماعهم من كونه متصفاً بصفات كذا وكذا، من دون وصول إلى حقيقة معناها، وإلى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها. وأما العارفون: فلهم الخوض في بحر التفكير والتدبر في انواع المخلوقات، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية، والمصالح العجيبة، التي كل واحد منها كمشعلة في ازالة ظلمة الجهل، والهداية إلى كمال عظمة الله، ونهاية جلاله وكبريائه، فمثل الأكثرين كمثل عامي أحب عالماً بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف، من دون علم ودراية بما في تصانيفه، فتكون له معرفة مجملة، ويكون له بحسنه ميل مجمل، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه، واطلع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات. ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه، فمن عرف ذلك مجملاً تكون له بحسبه محبة مجملة، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب، وكلما ازدادت معرفته بوجوه الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه، فمن اعتقد أن ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة إنما هو بالهام الله تعالى اياها، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الأشكال، لا يكون في معرفة الله وادراك عظمتة وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه. ثم كما أن دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية، ولا يمكن لأحد أن يحيط بها، وإنما ينتهي كل إلى ما يستعده، فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضاً غير متناهية، وكل عبد ينتهي إلى مرتبة تقتضيها معرفته.

وثانيهما - اختلافهم في الأسباب المذكورة للحب، فان من يحب الله لكونه منعماً عليه ومحسناً اليه، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان، ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرجاء والنعماء. وأما من يحبه لذاته، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه.

فصل

(الواجب اظهر الموجودات)

عجباً لأقوام عميت قلوبهم عن معرفة الله سبحانه مع أن الله تعالى أظهر الموجودات وأجلاها، لأن البديهة العقلية قاضية بأنه يجب أن يكون في الوجود موجود قائم بذاته، أي ما هو صرف الوجود، ولولاه لم يتحقق موجود أصلاً، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر وأجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية، قال الله سبحانه:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره، ومبدأ الادراك من المدرك إنما هو الوجود، فكلما ادركته إنما تدرك أولاً وجوده، وإن لم تشعر بذلك. ولا ريب في أن الظاهر لنفسه أظهر من الظاهر بغيره، وأيضاً كل موجود سوى الله سبحانه يعلم وجوده بقليل من الآثار، فان وجود الحياة لزيد - مثلاً - لا يدل عليه إلا حركته وتكلمه وبعض آخر من اعراض نفسه، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات، وكذا وجود السماء - مثلاً - لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها.

وأما وجود الواجب تعالى فيدل عليه كل شيء، إذ ليس في الوجود مدرك

محسوس أو معقول، وحاضر أو غائب، إلا وهو شاهد ومعرف لوجوده، فالسبب في خفائه مع كونه أجلى وأظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره، فإن شدة ظهور الشيء قد يكون سبباً لخفائه، لأنه يكل المدارك ويحسرها، فشدة ظهوره سبحانه بلغت حداً بهرت العقول وادهشتها، فضعفت عن ادراكه. وهذا كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش، فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرق، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج بالضوء الظلام وضعف ظهوره، فكذلك عقولنا ضعيفة، وجمال الحضرة الألهمية في نهاية الاشراق والاستنارة، وفي غاية الاستغراق والشمول، حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السماوات والأرض، فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب باشراق نوره، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره! ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره، فإن الأشياء إنما تستبان باضدادها، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه، فلو اختلفت الأشياء، فدل بعضها على الله تعالى دون بعض، ادركت التفرقة على قرب، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد، اشكل الأمران، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض، فإننا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض، ويزول عند غيبة الشمس، فلو كانت الشمس دائمة الاشراق لا غروب لها، لكنا نظن أن لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها، وهي السواد والبياض وغيرهما، وأما الضوء فلا تدركه وحده، لكن لما غابت الشمس واطلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين، فعلمنا أن الاجسام قد استضاءت بضوء فارقتها عند الغروب، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في النور والظلام. هذا مع أن النور أظهر المحسوسات، إذ به تدرك سائر المحسوسات، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره بسبب ظهوره لولا طريان ضده، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر الأشياء، وبه

ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير، لانهدت السماوات والأرض، وبطل الملك والملكوت، وادركت التفرقة بين الحالتين، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به، وبعضها موجوداً بغيره، لأدركت التفرقة بين الشئيين في الدلالة، ولكن دلالة عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل:

خفى لافراط الظهور تعرضت لادراكه أبصار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لم تحط به الأوهام، بل تجلى لها بها، وبها امتنع منها». وقال عليه السلام: «ظاهر في غيب، وغائب في ظهور». وقال عليه السلام: «لا تجنه البطون عن الظهور، ولا تقطعه الظهور عن البطون، قرب فناء، وعلا فدنا، وظهر فبطن، وبطن فعلى، ودان ولم يدن»: أى ظهر وغلب، ولم يغلب، ومن هناك قيل: «عرفت الله بجمعه بين الأضداد».

فصل

(علائم محبة الله)

محبة العبد لله سبحانه له علامات:

الأولى - أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام، ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه، إذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه ووصله، وإذا علم أنه يمتنع الوصول إليه إلا بالارتحال من الدنيا بالموت لأحب الموت لا محالة، وكيف يثقل على المحب أن يسافر من وطنه إلى مستقر محبوبه ليتنعم بمشاهدته، ولذا قال (حذيفة) عند موته: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم». قال بعض الأكابر: «لا يكره الموت إلا مريب، لأن الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال».

ثم من يكره الموت، فإن كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل

والأولاد والأموال، وكان حبه لل دنیا وتأسفه على مفارقتها في غاية الكمال بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلاً بما يترتب عليه من لقاء الله تعالى، ولم يجد في قلبه شوقاً إليه مطلقاً، فلا ريب في كون مثل هذه الكراهة منافياً لأصل الحب، ولو لم يكن حبه لل دنیا في غاية الكمال، بحيث لم يجد في قلبه ميلاً إلى ما يترتب على الموت من لقاء الله، بل كان محباً لل دنیا، إلا أنه كان له شوق إلى لقاء الله تعالى أيضاً، أو كان لذلك كراهته للموت ضعيفة، فمثل هذا الحب لل دنیا ينافي كمال حب الله، لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب، ولا يبعد أن تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله، فإن الناس متفاوتون في حب الله، فمنهم من يحبه بكل قلبه، ومنهم من لا يحبه بكل قلبه، بل يحب معه غيره أيضاً من الأهل والولد والمال، فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكراهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها، وإن كانت كراهته للموت لأجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل، لا لحب الأهل والمال، ولا للتأسف على فراق الدنيا، فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي أصله، وهو كالمحب الذي وصل إليه خبر قدوم حبيبه، فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيئ أسبابها، ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل، وعلامة ذلك: الجِد في العمل، واستغراق الهم في تحصيل المعرفة، والاستعداد للآخرة.

الثانية - أن يؤثر مراد الله سبحانه على مراده، إذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه، كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجرى فاترك ما أريد لما يريد

فمن كان محباً لله: يمثّل أوامره ويجتنب نواهيه، ويحترز عن اتباع الشهوات، ويدع الكسالة والبطالة، ولا يزال مواظباً على طاعته وانقياده، ويكون مبتهجاً متنعماً بالطاعة ولا يشغلها، ويسقط عنها تعبها. وقد روى: «أن زليخا لما آمنت، وتزوج بها يوسف عليه السلام، انفردت عنه، وتخلت للعبادة، وانقطعت إلى الله تعالى، وكان يوسف

يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، وإذا دعاها ليلاً سوفت إلى النهار، فعاتبها في ذلك، فقالت: يا رسول الله! إنما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك، فأما إذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه، وما أريد به بدلاً». ثم الحق أن العصيان يضاد كمال المحبة لأصلها، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه، ويحب صحته، والسبب ضعف المعرفة، وغلبة الشهوة، فيعجز عن القيام بحق المحبة.

الثالثة - ألا يغفل عن ذكر الله سبحانه، بل يكون دائماً مستهتراً بذكره، إذ من أحب شيئاً أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به، فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته، لأنه كلامه، ويكون محباً للخلوة ليتفرد بذكره وبمناجاته، ويكون له كمال الأنس والإلتذاذ بمناجاته، وفي اخبار داود: «كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام غنى، أليس كل محب يحب لقاء حبيبه، فهذا أنا ذا موجود لمن طلبني».

الرابعة - ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء، ولا يفرح بوجود شيء، سوى ما يقربه إلى الله أو يبعده عنه، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في المصائب، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية، ولا يتأسف على ما يفوته إلا على ما فات منه من طاعة مقربة إلى محبوبه، أو على صدور معصية مبعدة، أو على ساعة خلت عن ذكر الله والانس به.

الخامسة - أن يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله، رحيماً على أوليائه وشديداً على اعداء الله، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه، إذ مقتضى الحب الشفقة والمحبة لأحباء المحبوب والمنسويين إليه، والبغض لأعدائه ومخالفيه.

السادسة - أن يكون في حبه خائفاً متذللاً تحت سلطان العظمة والجلال، وليس الخوف مضاداً للحب، كما ظن، إذ ادراك العظمة يوجب الهيبة، وادراك الجمال يوجب الحب، ولخصوص المحبين خوف الاعراض، وخوف الحجاب، وخوف الابعاد، وخوف الوقوف، وسلب المزيد. وقال بعض العرفاء: «من عبد الله بمحض

المحبة من غير خوف هلك بالبسط والادلال، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش، ومن عبده من طريقهما أحبه الله، فقربه ومكثه وعلمه».

السابعة - كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب الدعوى، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له، وهيبة منه وغيرة على سره، فإن الحب سر من اسرار المحبوب، فلا ينبغي افشاؤه، ولأنه ربما يدخل في الدعوى ما يجاوز حد الواقع، فيكون من الافتراء، وتعظم به العقوبة في العقبي والبلية في الدنيا. نعم، ربما غشيته سكرة في حبه، حتى يدهش فيها، وتضطرب احواله، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل. فمثله معذور، لأنه تحت سلطان المحبة مقهور، ومن عرف أن حصول حقيقة المعرفة والمحبة التي تنبغي أن تكون في حق الله يستحيل أن يحصل لأحد، وأن يطلع على ما اعترف عظماء الانسان - أعني الأنبياء والأولياء - من العجز والقصور وإن صنفاً واحداً من الأصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء، هم أهل المحبة لله، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله - وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم - سوى الله سبحانه، وما ذكروا غيره، لاستحيى منه حق الحياء أن يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة، وخرس لسانه عن التظاهر بالدعوى. وروى في بعض الأخبار: «ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله تعالى أن يعطيه ذرة من معرفته، ففعل ذلك، فحار عقله، وذهل لبه، ووله قلبه، وهام في الجبال، وبقي شاخصاً سبعة ايام، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء، فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه، فأوحى الله تعالى اليه: (إننا اعطيناه جزءاً من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة، وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئاً من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا، فأخرت اجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا، فلما أجبته فيما سألت أعطيتهم كما أعطيتهم، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد، فهذا ما أصابه من ذلك). فقال:

سبحانك سبحانك! أقنصه مما أعطيته، فأذهب الله عنه جملة ما أعطاه، وأبقى فيه عشر معشاره، وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه، وسكن، وصار كسائر الكمل من العارفين»^(١).

والحق أن حقائق الصفات الإلهية أجل وأعظم من ادراك العقول البشرية، ولا يطبق أحد من الكمل أن يتحمل لفهم جزء من الأجزاء الغير المتناهية منها، فالوصول إلى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال، (وما قيل أو يقال فيه) وهم أو خيال، فأين يحصل لأحد ما يليق به من المعرفة والمحبة؟ فلو امكن أن تدخل أمثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والأرضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتمثيلات، وهي أيضاً لو ضوعفت إلى غير النهاية في أزمنة غير متناهية، لكانت بيانات قاصرة، بل وهمية خيالية، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته! ومن علامات المحبة الأنس والرضا - كما يأتي - . وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في ابیات، فقال:

لا تخدعن فللمحب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمرّ بلائه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر اكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل أن يرى متبسما	والقلب فيه من الحبيب بلابل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه سائل

(١) صححنا الرواية على (احياء العلوم): ٢٨٨ / ٤.

ومن الدلائل أن يرى متقشفا	متحفظا عن كل ما هو قاتل
ومن الدلائل أن تراه مشمراً	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	خوف الظلام فما له من عاذل
ومن الدلائل أن تراه باكياً	أن قدر رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل أن تراه راضياً	بملكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى	من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل أن تراه مسلماً	كل الأمور إلى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى	والقلب محزون كقلب الشاكل
ومن الدلائل أن تراه مسافراً	نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

(معنى حب الله لعبده)

اعلم أن شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد، كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «ان الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطى الايمان الا من يحب». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فان صبر اجتبه، وان رضى اصطفاه». وقال ﷺ: «من أكثر ذكر الله أحبه الله». وقال ﷺ حاكياً عن الله: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى

(١) المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) الصف، الآية: ٤.

(٣) البقرة، الآية ٢٢٢.

(٤) آل عمران، الآية: ٣١.

أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبدا، جعل له واعظاً من نفسه، وزاجراً من قلبه، يأمره وينهاه»... وأمثال ذلك أكثر من أن تحصى.

ثم حقيقة الحب - وهو الميل إلى موافق ملائم - غير متصور في حق الله تعالى، بل هذا إنما يتصور في حق نفوس ناقصة، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبداً، إذ لا يتصور تجدده وزواله، فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث أنه غير، بل ابتهاجه بذاته وصفاته وفعاله. وليس في الوجود إلا ذاته وصفاته وفعاله، ولذلك قال بعض العرفاء - لما قرئ قوله تعالى: (يحبهم ويحبونه) -: «نحن نحبههم، فانه ليس يحب إلا نفسه»، على معنى أنه الكل، وانه في الوجود ليس غيره. فمن لا يحب إلا ذاته، وصفات ذاته، وافعال ذاته، وتصانيف ذاته، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته، فهو إذاً لا يحب إلا ذاته. وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بافعاله له، إذ الاستفادة من الآيات والأخبار: أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات، فمعنى هذه المحبة يرجع إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه، وإلى تمكينه إياه من القرب إليه، وإلى إرادته ذلك به في الأزل، وإلى تطهير باطنه عن حلول الغير به، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه، حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق، ولا يبصر إلا به، ولا ينطق إلا به - كما في الحديث القدسي -، فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه، وارتفاع الحجاب عن قلبه، وحصوله في درجة القرب من ربه، وكل ذلك من فضل الله تعالى ولطفه به.

ثم قرب العبد من الله لا يوجب تغيراً وتجديداً في صفات الله تعالى، إذ التغير عليه سبحانه محال، لأنه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال على ما كان عليه في ازل الأزال، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في مدارج الكمال، والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية، فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً واحاطة

بحقائق الأمور، وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات، وأظهر نزاهة عن الرذائل، وأقوى تصرفاً في ملكوت الأشياء، صار أقرب إلى الله، ودرجات القرب غير متناهية، لعدم تناهي درجات الكمال، فمثل تقرب العبد إلى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين إلى الآخر إذا تحركا معاً، بل كتقرب أحدهما مع تحركه إلى الآخر الذي كان ساكناً، او كتقرب التلميذ في درجات الكمال إلى استاذة، فان التلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى بقاع العلم، ويطلب القرب من استاذة في درجات العلم والكمال، والأستاذ ثابت واقف، وان كان التلميذ يمكن ان يصل إلى مرتبة المساواة لاستاذة لتناهي كمالاته، وأما العبد، كائناً من كان، لا يمكن أن يصل إلى كمال يمكن أن يكون له نسبة إلى كمالاته سبحانه، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة، وعلامة كون العبد محبوباً عند الله: أن يكون هو محباً له تعالى، مؤثراً إياه على غيره من المحاب، وأن يرى من بواطن اموره وظواهره انه تعالى يهيه له اسباب السعادة فيها، ويرشده إلى ما فيه خيره، ويصده عن المعاصي باسباب يعلم حصولها منه سبحانه، انه تعالى يتولى امره، ظاهره وباطنه، وسره وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبر لأمره، والمزين لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه، والمسدد لظواهره وباطنه، والجاعل له مومه هما واحد، والمبغض للدنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته، والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته.

تذنيب

(الحب في الله والبغض في الله)

اعلم ان الأخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه، ومعناه لا يخلو عن ابهام، فلا بد أن نشير إلى بعض هذه الأخبار، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه:

أما الأخبار: كقول النبي ﷺ: «وَدَّ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَدُوٌّ لِلَّهِ» - الإيمان، ألا ومن أحب في الله وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله». وقال ﷺ لأصحابه: «أى عرى الإيمان أوثق؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم - فقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام، وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد - فقال رسول الله ﷺ: «لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وتوالتى أولياء الله والتبرى من أعداء الله». وقال ﷺ: «المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه - وكلتا يديه يمين - وجوههم أشد بياضا وأضوأ من الشمس الطالعة، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل، يقول الناس: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابون في الله». وقال سيد الساجدين عليه السلام: «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين، قام مناد فنادى ليسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب. قال: فتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب، فيقولون: أى حزب انتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله. فيقولون: وأى شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله. قال: فيقولون: نعم اجر العاملين». وقال الباقر عليه السلام: «إذا اردت أن تعلم أن فيك خيرا، فانظر إلى قلبك، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففبك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك. والمرء مع من أحبه». وقال عليه السلام: «لو أن رجلا أحب رجلا لله، لأثابه الله على حبه إياه، وإن كان المحبوب في علم الله من أهل النار، ولو أن رجلا أبغض رجلا لله، لأثابه الله على بغضه إياه، وإن كان المبغض في علم الله من أهل الجنة».

وقال الصادق عليه السلام: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، فهو ممن كمل إيمانه». وقال عليه السلام: «إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد اضاء نور

وجوهم ونور اجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله». وقال عليه السلام: «وهل الايمان إلا الحب في الله والبغض في الله؟ ثم تلا هذه الآية:

﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشِدُونَ﴾^(١).

وقال عليه السلام: «ما التقى المؤمنان قط إلا كان افضلهما اشدهما حبا لأخيه». وقال عليه السلام: «من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له». والأخبار بهذه المضامين كثيرة^(٢).

وإذا عرفت ذلك، فلنشر إلى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول:

الحب الذي بين انسانين، اما يحصل بمجرد الصلابة الاتفاقية، كالصلابة بحسب الجوار، او بحسب الاجتماع في سوق، أو مدرسة، أو سفر، أو باب سلطان، أو امثال ذلك، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله، بل هو الحب بحسب الاتفاق، أو لا يحصل بمجرد ذلك، بل له سبب وباعث آخر، وهذا على أربعة اقسام:

الأول - أن يحب انسان انسانا لذاته، لاليتوصل به إلى محبوب ومقصود وراءه، بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصوميته ومشاهدة اخلاقه، لاستحسانه له، فان كل جميل لذيد في حق من ادرك جماله، وكل لذيد محبوب، واللذة تتبع الاستحسان، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع. ثم ذلك المستحسن، اما أن يكون جمال الصورة، وكمال العقل، وغزارة العلم، وحسن الأخلاق والافعال، وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة، وكل

(١) الحجرات، الآية: ٧.

(٢) صححنا الأحاديث كلها على (اصول الكافي): ج ٢، باب الحب في الله والبغض في الله. وعلى

(الوافي): ٣/ ٣٤٤، باب الحب في الله والبغض في الله.

مستحسن مستلذ به ومحبوب، ومن هذا القسم أن يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فانه قد تستحكم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق، ومن دون ملاحظة في صورة، ولا غيرها من الأعضاء، بل المناسبة باطنة توجب الألفة والموافقة والمحبة، فان شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، والأشياء الباطنة خفية، ولها اسباب دقيقة ليس في قوة البشر أن يطلع عليها، وإلى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله ﷺ بقوله: «الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف، والبغض نتيجة التناكر. ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، إلا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموماً، وإلا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم.

الثاني - أن يحبه لذاته، بل لينال منه محبوباً وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية ولا ريب في أن كلما هو وسيلة إلى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر.

الثالث - أن يحبه لذاته، بل لغيره، وذلك الغير راجع إلى حظوظه في الآخرة دون الدنيا، وذلك كحب التلميذ للأستاذ، لأن يتوسل به إلى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة. وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبي الله، وكذلك حب للأستاذ للتلميذ، لأنه يتلقف منه العلم، وينال بواسطته مرتبة التعليم، ويرتقى به إلى درجة التعظيم في ملكوت السماء. قال عيسى عليه السلام: «من علم وعمل وعلم، فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء». ولا يتم التعليم إلا بمتعلم، فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال، فان احبه لأنه آلة إذ جعل صدره مزرعة لحرثه»، فهو محب لله.

بل التحقيق: أن كل من يحب احداً لصنعتة، أو فعله الذي يوجب تقربه إلى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له ايصال الصدقة إلى المستحقين،

وحب طبابخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقرباً إلى الله، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكنس بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل... وقس على ما ذكر أمثاله، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توسله لأجله إلى فائدة اخروية فهو محب لله وفي الله.

الرابع - أن يحبه الله وفي الله، لا لينال منه علماً أو عملاً، أو يتوسل به إلى امر وراء ذاته، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب إليه، إما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق إلى الله، أو لأجل خصوصية النسبة أيضاً، من تقربه إلى الله، وشدة حبه وخدمته له تعالى. ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب أن يتعدى من المحبوب إلى كل من يتعلق به ويناسبه، ولو من بعد، فمن أحب انساناً حباً شديداً، أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوه ومن يخدمه ومن يمدحه ويشنئ عليه أو يشنئ عليه محبوه، وأحب أن يتسارع إلى رضا محبوه، كما قيل:

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله، فهو أن يبغض انسان انساناً لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى، فإن من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله، فانك إن أحببت انساناً لأنه مطيع لله ومحبوب عنده، فإن عصاه لا بد أن تبغضه، لأنه عاص فيه وممقوت عند الله، قال عيسى عليه السلام: «تحبوا إلى الله ببغض أهل المعاصي، وتقربوا إلى الله بالتباعد عنهم، والتمسوا رضا الله بسخطهم». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، وأما انقطاعك إليّ فقد تعززت بي، ولكن هل عادت في عدوّاً، أو واليت ولياً؟».

ثم للمعصية درجات مختلفة، فإنها قد تكون بالاعتقاد، كالكفر والشرك

والبدعة، وقد تكون بالقول والفعل، وهذا إما أن يكون مما يتأذى به غيره، كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر انواع الظلم، أو لا يكون مما يتأذى به غيره، وهذا إما يوجب فساد الغير، كالجمع بين الرجال والنساء، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ما هو دأب صاحب الماخور، أو لا يوجب فساد الغير، كالزنا وشرب الخمر، وهذا أيضاً إما كبيرة أو صغيرة. واطهار البغض أيضاً له درجات مختلفة، كالتباعد والهجران، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة، والتغليظ في القول، والاستخفاف والاهانة، وعدم السعى في إطاعته، والسعى في اساءته وافساد مآربه، وبعض هذا أشد من بعض، كما أن درجات الفسق والمعصية أيضاً كذلك. فينبغي أن يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق، والوسط بازاء الوسط، والأضعف بازاء الأضعف. وينبغي ألا يترك أولاً النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغليظ القول في الوعظ والارشاد، لا سيما إذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة. ثم العاصي إن كان ممن له صفات محمودة، كالإيمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة أو امثال ذلك، ينبغي أن يكون مبعوضاً لأجل معصيته ومحبوباً لأجل صفته المحمودة، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد إليه والتوحش عنه، فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك، ولا تبالغ في اهانتك مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع اغراضك.

تتميم

(الوفاء في الحب)

اعلم أن من تمام الحب للاخوان في الله (الوفاء)، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته إلى الموت وبعده مع اولاده واصدقائه، وضده (الجفاء)، وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة او بعد الموت بالنسبة إلى أولاده وأحبته، ولولا

الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة، اذ الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت لضاع السعى وحبط العمل، ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة: «واخوان تحابوا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه». وروى: «أنه ﷺ كان يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه، فقليل له في ذلك، فقال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن كرم العهد من الدين». فمن الوفاء مراعاة جميع الأصدقاء والأقارب والمتعلقين، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الأخ المحبوب في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد نفسه، إذ لا تعرف قوة المحبة والشفقة إلا بتعديها من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب داره من سائر الكلاب. ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع - ولو بعد الممات - لا تكون محبة في الله، إذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها. فما قيل من أن (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) إنما هو لدلالته على كون الحب في الله. وبالجملة: الوفاء بالمحبة تمامها. ومن آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقتها، وألا يسمع بلاغات الناس عليه، وأن يحب صديقه ويبغض عدوه وليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل من الوفاء المخالفة له وإرشاده إلى الحق.

هذا وأما البعد والأنس، فقد عرفت أن الأنس عبارة عن استبشار القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول، والبعد خلافه، والأنس والخوف والشوق، كلها من آثار المحبة وكل واحد منها يرد على المحب بحسب نظره، ومما يغلب عليه في وقته، فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه الجلال، انبعثت النفس وانزعجت له، وهاجت إليه، فسميت هذه الحالة في الانزعاج (شوقاً)، وهو بالإضافة إلى امر غائب، وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف، غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد،

استبشر القلب بما يلاحظه فيه، فيسمى استبشاره (أنساً)، وإن كان نظره إلى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة، واستشعر امكان الزوال والبعد، تألم قلبه بهذا الاستشعار، فيسمى تألمه (خوفاً)، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات، فإن غلب الأنس وتجرد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرق إليه من خطر الزوال، عظم نعيمه ولذته، وغلب عليه الأنس بالله، ولم تكن شهوته إلا في الانفراد والخلوة، وذلك لأن الانس بالله يلزمه التوحش من غير الله، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الأشياء على القلب، كما روى: «أن موسى ﷺ لما كلمه ربه، مكث دهرًا لا يسمع كلامه أحد من الخلق إلا أخذه الغشيان»، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه، فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، ومخالط بالبدن، متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر، قال أمير المؤمنين ﷺ في وصفهم: «هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، واستلنوا ما استوعره المترفون، وانسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بآبدان أرواحها متعلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه».

فصل

(الأنس بالله)

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الأنس أيضاً، ظناً أنه يدل على التشبيه، وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية، وعن القصور في طريق المعرفة والجمود على احكام الحس، والغفلة عن عالم العقل والبصيرة، وقد ظهر ثبوت الأنس من بعض الأخبار السابقة، ويدل عليه ما ورد في اخبار داود: «ان الله عز وجل أوحى اليه: يا داود! ابلغ أهل أرضي: اني حبيب لمن احبني،

وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكرى وصاحب لمن صاحبني، ومختار لمن اختارني، ومطيع لمن اطاعني، ما احبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي، واحبته حباً لا يتقدمه احد من خلقي، من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا اهل الأرض ما انتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وأنسوا بي أو أنسكم، واسارع إلى محبتكم».

فصل

(الأنس قد يثمر الادلال)

قال أبو حامد الغزالي: «الأنس إذا دام وغلب واستحكم، ولم يشوشه قلق الشوق، ولم ينغصه خوف البعد والحجاب فإنه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والافعال والمناجاة مع الله سبحانه، وقد يكون منكراً بحسب الصورة، لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة، ولكنه محتمل ممن اقيم في مقام الأنس، ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام، هلك واشرف على الكفر. ومثاله مناجاة (برخ الأسود) الذي أمر الله تعالى كليمة موسى ﷺ أن يسأله ليستسقى لبنى اسرائيل، بعد أن قحطوا سبع سنين، وخرج موسى في سبعين ألفاً، فاوحى الله عز وجل اليه: كيف استجيب لهم وقد اظلت عليهم ذنوبهم؟ سرائرهم خبيثة، يدعونني على غير يقين، ويأمنون مكري، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له (برخ)، فقل له: يخرج حتى استجيب له. فسأل عنه موسى، فلم يعرف، فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق، إذا بعبد اسود قد استقبله، بين عينيه تراب من اثر السجود، في شملة قد عقدتها على عنقه، فعرفه موسى بنور الله عز وجل، فسلم عليه وقال له: ما اسمك؟ فقال: اسمي برخ، قال: فانت طلبتنا منذ حين، اخرج فاستسق لنا، فخرج، فقال في كلامه: ما هذا من فعالك، ولا هذا من حلمك، وما الذي بدا لك؟ أتعصت عليك غيومك؟ أم عاندت الرياح عن طاعتك؟ أم نفد ما عندك؟ أم اشتد غضبك على المذنبين؟ أأست

كنت غفاراً قبل خلق الخاطئين؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو، أم ترينا أنك ممتنع؟ أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة؟!... قال: فما برح حتى أخضل بنو اسرائيل بالمطر، وأنبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب، ثم رجع (برخ)، فاستقبله موسى، فقال كيف رأيت حين خاصمت ربي، كيف أنصفني؟! فهمم به موسى، فأوحى الله اليه: إن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات!!^(١).

ولا ريب في أن امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتمل من بعض العباد دون البعض، فمن انبساط الأنس قول موسى:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾^(٢).

وقوله في التعلل والاعتذار، لما قيل له:

﴿إِذْ هَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(٣): ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٤). وقوله:

﴿وَيُضِيقُ صَدْرِي﴾^(٥). وقوله: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾^(٦).

وهذا من غير موسى سوء الأدب، لأن الذي اقيم مقام الأنس يلاطف ويحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، كيف ولم يحتمل من يونس النبي ﷺ ما دون هذا الحال، اقيم مقام القبض والهيبة، فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، فنودى عليه إلى يوم الحشر، لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مدموم، ونهى نبينا أن يقتدى به، ف قيل له:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخَوْتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾^(٧).

(١) هذا من عجائب المنقولات الخرافية، والغريب من (أبي حامد الغزالي) ان يركن إلى مثله، وقد أشار المصنف رحمه الله إلى بطلان ما نقله بقوله: (ولا ريب).

(٢) الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٣) طه، الآية: ٢٤. النازعات، الآية: ١٧.

(٤) الشعراء، الآية: ١٤.

(٥) الشعراء، الآية: ١٣.

(٦) طه، الآية: ٤٥.

(٧) القلم، الآية ٤٨.

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والأحوال، وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد، قال الله سبحانه: ﴿تِلْكَ الْأَرْسُلُ قَضَلْنَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ﴾^(١). فالأنبياء والأولياء مختلفون في الصفات والأحوال، ألا ترى أن عيسى بن مريم عليه السلام كان في مقام الانبساط والادلال، ولإدلاله له سلم على نفسه، فقال:

﴿وَأَسَلَّمْ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾^(٢).

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الأنس. وأما يحيى عليه السلام فإنه اقيم مقام الهيبة والحياء، فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه، فقال:

﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُنْعَثُ حَيًّا﴾^(٣).

وانظر كيف احتمل لاختوة يوسف ما فعلوا به، وقد قال بعض العلماء: «قد عدت من أول قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾^(٤).

إلى رأس العشرين آية من اخباره تعالى عنهم، فوجدت به نيفاً واربعين خطيئة، بعضها أكبر من بعض، وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والأربع، فغفر لهم وعفى عنهم، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر، حتى قيل: لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة». ومن فوائد هذه القصص في القرآن: أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل، فما في القرآن شيء إلا وفيه اسرار وانوار يعرفها الراسخون في العلم.

(١) البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٢) مريم، الآية: ٣٣.

(٣) مريم، الآية: ١٥.

(٤) يوسف، الآية: ٨.

تذنيب (العزلة)

اعلم أن من بلغ مقام الأنس، غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس، لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام إلى الله. فلا بد لنا من بيان أن الأفضل من العزلة والمخالطة أيهما، فإن العلماء في ذلك مختلفون، والأخبار أيضاً في ذلك مختلفة، ولكل واحد منها أيضاً فوائد ومفاسد، فنقول: الظاهر من جماعة: تفضيل العزلة على المخالطة مطلقاً والظاهر من الأخرى: عكس ذلك.

نظر الأولين إلى إطلاق ما ورد في مدح العزلة، وإلى فوائدها وما ورد في مدحها، كقول النبي ﷺ: «ان الله يحب العبد التقى الخفى»، وقوله ﷺ: «أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب»، وقوله ﷺ: «لمن سأله عن طريق النجاة: «ليسعك بيتك، وامسك عليك دينك، وابك على خطيئتك»، وقول الصادق عليه السلام: «فسد الزمان، وتغير الإخوان، وصار الانفراد اسكن للفؤاد»، وقوله عليه السلام: «اقلل معارفك، وانكر من تعرف منهم»، وقوله عليه السلام: «صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى، ومتحرس بحراسته، فيا طوبى لمن تفرد به سرّاً وعلانية! وهو يحتاج إلى عشر خصال: علم الحق والباطل، وتحبب الفقر، واختيار الشدة، والزهد، واغتنام الخلوة، والنظر في العواقب، ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود، وترك العجب، وكثرة الذكر بلا غفلة، فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب، وخلوة البيت عما لا يحتاج إليه في الوقت. قال عيسى بن مريم عليه السلام: (اخزن لسانك لعمارة قلبك، وليسعك بيتك، واحذر من الرياء وفضول معاشك، واستح من ربك، وابك على خطيئتك، وفر من الناس فرارك من الأسد والافعى، فإنهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء، ثم الق الله متى شئت)، قال ربيع بن خثيم: «إن استطعت أن تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تُعرف فافعل، ففي العزلة صيانة الجوارح، وفراغ القلب، وسلامة العيش، وكسر

سلاح الشيطان، والمجانبة من كل سوء، وراحة القلب، وما من نبي ولا وصى إلا واختار العزلة في زمانه، إما في ابتدائه، وإما في انتهائه»^(١).

وأما فوائد العزلة فكالفرار للعبادة، والذكر، والفكر، والاستيناس بمناجاة الله، والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والأرض، والتخلص عن المعاصي التي يتعرض للانسان لها غالباً بالمخالطة: كالغيبة، والرياء، وسائر آفات اللسان، ومسارقة الطبع الأعمال الخفية، والأخلاق الردية من الناس، والمداهنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستخلاص من الفتن والخصومات وأخطارها، أو من شر الناس وايدائهم قولاً وفعلاً، وقطع طمعه عن الناس، وقطع طمعهم عنه، والخلاص من مشاهدة الظلمة، والفسقة، والجهال، والثقلاء، والحمقى، ومقاساة أخلاقهم.

ونظر الآخرين - اعنى القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - إلى اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤالفة والمؤانسة وإلى فوائد، أما ما ورد في مدحها، كقول النبي ﷺ: «المؤمن ألف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف»، وقوله ﷺ: «من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية»، وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الاخوان، وقوله ﷺ: «ياكم والشعاب، وعليكم بالعامة والجماعة والمساجد».

وأما فوائد المخالطة: كالتعليم، والتعلم، وكسب الأخلاق الفاضلة من مجالسة المتصفين بها، واستماع المواعظ والنصائح، ونيل الثواب بحضور الجمعة والجماعة والجنائز، وعيادة المرضى، وزيارة الاخوان، وقضاء حوائج المحتاجين، ورفع الظلم عن المظلومين، وادخال السرور على المؤمنين، والاستيناس بالاخوان، وبأهل الورع

(١) صححنا هذا القول، وكذا الحديث السابق، على (مصباح الشريعة): باب ٢٤، وعلى (البحار): - باب

العزلة عن شرار الخلق -: مع ١٥: ٢ / ٥١ ط أمين الضرب.

والعبادة والتقوى، وهو يروّج القلب، ويهيج داعية النشاط في العبادة وايصال النفع إلى المسلمين بالمال والجاء واللسان، واستفادة مزيد الأجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال، وارتياض النفس بمقاساة الناس في تحمل أذاهم، وكسر النفس وشهواتها، وإدراك صفة التواضع لتوقفه على معاشره الناس ومخالطتهم، وعدم حصوله في الوحدة، واستفادة التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين، فانها لا تحصل إلا من مخالطة الخلق ومشاهدة مجارى أحوالهم. هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة، وفوائد كل منهما مفسد وغوائل للآخر. وأنت - بعدما عرفت فوائد كل منهما وغوائله - تعلم أن الحكم بترجيح أحدهما على الآخر على الإطلاق خطأ. كيف يجوز أن يقال: إن العزلة أفضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئاً من اصوله وفروعه، ولم يقرع سمعه علم الأخلاق، ولم يميز بين فضائل الصفات ورذائلها، فضلاً عن أن تحصل له التخلية والتحلية، ومع ذلك يمكن أن يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء وأولى الأخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز أن يقال: إن المخالطة أفضل لمن حصل ما في وسعه وقدرته من العلم والعمل، ووصل إلى مرتبة الابتهاج والإلتذاذ بالطاعات والمناجاة، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية، بل تترتب عليه المفسدات الكثيرة؟

فالصحيح أن يقال: إن الأفضلية فيهما تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة. فينبغى أن ينظر إلى كل شخص وحاله، وإلى خليطه، وإلى باعث مخالطته، وإلى ما يحصل بمخالطته من فوائد المخالطة، وما يفوت لأجلها من فوائد العزلة، ويوازن بين ذلك، حتى يظهر الأفضل والأرجح. ولاختلاف ذلك في حق الأشخاص، بملاحظة الأحوال والفوائد والآفات وربما يظهر - بعد التأمل - أن الأفضل لبعض الخلق العزلة التامة، ولبعضهم المخالطة، ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة. وبما ذكر يظهر أن الأفضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق: الخلوة والعزلة، إذ لا ريب في أن المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس،

ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك. ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة. قال أويس القرني: «ما كنت أرى أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره»، وقال بعضهم: «إذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس»، وقال بعضهم: «سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه». وقال بعض الصالحين: «رأيت في بعض البلاد عابداً خرج من بعض قلل الجبال، فلما رآني تنحى عني وتستر بشجرة، فقلت له: سبحان الله! أتبخل على بالنظر اليك؟ فقال: يا هذا! انى قمت في هذا الجبل دهرأ طويلا اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا واهلها، فطال في ذلك تعبي، وفنى فيه عمري، فسألت الله تعالى أن يعطيني ذلك، فسكن قلبي عن الاضطراب، وألف الوحدة والانفراد، فلما نظرت اليك خفت ان اوقع في الأول، فإني اعوذ من شرك رب العالمين، وحبیب القانتين، ثم صاح وقال: واغماء من طول المكث في الدنيا! ثم حول وجهه عني، وقال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخلود، وحلاوة الانقطاع اليه! ما ألهمى قلوبهم عن ذكر الجنان، وعن الحور الحسان». وقال بعض الأكابر: «إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة، فبملاقة الناس ومخالطتهم يفرح ويطرد الوحشة من نفسه، فإذا كانت ذاته فاضلة، طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة». ومن هنا قيل: (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس). فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة، فإن غاية العبادات وثمرتها المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله، عارفاً بالله، ولا محبة إلا بالانس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكل منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً، والاقبال التام على الله سرراً، إلا

قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه، فيطمع في ذلك. ثم، بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الأخبار الواردة من الطرفين، فإن ما ورد في فضيلة العزلة إنما هو بالنظر إلى بعض الناس، وما ورد في فضيلة المخالطة إنما هو بالنظر إلى بعض آخر. ومنها:

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الإلهية والتقديرات الربانية، ويرادفه الانكار والاعتراض، وهو من شعب الكراهة لأفعال الله، وهو ينافي الايمان والتوحيد. وما للعبد العاجز الذليل المهين الجاهل بمواقع القضاء والقدر، والغافل عن موارد الحكم والمصالح، والاعتراض والانكار، والسخط لأفعال الخالق الحكيم العليم الخبير، وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه، ولعمري! أن من يعترض على فعل الله فهو اشد الجهلاء، ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء. وقد ورد في الخبرا القدسي: «خلقت الخير والشر، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه، وويل ثم ويل لمن قال لم وكيف!». وفي خبر قدسي آخر: «أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يرض بقضائي، فليخذ رباً سواي». وفي مناجاة موسى: «أى رب! أى خلقك أحب اليك؟ قال: من إذا أخذت منه المحبوب سالمني. قال: فأى خلقك أنت عليه ساخط؟ قال: من يستخيرني في الأمر، فإذا قضيت له سخط قضائي». وفي الخبر القدسي: «قدّرت المقادير، ودبّرت التدبير، وأحكمت الصنع، فمن رضى فله الرضا منى حين يلقاني، ومن سخط فله السخط منى حين يلقاني». وقال الباقر (عليه السلام): «ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء، وأحبط الله أجره». وقال الصادق (عليه السلام): «كيف يكون المؤمن مؤمناً، وهو يسخط قسمته، ويحقر منزلته، والحاكم عليه الله، وأنا الضامن لمن لم يهجمس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له». وفي بعض

الأخبار: «أن نبياً من الأنبياء شكى الله عز وجل الجوع والفقر والعري عشر سنين، فما أجيب اليه، ثم اوحى الله تعالى اليه: كم تشكو؟ وهكذا كان بدؤك عندي في ام الكتاب قبل ان اخلق السماوات والأرض، وهكذا سبق لك منى، وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا، أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من اجلك؟ أم تريد أن ابدل ما قدرته عليك، فيكون ما تحب فوق ما احب، ويكون ما تريد فوق ما اريد؟ وعزتي وجلالي! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى، لأمحونك من ديوان النبوة»^(١). وروى انه: «اوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تريد واريد وإنما يكون ما اريد، فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما اريد»^(٢).

وبالجملة: من عرف أن العالم بجميع اجزائه، من الجواهر والاعراض، صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية، وأنها النظام الأصلح الذي لا يتصور فوقه نظام، ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الأصلحية والخيرية، وعرف الله بالربوبية، وعرف نفسه بالعبودية، يعلم أن السخط والإعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد، ويكون غاية الجهل والخطر، ولذلك لم يكن احد من الأنبياء أن يقول قط في أمر: ليت كان كذا، حتى قال بعض اصحاب النبي ﷺ: «خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى لشيء فعلته: لم فعلت، ولا لشيء لم افعله: لم لم تفعله، ولا قال في شيء كان: ليت لم يكن، ولا في شيء لم يكن: ليت كان، وكان إذا خاصمنى مخاصم من أهله، يقول دعوه، لو قضى شيء لكان». وروى: «أن آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون، ويجعل أحدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج، فيصعد إلى رأسه، ثم ينزل على اضلاعه كذلك، وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق،

(١) صححنا هذا الحديث، وكذا الأخبار القدسية السابقة، على (احياء العلوم): ٤/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) صححنا هذا الحديث، وكذا ما روى قبله عن أهل البيت عليه السلام على (اصول الكافي): ج ٢ - باب الرضا

بالقضاء. وعلى (سفينة البحار): ١/ ٢٢٤.

ولا يرفع رأسه، فقال له بعض ولده: يا أبت! أما ترى ما يصنع هذا بك؟ لو نهيته عن هذا، فقال: يا بني! إنني رأيت ما لم تروا، وعلمت ما لم تعلموا، إنني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان، ومن دار النعيم إلى دار الشقاء، فإخاف أن أتحرك حركة أخرى فيصيبني ما لا أعلم»^(١).

فصل

(الرضا)

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد انكار تحقيق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم.



ضد السخط (الرضا)، وهو ترك الاعتراض والسخط باطناً وظاهراً، قولاً وفعلًا، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها، إذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه، وصاحب الرضا يستوى عنده الفقر والغنى، والراحة والعناء، والبقاء والفناء، والعز والذل، والصحة والمرض، والموت والحياة، ولا يرجح بعضها على بعض، ولا يثقل شيء منها على طبعه، إذ يرى صدور الكل من الله سبحانه، وقد رسخ حبه في قلبه، بحيث يحب أفعاله، ويرجح على مراده تعالى، فيرضى لكل ما يكون ويرد. وروى: «أن واحداً من أرباب الرضا عمر سبعين سنة، ولم يقل في هذه المدة لشيء كان: ليت لم يكن، ولا لشيء لم يكن: ليت كان». وقيل لبعضهم: «ما وجدت من آثار الرضا في نفسك؟ فقال: ما فني رائحة من الرضا، ومع ذلك لو جعلني الله جسراً على جهنم، وعبر عليه الأولون والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة، ثم يلقوني في النار، وملا بئى جهنم، لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه

(١) صححنا الحديث على (أحياء العلوم): ٢٩٥ / ٤.

لم كان كذا، ولت لم يكن كذا، ولم هذا حظى وذاك حظهم». وصاحب الرضا ابداً في روح وراحة، وسرور وبهجة، لأنه يشاهد كل شيء بعين الرضا، وينظر في كل شيء إلى نور الرحمة الإلهية، وسر الحكمة الأزلية، فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه. وفائدة الرضا، عاجلاً، فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم، وآجلاً، رضوان الله والنجاة من غضبه تعالى.

فصل

(فضيلة الرضا)

الرضا بالقضاء أفضل مقامات الدين، وأشرف منازل المقربين، وهو باب الله الأعظم، ومن دخله دخل الجنة. قال الله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١).

وعن النبي ﷺ: «أنه سأل طائفة من أصحابه: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة!»، وفي خبر آخر، قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء». وقال ﷺ: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتبه، فإن رضى اصطفاه». وقال ﷺ: «اعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم». وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، أنبت الله تعالى لطائفة من امتي اجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها، ويتنعمون فيها كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً، فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أمة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ، فتقول: ناشدناكم الله!

(١) المائدة: الآية: ١١٩. التوبة: الآية: ١٠٠. المجادلة: الآية: ٢٢. البينة: الآية: ٨.

حدثونا ما كانت اعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا». وقال الصادق عليه السلام: «إن الله بعدله وحكمته وعلمه، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله تعالى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط». وروى: «أن موسى عليه السلام قال: يا رب! دلني على امر فيه رضاك. فقال تعالى: إن رضاى في رضاك بقضائى». وروى: «ان بنى اسرائيل قالوا له عليه السلام: سل لنا ربك امراً إذا نحن فعلناه يرضى عنا، فقال موسى عليه السلام: إلهى! قد سمعت ما قالوا، فقال: يا موسى! قل لهم يرضون عنى حتى ارضى عنهم»^(١). وقال سيد الساجدين عليه السلام: «الصبر والرضا رأس طاعة الله، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب اوكره، لم يقض الله عز وجل له فيما احب اوكره إلا ما هو خير له». وقال - صلوات الله عليه -: «الزهد عشرة اجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا». وقال الباقر عليه السلام: «أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل، من عرف الله عز وجل ومن رضى بالقضاء، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره». وقال الصادق عليه السلام: «أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله». وقال عليه السلام: «قال الله عز وجل: عبدى المؤمن، لا أصرفه في شيء إلا جعلته خيراً له، فليرض بقضائى، وليصبر على بلائى، وليشكر نعمائى، اكتبه يا محمد من الصديقين عندى». وقال عليه السلام: «عجبت للمرء المسلم لا يقضى الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له، إن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له». وقال عليه السلام: «إن فيما أوحى الله عز وجل إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران! ما خلقت خلقاً أحب إليّ من عبدى المؤمن، وإنما ابتليته لما هو خير له، واعافيه لما هو خير له،

(١) صححنا الأحاديث على (احياء العلوم): ٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦.

وازوى عنه لما هو خير له، وأنا اعلم بما يصلح عليه عبيدى، فليصبر على بلائى، وليشكر نعمائى، وليرض بقضائى، اكتبه في الصديقين عندى، إذا عمل برضاى واطاع امرى». وقيل له عليه السلام: بأى شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن؟ قال: «بالتسليم لله، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط». وقال الكاظم عليه السلام: «ينبغي لمن غفل عن الله، ألا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه»^(١).

فصل

(رضا الله)

قد ظهر من بعض الأخبار المذكورة: أن رضا الله سبحانه من العبد يتوقف على رضا العبد عنه تعالى، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله سبحانه عنه، وهو اعظم السعادات في الدارين، وليس في الجنة نعيم فوقه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢).

وفي الحديث: «إن الله يتجلى للمؤمنين في الجنة، فيقول لهم: سلوني، فيقولون: رضاك يا ربنا!»، فسؤالهم الرضا بعد التجلى، يدل على أنه أفضل كل شيء. وورد في تفسير قوله تعالى: «ولدينا مزيد»: أنه يؤتى لأهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها:

احداها: هدية الله، ليس عندهم في الجنان مثلها، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٣).

والثانية: السلام عليهم من ربهم، فتزيد ذلك على الهدية، وهو قوله تعالى:

(١) صححنا الأحاديث على (أصول الكافي) ج ٢ - باب الرضا بالقضاء. وعلى (سفينة البحار): ١ / ٥٢٤.

(٢) التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) السجدة، الآية: ١٧.

﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾^(١).

والثالثة: يقول الله تعالى: «إني عنكم راض»، وهو أفضل من الهدية والتسليم وذلك قوله تعالى:

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢): أى من النعيم الذي هم فيه.

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له، إلا أنه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلى في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة. ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه. ويروه أهل الجنة أقصى الأمانى، وغاية الغايات.

فصل

(رد انكار تحقق الرضا)

من الناس من أنكر امكان تحقيق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف الهوى، وقال المتمكن فيهما: هو الصبر دون الرضا، وهو إنما أتى من ناحية انكار المحبة، إذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب. وذلك يكون من وجهين:

أحدهما - أن يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها. ولا تستبعدن ذلك، فان المحارب عند خوضه في الحرب، وعند شدة غضبه أو خوفه، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها، فإذا رأى الدم استدل به على الجراحة، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه، ولا يحس بألمها لشغل قلبه. والسر: أن القلب إذا صار مستغرقا بامر من الأمور، لم يدرك ما عداه. فالعاشق المستغرق الهم بمشاهدة

(١) يس، الآية: ٥٨.

(٢) التوبة، الآية: ٧٢.

المعشوق أو بحبه، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم، لولا عشقه، ولا يدرك ألمه وغمه لاستيلاء الحب على قلبه، وهذا إذا أصابه من غير حبيبه، فكيف إذا أصابه من حبيبه. ولا ريب في أن حب الله تعالى أشد من كل حب، وشغل القلب به اعظم الشواغل، إذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال، فمن ينكشف له شيء منها، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه، ولا يحس بما يجري عليه.

وثانيهما - الا يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالألم ولا يدركه، ولكن يكون راضياً به، بل راغباً فيه، مريداً له بعقله، وان كان كارهاً له بطبعه، كالذي يلتمس من الفصاد الفصد والحجامة، فإنه يدرك ألمه، إلا أنه راض به وراغب فيه. فالمحب الخالص لله، إذا أصابته بلية من الله، وكان على يقين بأن ثوابها الذي اذخر له فوق ما فاته، رضى بها ورغب فيها، وأحبها وشكر الله عليها. هذا إن كان نظره إلى الثواب والأجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا. وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده ومطلوباً، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق، فضلاً عن حب الخالق والجمال الأزلي الأبدى الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعترها الغلط والخطأ، فإن القلوب إذا وقفت بين جماله وجلاله، فإذا لاحظوا جلاله هابوا، وإذا لاحظوا جماله تاهوا.

ويشهد بذلك حكايات المحبين، على ما هو في الكتب مسطور، وفي الألسنة والأفواه مذكور. فان للحب عجائب، من لم يذق طعمها لا يعرفها. وقد روينا: أن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه، فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع. بل في القرآن ما هو أبغ من ذلك، وهو قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله، حتى ما أحسن بذلك. وروى: «أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى وأبرص، مقعد مفلوج، وقد تناثر لحمه من الجذام، وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من

الناس! فقال عيسى: يا هذا! أى شيء من البلاء تراه مصروفا عنك؟ فقال: يا روح الله! أناخير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته، فقال: صدقت! هات يدك، فناوله يده، فإذا هو أحسن الناس وجهاً، وأفضلهم هيئة، قد اذهب الله عنه ما كان به، وصحب عيسى وتعبد به».

فصل

(هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا)

اعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا، وكذلك كراهية المعاصي، ومقت أهلها، وحسم اسبابها، والسعى في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي. وقد زعمت طائفة من أهل البطالة والغرور: أن جميع ذلك يخالف الرضا، إذ كل ما يقصده رده بالدعاء وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره، فيجب للمؤمن أن يرضى به. وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاماً من مقامات الرضا، وسموه حسن الخلق، وهذا جهل بالتأويل، وغفلة عن أسرار الشريعة ودقائقها.

أما الدعاء، فلا ريب في أننا قد تعبدنا به، وقد كثرت ادعية الانبياء والأئمة، وكانوا على أعلى مقامات الرضا، وتظاهرت الآيات، وتواترت الأخبار في الأمر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه، واثني الله سبحانه على عباده الداعين، حيث قال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾^(١). وقال: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢). وقال: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٣).

وهو يوجب صفاء الباطن، وخشوع القلب، ورقة النظر، وتنور النفس وتجليها.

(١) الأنبياء، الآية: ٩٠.

(٢) غافر، الآية: ٦٠.

(٣) البقرة، الآية: ١٨٦.

وقد جعله الله تعالى مفتاحاً للكشف، وسبباً لتواتر مزايا اللطف والاحسان. وهو أقوى الأسباب لإفاضة الخيرات والبركات من المبادئ العالية.

فإن قيل: ما يرد على العبد من المكافاة والبلايا يكون بقضاء الله وقدره، والآيات والأخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقاً، فالتشمر لردّه بالدعاء يناقض الرضا.

قلنا: إن الله سبحانه بعظيم حكمته، أوجد الأشياء على التسبب والترتيب بينهما، فربط المسببات بالأسباب، ورتب بعضها على بعض وجعل بعضها سبباً وواسطة لبعض آخر، وهو مسبب الأسباب. والقدر عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب أوقاتها، مطابقة لما في القضاء، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الأشياء في العالم العقلي على الوجه الكلي، مطابقة لما في العناية الإلهية المسماة بالعناية الأولى، والعناية عبارة عن احاطة علم الله تعالى بالكل على ما هو عليه احاطة تامة، فنسبة القضاء إلى العناية كنسبة القدر إلى القضاء. ثم، من جملة الأسباب لبعض الأمور الدعاء والتصدق وأمثالهما، فكما أن شرب الماء سبب رتبه مسبب الاسباب لازالة العطش، ولو لم يشربه لكان عطشه باقياً إلى أن يؤدي إلى هلاكه، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاط الردية، ولو لم يشربه لبقيت على حالها، وهكذا في سائر الاسباب، وكذلك الدعاء سبب رتبه الله تعالى لدفع البلايا ورفعها، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع.

فلو قيل: لو كان في علم الله تعالى وفي قضائه السابق، أن زيداً - مثلاً - يدعو الله، أو يتصدق، عند ابتلائه ببليّة كذا، وتندفع به بليته لدعاء أو تصدق، ودفع بليته، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا يتصدق ويبتلى بتلك البلية ولم يدع الله، ولم يتصدق لم تندفع عنه البلية. والحاصل: أن كل ما تعلقت به العناية الكلية والقضاء الأزلي يحصل مقتضاه في الخارج وعالم التقدير، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فأى فائدة في سعى العبد واجتهاده؟

قلنا: هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبوراً في فعله ونفى

الاختيار عنه، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا، وكونه من جملة الأسباب المرتبة منه تعالى لحصول مسبباتها، كالتزويج لتحصيل الولد، والأكل والشرب لدفع الجوع والعطش، ولبس الثياب لدفع الحر والبرد، وغير ذلك. ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها مذكور في موضعها.

وأما انكار المعاصي وكراهتها، والفرار من أهلها ومن البلد الذي شاعت فيه، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها، فقال:

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾^(١). وقال: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾^(٢).

وفي بعض الأخبار: «من شهد منكراً ورضى به فكأنه قد فعله». وفي آخر: «لو أن عبداً قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب، كان شريكاً في قتله». وفي آخر: «إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه»، قيل وكيف ذلك؟ قال: «فيبلغه فيرضى به».

وأما بعض الكفار والفجار والفساق، ومقتهم والانكار عليهم، فما ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى. قال الله سبحانه:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾^(٣). وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾^(٤).

وفي الخبر: «إن الله أخذ الميثاق على كل مؤمن أن يبغض كل منافق». وقال ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله». وقد تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله.

(١) يونس، الآية: ٧.

(٢) التوبة، الآية: ٨٧، ٩٣.

(٣) آل عمران، الآية: ٢٨.

(٤) المائدة، الآية: ٥١.

فان قيل: المعاصي إن لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في التوحيد، وإن كانت بقضاء الله مطلقاً فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله. والآيات والأخبار مصرحة بوجود الرضا بقضاء الله مطلقاً، وذلك تناقض، فكيف السبيل إلى الجمع؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد؟

قلنا: المقرر عند بعض الحكماء: «أن الشرور الواقعة في العالم، من المعاصي وغيرها، راجعة إلى الأعدام دون الموجودات، فلا تكون مرادة له تعالى، ولا داخله في قضائه، وعند بعضهم أنها داخله في قضائه بالعرض لا بالذات، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله تعالى بالذات. وعند بعضهم: أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا، فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها، وبهذه الحثية لا تكون من قضاء الله والرضا به، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة. والتحقيق: أن الأوصاف الثلاثة ثابتة للشرور الواقعة في العالم، اعنى أنها راجعة إلى الأعدام وداخله في قضائه تعالى بالعرض، وشرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة. وعلى هذا فوجه الجمع أظهر. ثم، لأبى حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر، لا يروى الغليل ولا يشفى الغليل.

فإن قيل: بغض اهل المعاصي ومقتهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركهم، واثبات ذلك مشكل.

قلنا: لا اشكال فيه، إذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم ولا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي. فالأولى فيها السكوت، والتأدب بأداب الشرع، والرجوع إلى ما ورد من العترة الطاهرة. وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ (جامع الأفكار).

فصل

(طريق تحصيل الرضا)

الطريق إلى تحصيل الرضا، أن يعلم أن ما قضى الله سبحانه له هو الأصلح بحاله، وإن لم يبلغ فهمه إلى سيره فيه. مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء. فإن ما قدر يكون، وما لم يقدر لم يكن، وحسرة الماضي وتدبير الآتى يذهبان بتركه الوقت بلا فائدة، وتبقى تبعة السخط عليه. فينبغي أن يدهشه الحب لخالفه عن الاحساس بالألم، كما للعاشق، وأن يهون عليه العلم بعظم الثواب التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيفوض امره إلى الله، إن الله بصير بالعباد.

تتميم

(التسليم)

اعلم أن التسليم، ويسمى تفويضاً أيضاً، قريب من الرضا، بل هو فوق الرضا، لانه عبارة عن ترك الأعراض في الأمور الواردة عليه، وحوالتها باسرها إلى الله، مع قطع تعلقه عليها بالكلية، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقاً بشيء منها. فهو فوق الرضا، إذ في مرتبة الرضا كلما يفعل الله به يوافق طبعه، فالطبع ملحوظ ومنظور له، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة إلى الله سبحانه، وفوق مرتبة التوكل أيضاً، إذ التوكل - كما يأتي - عبارة عن الاعتماد في اموره على الله، فهو بمنزلة توكل الله في اموره، وكأنه يجعل الله تعالى بمثابة وكيله. فيكون تعلقه باموره باقياً، وفي مرتبة التسليم يقطع العلاقة من الأمور المتعلقة به بالكلية. ومنها:

الحزن

وهو التحسر والتألم، لفقد محبوب، أو فوت مطلوب. وهو أيضاً، كالاعتراض والانكار، مترتب على الكراهة للمقدرات الإلهية.

والفرق: أن الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن، كما أن ضد الكراهة - أعنى الحب في ضدهما - بعكس ذلك، أى ظهوره في السرور الذي ضد الحزن أشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض. فإن الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط. فالسرور فوق الرضا في الشرافة، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والردالة، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتبهات الطبيعية، والميل إلى مقتضيات قوتى الغضب والشهوة، وتوقع البقاء للأمور الجسمانية. وعلاجه، أن يعلم أن ما في عالم الكون والفساد من: الحيوان، والنبات، والجما، والعروض والأموال، في معرض الفناء والزوال، وليس فيها ما يقبل البقاء، وما يبقى ويدوم هو الأمور العقلية، والكمالات النفسية المتعالية عن حيلة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد. وإذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة، والأمانى الباطلة. فلا يتعلق قلبه بالأسباب الدنيوية، ويتوجه بشرائره إلى تحصيل الكمالات العقلية، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية، والمجاورة للأنوار القادسة الثابتة، فيصل إلى مقام البهجة والسرور، ولا تلحقه أحزان عالم الزور، كما اشير إليه في الكتاب الإلهي بقوله:

﴿الْإِنِّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١).

وفي أخبار داود عليه السلام: «يا داود! ما لأوليائي والهَمُّ بالدنيا؟ إن الهَمَّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم، إن محبى من أوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون».

والحاصل: أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الأمور الفانية، أو يحزن بزوالها. ولقد قال سيد الأوصياء - عليه آلاف التحية والثناء -: «ما لعلّ وزينة الدنيا؟ وكيف افرح بلذة تفنى، ونعيم لا يبقى؟!». بل ينبغي أن يرضى نفسه بالموجود، ولا يغتم بالمفقود، ويكون راضياً بما يرد عليه من خير وشر. وقد ورد في الآثار: «أن الله تعالى بحكمته وجلاله، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين»، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود، فقد فاز بأمن بلا فزع، وسرور بلا جزع، وفرح بلا حسرة، ويقين بلا حيرة، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس، فإن كل حزب بما لديهم فرحون، كالتاجر بالتجارة، والزارع بالزراعة، بل الشاطر بالسطارة، والقواد بالقيادة، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الامر ليس إلا لأهل السعادة والكمال، وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال. فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية، والسعادات الأبدية ولا يحزن على فقد الرخارف الدنيوية، والحطام الطبيعية، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه ﷺ:

﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾^(١).

ومن تصفح فرق الناس، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الأشياء، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم. فالصبيان فرحهم باللعب وتهينة اسبابه، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم. والبالغون حد الرجولية، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار، وبعضهم بالضياح والعقار، وآخر بالاتباع والأنصار، وفرقة بالنسوان والأولاد، وطائفة بالحرف والصناعات، وبعضهم بالحسب والنسب، والآخر بالجاه والمنصب، وبعضهم بالقوة الجسمانية، وآخر بالجمال الصوري، وطائفة بالكمالات

(١) طه، الآية: ١٣١.

الدينية: كالخط، والشعر، وحسن الصوت، والطب، والعلوم الغريبة، وغير ذلك، حتى ينتهي إلى من لا يفرح إلا بالكمالات النفسية والرياسات المعنوية، وهم أيضاً مختلفون، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة، وآخر بمعرفة حقائق الأشياء، حتى يصل إلى من ليس فرحه إلا بالأنس بحضرة الربوبية، والاستغراق في لجة أنواره، وسائر المراتب عنده فيء زائل وخيال باطل. ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويتهيج به حصول هذه المرتبة وسائر الأمور، كسراب بقية يحسبه الظمان ماء. فلا ينبغي للعاقل أن يحزن بفقدائها ويفرح بوجودها. ثم، من تأمل، يجد أن الحزن ليس أمراً وجودياً لازماً، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه بسوء اختياره. إذ كلما يفقد من شخص ويحزن لأجله ليس موجوداً لكثير من الناس، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلاً، ومع ذلك لا تجددهم محزونين على عدمه، بل فرحون راضون، ولو كان الحزن لازماً لفقد هذا الأمر، لكان كل من فقده محزوناً، وليس كذلك. وأيضاً كل حزن يعرض لأجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور، ولو كان الحزن لأجلها أمراً ضرورياً لازماً لما زال أصلاً.

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الأمور الدنيوية، مع أنه يعلم أن الدنيا دار الفناء، وزخارفها متنقلة بين الناس، ولا يمكن بقاؤها لأحد، وجميع الأسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل إلى الناس على سبيل التبادل والتناوب. ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب، يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم، ثم يعطيها غيره. فطامع البقاء للحطام الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به، إذا وصلت إليه نوبة الاستمتاع، وإذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة. وما المال والأهلون إلا ودائع، ولا بد يوماً أن ترد الودائع. فلا ينبغي للعاقل أن يغتم ويحزن لأجل ردّ الوديعة، كيف والحزن بردها كفران للنعمة؟ إذ أقل مراتب الشكر أن تردّ الوديعة إلى صاحبها على طيب النفس، لا سيما إذا استرد الأخس - أعني الخباثات الدنيوية -، وبقي الأشرف - أعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية -

فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالأمر الفانية، حتى لا يحزن بفقدها. قال سقراط: «إنني لم أحزن قط، إذ ما أحببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته، ومن سرّه ألا يرى ما يسوؤه، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقداً». ومنها:

عدم الاعتماد

أو ضعفه في أموره على الله، والوثوق بالوسائل، والنظر إليها فيها. وسببه: إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، أو كلاهما. فهو من رذائل قوتي العاقلة والغضب. ولا ريب في أنه من المهلكات العظيمة، وينافي الإيمان، بل هو من شعب الشرك. ولذا ورد في ذمه من الآيات والأخبار ما ورد، قال الله سبحانه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(١). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾^(٢). وقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٣).

وفي أخبار داود عليه السلام: «ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماوات من يديه، واسخطت الأرض من تحته، ولم ابال بأى واد هلك». قال رسول الله ﷺ: «من اغتر بالعبيد أذله الله». وقيل: «مكتوب في التوراة: ملعون من ثقته بانسان مثله». فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده، أعني التوكل، كما يأتي.

(١) الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٢) العنكبوت، الآية: ١٧.

(٣) المنافقون، الآية: ٧.

وصل (التوكل)

التوكل - فضيلة التوكل - درجات التوكل - السعى لا ينافي التوكل - الأسباب التي لا ينافي السعى إليها التوكل - اعقل وتوكل - درجات الناس في التوكل - تنفيذ زعم - طريق تحصيل التوكل.

* * *

التوكل اعتماد القلب في جميع الأمور على الله، وبعبارة أخرى: حوالة العبد جميع أموره على الله، وبعبارة أخرى: هو التبرى من كل حول وقوة، والاعتماد على حول الله وقوته. وهو موقوف على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد والآحاد، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية. فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة على الله وحده، ولم يلتفت إلى غيره، ولا إلى نفسه اصلاً. ومن لم يجد ذلك من نفسه، فسببه إما ضعف اليقين، أو ضعف القلب، ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه. فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه إضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفرّ عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلاً -، فشبه العسل بين يديه بالعدرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه، وتعدّر عليه أن يتناوله، مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعدرة فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته. فالسكون في القلب شيء آخر، واليقين شيء آخر. فكم من يقين لا طمأنينة معه، كما قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ: بَلَىٰ! وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١).

فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية. وكم من مطمئن لا يقين له، كأرباب الملل والمذاهب الباطلة. فإن اليهودى مطمئن القلب إلى تهوذه، وكذا النصرانى، ولا يقين لهما أصلاً، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس. وإذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب، وارتفع بضعف أحدهما، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتى العاقلة والغضبية معاً، وضده - اعنى عدم التوكل - من رذائل أحدهما أو كليهما. ثم، إنك قد عرفت في باب التوحيد، أن عماد التوكل وما يبتنى عليه، هو المرتبة الثالثة من التوحيد، وهي أن تنكشف للعبد باسراق نور الحق، بأنه لا فاعل إلا هو، وأن ما عداه من الاسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية. فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل. وقد عرفت - ايضاً - أن المرتبة الثانية منه - اعنى التوحيد الاعتقادى - إذا قويت ربما أورثت حال التوكل، إلا أن التوكل كما ينبغى موقوف على المرتبة الثالثة منه.

فصل

(فضيلة التوكل)

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين، بل هو أفضل درجات الموقنين. ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة، قال الله تعالى:

(١) البقرة، الآية: ٢٦٠.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١). وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢). وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٣). وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٤). وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٥).

أى عزيز لا يذل من استجار به، فلا يضع من لاذ بجنابه، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره. وقال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله، كفاه الله كل مؤنة، ورزقه من حيث لا يحتسب. ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله إليها». وقال ﷺ: «من سرّه أن يكون أغنى الناس، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده». وقال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما ترزق الطيور، تغدو خماصاً وتروح بطاناً». وعن على بن الحسين عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه، فإذا رجل عليه ثوبان ابيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا على بن الحسين! ما لى أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول. فقال: مم حزنت؟ قلت: مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس. قال: فضحك، ثم قال: يا على بن الحسين! هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه؟ قلت: لا! قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه؟ قلت: لا!... ثم غاب عني»، ولعل الرجل كان هو الخضر - على نبينا وعليه السلام.. قال

(١) المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) آل عمران، الآية: ١٢٢، ١٦٠. المائدة، الآية: ١١. التوبة، الآية: ٥١. إبراهيم، الآية: ١١. المجادلة، الآية:

١٠. التغابن، الآية: ١٣.

(٣) آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٤) الطلاق، الآية: ٣.

(٥) الأنفال، الآية: ٤٩.

الصادق عليه السلام: «أوحى الله إلى داود: ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلقى، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن». وقال عليه السلام: «إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا». وقال عليه السلام: «من أعطى ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً: من أعطى الدعاء أعطى الاجابة، ومن أعطى الشكر أعطى الزيادة، ومن أعطى التوكل أعطى الكفاية. ثم قال: أتلوت كتاب الله عز وجل (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، وقال: (ولئن شكرتم لأزيدنكم)، وقال: (ادعوني استجب لكم؟)». وقال عليه السلام: «أيا عبد أقبل قبل ما يحب الله تعالى أقبل الله قبل ما يحب، ومن اعتصم بالله عصمه الله، ومن أقبل على الله قبله وعصمه، لم يبال لو سقطت السماء على الأرض، أو كانت نازلة نزلت على أهل الأرض فتشملهم بلية، كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية، أليس الله تعالى يقول: (إن المتقين في مقام أمين؟)». وقال عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: وعزتي وجلالى ومجدى وارتفاعى على عرشى! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيرى باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس، ولأنحينه من قربى، ولأبعدنه من وصلى، أيؤمل غيرى في الشدائد والشدائد بيدى؟ ويرجو غيرى؟ ويقرع بالفكر باب غيرى، ويبدى مفاتيح الابواب وهي مغلقة؟ وبابى مفتوح لمن دعانى، فمن ذا الذي املنى لنوائبه فقطعته دونها، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه منى؟ جعلت آمال عبادى عندى محفوظة، فلم يرضوا بحفظى، وملأت سماواتى ممن لا يمل من تسييحى، وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بينى وبين عبادى، فلم يثقوا بقولى، ألم يعلم من طرقة نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها احد غيرى إلا من بعد اذننى؟ فما لى اراه لاهياً عني؟ اعطيته بجودى ما لم يسألنى، ثم انتزعه عنه فلم يسألنى رده، وسأل غيرى، أفترانى ابدأ بالعطاء قبل المسألة؟ ثم اسأل فلا اجيب سائلنى؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبدى؟ أو ليس الجود والكرم لى؟ أو ليس العفو والرحمة بيدى؟ أو لست أنا محل الآمال؟ فمن يقطعها دونى؟ أفلا يخشى المؤمنون أن يؤملوا غيرى؟ فلو أن أهل سماواتى وأهل

أرضى أملوا جميعاً، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ما امل الجميع، ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك انا قيمه؟ فيا بؤساً للقانطين من رحمتي! ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني!»^(١).

فصل

(درجات التوكل)

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات:

الأولى - أن يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالاته كحاله بالثقة بالوكيل، وهذا اضعف الدرجات، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار، بل ربما زاول كثيراً من التدبيرات بسعيه واختياره. نعم ينافي بعض التدبيرات، كالتوكل على وكيله في الخصومة، فإنه يترك تدبيره من غيره جهة الوكيل، ولكن لا يترك التدبير الذي اشار إليه وكيله، ولا التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون تصريح اشارته.

الثانية - أن تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه، فإنه لا يعرف غيرها، ولا يفزع إلا إليها، ولا يعتمد إلا عليها. فإن رآها تعلق في كل حال بذيلها، وإن ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا أمه! والفرق بين هذا وسابقه، أن هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله، أى ليس يلتفت قلبه إلى التوكل، بل التفاته إنما هو إلى المتوكل عليه فقط، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه. وأما الاول فتوكل بالكسب والتكلف، وليس فانياً عن توكله، أى له التفات إلى توكله، وذلك شغل صارف عن

(١) صححنا الاحاديث على (اصول الكافي): ج ٢، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه. وعلى (البحار):

باب التوكل والتفويض والرضا: مج ١٥: ٢ / ١٥٣، ط (أمين الضرب). وللعلامة (المجلسي) رحمته في

الموضع المذكور، في الحديث الخامس، تحقيق دقيق وبيان لطيف، لا يسع المقام ذكره هنا، فمن اراد

الوقوف عليه، فعليه بمراجعة الموضع المذكور.

ملاحظة المتوكل عليه وحده. وهذا أقل وقوعاً ودواماً من الاول، إذ حصوله إنما هو للخواص، وغاية دوامه أن يدوم يوماً أو يومين، وينافي التدبيرات، إلا تدبير الفزع إلى الله بالدعاء والابتهاال، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط.

الثالثة - وهي أعلى الدرجات، أن يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل، بأن يرى نفسه ميتاً، وتحركه القدرة الأزلية كما يحرك الغاسل الميت. وهو الذي قويت نفسه، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد. والفرق بينه وبين الثاني، أن الثاني لا يترك الدعاء والتضرع، كما أن الصبي يفزع إلى امه، ويصيح ويتعلق بذيلها، ويعدو خلفها، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته، فهذا مثال صبي علم أنه إن لم يرص بامه، فالأم تطلبه، وإن لم يتعلق بذيلها فهي تحمله، وإن لم يسأل اللبن فهي تسقيه. ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل عليه السلام لما وضع في المنجنيق ليرمى به إلى النار، وأشار إليه روح الأمين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه فقال: «حسبي من سؤالي علمه بحالي». وهذا نادر الوقوع، عزيز الوجود، فهو مرتبة الصديقين، وإذا وجد فدوامه لا يزيد على صفة الوجل، أو حمرة الخجل، وهو ينافي التدبيرات ما دام باقياً، إذ يكون صاحبه كالمبهوت. ثم، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره، وقد يكون في بعضها. وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقلتها. وقال الكاظم عليه السلام في قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

«التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في امورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه، وثق به فيها وفي غيرها». ولعل سائر درجات التوكل أن

يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقتلتها.

فصل

(السعى لا ينافي التوكل)

اعلم أن الأمور الواردة على العباد إما أن تكون خارجه عن قدرة العباد ووسعهم، بمعنى أنه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية أو ظنية لجلبها أو دفعها، أو تكون لها اسباب جالبة لها أو دافعة اياها، إلا أن العبد لا يتمكن منها.

فمقتضى التوكل فيها ترك السعى بالتمحلات والتدبيرات الخفية، وحوالتها على رب الأرباب، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات، لكان خارجاً عن التوكل رأساً، أو لا تكون خارجه عن قدرتهم، بمعنى أن لها أسباباً قطعية أو ظنية يمكن للعبد أن يحصلها ويتوصل بها إلى جلبها أو دفعها. فالسعى في مثلها لا ينافي التوكل، بعد أن يكون وثوقه واعتماده بالله دون الأسباب. فمن ظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالعقل رأساً، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، فقد أبعد عن الحق، لأن ذلك محرم في الشرع الأقدس. فإن الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله إليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحله الله، وبإبقاء النسل بالتزويج، وكلفه بأن يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوصل إلى الأسباب المعينة لدفعها. وكما أن العبادات أمور أمر الله تعالى عباده بالسعى فيها، ليحصل لهم بها التقرب إليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالم عن النفس والأهل والعيال أمور أمرهم الله تعالى، ليحصل لهم بها التوصل إلى العبادات وما يؤدي إلى التقرب والسعادة. ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً ألا يثقوا إلا به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما أنه سبحانه كلفهم ألا يتكلموا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى التوكل المأمور به في

الشرعية: اعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن إليها، وكان سكونه إلى الله سبحانه دونها مجوزاً في نفسه أن يؤتیه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب، دون هذه الأسباب التي حصلها، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها.

فصل

(الأسباب التي لا ينافي السعي إليها التوكل)

الأسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاوتها للتوكل، هي الأسباب القطعية أو الظنية، وهي التي يقطع أو يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته ارتباطاً مطرداً لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع أو لدفع ضرر منتظر أو لإزالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد إلى الطعام للوصول إلى فيه، وحمل الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الأولاد، وأخذ السلاح للعدو، والادّخار لتجدد الاضطراب، والتداوى لازالة المرض، والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل، وغلق الباب وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع أو يظن وجود السارقين أو السباع الضارة فيه... وقس عليها غيرها.

وأما الأسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة والاستقصاء في دقائق التدبير، وابداء التمحللات لأجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل، لأن امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء، وليست مما أمر الله تعالى بها، بل ورد النهي عنها، على أن الأمور به الاجمال في الطلب وعدم الاستقصاء. قال رسول الله ﷺ: «ألا ان الروح الأمين نفث في روعي: أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله تعالى، واجملوا في الطلب». وقال ﷺ: «ما أجمل في الطلب من ركب البحر». وقال الصادق عليه السلام: «ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب الحريص، الراضى بدينه، المطمئن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف،

ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لا بد منه، إن الذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم». وقال ﷺ: «إذا فتحت بابك، وبسطت بساطك، فقد قضيت ما عليك».

فصل

(إعقل وتوكل)

اعلم أن التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة، مع أن الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك، لأن الله سبحانه ربط المسببات بالأسباب، وأبى أن يجرى الأشياء إلا بالأسباب. ولذا لما أهمل الاعرابي بغيره، وقال: توكلت على الله، وقال له النبي ﷺ: «إعقلها وتوكل». وقال الصادق ﷺ: «أوجب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك». وقال الله تعالى:

﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾^(١). وقال في كيفية صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَ أَنْسَلِحْتَهُمْ﴾^(٢). وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾^(٣). وقال لموسى: ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا﴾^(٤). والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر.

وفي الاسرائيليات: «أن موسى بن عمران ﷺ اعتل بعله، فدخل عليه بنو اسرائيل، فعرفوا علته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا اتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء. فطالت علته، فأوحى الله اليه: وعزتي وجلالي! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكره لك. فقال لهم: داووني بما ذكرتم. فداووه، فبريء. فاجس

(١) النساء، الآية: ٧١.

(٢) النساء، الآية: ١٠٢.

(٣) الانفال، الآية: ٦٠.

(٤) الدخان، الآية: ٢٣.

في نفسه من ذلك، فاوحى الله تعالى اليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك على، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟». وروى: «أن زاهداً من الزهاد، فارق الأمصار وأقام في سفح جبل، فقال: لا أسأل احداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي. فقعد سبعة، فكاد يموت، ولم يأته رزق، فقال: يا رب! إن احيتني فأنتي برزقي الذي قسمت لي، وإلا فاقبضني اليك. فاوحى الله تعالى اليه: وعزتي وجلالي! لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، وتقعّد بين الناس. فدخل المصر فأقام، فجاء هذا بطعام، وهذا بشراب، فاكل وشرب. فاوجس في نفسه ذلك، فاوحى الله اليه: أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا، أما علمت اني ارزق عبدي بايدي عبادي احب الي من أن ارزقه بيد قدرتي؟».

فصل

(درجات الناس في التوكل)

اعلم أن درجات الناس - كما عرفت - في التوكل مختلفة، بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه، وفي قوة التوحيد وضعفه: فمنهم: من كمل ايمانه ويقينه، بحيث سقط وثوقه عن الأسباب بالكلية، وتوجه بشراشره إلى الواحد الحق، ولا يرى مؤثراً إلا هو، وليس نظره إلى غيره اصلاً، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته، بحيث لا يختلج بباله احتمال أن يكله ربه إلى غيره، ولا يعترى نفسه اضطراب اصلاً. فلا بأس لمثله أن يعرض عن الأسباب المقطوعة أو المظنونة بالكلية، لأن الله سبحانه يحفظه ويحرسه ويصلح اموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سواء حصل الأسباب أم لا، وسواء كسب أم لم يكتسب، إلا أنه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع امرالله فيه، إلا أنه ليس وثوقه إلا بالله دون السبب والكسب. وما ورد من حكايات بعض الكمل من الأولياء، من أنهم يسافرون في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ثقة بالله، ويصل اليهم الرزق، أو لا يتحرزون من

السباع الضارة، أو يغفلون القول بالنسبة إلى أهل الاقتدار من الملوك والسلاطين من دون خوف ومبالاة، اعتماداً على الله، والله سبحانه ينجيهم منهم، كانوا منهم: أى من الكاملين في التوكل. قال الصادق عليه السلام: «أبى الله عز وجل أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون». وإنما خصه بالمؤمنين، لأن كمال الايمان يقتضى ألا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله عز وجل وحده. وكمال الايمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ومنهم: من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الأسباب والوسائط، ويكون مقصور الالتفات إلى جناب الحق. فهذا هو الذي لا ينبغي له أن يعرض عن الأسباب ويتركها، لأن مثله ليس له المظنة التي توصله إلى المقصد بدون الوسائط: اعنى قوة التوكل على الله واليقين به سبحانه.

فصل

(تفنيد زعم)

بعض الناس زعم: أن حق التوكل أن يكتفى بالأسباب الخفية عن الأسباب الجلية، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد، بعد أن راض نفسه على جوع الأسبوع وما يقاربه، بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب، واضطراب نفس، وتشويش خاطر، وفتر في ذكر الله، وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له، وأن يوطن نفسه على أنه إن مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة.

وكان يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب، ويتفرغ للعبادة، والفكر والذكر، واستغرق وقته بها، بحيث لا يستشرف نفسه إلى الناس في انتظاره ومن يدخل فيحمل إليه شيئاً، بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله. وهذا محض الخطأ، إذ من جاهد نفسه وراضها بحيث يصبر على جوع الأسبوع، ويمكنه التقوت

بالحشيش، صارت الأسباب له جلية. فإن عدم الحاجة احد الغنائين. ثم إن كان اعتماده - حينئذ - على صبره وتمكنه من التقوى بالحشيش، فاين التوكل؟ وإن كان وثوقه بالله وحده، فليقم في بلده مع الأسباب، كما أمر الله به في الشرع. وأما توطين نفسه باختياره على الموت، فممنوع عقلاً، ومحرم شرعاً. قال الله سبحانه:

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١).

وأما الجالس في بيته، التارك لكسبه، يعبد الله من دون طلب، فهو أيضاً قد ترك متابعة امر الله. قال الصادق عليه السلام: «إن من يقوته أشد عبادة منه». وربما يكون مثله كلا على الناس، فإن حاله ينادى بالبؤس واليأس، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل. وبالجمل لا مدخل لخفاء الأسباب وجلائها في التوكل، بعد ما تقرر أن معناه الثقة بالله وحده، لا بالاسباب، فسواء وجود الأسباب وفقدها وجلاؤها وخفائها.

فصل

(طريق تحصيل التوكل)

الطريق إلى تحصيل التوكل - بعد تقوية التوحيد والاعتقاد، بأن الأمور باسرها مستندة إليه سبحانه، وليس لغيره مدخلة فيها - أن يتذكر الآيات والأخبار المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه، وكونه باعث النجاة والكفاية، ثم يتذكر أن الله سبحانه خلقه بعد أن لم يكن موجوداً، واوجده من كتم العدم، وهياً له ما يحتاج اليه، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته، ولا يوصل إليه ما يحتاج اليه، ولا يدفع عنه مايؤذيه، لتقدسه من العجز والنقص والخلف والسهو. وينبغي أن يتذكر الحكايات

(١) البقرة، الآية: ١٩٥.

التي فيها عجائب صنع الله في وصول الأرزاق إلى صاحبها، وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الأغنياء واذلال الأقياء، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة، وكم من ذى مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقته وصار محتاجا، وكم من قوى صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزاً ذليلاً بلا سبب ظاهر، وكم من ذليل عاجز صار قوياً واستولى على الكل. ومن تأمل في ذلك، يعلم أن الامور بيد الله، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به. والمناط أن يعلم أن الأمور لو كانت بقدرة الله سبحانه من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها، فعدم التوكل عليه سبحانه والثقة بغيره غاية الجهل، وإن كانت لغيره سبحانه من الوسائط والاسباب مدخلية، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وإنجاح الامور، إذ السمع والتجربة شاهدان بأن من توكل على الله وانقطع إليه كفاه الله كل مؤنة. فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الاسباب لإنجاح المقاصد وكفاية الامور. وعلامة حصول التوكل، ألا يضطرب قلبه، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه وحدوث اسباب ضره. فلو سرق بضاعته، أو خسرت تجارته، أو تعوق أمر من اموره، كان راضياً به، ولم تبطل طمأنينته، ولم تضطرب نفسه، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحداً. فإن من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب بفقده، ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه واطمأن به.

ومنها:

الكفران

(وضده الشكر)

الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه - اقسام النعم واللذات - الأكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل

- عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب - تسخير الله التجار - لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الأسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصحة خير من السقم.

* * *

وبعد ما تعرف حقيقة الشكر، وكونه متعلقاً بأى القوى، تعرف بالمقايضة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى.

فقول: الشكر هو عرفان النعمة من المنعم، والفرح به، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير، والتحميد للمنعم. واستعمال النعمة في طاعته. أما المعرفة، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله، وأنه هو المنعم، والوسائط مسخرات من جهته. ولو انعم عليك أحد، فهو الذي سخره لك، وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطراً إلى الايصال اليك، فمن عرف ذلك، حصل أحد اركان الشكر لله، وربما كان مجرد ذلك شكراً، وهو الشكر بالقلب. كما روى: «أن موسى قال في مناجاته: إلهي! خلقت آدم بيدك، وأسكنته جنتك، وزوجته حواء أمتك، فكيف شكرك؟ فقال: علم أن ذلك مني، فكانت معرفته شكراً».

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد، وهما داخلان فيها. إذ التقديس تنزيهه سبحانه عن صفات النقص، والتوحيد قصر المقدس عليه، والاعتراف بعدم مقدس سواه، وهذه المعرفة هي اليقين بأن كل ما في العالم موجود منه، والكل نعمة منه، فينطوى فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والانفراد بالفعل، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من قال: سبحان الله، فله عشر حسنات، ومن قال: لا اله الا الله، فله عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله، فله ثلاثون حسنة». فسبحان الله: كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله: كلمة تدل على التوحيد، والحمد لله: كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق. ولا تظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب بمعانيها، بل هي بازاء

الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من أبواب الايمان واليقين. واما الفرح بالمنعم، مع هيئة الخضوع والتواضع، فهو ايضاً من اركان الشكر. بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه، فهو ايضاً في نفسه شكر بالقلب، وانما يكون شكراً إذا كان فرحه بالمنعم أو بالنعمة لا من حيث إنه نعمة ومال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا، بل من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب من المنعم، والنزول في جواره، والنظر إلى وجهه على الدوام، وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة الآخرة ومعينه عليها، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله، لأنه ليس يريد النعمة لذاتها، بل من حيث إنها توصله إلى مجاورة المنعم وقربه ولقائه. وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم، فهو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوه، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح. أما المتعلق بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق. وأما المتعلق باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه. وأما المتعلق بالجوارح، فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته، حتى أن من جملة شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم، ومن جملة شكر الاذنين أن يستر كل عيب يسمعه من مسلم، فيدخل هذا وامثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء. بل قيل: من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت لأجله كفر نعمة الشمس ايضاً، إذ الابصار انما يتم بها، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه، ويقي بهما ما يضره فيهما. بل المراد من خلق السماء والأرض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله، ولا وصول إليه إلا بمحبته والانس به في الدنيا، والتجافي عن الدنيا وغرورها ولذاتها وعلائقها، ولا انس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر، ولا يمكن الذكر والفكر إلا ببقاء البدن، ولا يبقى البدن إلا بالارض والماء والهواء والنار، ولا يتم ذلك إلا بخلق الارض والسماء وخلق سائر الاشياء، وكل ذلك لاجل البدن. والبدن مطية النفس. والنفس الراجعة إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة

والمعرفة. فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية. وإذا عرفت حقيقة الشكر، تعرف بالمقايضة حقيقة الكفران، فإنه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله، أو عدم الفرح بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها إلى القرب منه، أو ترك استعمال النعمة فيما يحبه المنعم. أو استعمالها فيما يكرهه.

ثم بما ذكرناه وإن ظهر أن حقيقة الشكر ملتزمة من الأمور الثلاثة، إلا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد أيضاً، كما قال الصادق عليه السلام: «شكر كل نعمة، وإن عظمت، أن تحمد الله»، وقال عليه السلام: «شكر النعم اجتناب المحارم، وتمام الشكر قول الرجل: الحمد لله رب العالمين». وسئل عنه عليه السلام: «هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرًا؟ قال: نعم! قيل: ما هو؟ قال: يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال، وإن كان فيما انعم عليه في ماله حق أذاه. ومنه قوله عز وجل:

﴿سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾^(١). ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾^(٢). وقوله: ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾^(٣).

وقال عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ إذا ورد عليه أمر يسره، قال: الحمد لله على هذه النعمة. وإذا ورد عليه أمر يغتم به، قال: الحمد لله على كل حال». وقال عليه السلام: «إذا أصبحت وأمسيت، فقل عشر مرات: اللهم ما أصبحت بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد ولك الشكر بها على يا رب، حتى ترضى وبعد الرضا. فإنك إذا قلت ذلك، كنت قد أديت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة». وفي رواية: «كان نوح عليه السلام يقول ذلك إذا أصبح، فسمى

(١) الزخرف، الآية: ١٣.

(٢) المؤمنون، الآية: ٢٩.

(٣) الإسراء، الآية: ٨٠.

بذلك عبداً شكوراً». وقال عليه السلام: «إذا ذكر أحدكم نعمة الله، فليضع خده على التراب شكراً لله، فإن كان راكباً فلينزل وليضع خده على التراب، وإن لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه^(١)، وإن لم يقدر فليضع خده على كفه، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه». وروى: «أن الصادق عليه السلام قد ضاعت دابته، فقال لئن ردها الله عليّ لأشكرن الله حق شكره». قال الراوى: فما لبث أن أوتى بها، فقال: «الحمد لله». فقال قائل له: جعلت فداك! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ألم تسمعنى قلت: الحمد لله؟»^(٢). ثم الشكر باللسان لأظهار الرضا من الله، ولذا أمر به. وقد كان السلف يتساءلون بينهم، ونيتهم استخراج الشكر لله، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل. وقد روى: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل: كيف أصبحت؟ فقال: بخير. فأعاد عليه السؤال، فأعاد عليه الجواب، فأعاد السؤال الثالثة، فقال: بخير أحمد الله وأشكره. فقال ﷺ: هذا الذي أردت منك».

(تنبيه) لا ريب في أن الجزء الأول من الشكر - اعنى معرفة النعم من الله - من متعلقات العاقلة وفضائلها. والثانى - اعنى إفرح للنفس - إن كان من النعم العقلية الروحانية، يكون متعلقاً بالعاقلة ايضاً، وإن كان لأجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء - مثلاً - على عدو ظالم، يكون متعلقاً بالقوة الغضبية، وإن كان من نعمة المال والأولاد، يكون متعلقاً بالقوة الشهوية.

والجزء الثالث - اعنى العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته. وبهذا يظهر: أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث، والأول من فضائلها إذا امتزجت وتسالمت، والثانى من رذائلها.

(١) القربوس - بفتحين -: حنو السرج، أى قسمه المقوس المرتفع من قدام المقعد ومن مؤخره.

(٢) هذه الرواية مذكورة في (اصول الكافى): ج ٢ - باب الشكر. وفي (الوافى): ٣/ ٣٢٤ - باب الشكر. إلا أن المنقول في نسخ (جامع السعادات) فيه اختلاف كثير عما في الموضعين، ففصححناها عليهما.

فصل

(فضيلة الشكر)

الشكر أفضل منازل الأبرار، وعمدة زاد المسافرين إلى عالم الأنوار، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء. وقد ورد به الترغيب الشديد، وجعله الله سبباً للمزيد. قال الله سبحانه:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾^(١). وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٢). وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾^(٤).

ولكونه غاية الفضائل والمقامات، ليس لكل سالك أن يصل إليه، بل ليس الوصول إليه إلا لأوحدى من كمل السالكين. ولذا قال الله رب العالمين:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾^(٥).

وكفى به شرفاً وفضلاً، أنه خلق من اخلاق الربوبية، كما قال الله سبحانه:

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٦). وهو فاتحة كلام أهل الجنة وخاتمة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾^(٧). وقال: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٨).

وقال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاكر، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب».

(١) النساء، الآية: ١٤٧.

(٢) ابراهيم، الآية: ٧.

(٣) البقرة، الآية: ١٥٢.

(٤) آل عمران، الآية: ١٤٥.

(٥) سبأ، الآية: ١٣.

(٦) التغابن، الآية: ١٧.

(٧) الزمر، الآية: ٧٤.

(٨) يونس، الآية: ١٠.

والمعافي الشاكر، له من الاجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر، له من الاجر كأجر المحروم القانع». وقال عليه السلام: «إن للنعم أو ابد كأو ابد الوحش، فقيدها بالشكر». وقال عليه السلام: «ينادى مناد يوم القيامة: ليقوم الحمدادون! فيقوم زمرة. فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة». فقيل: من الحمدادون؟ فقال: «الذين يشكرون الله على كل حال». وقال السجاد عليه السلام: «إن الله سبحانه يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور». وقال الباقر عليه السلام: «كان رسول الله عليه السلام عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا أكون عبداً شكوراً؟... قال: وكان يقوم على أطراف اصابع رجليه، فأنزل الله تعالى: طه! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى». وقال الصادق عليه السلام: «ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد». وقال عليه السلام: «ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة»^(١). وقال عليه السلام: «في كل نفس من انفسك شكر لازم لك، بل ألف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله تعالى من غير علة يتعلق القلب بها دون الله عز وجل، أو الرضا بما اعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من امره ونهيه بسبب نعمته. فكن لله عبداً شاكراً على كل حال، تجد الله رباً كريماً على كل حال، ولو كان عند الله تعالى عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال، لا تطلق لفظة منهم عن جميع الخلق بها، فلما لم يكن أفضل منها، خصها من بين العبادات، وخص أربابها، فقال: (وقليل من عبادى الشكور). وتمام الشكر الاعتراف بلسان السرّ، خاضعاً لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره، لأن التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها، وهي اعظم قدراً وأعز وجوداً من النعمة التي من أجلها وفقت

(١) صححنا الأحاديث على (اصول الكافي): ج ٢، باب الشكر. وعلى (البحار): مج ١٥: ١٣٢-١٣٥.

له، فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه، إلى ما لانهاية له، مستغرقاً في نعمه، قاصراً عاجزاً عن درك غاية شكره، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه، والعبد ضعيف لا قوة له أبداً إلا بالله عز وجل، والله غنى عن طاعة العبد قوى على مزيد النعم على الأبد، فكن لله عبداً شاكراً على هذا الأصل، ترى العجب»^(١). ثم كما أن الشكر من المنجيات الموصلة إلى سعادة الأبد وزيادة النعمة في الدنيا، فضده - اعنى الكفران - من المهلكات المؤدية إلى شقاوة السرمد وعقوبة الدنيا وسلب النعم. قال الله سبحانه:

﴿فَكَفَرْتُ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٣).

وقال الصادق عليه السلام: «اشكر من أنعم عليك، وانعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت، ولا بقاء لها إذا كفرت. الشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير، أى من التغيير».

فصل

(الشكر نعمة يجب شكرها)

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله، فالشكر على كل نعمة أن تعرف كونها من الله وتصرفها من جهة محبته. ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضاً نعمة من الله، إذ جميع ما نتعاطاه باختيارنا نعمة من الله، لأن جوارحنا، وقدرتنا، وارادتنا، ودواعينا، وافاضة المعارف علينا، وسائر الأمور التي هي أسباب حركاتنا، بل نفس حركاتنا، من الله. وعلى هذا،

(١) صحيحنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب السادس وعلى (سفينة البحار): ١/ ٧١٠.

(٢) النحل، الآية: ١١٢.

(٣) الرعد، الآية: ١٢.

فالشكر على كل نعمة نعمة أخرى من الله يحتاج إلى شكر آخر، وهو أن يعرف أن هذا الشكر ايضاً نعمة من الله سبحانه، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه. وهذه المعرفة والفرح تحتاج إلى شكر آخر. وهكذا، فلا بد من الشكر في كل حال، وليس يمكن أن تنتهي سلسلة الشكر إلى ما لا يحتاج إلى شكر. فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره تعالى، إذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم، حتى شكره من الله، وهذا غاية ما يمكن للعبد. ويشهد بذلك ما روى: «أن الله عز وجل أوحى إلى موسى ﷺ: يا موسى! اشكرني حق شكرى. فقال: يا رب! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت انعمت به على؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني، حيث علمت أن ذلك منى». وكذلك أوحى ذلك إلى داود، فقال: «يا رب! كيف اشكرك وأنا لا أستطيع أن اشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك». وفي لفظ آخر: «وشكرى لك نعمة أخرى منك، ويوجب على الشكر لك، فقال: إذا عرفت هذا فقد شكرتني». وفي خبر آخر: «إذا عرفت أن النعم منى، رضيت عنك بذلك شكراً». وروى: «أن السجاد ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول: سبحان من لم يجعل في احد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها». كما لم يجعل في احد من معرفة ادراكه اكثر من العلم بانه لا يدركه، فشكره تعالى معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره، فجعل معرفتهم بالتقصير شكراً، كما علم العارفين بأنهم لا يدركونه، فجعله ايماناً، علماً منه أنه فقد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك، فإن شيئاً من خلقه لا يبلغ مدى عبادته، فكيف يبلغ مدى عبادته من لا مدى له ولا كيف؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وقال أبو الحسن ﷺ: «من حمد الله على النعمة فقد شكره، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة»^(١)، يعنى أنه نعمة فوق

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي): ج ٢، باب الشكر. وعلى (الوافي): ٣/ ٣٢٤، باب

تلك النعمة، يستدعى شكراً آخر.

فصل

(المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه)

لما عرفت أن الشكر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه، والكفران عبارة عن نقيض ذلك - اعنى ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه -، فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه، وتمييز محابه عن مكارهه، حتى يتمكن من اداء الشكر وترك الكفران، لتوقفهما على معرفتهما وتمييزهما. وهذا التمييز والتعريف له مدركان:

احدهما - الشرع، فإنه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه، وعبر عن الاول بالواجبات والمندوبات، وعن الثانى بالمحرمات والمكروهات. فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع احكام الشرع في افعال العباد، فمن لم يطلع على حكم الشرع في جميع افعاله، لم يمكنه القيام بحق الشكر.

وثانيهما - العقل والنظر بعين الاعتبار، فإن العقل متمكن - في الجملة - من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات. فإن الله سبحانه ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكم كثيرة، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى. فمن استعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي إلى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى، وإن استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤدي إلى المقصودة منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها، فقد كفر نعمة الله.

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء، إذ الحكم المقصودة من الأشياء، إما جلية أو خفية. أما الجلية: كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار، وحكمة انشقاق الأرض بانواع النبات في وجود الغيم ونزول الأمطار، وحكمة الإبصار في

العين، والبطش في اليد، والمشى في الرجل، وحصول الأولاد، وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة، وحكمة المضغ والطحن في خلق الأسنان وأمثال ذلك. وأما الحكم الخفية: كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة، واختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان، من الامعاء والمرارة والكلية واحاد العروق والاعصاب والعضلات، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك. فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد، ومن يعرف منها شيئاً فلا يعرف إلا قدر يسيراً. فإن جميع اجزاء العالم، سماءه وكواكبه، وما فيها من الأوضاع والحركة والاختصاصات، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض، وما فيها من البحار والجبال والرياح، والمعادن والنبات والحيوان، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة إلى الف أو اكثر، وقليل منها جليلة، واكثرها دقيقة خفية، وبعضها متوسط في الجلاء والخفاء يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والأرض، واكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها. ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية والروحانية والجسمانية، جارية على وفق الحكمة، ومستعملة ذواتها واجزاؤها وما يتعلق بها على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها. وأما الانسان، فلكونه محل الاختيار ومجرأه، فقد جرى ويستعمل الأشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك، فيكون كافراً بنعمة الله سبحانه. فمن ضرب غيره بيده فقد كفر بنعمة الله في اليد، إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه، ويأخذ ما ينفعه، لايهلك به غيره. ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر بنعمة العين، لأنها خلقت ليصر بها ما ينفعه في دينه ودنياه، ويتقى بها ما يضره فيهما. ومن ادّخر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر بنعمة الله فيهما، لأنهما حجران لا منفعة ولا عوض في أعيانهما، وإنما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة، فهما عزيزان في أنفسهما. ولا غرض

في اعينهما. ونسبتهما إلى سائر الاموال نسبة واحدة. فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء، لا كمن ملك ثوباً، فانه لا يملك إلا الثوب. فان احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب، إذ لا غرض له في ذاته، بخلاف النقدين، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء. والأشياء إنما تستوى نسبتها إلى المختلفات - إذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها بخصوصها - كالمرأة لا لون لها وتحكى كل لون، وكالحرف لا معنى لها في نفسها، بل تظهر لها المعانى في غيرها، وكذلك النقدان، لا غرض فيهما مع كونهما وسيلة إلى كل غرض. فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الأموال بالعدل، وتعرف بهما المقادير المختلفة، وتقوم بهما الأشياء المتباينة، ويحصل التوصل بهما إلى سائر الأموال. فيلزم اطلاقهما لتداولهما الأيدى، وتحصل بهما التسوية في تبادل الأعيان والمنافع المتخالفة، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما، وأبطل الحكمة فيهما، وكفر نعمة الله فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل إلى ما يحتاج، وانفق الزائد في سبيل الله، فهو الذي استعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما. ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحكمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت، أخبرهم الله عن ذلك بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما، يظهر أن من اتخذ الأواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما ايضاً، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم، لأنهما إنما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، إذ لا غرض في عينهما، فإذا اتجر في عينهما فقد

اتخذهما مقصوداً لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة. وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يغتذى بها، فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها وتقيد في الايدى، بل اللازم أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج. ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها. وإذا عرفت ذلك، فقس عليه جميع افعالك واعمالك وحركاتك وسكناتك، فإن كل فعل يصدر منك إما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما، مثلاً لو استنجيت باليمين، فقد كفرت نعمة اليمين، إذ خلق الله اليمين وجعل إحداها أقوى، واستحق الاقوى لرجحانه التفضيل، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل، وهذا التفضيل إنما يتصور بأن تصرف الاقوى في الافعال الشريفة، كأخذ المصحف وأكل الطعام، وتصرف الاضعف في الاعمال الخسيسة، كازالة النجاسة، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة. وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت، لان الخف وقاية للرجل، فللرجل فيه حظ، والبداء في الحظوظ ينبغي أن تكون بالاشرف، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة، فخلافه ظلم وكفران. وكذلك إن استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم، لانه خلق الجهات متعددة متسعة، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته، فينبغى استقباله بالأفعال الشريفة، كالصلاة والجلوس للذكر والاعتسال والوضوء، دون الافعال الخسيسة، كقضاء الحاجة ورمى البزاق، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه إلى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله. وكذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة مهمة، ومن غير غرض صحيح، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد. أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث، بل للطاعة المعينة عليها. وأما الشجر، فلان الله تعالى خلقه، وخلق له العروق وساق إليه الماء، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده، فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به عباده، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة. نعم إن كان

له غرض صحيح في كسره فله ذلك. إذ الشجر والحيوان جعلاً فداءين لاغراض الانسان، فإنهما جميعاً فانيان هالكان. فافناء الأخس في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً. وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(١).

ثم هذه الافعال المتصفه بالكفران، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزل، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو افق الشياطين. ولذلك يوصف بعضها - في لسان الفقه - بالكراهة وبعضها بالحضر. وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه المكاره مكروهة غير محظورة، مع أن جميعها عدول عن العدل، وكفران للنعمة، ونقصان عن الدرجة المبلغة إلى القرب، لأن الخطاب به إنما هو إلى العوام الذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام، وقد انغمسوا في ظلمات اعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة إليها. فإن المعاصي كلها، ظلمات، إلا أن بعضها فوق بعض، فيتمحق بعضها في جنب البعض. ولذا ترى أن السيد يعاتب عبده إذا استعمل سكينه بغير اذنه، ولكن لو قتل بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكاية في نفسه. ولذا جميع هذه المكاره موصوفة عند ارباب القلوب بالحظر، ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب. حتى نقل: «ان بعضهم جمع أكراراً من الحنطة ليتصدق بها، فسئل عن سببه فقال: لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً، فأريد أن اكفره بالصدقة».

فصل

(أقسام النعم والذات)

اعلم أن النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة، بل كل مطلوب ومؤثر. وهي تنقسم إلى مؤثر لذاته لا لغيره، أى تكون غاية مطلوبة لذاتها ليس فوقها غاية أخرى، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء لها، اعنى لذة النظر إلى وجه الله، وسعادة لقائه، وسائر لذات الجنة، من البقاء الذي لا فناء له، والسرور الذي لا غم فيه، والعلم الذي لا جهل معه، والغنى الذي لا فقر بعده، وغير ذلك. فإنها لا تطلب ليتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها، بل تطلب لذاتها، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة الواقعية، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لا عيش إلا عيش الآخرة»، وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية العقلية دون الجسمانية - كما لا يخفى -، فيختص بادراكها العقل، ولا حظّ للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها. وإلى ما يقصد لغيره، أى تكون مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة إليها، سواء أكانت مقصودة لذاتها أيضاً أم لا. وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الاول - وهو الأقرب الأخص: الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب، ويجمعها العلم والعفة والشجاعة والعدالة، وهذه مع كونها لذية في نفسها، تكون وسيلة إلى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى. ولذلك قلنا: هي اقرب الوسائل وأخصها. وأشرفها العلم، وأشرف أفراد العلم: العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله، وأحوال النشأة الآخرة، وسائر أفعاله، وعلم المعاملة الراجع إلى علم الاخلاق، إذ هو الذي يؤدي إلى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر، وسائر العلوم إنما هي مقصودة من حيث كونها وسائل إلى هذا العلم، وهذه الفضائل لذية في الدنيا والآخرة نافعة فيهما، أى تؤدي إلى الراحة فيهما، وجميلة على الاطلاق، أى تستحسن في جميع الأحوال. وضدهما - اعنى الجهل والأخلاق السيئة - ضارة

مؤلمة في الدارين، قبيحة على الإطلاق. وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الأوصاف. فإن أكل لذائذ الأطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع، أي حصول الراحة في الحال، ولكنه ضار في المال، وترك الشهوات بعكس ذلك.

ثم لذة المعرفة وفضائل الأخلاق دائمة لازمة لا تزول أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس. وأما غيرها من اللذات، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات، كلذة الرئاسة والغلبة والاستيلاء، وهذه اللذة موجودة في الأسد والنمر وبعض آخر من الحيوانات. وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر الحيوانات، كلذة البطن والفرج، وهي أخس اللذات، ولذلك اشترك فيها كل مادب ودرج، حتى الديدان والحشرات. فمن جاوز هذه اللذة، تثبتت به لذة الغلبة والاستيلاء، فإن جاوزها أيضاً ارتقى إلى اللذة العقلية، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة، لا سيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. وهذه مرتبة الصديقين، ولا ينال تمامها إلا بخروج حب الرئاسة من القلب، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاء، ولذلك قمعها بالكلية، بحيث لا يقع بها الاحساس قط، يشبه أن يكون خارجاً عن مقدرة البشر. نعم ربما غلبت لذة المعرفة في احوال، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاء والرئاسة، إلا أن ذلك لا يدوم، بل تعتريه الفترات، فتعود إلى الحالة البشرية. وعلى هذا، تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لا يحب إلا الله، ولا يستريح إلا إليه، وليس فرحه إلا بزيادة المعرفة والفكر فيه، ولا يسكن إلا بحبه وأنسه. وقلب: أغلب احواله الأنس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن في بعض الأوقات والأحوال يعتريه الرجوع إلى أوصاف البشرية. وقلب: أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية، وفي بعض الأوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والأنس به. وقلب: لا يدري ما لذة المعرفة وما معنى الأنس بالله، وإنما لذته بالرئاسات والشهوات. **والأول** - إن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية الندور. **والثاني** - ايضاً نادر. والسر في ندور هذين

القسمين: أن من انحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه، أو غلب عليه ذلك، فهو من ملوك الآخرة، والملوك هم الأقلون ولا يكثررون. فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا إلا نادراً، وأكثر الناس دونهم، فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة. إذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب، كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة، وهي وإن كانت الثانية في رتبة الوجود، إلا أنها في أمر الرؤية أولى، لأنك ترى صورتك في المرآة أولاً، ثم ترى نفسك، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حق الرؤية والمعرفة وانقلب المتأخر متقدماً. وهذا النوع من الانعكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم. وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملوك، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة إلا بنظر الاعتبار، فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويعبر به إلى عالم الملوك، فيسمى عبوره عبرة، وقد أمر الخلق به، فقل:

﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾^(١).

ومنهم من عميت بصيرته، فلم يعتبر، فاحتبس في عالم الملك والشهادة، وستفتح إلى حبسه له أبواب جهنم. وأما الثالث - فأكثر وجوداً منه. وأما الرابع - فدار الدنيا طافحة به، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة العلم، إما لعدم الذوق، إذ من لم يذوق لم يعرف ولم يشق، إذ الشوق فرع الذوق، وذلك إما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل، ولا يستلذ إلا باللبن، فهؤلاء ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل. وإما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر، أو الميت الذي سقط عنه الادراك، وهؤلاء كالمريض أو الأموات بسبب اتباع الشهوات.

(١) الحشر، الآية: ٢.

القسم الثاني - الفضائل البدنية: وهي أربعة: الصحة، والقوة، وطول العمر، والجمال.

الثالث - النعم الخارجة المضيغة بالبدن: وهي: المال، والجاه، والأهل، وكرم العشيرة.

الرابع - الأسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية، ويعبر عنها بالنعم التوفيقية: وهي: هداية الله ورشده، وتسديده، وتأيينه. وهذه الجملة مما يتوقف بعضها على بعض، إلى أن ينتهي إلى السعادة التي هي مطلوبة لذاتها. والتوقف إما على سبيل اللزوم والضرورة، كتوقف سعادة الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية، وتوقف الفضائل النفسية على صحة البدن، أو على سبيل النفع والاعانة، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية على النعم الخارجة. ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب الأخلاق وصحة البدن ظاهر. واعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية والبدنية مبني على أن القبيح مذموم، والطباع عنه نافرة، فحاجات الجميل إلى الاجابة أقرب، وجاهه في الصدور أوسع. وأيضاً الغالب دلالة الجمال على فضيلة النفس، لأن نور النفس إذا تم اشراقه تأدى إلى البدن. ولذلك عوّل اصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن. ثم إننا لانعنى بالجمال ما يحرك الشهوة، فإن ذلك انوثة، بل نعنى به البراءة عن العيوب والنقص والزيادة، وارتفاع القامة على الاستقامة، مع الاعتدال في اللحم، وتناسب الأعضاء، وتناسب خلقة الوجه، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه. وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية إلى النعم التوفيقية، فلأن المراد بالتوفيقية هو التآلف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره، بشرط كون المراد والمقضى سعادة. وبعبارة اخرى: هو توجيه الأسباب نحو المطلوب.

وأما الهداية، فلها مراتب: أوليها: الهداية العامة، وهي إراءة طريق الخير وتعريفه. وثانيها: الخاصة، وهي الافاضات المتتالية الواردة من الله على بعض

عبيده، نظراً إلى مجاهدتهم. وثالثتها: الهداية المطلقة، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية، فيهتدى بهما إلى ما لا يهتدى إليه بالعقل. وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة، كائناً ما كان، على مساعدة القضاء والقدر، وعلى العلم بطريق الخير، ظاهر.

وأما الرشد، فالمراد به العناية الإلهية، التي تعين الانسان عند توجيهه إلى مقاصده، فيقويه على ما فيه صلاحه، ويفتره عما فيه فساد، ويكون ذلك من الباطن. وبعبارة أخرى: هو هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها. وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة إليه من مفهومه.

وأما التسديد، فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليصل إليه في أسرع وقت. فالهداية محض التعريف، والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك، والتسديد اعانة ونصرة بتحريك الأعضاء إلى صوب الصواب والسداد. وقد ظهر وجه كون التسديد معيناً في طلب الخير أيضاً من حاق معناه.

وأما التأييد، فإنه جامع للكل، إذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة، فكأنه من داخل، وبقوة البطش ومساعدة الأسباب من خارج. وتقرب منه العصمة، وهي عبارة عن وجود إلهي يسنح في الباطن، يقوى به الانسان على تحرى الخير وتجنب الشر، حتى يصير كمانع باطنى غير محسوس يمنع عن الشر. وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّءَا بَرَهَنَ رَبِّهٖ﴾^(١).

تنبيه

اعلم أن النعم الاخروية، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها، وتفصيلها

(١) يوسف، الآية: ٢٤.

وأسابها وما يتوقف وجودها عليه، إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب، مما لا يمكن دركها، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلاً عن كثيرها.

وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضاً إلى أربعة أقسام، وصار مجموعها ستة عشر قسماً، فيستدعى كل قسم من الستة عشر أسباباً، وتلك الأسباب أسباباً، حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجد الكل. والمتفكر يعلم، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الإحصاء. فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملة نعمة الأكل، فإن إحصاءها وإن لم يكن ممكناً، إلا أنا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء، لتقاس عليها البواقي. فنقول:

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته وأسبابه، وعلى القدرة إلى تحصيله واسبابه، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكوّنه، وعلى إصلاحه بعد وجوده وتكوّنه، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل إنسان لو كان بعيداً عنه، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة إلى أن يصير جزء للبدن، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة. فهذا نذكرها إجمالاً وتلويحاً في فصول:

فصل

(الأكل)

الأكل يتوقف أولاً على ادراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماماً وذوقاً، إذ ما لم يصره لم يمكنه تمييزه وطلبه، وما لم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الأكل، وما لم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد، لا سيما لبعض الحيوانات، وما لم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس

المدركة الظاهرة، فخلقها الله سبحانه، ثم، الأسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تنتهي، فلا نتعرض لبيانها. وبعد ادراك الغذاء - على ما ذكر - لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقاً ورآه مرة أخرى موافقاً أو مخالفاً، وهذه القوة هي الحس المشترك، الذي يتأدى إليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه، فإنك إذا أكلت شيئاً أصفر - مثلاً - فوجدته مراً مخالفاً لك فتركته، فإذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مَرٌّ مالم تذقه، لولا، الحس المشترك، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعاً، حتى إذا أدرك الصفرة حكم بأنه مَرٌّ، فيمتنع عن تناوله ثانياً. وهذه القوة - أعنى الحس المشترك - يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن احصاؤها، فلتذرنا على سنايلها.

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك، مما تشترك فيه سائر الحيوانات، ولو انحصر ادراك الانسان أيضاً به لكان ناقصاً. إذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثانی الحال، فتمرض وتموت، إذ ليس لها إلا الإحساس بالحاضر، وأما ادراك العواقب فليس لها إليه سبيل. فيتوقف تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى. فخلق الله للانسان العقل، به يدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في المال، وبه يدرك كيفية طبخ الأطعمة وتركيبها واعداد أسبابها، فينتفع بعقله في الأكل الذي هو سبب صحته، وهو أخس فوائد العقل وأقل الحكم فيه، إذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله. والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن، والحواس الخمس كالجواسيس واصحاب الأخبار والموكلين بنواحي المملكة، وقد وكل كل واحدة منها بامر خاص. فواحدة بأخبار الألوان، وأخرى بأخبار الأصوات، وأخرى بأخبار الروائح، وأخرى بأخبار الطعوم، وأخرى بأخبار الحرّ والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة. فهذه الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة، ويسلمونها

إلى الحس المشترك، وهو قاعد في مقدمة الدماغ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك، يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم، ويأخذها ويسلمها إلى العقل الذي هو السلطان مختومة، إذ ليس له إلا أخذها وحفظها، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه. ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك، سلم، لأنها آتية إليه مختومة، فيفتشها الملك ويطلع على اسرار المملكة، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها. وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود - أعني الأعضاء - في الطلب أو الهرب أو إتمام التدبيرات التي تعن له. ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر، وهذه ما يتوقف عليه الأكل من الإدراكات وأسبابها.

فصل

(لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل)

إذا أدرك الغذاء، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه. إذ لولا الميل إليه لكان ادراكه بأى حس وقوة فرضاً معطلاً. ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك أنه أنفع الأشياء له. وقد سقطت شهوته، فلا يتناوله، فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه؟ فيتوقف الاكل على ميل إلى الموافق، ويسمى شهوة، ونفرة عن المخالف، ويسمى كراهة. فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمقاضي الذي يضطره إلى التناول، وهذه الشهوة لو لم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها، ولم يجعلها كالزرع الذي لا يزال يجتذب الماء إذا انصب في اسفله حتى يفسد، ولذلك يحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء اخرى. ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي، ما لم تنبعث الداعية إلى تناول الغذاء. فخلق الله تعالى له الارادة - أعني انبعاث النفس إلى تناوله. وربما حصل الاحتياج إلى قوة الغضب - ايضاً - ليدفع

عن نفسه المؤذى وما يضاده ويخالفه، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء. ثم لكل واحد من الشهوة، والكرهية، والارادة، والغضب، اسباب لا يمكن احصاؤها. ثم بعد ادراك الغذاء وميله وشهوته وارادته، لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والأخذ بالفعل بآلاتهما. فكم من زمن شائق إلى شيء بعيد منه مدرك له مائل إليه مريد له، لا يمكنه أن يمشى إليه لفقد رجله، أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفالج أو عذر فيهما. فلا بد من آلات للحركة، وقدرة في تلك الآلات على الحركة، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً. فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف اسرارها. فمنها ما هو آلة للطلب، كالرجل للانسان، والجنح للطير، والقوائم للدواب. ومنها ما هو آلة لدفع المؤذى والممانع من طلب الغذاء، كالقرن لبعض الحيوانات، والأنياب لبعض آخر منها، والمخلب لبعض آخر منها، والأسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة. ومنها ما هو آلة للأخذ والتناول، كاليد للإنسان. ثم لهذه الأعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكير.

فصل

(عجائب المأكولات)

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه، هي الأغذية والأطعمة المأكولة، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى، واسباب متوالية لا تنتهى. والأغذية والادوية من الأطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حداً يمكن احصاؤها وحصرها، فضلاً عن بيان عجائبها واسبابها. فنحن نترك الجميع، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها. فنقول:

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذى به كما خلق فيك. فإن النبات إنما يفارقك في الحس والحركة دون الاغتذاء، لأنه يغتذى بالماء. ولا نتعرض لذكر

آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه، بل نشير إلى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة.
فنعول:

إن الحبة لا تغتذى بكل شيء، بل يتوقف اغتذاؤها على أرض فيها ماء. ولا بد أن تكون أرضها رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها، فلو تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء. ثم الهواء لا يتسرب إليها بنفسه، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾^(١).

وإلقاها إنما هو إيقاعها الازدواج بين الهواء والماء والأرض. ثم لا يكفي ذلك في إنباته في برد مفرط، فيحتاج إلى حرارة الصيف والربيع. فهذه أربعة أسباب. فإن الماء لا بد أن ينساق إلى أرض الزراعة من البحار والشطوط والأنهار والعيون والسواقي، فانظر كيف خلق الله جميع ذلك. ثم الأرض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع إليها مياه العيون والقنوات، فخلق الله الغيوم، وهي سحب ثقال حاملات للماء، وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه إلى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات، وترسلها مدراراً على الأراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً على قدر الحاجة، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد، وهلك الزرع والمواشى. ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والأمطار لا يمكن إحصائها. وأما الحرارة، فإنها لا يمكن أن تحصل في الماء والأرض، لكونهما باردين. فخلق الله الشمس، وسخرها، وجعلها - مع بعدها عن الأرض - مسخنة لها في وقت دون وقت، ليحصل الحر عند الحاجة إليه، والبرد عند الافتقار إليه، وهذه أحسن حكم الشمس، والحكم

فيها أكثر من أن تحصى. ثم النبات إن ارتفع على الأرض كان في الفواكه انعقاد وصلابة، فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فخلق الله القمر، وجعل من خاصيته الترطيب، كما يظهر لك ذلك إذا كشفت رأسك له في الليل، فإنه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بـ (الزكام)، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها، ويصنعها بتقدير الخالق الحكيم. وهذا أيضاً أحسن فوائد القمر وحكمه، وما فيه من الحكم والفوائد لا مطلق في استقصائه، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائد كثيرة لاتفى القوى البشرية باحصائها. وكما أنه ليس في أعضاء البدن عضو لا فائدة فيه، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة. والعالم كله كشخص واحد، وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متفاوتة تفاوت أعضاء البدن، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر، وكلها مسخرات لله سبحانه، وآثار من قدرته الكاملة، ورشحات من أبحر عظمتة الباهرة، وليست في انفسها إلا أعدام صرفة. فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والأرض، والآفاق والأنفس، والحيوانات والنباتات، لا ينظرون إليها إلا من حيث إنها آثار قدرة ربهم، ورشحات صفاته، ويكون تفكيرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك. كما أن من أحب عالماً لم يزل مشغولاً بطلب تصانيفه، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حباً له. فكذلك الأمر في عجائب صنع الله، فإن العالم كله من تصنيفه تعالى، بل جميع المصنفين أيضاً من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده. فإن تعجبت من تصنيف، فلا تتعجب من المصنف، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه مما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه. كما إذا رأيت لعب المشعوذ^(١) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة، فلا تتعجب من اللعب، فإنها خرق محرقة لا متحركة، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها

(١) المشعوذ: الرجل الحيال، الذي يصنع الشعبة.

بروابط دقيقة عن الابصار. وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب، ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها، ولا تتم الأفلاك إلا بحركاتها، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها، وكذلك تتسلسل الأسباب إلى أن تنتهى إلى مسبب الأسباب وغاية الكل، وليس لنا سبيل إلى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها.

فصل

(حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب)

ثم ما ينبت من الأرض من النبات، وما يحصل من الحيوانات، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك، بل لا بد في كل واحد من اصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف، بالقاء البعض وابقاء البعض، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى، وكل من الاطعمة يتوقف اصلاحها على امور خاصة كثيرة، واستقصاء ذلك في كل طعام طويل. فلنأخذ رغيماً واحداً، ونظر إلى بعض ما يحتاج إليه حتى يستدير ويصلح للأكل، إذ بيان جميع ما يحتاج إليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكناً، فنقول: أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الأرض، ثم إلقاء البذر فيها، ثم الثور الذي يثير الأرض مع آلاته، كالفدان وغير ذلك، ثم تنقية الأرض من الحشائش، والتعهد بسقى الماء إلى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه، ثم الحصاد، ثم الفك، ثم التنقية والتصفية. ثم الطحن، ثم العجن، ثم الخبز. فتأمل عدد هذه الافعال، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها، وعدد الآلات التي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيرها. وانظر إلى اعمال الصانع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرهما، واحتياج كل منها إلى آلات كثيرة. ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصانع المصلحين، وسلط عليهم الأنس والمحبة، حتى ائتلفوا واجتمعوا وبنوا المدن والبلاد، ورتبوا

المساكن والدور متجاورة متقاربة، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع، ولو تفرقت آراؤهم، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش، لتبددوا وتباعدوا، ولم يتتبع بعضهم ببعض. ثم لما كان في جيلة الانسان الغيظ والعداوة، والحسد والمنافسة، والانحراف عن الحق، وربما زالت المحبة بين البعض لاعراض، فيزدحمون عليها، ويتنافسون فيها، وربما أدى إلى التنافر والتقابل. فبعث الله الأنبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا إليها عند التنازع، فيرتفع نزاعهم. ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها. وبعث الله السلاطين أولى القوة والعدة على الناس، وألقى رعبهم في قلوبهم، وألهمهم اصلاح العباد، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والأسواق، واضطروا الخلق إلى قانون الشرع والعدل، وألزموهم التآلف والتعاون، ومنعوهم عن التفرق والتباغض. فأصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين، وإصلاح السلاطين بالعلماء، وإصلاح العلماء بالأنبياء، وإصلاح الأنبياء بالملائكة، وإصلاح الملائكة بعضهم ببعض، إلى ان ينتهي إلى حضرة الربوبية، التي هي ينبوع كل نظام، ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف. وقد ظهر مما ذكر: أن من فتش يعلم، أن رغباً واحداً لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الإنس.

فصل

(تسخير الله التجار لجلب الطعام)

ثم جميع الأطعمة لما لم يمكن أن يوجد في كل مكان وبلد، إذ لكل واحد شروط مخصوصة لأجلها، لا يمكن إلا أن يوجد في بعض الأماكن دون بعض، والناس منتشرون على وجه الأرض، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون إليه من الأطعمة، بحيث تحول بينهم وبينها البراري والبحار، فسخر الله تعالى التجار، وسلط

عليهم حرص المال وشره الريح، حتى يقاسوا الشدائد، ويركبوا الأخطار في قطع
المفاوز وركوب البحار، فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من الشرق إلى الغرب،
ومن الغرب إلى الشرق. فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها،
وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال، من الجمال
وكيفية قطعها البراري والمراحل تحت الاعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش،
ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحركاتها، ومن الحمار وصبره على التعب، وانظر
كيف خلق الله ما يحتاج إليه السفن وهذه الحيوانات من الأسباب والغذاء، وينتهي
إلى حد لا يمكن تحديده.

فصل

(نعم الله في خلق الملائكة للانسان)

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء
للبدن. وهذا موقف على اعمال كثيرة، محتاجة إلى أسباب كثيرة، من الطحن،
والجذب، والهضم المعدى والكبدى، وغير ذلك من الأفعال التي يحتاج كل منها إلى
أسباب كثيرة. وقد أشرنا إلى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكير، فارجع اليه. وهنا
نشير إلى انموذج من نعمة الله في خلق الملائكة. فنقول:

إن كثرة الملائكة لم تبلغ حداً يمكن تصويره تفصيلاً أو إجمالاً. ولهم طبقات
وأصناف: منها: طبقات الملائكة الأرضية. ومنها: الملائكة السماوية. ومنها: حملة
العرش العظيم. ومنها: المسلسلون. ومنها: المهيمنون... وغير ذلك مما لم نسمع
اسمهم ورسمهم، ولا يحيط بهم إلا الله سبحانه فكل صنع من صنائع الله في الأرض
والسما لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به. فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع
إلى الأكل والإغتذاء الذي كلامنا فيه، دون ما يجاوز، وذلك من صنائع الله وافعاله،
ومن الوحي إلى الأنبياء والهداية والارشاد وغيرها، فإن استقصاء ذلك ليس من

مقدورات البشر. فنقول: إن كل جزء من اجزاء بدنك، بل من اجزاء النبات، لا يغتذى إلا بأن يوكل به سبعة من الملائكة، هم أقل الأعداد، إلى عشرة إلى مائة، إلى أكثر من ذلك بمراتب.

بيان ذلك: ان معنى الاغتذاء: أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك. وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء، حتى يصير جزءاً للبدن، كالجذب والهضم وصورته لحمًا وعظاماً. ومعلوم أن الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في اطوارها. كما أن الثبر بنفسه لا يصير طحيناً وعجيناً وخبزاً مطبوخاً إلا بصناع، والصناع في الباطن هم الملائكة، كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد. فالغذاء، بعد وضعه في الفم إلى أن يصير دماً، لا بد له من صناع من الملائكة، ولا تتعرض لهم ولييان عددهم، ونقول: بعد صورته دماً إلى أن يصير جزءاً للبدن، يتوقف على سبعة من الملائكة، إذ لا بد من ملك يجذب الدم إلى جوار اللحم والعظم، إذ الدم لا يتحرك بنفسه، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم. ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم، وما اكتسب صفة العظم بالعظم، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلاً، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الإلصاق، فيلحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته، وبالعريض على ما لا يبطل عرضه، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه، وهكذا... ويراعى في الإلصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج إليه. فلو جمع لانف الصبى - مثلاً - من الغذاء ما يجمع على فخذه، لكبر أنفه، وبطل تجويفه، وتشوهت صورته، بل ينبغي أن يسوق إلى الاجفان مع رقتها، وإلى الأنفخاد مع غلظتها، وإلى الحدة مع صفائها، وإلى العظم مع صلابته، ما يليق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل، ويراعى العدل في القسمة والتقسيت، وإلا

بطلت الصورة، وتشوهت الخلقة، ورق بعض المواضع وضعف البعض. فمراعاة هذه الهندسة مفوضة إلى ملك من الملائكة. وإياك وأن تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه، فإن من أحال هذه الأمور إلى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول. فإن أراد من الطبع قوة عديمة الشعور، ويقول: إن كل فعل من هذه الأفعال موكل إلى قوة لا شعور لها، فنقول: ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته، إذ لا ريب في أن ما لا شعور له ليس في نفسه أن يفعل فعلاً ما، فضلاً عن أن يفعل أفعالا متقنة محكمة، مشتملة على الحكم الدقيقة، والمصالح الجلية والخفية. فتكون هذه شروطاً ناقصة لا إيجاد الله سبحانه هذه الأفعال بلا واسطة، أو بواسطة عدد هذه القوى من الملائكة. وعلى أي تقدير، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله سبحانه مسخرين في باطنك. موكلين بهذه الأفعال، قد شغلوا بك، وأنت في النوم تستريح، وفي الغفلة تتردد، وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خبر لك منهم، وكذلك في كل جزء من اجزائك التي لا تتجزأ، حتى يفتقر بعض الأجزاء - كالعين والقلب - إلى أكثر من مائة ملك. ثم الملائكة الأرضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم، لا يحيط بكنهه إلا الله، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش، والمنعم على جميعهم بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس، المتفرد بالملك والملكوت والعزة والجبروت. ومن أراد أن يعلم - اجمالاً - كثرة الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين، وأجزاء النبات والحيوانات، والسحب والهواء والبحار والجبال والأمطار وغير ذلك، فليرجع في ذلك إلى الأخبار الواردة من الحجج عليه السلام. ثم لا بد أن يفوض كل فعل من الأفعال السبعة المذكورة إلى ملك من الملائكة. ويكون الموكل به ملكاً واحداً على حدة، ولا يمكن أن يفوض جميعها إلى ملك واحد، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة أعمال في الحنطة، كالطحن وتمييز النخالة، ودفع الفضلة عنه، وصب الماء عليه، والعجن، وقطعها كسرات مدورة، وترقيقها رغفاناً عريضة، والصاقها بالنور. إذ الملك وحداني الصفة، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات.

فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد، كما اشير إليه بقوله تعالى:

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١).

ولذلك، ليس بينهم تحاسد وتنافس. ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الآخر له مثال الحواس الخمس، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه اموراً مختلفة، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه، فإنه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل، ولذلك ترى أنه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى. وذلك غير موجود في الملائكة، فإنهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية، ولكل منهم طاعة خاصة معينة. فالراکع منهم راكع أبداً، والساجد منهم ساجد دائماً، والقائم منهم قائم أبداً، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور، ولكل واحد منهم مقام معلوم. وإذا قد ظهر لك عدد ما يحتاج إليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الأرضية المستمدين من الملائكة السماوية، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة، فإن بيان ذلك ليس ممكناً. ثم قس على ذلك اجمالاً جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملکوت، وعالم الملك والشهادة فسمواته وأرضه وما بينهما وما تحتهما وما فوقهما، فإن اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء، فضلاً عن الأحاد الداخلة تحت الطبقات؟

وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة، إلى أن ينتهي إلى الله، واتصال البعض ببعض ووقوع الارتباط والترتب بينهما: أن من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود، فمن نظر إلى غير محرم - مثلاً - فقد كفر، ففتح العين نعمة الله في الأجفان، ولا تقوم الأجفان إلا بالعين، ولا العين إلا بالرأس، ولا الرأس إلا بجميع البدن، ولا البدن إلا بالغذاء، ولا الغذاء إلا بالماء والأرض والهواء والمطر

(١) الصفات، الآية: ١٦٤.

والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب، ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسموات ولا السماوات إلا بالملائكة. فإن الكل كالشيء الواحد، يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض. فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود، من ابتداء الثرى إلى منتهى الثريا. وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان، ولا ماء ولا هواء، ولا كوكب ولا فلك ولا ملك، إلا يلعنه. ولذلك ورد في الأخبار: «ان البقعة التي يجتمع فيها الناس، إما تلعنهم إذا تفرقوا، أو تستغفر لهم». وكذلك ورد: «ان الملائكة يلعنون العصاة». وورد: «ان العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحوت في البحر». وأمثال هذه الأخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء، وكل ذلك اشارة إلى أن العاصي بتطريفة واحدة يجنى على جميع الملك والملكوت.

ثم جميع ما ذكرناه إنما يتعلق بجزء من المطعم، فاعتبر ما سواه. ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر؟ كيف والله في كل طرفة على كل عبد من عبيده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء؟ فإن في كل نفس ينبسط وينقبض نعمتين، إذ بانبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب، ولو لم يخرج لهلك، وبانقباضه يجتمع روح الهواء إلى القلب، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لانتقطع قلبه وهلك. ولما كان اليوم واللييلة اربعاً وعشرين ساعة، وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً، وإذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف الوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك، بل في كل جزء من اجزاء العالم، وكيف يمكن احصاء ذلك، ولذلك قال الله تعالى:

﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

وورد: «أن من لم يعرف نعمة الله إلا في مطعمه ومشربه، فقد قلَّ علمه وحضر عذابه». فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء، ولا يلم خاطره بموجود، إلا

(١) ابراهيم، الآية: ٣٤. النحل، الآية: ١٨.

ويتحقق أن الله فيه نعمة عليه. ولذلك قال موسى بن عمران: «إلهي! كيف أشكرك ولك عليّ في كل شعرة من جسدي نعمتان: أن لينت اصلها، وأن طمست رأسها».

فصل

(الأسباب الصارفة للشكر)

اعلم أن السبب الصارف لأكثر الخلق عن الشكر، إما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله سبحانه، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها، أو جهلهم بحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم: الحمد لله، أو الشكر لله، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر، كما في سائر الفضائل والطاعات، أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الأحوال من النعم نعمة. ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم، لكونها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع الحالات. فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصاً بها، فلا يعدها نعمة. وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها، فلا يتصورون خلاف ذلك، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الأحوال. فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء، ووفور الماء، وصحة البصر والسمع، وأمثال ذلك. ولو أخذ يحققهم، حتى انقطع عنهم الهواء، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار، أو بثر فيها هواء تقبل رطوبة الماء، ماتوا. فإن ابتلى واحد بشيء من ذلك، ثم نجى منه، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه. وكذا البصير، إذا عميت عينه، ثم أعيد عليه بصره، عده نعمة وشكره، ولو لم يتل بالعمى وكان بصيراً دائماً كان غافلاً عن الشكر. وهذا غاية الجهل، إذ شكرهم صار موقوفاً على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال، مع أن النعمة في جميع الأحوال أولى بالشكر. فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة. ومثلهم كمثّل العبد

السوء الذي لو لم يضرب بطر وترك الشكر، وإذا ضرب في غالب الأحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك. ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الأرض كلها. كما نقل: «ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء، وفي يده كوز ماء يشربه، فقال له: عظمي. فقال: لو لم تعط هذه الشربة إلا ببذل أموالك وملكك كله، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً، فهل تعطيه؟ قال: نعم! قال: فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء!». هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها أحد، أو يشاركه يسير من الناس، إما في العقل، أو في الخلق، أو في الورع والتقوى، أو في الدين، أو في صورته وشخصه، أو اهله وولده، أو مسكنه وبلده، أو رفقاءه وأقاربه، أو عزّه وجاهه، أو طول عمره وصحة جسمه، أو غير ذلك من محابه. بل نقول: لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيته في بعض هذه على سائر الخلق. فإن أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس، أو أحسن أخلاقاً منهم، مع أن الأمر ليس كذلك. ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال، ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها، ولا يرى ذلك من نفسه.

وبالجملة: كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره، وإن لم يكن مطابقاً للواقع. ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويطعى ما خصص به غيره، لكان لا يرضى به. بل التأمل يعطى: أن كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والأفعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان، بل لو وكل إليه الاختيار، وقيل له: أنت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس، لم يخير إلا نفسه. وإلى هذا أشار الله سبحانه بقوله:

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(١).

وإذا كان الأمر هكذا، فأنى له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة؟ ولو يكن لشخص من نعم الله إلا الأمن والصحة والقوة، لعظمت النعمة في حقه، ولم يخرج عن عهدة الشكر. قال رسول الله ﷺ: «من أصبح آمناً في سربه، معافى في بدنه، وعنده قوت يومه، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها». ومهما فتشت الناس، لو جدتهم يشكون عن أمور وراء هذه الثلاث، مع أنها وبال عليهم. بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذي به وصوله إلى النعيم المقيم والملك العظيم، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره. بل ينبغي للعاقل ألا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والايمان. ونحن نعلم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب، من اموال واتباع، وانصار وبلدان وممالك، بدلا عن عشر عشر من علمه لم يأخذه، لرجائه أن نعمة العلم تفضى به إلى قرب الله تعالى في الآخرة. بل لو سلم إليه جميع ذلك عوضاً عن لذة العلم في الدنيا، مع نيله في الآخرة إلى ما يرجوه، لم يأخذه ولم يرض به، لعلمه بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع، وثابتة لا تسرق ولا تغصب، وصافية لاكدورة فيها، بخلاف لذات الدنيا.

فصل

(طريق تحصيل الشكر)

الطريق إلى تحصيل الشكر أمور:

الأول - المعرفة والتفكر في صنایعه تعالى، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة.

(١) المؤمنون، الآية: ٥٣. الروم، الآية: ٣٢.

الثاني - النظر إلى الأدنى في الدنيا وإلى الأعلى في الدين.

الثالث - أن يحضر المقابر، ويتذكر أن أحب الأشياء إلى الموتى وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا إلى الدنيا، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب، أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم. فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته وردّه إلى الدنيا، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لأجله.

الرابع - أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض أيام عمره من المصائب العظيمة والأمراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها، فليتصور أنه هلك بها، ويغتنم الآن حياته وماله من النعم، فليشكر الله على ذلك، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه.

الخامس - أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث إنه لم تصبه مصيبة أكبر منها، وإنه لم تصبه مصيبة في الدين. ولذلك قال عيسى في دعائه ﷺ: «اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني!». وقال رجل لبعض العرفاء: «دخل اللص في بيتي وأخذ متاعى»، فقال له: «اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك، ماذا كنت تصنع؟». ومن حيث إن كل مصيبة إنما هي عقوبة لذنب صدر منه، فإذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة، كما قال رسول الله ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا، فالله أكرم من أن يعذبه ثانياً». وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا ﷺ أيضاً، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها إلى الآخرة. ومن حيث إن هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية إليه ألّبتة، فقد أتيت وفرغ منها. ومن حيث إن ثوابها أكثر منها وخير له، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الإبتلاء بالمصائب في الدنيا. ومن حيث إنها تنقص في القلب حب الدنيا والركون إليها، وتشوّق إلى الآخرة وإلى لقاء الله سبحانه. إذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد، من غير امتزاج ببلاء

ومصيبة، يورث طمأنينة للقلب إلى الدنيا وأنساً بها، حتى تصير كالجنة في حقه، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها، وإذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها، وصارت الدنيا سجنًا عليه، وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها، والتفاتها إلى عالمها الأصلي، وتشوقها إلى الخروج عنها إليه ورغبتها إلى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها.

فان قلت: غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه، وأما الشكر عليه فغير متصور، إذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحاً، والبلاء مصيبة وألم، فكيف يشكر عليه؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء واحد، إذ الصبر يستدعي بلاء وألماً، والشكر يستدعي نعمة وفرحاً، فهما متضادان غير مجتمعين، فكيف حكمتما باجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية؟

قلنا: كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد. فانعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والایمان والاخلاق والحسنة في الدنيا، والنعمة المقيدة في الدنيا - أي ما هو نعمة وصلاح من وجهه وبلاء وفساد من وجهه - كالمال الذي يصلح الدين من وجهه، ويفسده من وجهه. والبلاء المطلق، كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والأخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا، والبلاء المقيد، كمصائب الدنيا، من الفقر والخوف والمرض وسائر أقسام المحن والمصائب، فإنها وإن كانت بلاء في الدنيا، ولكنها نعم في الآخرة. وعند التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة، أو رياضة النفس، أو زيادة التجرد، أو رفع الدرجة. فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق، ولا معنى لاجتماع الصبر معه، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه، كما يأتي. والبلاء المطلق لم يؤمر بالصبر عليه، إذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية، بل يجب عدم الصبر عليه والسعي في تركه. وأما البلاء المقيد، فهو الذي يجتمع فيه الصبر والشكر، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع الضدين، بل الصبر من حيث إيجابه

الاعتماد والألم في الدنيا، والشكر من حيث ادائه إلى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر. ثم لو لم يصبر على جهة شريفة، ولم يشكر على جهة خيريته، صار بلاء مطلقاً لزم تركه بالرجوع إلى الصبر والشكر. وأما النعمة المقيدة، كالمال والثروة، فإن أدت إلى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر، ولم يكن محلاً للصبر، وإن أدت إلى فساد كانت بلاء مطلقاً واجب الترك، وإن أدت إلى بلاء الدنيا، كأن يصير ماله سبباً لهلاك أولاده، وفساد مزاجه، ويصير فوته باعثاً لابتنائه ببعض المصائب الدنيوية، كان حكمه حكم البلاء المقيد. ثم يأتي في باب الصبر: أن الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية، وفيهما يتحقق الشكر والصبر، إذ الشكر - كما عرفت - هو عرفان النعمة من الله والفرح به، وصرف النعمة إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر - كما يأتي - هو ثبات باعث الدين، أعني العقل النظري، في مقابلة باعث الهوى، أعني القوة الشهوية. ولا ريب في أنه في أداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور، إذ هو صرف النعمة إلى ما هو المقصود، إذ باعث الدين إنما خلق لحكمة دفع باعث الهوى، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة. وأنت خير بأنه وإن تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إلا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، إذ الصبر إنما هو عليهما، وأما الشكر فعلى باعث الدين، أعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه، واتحد في فعل الصبر والشكر، إذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة، وهو عين الطاعة وترك المعصية، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة، وهو أيضاً عين الطاعة وترك المعصية. ويمكن أن يقال: إن من فعل هذه الطاعة، وترك هذه المعصية، عرف كونهما من الله وفرح به، ويعمل طاعة أخرى شكراً له. وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية، أعني المشكور عليه وما يصبر عليه، إذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه

المعصية بعينها، ويختلف فعلاهما. إذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية، وفعل الشكر تحميد أو طاعة أخرى.

فصل

(الصحة خير من السقم)

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه إلى سعادة الأبد أنه خير من العافية في الدنيا، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها، فإياك أن تسأل من الله البلايا والمصائب في الدنيا، فإن رسول الله ﷺ كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة، وكان يقول هو والأنبياء والأوصياء عليهم السلام: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة. وفي الآخرة حسنة»، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وسوء القضاء. وقال ﷺ: «سلوا الله العافية، فما أعطى عبد أفضل من العافية إلا اليقين»، وأشار باليقين إلى عافية القلب من الجهل والشك، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن. وقال ﷺ في دعائه: «والعافية أحب إليّ».

وبالجملة: هذا أظهر من أن يحتاج إلى الاستشهاد. إذ البلاء إنما يصير نعمة بالإضافة إلى ما هو أكثر منه في الدنيا والآخرة، وبالإضافة إلى ما يرجى به الثواب في الآخرة، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها إلى الآخرة. فينبغي أن يسأل تمام النعمة في الدنيا، والثواب في الآخرة على شكر المنعم، والتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، فانه قادر على اعطاء الكل، وما نقل عن بعض العارفين، من سؤالهم المصائب والبلاء، كما قال بعضهم: «أود أن أكون جسراً على النار يعبر على الخلق كلهم فينجون، وأكون أنا في النار» وقال سمعون المحب: «وليس لي في سواك حب، فكيفما شئت فاخترني» فمبناه على غلبة الحب، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء. ومثل ذلك حالة تعثره، وليس لها حقيقة. فان من شرب كأس المحبة سكر، ومن سكر توسع في الكلام، ولما زال سكره

علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة. فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه. وقد روى: «ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه، فقال: ما الذي يمنعك عني، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لاجلك؟ فسمع ذلك سليمان عليه السلام، فطلبه وعاتبه في ذلك، فقال: يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى». ونقل: «أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور، ابتلى بمرض الحصر، فكان يصيح ويجزع، ويسأل الله العافية، ويظهر الندامة مما قال، ويدور على أبواب المكاتب، ويقول للصبيان: ادعوا لعمكم الكذاب». والحاصل: أن صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية إنما يكون في غليان الحب، فلا يثبت ولا يدوم. ومع ذلك كله، فاعلم ان الظاهر من بعض الأخبار الآتية في باب الصبر: ان في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد إلا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع، من الأنبياء والأولياء، بالمصائب العظيمة في الدنيا، وما ورد من ان أعظم البلاء موكل بالأنبياء ثم بالأولياء، ثم بالأئمة فالأئمة في درجات العلاء والولاء. وعلى هذا، فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس. فمن كان قوى النفس صابراً شاكراً في البلاء، ولم يصد عنه الذكر والفكر والحضور والأنس والطاعات والاقبال عليها، ولم يصير باعثاً لنقصان الحب لله، فالبلاء في حقه افضل في بعض الأوقات، إذ بأزائه في الآخرة من عوالى الدرجات ما لا يبلغ بدونه، ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعاً أو كفراناً، أو منعه عن شيء مما ذكر، فالعافية أصلح في حقه، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول إلى المراتب العظيمة، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء أفضل وأعلى منه. فان البصير الذي توسل بعينه إلى النظر الى عجائب صنع الله، وتوصل به إلى معرفة الله، وتمكن لأجل العينين إلى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من انواع العلوم، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور، ويتنفع

من علومه الناس ابداً، وربما بلغ لأجل العينين إلى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ إلى شيء من ذلك، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عدمه، ولولا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلاً - وقد كان ضريراً من بين الأنبياء - فوق رتبة موسى وإبراهيم وغيرهما عليهم السلام لأنه صبر على فقد البصر، وموسى لم يصبر عليه، وكان الكمال في أن يسلب الانسان الأطراف كلها ويترك كلحم على وضم. وهذا باطل، فإن كل واحد من الأعضاء آلة في الدين، فيفوت بفواتها ركن من الدين. ويدل على ذلك ماورد في عدة من الأخبار: «أن كل ما يرد على المؤمن من بلاء أو عافية أو نعمة أو بلية، فهو خير له وأصلح في حقه» وما ورد في بعض الأحاديث القدسية: «إن بعض عبادي لا يصلحه إلا الفقر والمرض، فاعطيته ذلك، وبعضهم لا يصلحه إلا الغنى والصحة، فاعطيته ذلك». وبذلك يجمع بين اخبار العافية واخبار البلاء.

ومنها:

الجزع

وهو إطلاق دواعي الهوى، من الإسترسال في رفع الصوت، وضرب الخدود، وشق الجيوب، أو ضيق الصدر والتبرم والتضجر. وهو وإن كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط، إلا أنه لما كان ضده الصبر، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية - كما يأتي - فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط، بل ذكرناه هنا. ثم الجزع في المصائب من المهلكات، لأنه في الحقيقة انكار لقضاء الله، وإكراه لحكمه، وسخط على فعله. ولذا قال رسول الله ﷺ: «الجزع عند البلاء تمام المحنة، وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط». وفي الخبر القدسي: «من لم يرض بقضائي، ولم يشكر على نعمائي، ولم يصبر على بلائي،

فليطلب رباً سواي». وروى: «ان زكريا لما هرب من الكفار، واختفى في الشجرة، وعرفوا ذلك، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا، فأناًة، فأوحى الله اليه: يا زكريا! لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحوك من ديوان النبوة! فعرض زكريا ﷺ على اصبعه حتى قطع شطرين». وبالجملية: العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لا فائدة فيه، إذ ما قدر يكون، والجزع لا يردده. ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة، فليتركه أولاً حتى لا يضيع أجره. وقد نقل «انه مات ابن لبعض الأكابر، فعزاه مجوسى، وقال له: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام. فقال: اكتبوه عنه». وقال الصادق ﷺ: «الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة. والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده إلا المختبون، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب. وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبراً. وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص، وتغير اللون والحال. وكل نازلة خلت أوائله من الإخبات والإنابة والتضرع إلى الله فصاحبها جزوع غير صابر. والصبر ما أوله مر وآخره حلو، من دخله من أواخره فقد دخل، ومن دخله من أوائله فقد خرج. ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر، قال الله تعالى في قصة موسى والخضر ﷺ: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، فمن صبر كرهاً، ولم يشك إلى الخلق، ولم يجزع بهتك ستره، فهو من العام، ونصيبه ما قال الله عز وجل: وبشر الصابرين: أى بالجنة والمغفرة. ومن استقبل البلاء بالرحب، وصبر على سكينته ووقار، فهو من الخاص، ونصيبه ما قال الله عز وجل: إن الله مع الصابرين»^(١).

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): باب ٩٢. وعلى (البحار): باب الصبر واليسر بعد العسر، مج

فصل

(الصبر)

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر في الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم بين الصبر والشكر - القانون الكلي في معرفة الفضائل - تفضيل الصبر على الشكر.

ضد الجزع (الصبر)، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب، بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة، فيحبس لسانه عن الشكوى، وأعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة. وهذا هو الصبر على المكروه، وضده الجزع. وله أقسام آخر لها اسماء خاصة تعد فضائل اخر: كالصبر في الحروب، وهو من انواع الشجاعة، وضده الجبن. والصبر في كظم الغيظ، وهو الحلم، وضده الغضب. والصبر على المشاق، كالعبادة، وضده الفسق، أى الخروج عن العبادات الشرعية. والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات، وهي العفة وإليه أشير في قوله سبحانه:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(١).

وضده الشره. والصبر عن فضول العيش، وهو الزهد، وضده الحرص. والصبر في كتمان السر، وضده الاذاعة، والأولان، كالصبر على المكروه من فضائل قوة الغضب. والرابع، من نتائج المحبة والخشية. والبواقي، من فضائل قوة الشهوة - كما يأتي -. وبذلك يظهر: أن من عدّ الصبر مطلقاً من فضائل القوة الشهوية أو القوة الغضبية إنما أراد به بعض أقسامه.

ويظهر من ذلك: أن أكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر. ولذلك لما سئل رسول الله ﷺ عن الايمان، قال: «هو الصبر، لانه أكثر اعماله وأشرفها»، وكما قال:

(١) النازعات، الآية: ٤٠ - ٤١.

«الحج عزم». وقد عرّف مطلق الصبر بأنه مقاومة النفس مع الهوى وبعبارة أخرى: أنه ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادى إلى طريق الخير والصلاح، والعقل العملى المنفذ لأحكامه المؤدية إلى الفوز والفلاح. والمراد بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل. والقتال دائماً بين الباعثين قائم، والحرب بينهما أبداً سجال^(١)، وقلب العبد معركته، ومدد باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله، ومدد باعث الهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله، فإن ثبت باعث الدين بامداد الملائكة حتى قهر باعث الهوى واستمر على مخالفته، غلب حزب الله والتحق بالصابرين، وإن تحاول وضعف حتى غلب باعث الهوى بامداد الشياطين ولم يصبر على دفعه، التحق باتباع الشياطين. وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة، أى اليقين بكون الهوى عدواً قاطعاً لطريق الوصول إلى الله مضاداً لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة. ثم باعث الدين إما يقهر داعى الهوى بالكلية، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، فيدوم الصبر، وتستقر النفس في مقام الاطمئنان، وتنادى من وراء سرادقات الجمال بخطاب: (يا أيتها النفس المطمئنة! ارجعى إلى ربك راضية مرضية)، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين، وتنسلك في سلك عباده الصالحين. أو يغلب داعى الهوى وينقهر باعث الدين، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة، ويأس عن المجاهدة والمقاومة، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سر الله ووديعته إلى حزب الشيطان. ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع الكمالات، ويسلمه إلى الكفار من اعدائه، فيقتلونه لديه، ويحرّقونه بين يديه، بل هو أسوء حالاً منه بمراتب - كما لا يخفى -. إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة، بل يكون بينهما تنازع وتجادب، فتارة يغلب هذا، وتارة يغلب ذاك، فتكون النفس في مقام المجاهدة إلى أن يغلب أحد الباعثين، فتدخل في

(١) «الحرب بينهم سجال»: مثل مشهور، أى تارة لهم وتارة عليهم.

حزب الله أو حزب الشيطان. ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر إما أن تكون في جميع مقتضياته أو بعضها، وتخرج من القسمين ثلاثة احوال:

الأولى - أن يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الأوقات.

الثانية - أن يغلب عليه الجميع في الجميع.

الثالثة - أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع، أو يغلب عليها كلاً أو بعضاً دون بعض.

وقد أشير إلى أهل الحالة الأولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ... إِلَى آخِرِ الْآيَةِ﴾^(١). وإلى الثانية بقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾^(٢). وإلى الثالثة بقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٣).

فصل

(مراتب الصبر)

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات، إن كان بيسر وسهولة فهو الصبر حقيقة، وإن كان بتكلف وتعبد فهو التصبر مجازاً. وإذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنی، تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة، كما قال الله سبحانه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(٤).

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا، وإذا أدام مقام الرضا

(١) الفجر، الآية: ٢٧-٢٨.

(٢) السجدة، الآية: ١٣.

(٣) التوبة، الآية: ١٠٢.

(٤) الليل، الآية: ٥-٧.

أورث مقام المحبة. وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «اعبد الله على الرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير».

قال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاث مقامات: الأول: ترك الشكوى، وهذه درجة التائبين. الثاني: الرضا بالمقدر، وهذه درجة الزاهدين. الثالث: المحبة لما يصنع به مولاه، وهذه درجة الصديقين». وكأن هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن. ثم باعث الصبر إما إظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس، ليكون عندهم مرضياً، كما نقل عن معاوية: أنه أظهر البشاشة، وترك الشكوى في مرض موته، وقال:

وتجلدى للشامتين أريهم
إني لريب الدهر لا أنزعزع
وهذا صبر العوام، وهم الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، أو توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة، وهذا صبر الزهاد والمتقين، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه. إذ كل ما يرد من المحبوب محبوب، والمحب يشاق إلى التفات محبوبه، ويرتاح به، وإن كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحاناً له، وهذا صبر العارفين، وإليه الإشارة بقوله تعالى:

﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾^(٢).

وقد ورد: أن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام قال لجابر بن عبدالله الأنصاري -

(١) الزمر، الآية: ١٠.

(٢) البقرة، الآية: ١٥٥ - ١٥٧.

وقد اكتنفته علل وأسقام، وغلبه ضعف الهرم -: «كيف تجد حالك؟» قال: أنا في حال الفقر أحب إلي من الغنى، والمرض أحب إلي من الصحة، والموت أحب إلي من الحياة. فقال الإمام عليه السلام: «أما نحن أهل البيت، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة، فهو أحب إلينا». فقام جابر، وقبل بين عينيه، وقال: صدق رسول الله ﷺ حيث قال لي: «يا جابر! ستدرك واحداً من أولادى اسمه اسمى، يبقر العلوم بقراً».

تذنيب

(أقسام الصبر)

الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى الأقسام الخمسة، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض، وعلى بعض المكروه وأداء المندوبات نفل، وعلى الأذية التي يحرم تحملها حرام، كالصبر على قطع يده، أو يد ولده، أو قصد حريمه بشهوة محظورة، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع. وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محموداً، بل بعض أنواعه ممدوح، وبعض أنواعه مذموم، والشرع محكم، فما حسنه حسن، وما قبحه قبيح.

فصل

(فضيلة الصبر)

الصبر منزل من منازل السالكين، ومقام من مقامات الموحدين. وبه ينسلك العبد في سلك المقرين، ويصل إلى جوار رب العالمين. وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات إليه، وذكره في نيف وسبعين موضعاً من القرآن ووصف الله الصابرين بأوصاف، فقال - عز من قائل -:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١). وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٢). وقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٣). وقال: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٤). فما من فضيلة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولذا قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥). ووعد الصابرين بأنه معهم، فقال: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦). وعلق النصرة على الصبر، فقال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^(٧). وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى، فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٨).

والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء، والأخبار المادحة له أكثر من أن تحصى. قال رسول الله ﷺ: «الصبر نصف الإيمان». وقال ﷺ: «من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمته الصبر، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولئن تصبروا على مثل ما انتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن يفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه... ثم قرأ قوله تعالى:

(١) السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٣) النحل، الآية: ٩٦.

(٤) القصص، الآية: ٥٤.

(٥) الزمر، الآية: ١٠.

(٦) الأنفال، الآية: ٤٦.

(٧) آل عمران، الآية: ١٢٥.

(٨) البقرة، الآية: ١٥٧.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾^(١).

وقال عليه السلام: «الصبر كنز من كنوز الجنة». وقال عليه السلام: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس». ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس، ولذا قيل: (الصبر صبر). وقال عليه السلام: «في الصبر على تكرهه خير كثير». وقال عليه السلام: «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له، ولا ايمان لمن لا صبر له». وسئل عليه السلام عن الايمان، فقال: «الصبر والسماحة». وقال عليه السلام: «ما تجرع عبد قط جرعتين، أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها، ولا قطرت بقطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دم اهرقت في سبيل الله، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى الصلاة الفريضة، وخطوة إلى صلة الرحم». وروى: «أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود! تخلق باخلاقي، وإن من اخلاقي انى أنا الصبور». وروى: «أن المسيح قال للحواريين: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون»^(٢). وقال عليه السلام: «ما من عبد مؤمن اصيب بمصيبة فقال - كما أمره الله -: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اجرني في مصيبتى واعقبني خيراً منها، إلا وفعل الله ذلك». وقال عليه السلام: «قال الله عز وجل: إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده، ثم استقبل ذلك بصبر جميل، استحيت منه أن انصب له ميزاناً وانشر له ديواناً»^(٣). وقال عليه السلام: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء إلى الأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر على

(١) النحل، الآية: ٩٦.

(٢) صححنا النبويات على (احياء العلوم): ٤ / ٥٣، كتاب الصبر.

(٣) صححنا الرواية على (البحار): مج ١٥: ١٤٨ / ٢، باب الصبر واليسر بعد العسر.

المعصية كتب الله له تسعمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش». وقال ﷺ: «سيأتى على الناس زمان لا ينال الملك فيه إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن ادرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة، وصبر على الذل وهو يقدر على العز، آتاه الله ثواب خمسين صديقاً ممن صدق بى»^(١). وقال ﷺ: «ان الله تعالى قال لجبرئيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانه! لا علم لنا الا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي». وقال ﷺ لرجل قال له: ذهب مالي وسقم جسمي: «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه، ان الله إذا احب عبداً ابتلاه، وإذا ابتلاه صبره». وقال ﷺ: «إن الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك». وقال ﷺ: «إذا اراد الله بعبد خيراً، واراد أن يصابه، صب عليه البلاء صباً وثجه عليه ثجا، فإذا دعا، قالت الملائكة: صوت معروف، وإذا دعا ثانياً، فقال: يا رب! قال الله تعالى: لبيك عبدي وسعديك! ألا تسألني شيئاً إلا أعطيتك، أو رفعت لك ما هو خير، وادخرت لك عندي ما هو أفضل منه. فإذا كان يوم القيامة جىء باهل الأعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج، ثم يؤتى باهل البلاء، فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا، فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب، فذلك قوله تعالى: إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب، وهو مقيم على معصيته،

(١) صححنا الرواية، وكذا ما قبلها، على (اصول الكافي): ج ٢، باب الصبر. وعلى (الوافي):

فاعلموا أن ذلك استدراج... ثم قرا قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

يعنى: لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات، حتى إذا فرحوا بما أوتوا - أى بما أعطوا من الخير - أخذناهم بغتة. وروى: «أن نبياً من الأنبياء شكى إلى ربه، فقال: يا رب، العبد المؤمن يطيعك ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء، ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا! فأوحى الله تعالى إليه: أن العباد إلي والبلاء لي، وكل يسبح بحمدى. فيكون المؤمن عليه من الذنوب، فازوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء، فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقانى، فأجزيه بحسناته، ويكون الكافر له من الحسنات، فابسط له في الرزق وازوى عنه البلاء، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقانى فأجزيه بسيئاته»^(٢). وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: إني جعلت الدنيا بين عبادى قرضاً، فمن أقرضنى منها قرضاً أعطيته بكل واحدة منهن عشراً إلى سبعمائة ضعف وما شئت من ذلك، ومن لم يقرضنى منها قرضاً فاخذت منه شيئاً قسراً، أعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتى لرضوا بها منى. قال: ثم تلا أبو عبد الله عليه السلام قوله عز وجل: (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم)، فهذه واحدة من ثلاث خصال، (ورحمة) اثنتان، (وأولئك هم المهتدون) ثلاث. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: هذا لمن أخذ الله منه شيئاً قسراً. وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «بنى الايمان على أربع دعائم: اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن جميل، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل عليك». وقال على عليه السلام:

(١) الأنعام، الآية ٤٤.

(٢) صححنا الاحاديث الاربع على (احياء العلوم): ٤ / ١١٤، باب الصبر.

«الصبر وحسن الخلق والبرّ والحلم من أخلاق الأنبياء». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيُّمَا رجل حبسه السلطان ظلماً فمات، فهو شهيد، وإن ضربه فمات، فهو شهيد»^(١). وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من اجل الله ومعرفة حقه ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟» قالوا: بلى! فقرأ عليهم:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢).

فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار، فإذا عافاه الله في الدنيا فאלله أكرم من أن يعذبه ثانياً وإن عفى عنه في الدنيا فאלله أكرم من أن يعذبه يوم القيامة». وقال الباقر عليه السلام: «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة. وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار». وقال عليه السلام: «مروءة الصبر في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الاعطاء»^(٣). وقال عليه السلام: «لما حضرت أبي على بن الحسين عليه السلام الوفاة، ضمنى إلى صدره، ثم قال: يا بني! أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بني اصبر على الحق وإن كان مرأاً». وقال الصادق عليه السلام: «إذا دخل المؤمن قبره، كانت الصلاة عن يمينه، والزكاة عن يساره، والبر مطل عليه، ويتنحى الصبر ناحيته. فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم، فإن عجزتم عنه فانا دونه». وقال عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة. يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة، فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون:

(١) صححنا الروايات الثلاث على (اصول الكافي): ج ٢، باب الصبر. وعلى (الوافي): ٣/ ٣٢١-٣٢٣،

باب الصبر.

(٢) الشورى، الآية: ٣٠.

(٣) قال العلامة (المجلسي) رحمته الله في (بحار الانوار): مج ١٥، ج ٢، في باب الصبر على المصيبة، في ذيل هذا الخبر: «بيان المروءة: هي الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان».

نحن أهل الصبر، فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله تعالى: صدقوا! أدخلوهم الجنة. وهو قول الله تعالى: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب». وقال ﷺ: «من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه، كان له مثل أجر ألف شهيد». وقال ﷺ: «إن الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا، فصارت عليهم وبالاً، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا، فصارت عليهم نعمة». وقال ﷺ: «من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز». وقال ﷺ: «إن من صبر صبر قليلاً، وإن من جزع جزع قليلاً... ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك، فإن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ فأمره بالصبر والرفق، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَنْجِزْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١).

وقال أبو الحسن ﷺ لبعض اصحابه: «إن تصبر تغتبط، وإلا تصبر يقدر الله مقاديره، راضياً كنت أم كارهاً»^(٢). والأخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه واجره أكثر من أن تحصى. ولذلك كان الأتقياء والأكابر محبين طالبيين له، حتى نقل: «أن واحداً منهم دخل على ابن مريض له، فقال: يا بني! لئن تكن في ميزانى أحب إليّ من أن أكون في ميزانك. فقال: يا أبة! لئن يكن ماتحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب». وقال بعضهم: «ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة، ما علم به احد».

فصل

(الصبر على السراء)

كل ما يلقي العبد في الدنيا، وما يوافق هواه، أو لا يوافقه، بل يكرهه، وهو في كل منهما محتاج إلى الصبر. اذ ما يوافق هواه، كالصحة الجسمية، واتساع الأسباب

(١) المزمل، الآية: ١٠.

(٢) صححنا الاحاديث الواردة عن أهل البيت ﷺ في باب الصبر، على الجزء الثاني من (أصول الكافي) باب الصبر، وعلى (الوافي): ٣ / ٣٢١ - ٣٢٣، كتاب الصبر.

الدنيوية، ونيل الجاه والمال، وكثرة الأولاد والاتباع، لو لم يصبر عليه، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاغترار به، أدركه الطغيان والبطر. (فإن الانسان ليطنغي أن رآه استغنى). وقال بعض الأكابر: «البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا الصديق». وقال بعض العرفاء: «الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء». ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش، قالوا: «ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا، وابتلينا بفتنة السراء فلا نقدر على الصبر عليها». ومن هنا قال الله سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(١). وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾^(٢).

ومعنى الصبر على متاع الدنيا: ألا يركن اليه، ويعلم أنه مستودع عنده، وعن قريب يسترجع عنه، فلا ينهمك في التمتع والتلذذ، ولا يتفاخر به على فاقده من اخوانه المؤمنين، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق، وفي منصبه باعانة المظلومين، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه.

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء: أنه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها، بخلاف البلاء، فانه مجبور عليه، ولا يقدر على دفعه، فالصبر عليه أسهل. ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه.

وأما ما لا يوافق هواه وطبعه، فله ثلاثة اقسام:

الأول - ما يكون مقدوراً للعبد، كالطاعات والمعاصي. أما الطاعة، فالصبر عليها شديد، لأن النفس بطبعها تنفر عنها، وتشتهي التقهر والربوبية، كما يأتي وجهه. ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات باعتبار الكسل، وبعضها باعتبار البخل، وبعضها باعتبارهما، كالحج والجهاد، فلا تخلو طاعة من اعتبار يشق على النفس أن تصبر

(١) المنافقون، الآية: ٩.

(٢) التغابن، الآية: ١٤.

عليه، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها إلى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة، إذ يحتاج إليها قبل العمل في تصحيح النية والإخلاص، وتطهيرها عن شوائب الرياء، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في اثرائه، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه، ويستمر على ذلك إلى الفراغ وبعد الفراغ عنه، لئلا يتطرق إليه العجب، ولا يظهر رياء وسمعة. والنهي عن إبطال العمل وعن إبطال الصدقات باليمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر. وأما المعاصي، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس. فصبرها عليها شديد، وعلى المألوفة المعتادة اشد، إذ العادة كالطبيعة الخامسة، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها، فإن الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في إطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس، مع أن الغيبة أشد من الزنا، كما نطقت به الأخبار. فإذا انضافت العادة إلى الشهوة، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله، فيصعب تركها.

ثم المعصية إن كانت مما يسهل فعلها، كان الصبر عنها اشد، كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب، ولو كان مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه جبلة النفس من الاستعلاء والربوبية، كالكلمات التي توجب نفى الغير، والقبح فيه، والثناء على ذاتها تصريحاً أو تعريضاً، كان الصبر عنها اشد. إذ مثل ذلك - مع كونها مما تيسر فعله وصار مألوفاً معتاداً - انضافت إليه شهوتان للنفس فيه: أحدهما نفى الكمال من غيرها، وإخراهما اثباته لذاتها. وميل النفس إلى مثل تلك المعصية في غاية الكمال، إذ به يتم ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو، فصبرها عنها في غاية الصعوبة. وقد ظهر مما ذكر: أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي إنما يصدر من اللسان. فينبغي لكل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد أن يتكلم به، فإن لم يكن معصية تكلم به وإلا تركه، ولو لم يقدر على ذلك، وكان لسانه خارجاً عن اطاعته في المحاورات، وجبت عليه العزلة والانفراد، وتركه التكلم مع الناس، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على حفظه. ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد

المعاصي باختلاف داعية تلك المعاصي قوة وضعفاً، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم أن داعية نفسه إلى أى معصية اشد، فيكون سعيه في تركها اكثر. ثم حركة الخواطر باختلاج الوسوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقباح الكلمات، فلا يمكن الصبر عنها اصلاً، إلا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين يستغرقه، كمن أصبح وهمومه هم واحد. وأكثر جولان الخاطر إنما يكون في فائت لا تدارك له، أو في مستقبل لا بد وأن يحصل منه ما هو مقدور. وكيف كان، فهو تصور باطل، وتضييع وقت. إذ آلة استكمال العبد قلبه، فإذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنساً بالله، أو فكر يستفيد به معرفة بالله، ويستفيد بالمعرفة حب الله، فهو مغبون.

الثانى - ما ليس حصوله مقدوراً للعبد، ولكنه يقدر على دفعه بالتشفي، كما لو أودى بفعل أو قول، أو جنى عليه في نفسه أو ماله، فإن حصول الأذية والجناية وإن لم يرتبط باختياره، إلا أنه يقدر على التشفي من المؤذى أو الجانى بالانتقام منه، والصبر على ذلك بترك المكافات. وهو قد يكون واجباً، وقد يكون فضيلة، وهو أعلى مراتب الصبر. ولأجل ذلك خاطب الله نبيه ﷺ بقوله:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾^(١). وبقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(٢). وبقوله: ﴿وَدَعْ أَذْيَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٤). وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنَّ صَبْرَ تُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾^(٥).

(١) الاحقاف، الآية: ٣٥.

(٢) المزمل، الآية: ١٠.

(٣) الأحزاب، الآية: ٤٨.

(٤) آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٥) النحل، الآية: ١٢٦.

وقال رسول الله ﷺ: «صل من قطعك، واعط من حرمك، واعف عمن ظلمك». وروى: «أنه ﷺ قسم مرة مالا، فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله! فاخبر به رسول الله، فاحمرت وجنتاه، ثم قال: رحم الله أخى موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر».

الثالث - ما ليس مقدوراً للعبد مطلقاً، كالمصائب والنوائب. والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة، ولا ينال إلا ببضاعة الصديقين، والوصول إليه يتوقف على اليقين التام. ولذا قال النبي ﷺ: «أسألك من اليقين ما يهون علي مصائب الدنيا». وقد تقدم بعض الأخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر. وقال ﷺ: «قال الله: إذا ابتليت عبدي ببلائي فصبر، ولم يشكني إلى عواده، أبدلته لحماً خيراً من لحمة، ودماً خيراً من دمه، فإن أبرأته أبرأته ولا ذنب له، وإن توفيته فإلى رحمتي». وقال ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه: ألا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك». وقال ﷺ: «من ابتلى فصبر، وأعطى فشكر، وظلم فغفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون». وقال ﷺ: «إن الله تعالى قال لجبرئيل: ما جزاء من سلبت كريمته؟ فقال: سبحانه! لا علم لنا إلا ما علمتنا. قال: جزاؤه الخلود في داري، والنظر إلى وجهي». وقال داود عليه السلام: «يا رب! ما جزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك؟ قال: جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان، لا انزع عنه أبداً». وقال لابنه سليمان عليه السلام: «يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيم لم ينل، وحسن الرضا فيما قد نال، وحسن الصبر في ما قد فات». وروى: «أن من ابتلى بموت ثلاثة أولاد، لم يرد على النار أصلاً».

تذنيب

(اختلاف مراتب الصبر في الثواب)

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها،

فهو راجع إلى الصبر عن المعصية. وعلى هذا، فاقسام الصبر ثلاثة: الصبر على المصائب والنوائب، والصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الأول أقل ثواباً، والآخر أكثر ثواباً، والوسط وسطاً بينهما. وربما ظهر من بعض الأخبار: كون الأول أكثر ثواباً. وأبو حامد الغزالي رجح الأول أولاً، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخبر النبوي، ثم رجح الثاني ثانياً محتجاً بما روى عن ابن عباس أنه قال: «الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى، فله تسعمائة درجة». وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا ببضاعة الصديقين، لكونه شديداً على النفس.

وعندي: أن القول بكون أحدهما أكثر ثواباً على الإطلاق غير صحيح، إذ القول بأن الصبر على كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة، أكثر ثواباً من الصبر على موت كثير من أعز الأولاد بعيد، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثواباً من كف النفس عن كبائر المعاصي، وفطامها عن ألدّ اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد، فالصواب: التفصيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة إذا كان على النفس أشد وأشق فتوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر، كائناً ما كان، لما ثبت وتقرر أن أفضل الأعمال أحزمها، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الأخبار.

فصل

(طريق تحصيل الصبر)

الطريق إلى تحصيل الصبر: تقوية باعث الدين، وتضعيف باعث الهوى.

والأول: إنما يكون بأمور:

الأول - أن يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا

والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة في الدنيا، وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر، فيجازى على المدة القصيرة الفانية بالمدة الطويلة الخالدة، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة الباقية. ومن أسلم خسيساً في نفيس، فلا ينبغي أن يحزن بفوات الخسيس في الحال.

الثاني - أن يتذكر قلة قدر الشدة الدنيوية ووقتها، واستخلاصه عنها عن قريب، مع بقاء الأجر على الصبر عليها.

الثالث - أن يعلم أن الجزع قبيح مضرّ بالدين والدنيا، ولا يفيد ثمرة إلا حبط الثواب وجلب العقاب، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور».

الرابع - أن يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجاً، حتى يدرك لذة الظفر بها، فيتجرى عليها، ويقوى متنه في مصارعتها. فان الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال. ولذا تزيد قوة الممارسين للأعمال الشاقة - كالحمالين والفلاحين - على قوة التاركين لها. فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء وأراد.

وأما الثاني: أعنى تضعيف الهوى، إنما يكون بالمجاهدة والرياضة من الصوم والجوع وقطع الأسباب المهيجة للشهوة من النظر إلى مظانها وتخيلها، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط ألا يخرج عن القدر المشروع.

تتميم

إن قيل: الصبر في المصائب إن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهة المعصية، فذلك غير داخل تحت الاختيار، إذ الإنسان مضطر إلى الكراهة، فبماذا ينال درجة الصبر في المصائب؟

قلت: من كان عارفاً بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره، بأن يعلم يقيناً بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أو سعة، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات، وما عرض من ذلك مما يعدّ شراً، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه، وأن ذلك إذا كان متيقناً له، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن، وطابت بقضائه وقدره، وتوسع صدره بمواقع حكمه، وأيقن بأن قضاءه لم يجر إلا بالخيرة. وقد أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين». ومن بلغ بهذه الدرجة، يتلذذ بكل ما يرد عليه. ومثله يتمتع بثروة لا تنفذ، ويتأيد بعز لا يفقد، فيسرح في ملك الأبد، ويعرج إلى قضاء السرمد. هذا مع أن العبد إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع، وشق الجيوب، وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملابس والمطعم ونحوها، وهذه الأمور داخلية تحت اختياره، فينبغي أن يجتنب عنها، ويظهر الرضا بالقضاء، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاضت عيناه بالدمع، ف قيل له: أما نهيتنا عن هذا؟ قال: «هذه رحمة، إنما يرحم الله من عباده الرحماء». وقال أيضاً صلى الله عليه وآله وسلم: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا يقول ما يسخط الرب». بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا أيضاً، فإن المقدم على الفصد والحجامة راض به، مع أنه متألم بسببه لا محالة. نعم، من كمال الصبر كتمان المصائب، لما ورد من أن كتمان المصائب والأوجاع والصدقة من كنوز البر. وقد ورد المدح في كثير من الأخبار على عدم الشكاية من الأمراض والمصائب. وقال الباقر عليه السلام: «الصبر الجميل، صبر ليس فيه شكوى إلى الناس». وفي بعض الأخبار: «أن الشكاية أن تقول: ابتليت بما لم يتل به أحد، واصابني ما لم يصب أحداً، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة، وحميت اليوم، ونحو ذلك». وقال الصادق عليه السلام: «من اشتكى ليلة، فقبلها

بقبولها، وأدى إلى الله شكرها، كانت عبادة ستين سنة»، قيل له: ما قبولها؟ قال: «يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها، فإذا أصبح حمد الله على ما كان».

تتميم

(التلازم بين الصبر والشكر)

اعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر، فرجح كلاً منهما على الآخر طائفة. والظاهر أنه لا ترجيح لأحدهما على الآخر، لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر. إذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكراً، كما مر في باب الشكر. والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعماً، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله سبحانه. وهذا هو الشكر بعينه، لأنه تعظيم لله يمنع عن العصيان، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه، وهذا هو عين الصبر عن المعصية. وأيضاً، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر، فكل صبر يستلزم الشكر، وبالعكس.

وبالجملة: لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر، فإن اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية، بل اتحادهما فيهما، أمر ظاهر، كما تقدم. وفي البلاء المقيد الدنيوي، إذا حصل فيه الصبر، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له، من الثواب الآخروي، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة إلى الآخرة، فيشكر على ذلك. فهو لا ينفك عن الشكر، لأنه يعرف هذه النعم من الله، كما يعرف البلاء أيضاً من الله، فيفرح بالنعم، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره. وفي النعمة المقيدة، مثل المال، إذا توسل به إلى تحصيل الدين، فلا ريب في أنه كما تحقق فيه الكره تحقق فيه الصبر أيضاً. إذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين حبس النفس

عما تحبه وتميل اليه، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى. وفي البلاء المطلق، كال كفر والجهل، لا معنى لتحقيق الشكر أو الصبر فيه، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة: والعلم وحسن الأخلاق، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر أيضاً. إذ تحصيل السعادة، والعلم، والأخلاق الفاضلة، والإبقاء عليها، لا ينفك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه. مع أن الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران، وهو الصبر على المعصية. حتى أن شكر العينين بالنظر إلى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم، والنظر إلى ما تميل إليه النفس من النظر إلى غير المحارم وأمثال ذلك.

فإن قيل: استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه، إلا أن الكلام في أنه إذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقيق جهتين، فأى الجهتين أفضل؟ مثل أن يتلى أحد بمصيبة دنيوية، فصبر عليها، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب، وشكر عليها أيضاً، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الاخرى وغيرها من الله وفرح بها وعمل بمقتضى فرحه من التحميد أو طاعة اخرى، فهل الأفضل حينئذ جهة الصبر، أو جهة الشكر؟

قلنا: التأمل يعطى: أن كل صبر هو شكر بعينه، وبالعكس. فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما. فإن الصبر على البلاء إنما هو حبس النفس عن الجزع تعظيماً لله. وهذا هو عين الشكر، إذ كل طاعة لله سبحانه شكر، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران، وهو عين الصبر عن المعصية.

فإن قلت: فعلى هذا، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة، وقد تقدم أنهما متضادان، إذ الصبر يستدعى ألماً، والشكر يستدعى فرحاً، وقد ذكرت أن اجتماع الصبر والشكر في محل واحد إنما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة.

قلنا: امتناع الاتحاد فيهما إنما هو في الصبر والشكر على ما هو كان نعمة وبلاء بعينه، فإنه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد - اعنى حبس النفس عن الجزع - هو عين الشكر على النعمة. إذ موت الولد بعينه ليس نعمة، بل هو مستلزم للنعمة. فالشكر على اللازم، والصبر على الملزوم. فاختلفت جهتا الصبر والشكر، فلا اتحاد. وما ذكرناه من الاتحاد إنما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية، أو على البلاء والطاعة. وندعى أن من وصلت إليه نعمة، فشكر عليها بعرفانها من الله، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح، من التحميد أو طاعة أخرى، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره. كذا من ابتلى ببلية، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب. وهذا الاتحاد والعينية يطرد في كل صبر وشكر، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه، وبالعكس. وليس بينهما تضاد وتغاير أصلاً، والاستلزام واختلاف الجهة إنما هو في الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم، ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما. وفي هذه الصورة، يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر، من حيث ملاحظة الاعتبار السابق، فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضاً.

فإن قيل: عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر، وليس داخل في الصبر، فينبغي أن يكون الشكر لذلك أفضل من الصبر.

قلنا: في الشق الأول من صورة العينية والاتحاد، يكون عرفان النعمة داخل في الصبر، وفي الشق الثاني منهما، وفي صورة الاستلزام، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر. فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله، فكذا الصابر يرى العمى من الله، فهما في المعرفة متساويان. ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر إنما إذا

كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم^(١)، وعلى هذا يكون الرضا فوقه، لو قطع النظر عن كون الصبر شكراً أيضاً، ويكون الشكر فوق الرضا، إذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح، والشكر لا يمكن إلا على محبوب يفرح به، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته، إذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به لأنه يراه من محبوبه. وحينئذ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر، وبدونها رضا، ومع الفرح به شكر.

تنبيه

(القانون الكلى في معرفة الفضائل)

إعلم أن المعيار والقانون الكلى في معرفة فضائل الأعمال والأحوال وترجيح بعضها على بعض عند أرباب القلوب: أن العمل كلما كان أكثر تأثيراً في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا، وأشد إعدداً له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفاته وأفعاله، كان أفضل. وعلى هذا القانون، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة ودرجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما، إذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته، وسبب الاختلاف اسباب:

منها - الاختلاف بين أقسام النعم وأقسام البلاء.

ومنها - اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذ في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة. فربما كان بعض درجات الصبر أشد

(١) قال استاذ البشر المحقق (الطوسي) رحمته في تعريف الصبر: «الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه، وهو يمنع الباطن على الاضطراب، واللسان عن الشكاية، والاعضاء عن الحركات غير المعتادة...».

تنويراً وأكثر اصلاحاً للقلب من بعض درجات الشكر، وربما كان الأمر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما. فإن الأعمال والأحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف درجاتهما. فمن الأمور والأحوال التي تندرج تحت الشكر: حياء العبد من تتابع نعم الله عليه، ومعرفته بتقصيره عن الشكر، واعتذاره من قلة الشكر، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاقه لها، وعلمه بأن الشكر أيضاً نعمة من نعمه ومواهبه، وحسن تواضعه بالنعم، والتذلل، وقلة اعتراضه، وحسن أدبه بين يدي المنعم وتلقى النعم بحسن القبول، واستعظام صغيرها، وشكر الوسائط، لقوله ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله». وقال السجاد عليه السلام: «أشكركم الله أشكركم للناس». وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى للعبد من عبده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟ فيقول: بل شكرتك يا رب! فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره». وقال الصادق عليه السلام: «اشكر من انعم عليك، وانعم على من شكرك». ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الأحوال في الشكر، وطال زمانه، ازداد فضله. قد نقل: «أن رجلاً (كان) يهوى ابنة عم له، وهي أيضاً تهواه، فاتفق مزاجتهما، فقال الرجل ليلة الزفاف لها: تعالي حتى نحیی هذه الليلة شكراً لله على ما جمعنا، فقالت: نعم! فصليا تلك الليلة بأسرها، ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه. فلما كانت الليلة الثانية، قالاً مثل ذلك، فصليا طول الليل... فهكذا يفعلان في ثمانين سنة، وبقياً على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة، من دون رجوع لأحدهما إلى الآخر، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما، فضلاً عن شيء آخر». ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة، لو لم يحصل بينهما الجمع والوصل.

تتميم

(تفضيل الصبر على الشكر)

اعلم أن الظاهر من بعض الأخبار: أن الصبر أفضل وأكثر ثواباً من الشكر. كما

روى: «أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض، فيجزيه الله جزاء الشاكرين. ويؤتى بأصبر أهل الأرض، فيقال له: أترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشاكر؟ فيقول: نعم يا رب! فيقول الله تعالى: كلا! أنعمت عليه فشكر، وابتليتك فصبرت، لأضعفن عليك الأجر عليه! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين». وكقوله ﷺ: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه. وكقول الباقر ﷺ: «مروءة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى، أكثر من مروءة الإعطاء». ويؤيد ذلك قوله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب). وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الأخبار تقييدان:

أحدهما - التقييد ببعض المراتب، بأن يقول: المراد أن بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر. وهذا مما لا ريب فيه، فإن من سلب اعز أولاده وابتلى بالفقر والمرض، ومع ذلك صبر ولم يجزع، فهو أفضل البتة ممن اعطى مالا كثيراً فقال: شكراً لله، الحمد لله، من دون ابداء عمل آخر من الطاعات. وليس المراد أن كل ما يسمى صبراً أفضل من كل درجة من درجات الشكر. إذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية، من دون فتور، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقت منه.

وثانيهما - التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر. فإن الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببليّة إلا الصبر، ولا يلتفتون إلى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيماً لله، وهو عين الشكر. وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة إلا الشكر، ولا يلتفتون إلى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران، وهو الشكر بعينه.

ومنها:

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته. وضده الطاعة، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة. وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي: الطهارة، والصلاة، والذكر، والدعاء، وتلاوة القرآن والصوم، والحج، وزيارة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، والجihad في سبيل الله، واداء المعروف، الشامل للزكاة، والخمس، والصدقة المندوبة وغيرها. والأخير - اعنى اداء المعروف باقسامه - قد تقدم. والجihad في هذا الزمان ساقط. فنشير إلى بعض الأسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقى، في مقاصد وخاتمة. وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة، فهي مذكورة في الفقهيات.

المقصد الأول

(الطهارة)

الطهارة - حقيقة الطهارة - ما ينبغي للمؤمن في الطهارة - ازالة الأوساخ - آداب الحمام - السر في ازالة الاوساخ.

* * *

اعلم أن الطهارة والنظافة أهم الأمور للعباد. إذ الطهارة الظاهرة وسيلة إلى حصول الطهارة الباطنة، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية. ولذا ورد في مدحها ما ورد، قال الله سبحانه:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(١). وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾^(٢).

(١) التوبة، الآية: ١٠٨.

(٢) المائدة، الآية: ٦.

وقال رسول الله ﷺ: «بنى الدين على النظافة». وقال ﷺ: «الطهور نصف الايمان». وقال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور». وقال ﷺ: «بئس للعبد القاذورة». وقال ﷺ: «من اتخذ ثوبا فلينظفه». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «النظيف من الشيايب يذهب الهم والحزن، هو طهور للصلاة».

ثم للطهارة أربع مراتب:

الأولى - تطهير الظاهر من الاحداث والابخاث والفضلات.

الثانية - تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات.

الثالثة - تطهير القلب من مساوىء الاخلاق ورذائلها.

الرابعة - تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي تطهير الأنبياء والصديقين. والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها، إذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته، وتحصل له المعرفة التامة، والحب والأنس. ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ما سوى الله، ولذلك قال الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ﴾^(١). فان الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾^(٢).

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله، والنصف الآخر شروق نور الحق فيه. والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد الحقة المشروعة. ولا يتصف بها ما لم ينظف عن نقائصها، من الأخلاق المذمومة، والعقائد الفاسدة. فتطهيرها عنها أحد الشطرين، والشطرن الآخر تحليلته بالفضائل والعقائد الحقة.

وأما عمل الجوارح، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات. ولا يمكن ذلك ما لم يظهر عن المعاصي والمناهي. فهذا التطهير نصف عملها، ونصفه الآخر عمارتها

(١) الأنعام، الآية: ٩١.

(٢) الأحزاب، الآية: ٤.

بالتطاعات. وقس على ذلك الحال في المرتبة الأولى. وإلى ذلك الإشارة بقول النبي ﷺ: «الطهور نصف الايمان». فإن المراد: أن تطهير الظاهر، والجوارح، والقلب، والسر، من النجاسات والمعاصي ورذائل الأخلاق وما سوى الله نصف الايمان، ونصفه الآخر عمارتها بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق، والاستغراق في شهود جمال الحق وجلاله. ولا تظن أن مراده ﷺ أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات بافاضة الماء نصف الايمان، مع تلوث الجوارح باخبات المعاصي، وتنجس القلب باقدار مساوىء الأخلاق، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله. فالمراد التطهير في المراتب الأربع، التي هي من مقامات الدين، وهي مرتبة يتوقف بعضها على بعض ولا يمكن أن ينال العبد ما هو الفوق، ما لم يتجاوز ما دونه، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله، وعمارته بمعرفة الله، وانكشاف جلاله وعظمته، ما لم يفرغ عن طهارة القلب عن الأخلاق المذمومة، وتحليته بالملكات المحمودة. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات. ولا يصل إلى ذلك ما لم يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر، وعمارته بالنظافة والنزاهة.

فصل

(حقيقة الطهارة)

طهارة الظاهر، إما عن الخبث، أو عن الحدث، أو عن فضلات البدن، وما يتعلق بها من الأحكام الظاهرة الواجبة والمحرمّة والمندوبة والمكروهة، مستقصاة في كتب الفقه.

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وإزالته عند التخلي لقضاء الحاجة، أن يتذكر عنده نقصه وحاجته، وخبث باطنه وخسة حاله، وما يشتمل عليه من الأقدار، وكونه حامل النجاسات، ويتذكر باستراحة نفسه عند اخراجها، وسكون قلبه عن دنسها، وفراغه للعبادات والمناجات، وأن الأخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة،

واقذار كامنة، لتستريح نفسها عند اخراجها، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها، وعند اخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة، ويتأهل للقرب والوصول إلى حريم العزة. فكما يسعى في اخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا، فينبغي أن يجتهد ايضاً في اخراج الأقدار الباطنة، والنجاسات الداخلة الغائضة^(١) في الأعماق، المفسدة على الاطلاق، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد. قال الصادق عليه السلام: «إنما سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفس من أثقال النجاسات، واستفراغ الاقدار والكسافات فيها. والمؤمن يعتبر عندها إن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها واخذها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين. فإن الراحة في هوان الدنيا، والفراغ من التمتع بها، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة. فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها، ويفرّ من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه، طلباً لحسن المآب، وطيب الزلفى. ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات، إلى أن يتصل بامان الله تعالى في دار القرار، ويدوق طعم رضاه، فإن المعول على ذلك، وما عداه فلا شيء»^(٢).

وينبغي أن يتأمل في أن ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهي، ويحترص في طلبه من لذائذ الأطعمة وكلما كانت ألد عفونتها أشد، فما كانت عاقبته ذلك، فليحذر من أن يأخذه من غير حله، فيعذب أبد الآباد لأجله.

(١) الغائضة: الغائرة. غيض الدمع: حبسه وأخفاه.

(٢) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة): الباب التاسع، وفي (مستدرك الوسائل): ١/ ٣٧-٣٨، كتاب الطهارة. وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا، فصالحنا كما كان في الموضوعين.

فصل

(ما ينبغي للمؤمن في الطهارة)

ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث: أن تكليفه بها الدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات إنما هو لكون أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأمور الدنيوية، منهمكة في الكدورات الطبيعية، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله سبحانه، والاشتغال بعبادته. فالأمر بغسلها، لتطهر عن هذه الكدورات، فيتأهل للمناجاة. ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات الجسمانية، ما لم يطهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، والعلائق الدنيوية، وما لم يعزم على الرجوع إلى الله، والانقطاع عن الدنيا وشهواتها. فينبغي أن يكون قلبه عند الطهارة مطهراً عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات، جازماً على فطام الأعضاء التي هي اتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا، لتسرى نوريته وطهارته إلى تلك الأعضاء، ثم أمر في الوضوء أولاً: بغسل الوجه، الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة، التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا، ليتوجه ويقبل بوجه القلب على الله، وهو خال من تلك الأدناس، وثانياً: بغسل اليدين، لمباشرتهما أكثر الأمور الدنيوية والمشتبهات الطبيعية المانعة من الإقبال على الآخرة، وثالثاً: بمسح الرجلين، للتوصل بهما إلى أكثر المطالب الدنيوية، والمقاصد الطبيعية. فأمر بتطهير جميعها ليسوغ له الدخول بها في العبادات والإقبال عليها. وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة، لأن أدنى حالات الإنسان وأشدها تعلقاً بالملكات الشهوية حالة الوقاع، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «تحت كل شعرة جنابة». فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية، منغمساً في اللذات الدنية، كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة، والدخول في العبادة المنيفة. وأمر في التيمم بمسح الأعضاء بالتراب، عند تعذر غسلها بالماء، وضعاً لتلك الأعضاء الرئيسة، وهضماً لها بملاقاتها أثر التربة

الخشيسة.

ثم لما كان القلب هو الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والأعضاء، والمستخدم لها في تلك الأمور المبعدة عن جنبه تعالى، وهو الموضع لنظر الله سبحانه، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»، فله من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل. فيكون الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل. وإذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة، وتحليته بالأوصاف الجميلة، لرسوخه على حب الدنيا الدنية، فليقمه في مقام الهضم والازراء، ويسقه بسياط الذل والإغضاء. كما أنه عند تعذر غسل الأعضاء بالماء يهضمها ويذللها بالوضع على التراب، عسى أن يرحم ربه تواضعه وانكساره، فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع، فإنه عند المنكسرة قلوبهم، كما ورد في الأثر، فترق من هذه الاشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال، ويتدارك سالف الإهمال.

ثم ما ذكر من السر في الطهارة، يمكن استنباطه - مع الزيادة - من كلام مولانا الصادق عليه السلام في (مصباح الشريعة) حيث قال: «إذا أردت الطهارة والوضوء، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله، فإن الله تعالى قد جعل الماء مفتاح قربه ومناجاته، ودليلا إلى بساط خدمته، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد، كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غيره، قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾^(١).
وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

فكما أحيى به كل شيء من نعيم الدنيا، كذلك برحمته وفضله جعل حياة

(١) الفرقان، الآية: ٤٨.

(٢) الأنبياء، الآية: ٣٠.

القلوب بالطاعات. وتفكر في صفاء الماء ورقته، وطهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء. واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها، وتعبدك بآدابها في فرائضه وسننه. فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة، فإذا استعملتها بالحكمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب. ثم عاشر خلق الله تعالى كإمتزاج الماء بالأشياء، يؤدي كل شيء حقه، ولا يتغير عن معناه، معتبراً لقول الرسول ﷺ: (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء). ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهوراً، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء^(١).

ومن الأسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الأعضاء بالتطهير في الوضوء، ما أشار إليه مولانا الرضا رحمته الله بقوله: «إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه، مطيعاً له فيما أمره، نقياً من الأدناس والنجاسة، مع ما فيه من ذهاب الكسل، وطرده النعاس، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار. وإنما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار، فأنما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء، وذلك أنه بوجهه يسجد وينخضع، وييده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده، وبرجليه يقوم ويقعد. وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء، لأن الجنابة من نفس الانسان، وهو شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء ليس هو من نفس الانسان، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب»^(٢).

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة)، الباب العاشر. وعلى (المستدرک): ١ / ٥١ - ٥٢، كتاب الطهارة.

(٢) هذه الرواية نقلها العلامة (المجلسي) رحمته الله في (البحار): ١٨ / ٥٦، باب علل الوضوء وثوابه وعقاب تركه، وعن (العيون والعلل) لشيخ المحدثين مولانا (الصدوق) - رضوان الله عليه -، (ولم أعثر عليها إلا في

فصل (إزالة الأوساخ)

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه، كشعر الرأس بالحلوق، وشعر الأنف والشارب وما طال من اللحية بالقبض، وشعر الإبط والعانة وسائر الأعضاء بالنورة، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذنين بالمسح ومثله، وما يجتمع منه على الأسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة، وما يجتمع في الأنف من الرطوبات الملتصقة بالاستنشاق، وما يجتمع من الوسخ تحت الأظفار بالقلم والغسل، وما يجتمع منه في رؤس الأنامل وفي معاطف ظهورها عقيب أكل الطعام بالغسل، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام.

تنبيه (آداب الحمام)

ينبغي لمن يدخل الحمام، أن يتذكر بحرارته حرّ النار، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة، ويقىسه إلى جهنم، ويستعيذ بالله منها. قال الصادق عليه السلام: «فإذا دخلت البيت الثالث، فقل: نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة. وتردها إلى وقت خروجك من البيت الحار». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نعم البيت الحمام، يذهب بالدرن، وتذكر

هم الموضع المذكور من (بحار الانوار).

ولا يخفى أن ما نقله العلامة (المجلسي) - قدس الله روحه - في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) الخطية والمطبوعة، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية إلا بنقلها من (البحار) وذكرها في هامش الكتاب. وذلك غير ممكن، لضيق المقام، فلأجله تركنا تصحيحها، لعل القارئ الكريم يقف على مصدر آخر لها. فمن أراد الاطلاع على الرواية، فعليه بمراجعة (البحار) في الموضع المذكور.

فيه النار». وفيه إشارة إلى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة، فإنها مقره ومستقره. فيكون له في كل ما يراه، من ماء أو نار أو غيرهما، عبرة وموعظة. فإن المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته. فالبزاز إذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر إلى الفرش ويتأمل في قيمتها. والحائك إذا دخلها ينظر إلى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها، والنجار إذا دخلها ينظر إلى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها، والبناء إذا دخلها ينظر إلى الحيطان والسقف وكيفية بنائها وإحكامها واستقامتها. فكذلك سالك طريق الآخرة، لا ينظر إلى شيء إلا وتكون له موعظة وعبرة من الآخرة، فإن نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد، وإن نظر إلى نار تذكر نار جهنم، وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور، وإن نظر إلى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية، وإن رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الردّ والقبول، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة... إلى غير ذلك.

تتميم

(السرف في إزالة الأوساخ)

السرف في إزالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر، فإنها توجب تنوير القلب، وانسراح الصدر، وطرد الشيطان. إذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد، فتشتمل منها الملائكة، ويرغب إليها الشياطين. ومن تأمل في الأحكام والآداب التي جاء بها رسول الله ﷺ وكانت له بصيرة ناقدة، يعلم أن شيئاً منها لا يخلو عن حكمة، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والأفعال والأقوال، من ترتيب خاص، أو تخصيص بعدد معين، أو ابتداء من موضع خاص، أو بواحد معين من الأشياء المتماثلة، يتضمن أو حكمة البتة. مثال ذلك: أنه ﷺ كان يكتحل في عينه اليمنى

ثلاثاً وفي عينه اليسرى اثنين، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص: أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترأ، فإن للوتر فضلاً على الزوج، لأن الله وتر يحب الوتر، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب، وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر، لأن اليسرى حينئذ لا تخصها إلا واحدة، والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الأجناف بالكحل، وإنما خصص اليمين بالزيادة لأن التفضيل لا بد منه للآثار، واليمين أفضل، فهو بالزيادة أحق، وإنما اقتصر على الاثنين لليسرى مع كونه زوجاً، إذ الزوجية في أحدهما لازمة ضرورية، إذ لو جعل لكل واحدة وترأ لكان المجموع زوجاً، إذ الوتر مع الوتر زوج، ورعاية الإيثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد. مثال آخر: روى الجمهور في تقليم الأظفار: «أن رسول الله ﷺ كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى، ويختم بابهام اليمنى، بأن يبتدىء من مسبحتها إلى خنصرها، ثم يبتدىء من خنصر اليسرى إلى ابهام اليمنى». وفي طريقنا روايتان: أحدهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى، وأخرهما بعكس ذلك، وهي أشهر. فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها فيبتدىء بها، ثم ينبغي أن يبتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف، ولذا استحب في الشروع وضع الطهور وغيره على اليمنى. ولا ريب في أنه إذا وضعت الكف على الأرض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى، ووضع ظهر اليد على الأرض وإن اقتضى كون الإبهام هو اليمين، إلا أن الاعتبار الأول أولى، إذ اليد إذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض، لأن جهة حركة اليد اليمنى إلى جهة اليسار، واليسرى إلى جهة اليمين، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الأرض وظهرها عالياً، وإذا كانت الكف مائلة إلى جهة الأرض فاعتبار ما يقتضيه الطبع أولى، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى. ثم إذا وضعت الكف على الكف، صارت الأصابع في حكم

حلقة دائرة، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة إلى أن يعود إلى المسبحة، فتقع البداءة بخنصر اليسرى والختم بابهامها، ويبقى ابهام اليمنى، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف، فإن ذلك لا يقتضيه الطبع.

هذا، وأما السرّ على الرواية الأولى من طريقنا، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الأرض، والابتداء باليمين، فاكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها. وأما الرواية الثانية، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع. هذا، وأما اصابع الرجل، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها. فينبغي اعتبار أحد الطريقتين المرويين عندنا فيها، ولعل اعتبار الأولى لأظهرية سرها أولى، وينبغي أن يكون تقليم اظفارها بعد تقليم اظفار اليدين إن وقعا في وقت واحد، إذ اليد أشرف من الرجل. وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات، فإنه لا يخلو شيء منها على سر حكيمى، وإن كانت عقولنا قاصرة عن ادراك أكثرها.

المقصد الثانى

(الصلاة)

الصلاة - حقيقة الصلاة - حضور القلب - دفع اشكال - شرائط الصلاة - طريق تحصيل المعانى الباطنة - اسرار الصلاة - الوقت - آداب الصلاة - آداب المصلى - الاستقبال - القيام - التكبيرات - النية - تكبيرة الاحرام - دعاء الاستفتاح - الاستعاذة - الركوع - السجود - التشهد - التسليم - افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه - ما ينبغى في إمام الجماعة - ما ينبغى في صلاة الجمعة والعيدى - ما ينبغى للمؤمن عند ظهور الآيات.

إعلم أن الصلاة معجون سماوى، وتركيب إلهى، ركبت من اجزاء كثيرة مختلفة، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها. فبعضها بمنزلة الروح، وبعضها بمثابة الأعضاء الرئيسية، وبعضها بمنزلة سائر الأعضاء.

وتوضيح ذلك: أن الانسان - مثلاً - لما كان حقيقة مركبة من اجزاء معينة، فهو لا يكون انساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن هو الروح، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهره. وهذه الأعضاء متفاوتة المراتب، إذ بعضها مما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله، كالقلب والدماغ والكبد والمعدة وأمثاله، وبعضها وإن لم ينعدم بعدمه أصل الحياة، إلا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصاً، كاليد والرجل والعين وأمثاله، وبعضها يفوت بفواته الحسن، كالحاجبين واللحية والأهداب وأمثاله، وبعضها يفوت بكمال الحسن لا أصله، كاستقواس الحاجبين، وتناسب الخلقة، وسواد شعر اللحية، وامتزاج البياض بالحمرة، وأمثال ذلك. وكذلك الصلاة حقيقة مركبة، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة، وتبعدنا باكتسابها. فروحها: النية، والقربة، وحضور القلب، والاخلاص. واعمالها الاركانية: من تكبيرة الاحرام، والركوع، والسجود، والقيام، بمنزلة الاعضاء الرئيسية، فتفوت بفواتها الصلاة على الاطلاق، ولا يمكن تحقيقها وصحتها بدونها. وسائر الأعمال الواجبة: من الفاتحة، والسورة، واذكار الركوع، والسجدين، والطمأنينة فيهما، وفي رفع الرأس عنهما، والتشهد، والتسليم، وغير ذلك من الأعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمداً لا سهواً، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك، مما قد تفوت الحياة بزوالها وقد لا تفوت به، والأعمال المسنونة، والهيئات المندوبة، والآداب المستحبة: من القنوت، ودعاء الافتتاح، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات، والتعوذ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمداً أو سهواً، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الأجر والثواب، فهي بمنزلة الحاجبين واستقواسهما واللحية والأهداب وتناسب

الخلقة، وغير ذلك مما يفوت بفوات بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها،
ويصير الشخص بسببه مشوّه الخلقة مذموماً غير مرغوب فيه.

وإذا عرفت ذلك: فاعلم - يا حبيبي - أن صلاتك قرينة وتحفة تقترب بها إلى
حضرة ملك الملوك، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم. وهذه
التحفة تعرض على الله ثم ترد إليك في يوم العرض الأكبر، فإليك الخيرة في تحسين
صورتها أو تقبيحها، فمن أداها على النحو المأمور به، بأعمالها الواجبة والمندوبة،
وشرائطها الظاهرة والباطنة، مع الاخلاص وحضور القلب، كان كمن أهدى عبداً
صحيحاً سويّاً شاباً جميلاً عاقلاً كاملاً إلى ملك من الملوك. ومن اقتصر على أعمالها
الظاهرة، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص، كان كمن أهدى عبداً ميتاً
بلا روح إلى ملك من الملوك. ومن ترك عمداً شيئاً من واجباته، كان كمن أهدى عبداً
مقتولاً إليه. ومن اقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى إليه عبد حى أعمى، أو
أصم، أو أبكم، أو مقطوع الأطراف، أو هرماً، أو قبيح المنظر، أو مجروح الأعضاء، أو
أمثال ذلك. فتنبه أيها الغافل، وتأمل في أنك إذا أهديت تحفة إلى ملك من ملوك
الدنيا، بل إلى من دونه بمراتب كثيرة، من الأمراء والحكام، كيف تجتهد وتسعى في
تجويدها وتحسينها ليقبلها، فما بالك أيها المغرور تغفل وتتساهل من تحسين
هديتك وتحفتك إلى ملك الملوك الذي منه بدؤك وإليه عودك؟! وقد ورد: أن كل
صلاة لا يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخصم الأول على صاحبها يوم العرض
الأكبر، وتقول: «ضيعك الله كما ضيعتني!».

فصل

(حقيقة الصلاة)

لا بحث لنا عما يتعلق بظاهرها من الأجزاء والشرائط والأحكام، إذ بيانها على
عهدة الفقه. فلنشر إلى المعانى الباطنة التي بها تتم حياتها، وإلى الأسرار والآداب

الخفية الباطنة المتعلقة باجزائها وشرائطها الظاهرة، لتكون ملحوظة للعبد عند فعلها.

فنقول: المعاني الباطنة، التي هي روح الصلاة وحقيقتها، سبعة:

الأول - الاخلاص والقربة، وخلوها عن شوائب الرياء. وقد تقدم تفصيل القول

في ذلك.

الثاني - حضور القلب: وهو أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به،

حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله، من غير جريان الفكر في غيرهما. فمهما

انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه من غير غفلة عنه، فقد

حصل حضور القلب. ثم حضور القلب قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه،

وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب، فإن الخشوع في الصلاة خشوعان: خشوع بالقلب:

وهو أن يتفرغ لجمع الهمة لها، والإعراض عما سواها، بحيث لا يكون في قلبه غير

المعبود. وخشوع بالجوارح: وهو أن يغض بصره، ولا يلتفت، ولا يعث، ولا يتشاءب،

ولا يتمطى، ولا يفرقع أصابعه، وبالجملية: لا يتحرك لغير الصلاة، ولا يفعل شيئاً من

المكروهات، وربما عبر ذلك بالخضوع.

الثالث - التفهم لمعنى الكلام: وهو أمر وراء حضور القلب. فربما يكون القلب

حاضراً مع اللفظ، ولا يكون حاضراً مع معناه. فالمراد بالتفهم هو اشتغال القلب على

العلم بمعنى اللفظ. وهذا مقام يتفاوت فيه الناس، إذ ليس يشترك الناس في تفهم

معاني القرآن والتسبيحات، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في أثناء

الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ولا يفهمها غيره. ومن هذا الوجه كانت

الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً تمنع تلك الأمور عن الفحشاء

والمنكر لا محالة.

الرابع - التعظيم: وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم. إذ الرجل ربما يخاطب

غيره، وهو حاضر القلب فيه، ومتفهم لمعناه، ولا يكون معظماً له.

الخامس - الهيبة: وهي زائدة على التعظيم، لأنها عبارة عن خوف منشأه

التعظيم، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً. ثم كل خوف لا يسمى مهابة، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال.

السادس - الرجاء: ولا ريب في كونه زائداً عما ذكر. فكم من رجل يعظم ملكاً من الملوك، ويهابه ويخاف سطوته ولا يرجو بره واحسانه. والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله، كما أنه خائف بتقصيره عقابه.

السابع - الحياء: ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء، لتصورها من غير حياء، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

فصل

(حضور القلب)

إعلم أن كون الأمور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها، والمقصود الاصلى منها، أمر ظاهر. إذ الغرض الاصلى من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيها، فكل عمل يكون اشد تأثيراً فيهما يكون أفضل. ولا ريب في أن المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيها عن الكدورات من الصلاة ليس إلا الأمور المذكورة، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلة فيها، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه، مع أن المصلى في صلاته ودعائه مناج ربه؟ ولا شك أن الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة، وأيضاً الكلام إعراب عما في الضمير، ولا يتأتى الإعراب عما في الضمير إلا بحضور القلب، فإى سؤال في قوله: «إهدنا الصراط المستقيم» إذا كان القلب غافلاً؟ ولا شك أيضاً أن المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء، والمخاطب هو الله تعالى، فإذا كان قلب العبد محجوباً عنه بحجاب الغفلة، ولا يراه ولا يشاهده، بل كان غافلاً عن المخاطب، ويحرك لسانه بحكم العادة، فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي

شرعت لتصيل القلب، وتجديد ذكر الله، ورسوخ عقد الايمان بها. هذا حكم القراءة والذكر. وأما الركوع والسجود، فالمقصود منهما التعظيم قطعاً، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة، وإذا خرج عن كونه تعظيماً، لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس، وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به، كما في أفعال الحج، واعطاء المال في الزكاة، وامساك النفس عن الشهوات في الصوم. فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين، والفاصل بين الكفر والاسلام، وتقدم على سائر العبادات، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة، تظاهرت الآيات والأخبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها، وعلى ذم الغفلة والتفكر في امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة، وقد تظاهرت الأخبار أيضاً بأن الأنبياء والأوصياء واکابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الإقبال والخشوع والخوف. قال الله سبحانه:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(١). وقال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢). والغفلة تضاد الذكر، فمن كان غافلاً في صلاته لا يكون مقيماً للصلاة لذكره. وقال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٣). وقال: ﴿قَوْلِ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٤)، ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصليين، لا لأنهم سهوا عنها وتركوها. وقال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٥).

قيل المراد: سكارى من كثرة الهم، وقيل: من حب الدنيا، ولو حمل على ظاهره

(١) المؤمنون، الآية: ٢.

(٢) طه، الآية: ١٤.

(٣) الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٤) الماعون، الآية: ٤ - ٥.

(٥) النساء، الآية: ٤٣.

ففيه تنبيه على سكر الدنيا، إذ بين فيه العلة. وقال: حتى تعلموا ما تقولون. وكم من مصل لم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته. وقال رسول الله ﷺ: «من صلى ركعتين، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا، غفر له ما تقدم من ذنبه». وقال ﷺ: «إذا صليت صلاة فريضة فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها». وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه». وقال ﷺ: «إنما فرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله، فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة، فما قيمة ذكرك؟!».

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: «قال الله تبارك وتعالى: إنما أقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف نفسه عن الشهوات من أجلي، ويقطع نهاره بذكرى، ولا يتعاطم على خلقى، ويطعم الجائع، ويكسو العارى، ويرحم المصاب، ويؤوى الغريب، فذلك يشرق نوره مثل الشمس، أجعل له في الظلمات نوراً، وفي الجهالة علماً، أكلاه بعزتي، واستحفظه بملائكتي، يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه. فمثل ذلك عندي كمثال جنات الفردوس، لا تبيس ثمارها، ولا تتغير عن حالها»^(١). وفي أخبار موسى: «يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض أعضائك، وكن عند ذكرى خاشعاً مطمئناً. وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك. وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل، وناجني بقلب وجل، ولسان صادق». وأوحى إليه ﷺ: «قل لعصاة أمتك: لا تذكروني، فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته، وإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة». وفي بعض الأحاديث القدسية: «ليس كل مصل أتقبل صلاته، إنما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتكبر على عبادي، وأطعم الفقير الجائع

(١) الحديث مروي في (بحار الأنوار): ١٨ / ١٩٦، باب آداب الصلاة عن (المحاسن)، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات)، فصححناه على الموضع المذكور من (بحار الأنوار).

لوجهي». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشتغل قلبه بما تراه عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره». وقال الصادق عليه السلام: «لا تجتمع الرغبة والرغبة في قلب إلا وجبت له الجنة، فإذا صليت، فاقبل بقلبك على الله عز وجل، فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عز وجل في صلاته ودعائه، إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين، وأيده مع مودتهم إياه بالجنة». وقال الباقر عليه السلام: «إن العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلاثها وربعها وخمسها، فما يرفع له إلا ما أقبل عليه بقلبه، وإنما امرؤ بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة». وروى: «أن إبراهيم الخليل كان يسمع تأوّهه على حد ميل، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل»^(١). وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله ﷺ مثل ذلك. وقال بعض أزواجه: «كان النبي ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه». وكان أمير المؤمنين عليه السلام إذا أخذ في الوضوء، يتغير وجهه من خيفة الله. وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، ف قيل له: ما لك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان». وروى: «أنه وقع نصل في رجله عليه السلام، فلم يمكن أحداً من إخراجه. فقالت فاطمة عليها السلام: أخرجه في حال صلاته فإنه لا يحس حينئذ بما يجري عليه. فأخرج وهو في صلاته، فلم يحس به أصلاً». وكانت الصديقة فاطمة عليها السلام تنهج^(٢) في الصلاة من خيفة الله. وكان الحسن بن علي عليه السلام إذا فرغ من وضوئه، تغير لونه، ف قيل له في ذلك، فقال: «حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه». وكان الإمام علي بن الحسين عليه السلام إذا توضأ أصفر لونه، فيقال له: ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء؟ فيقول: «إنى أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم». وقال أبو حمزة الثمالي:

(١) الأزيز: صوت غليان القدر. والمرجل -وزان منبر-: القدر من الحجارة.

(٢) النهج -بالتحريك-: تتابع النفس واللهاث.

«رأيتَه يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه، فتركه حتى فرغ من صلاته، فسألته عن ذلك، فقال: ويحك! أتدري بين يدي من كنت؟ شغلني والله ذلك عن هذا! أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه؟ فقلت له: يا بن رسول الله، هل كنا اذاً. قال: كلا! ان الله يتم ذلك بالناوغل». وروى: «أنه ﷺ إذا قام إلى الصلاة تغير لونه، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً». وروى: «أنه ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة كأنه ساق شجرة، لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه». وسئل مولانا الصادق ﷺ عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرّ مغشياً عليه، فقال: «ما زلت أكرّر آيات القرآن، حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها»^(١). قيل: وكان لسان الإمام ﷺ في تلك الحال كشجرة طور حين قالت: «انى أنا الله». وسئل بعض الأكابر عن صلاته، فقال: «إذا جاءت الصلاة، أسبغت الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم إلى الصلاة، فأجعل الكعبة بين حاجبي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن شمالي، وملك الموت ورائي، وأظنها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبر تكبيراً بتحنن، وأقرأ القرآن بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشع، وأقعد على الورك اليسرى، وأفرش ظهر قدمي، وانصب القدم اليمنى على الابهام وأتبعها الاخلاص، ثم لا أدري أقبلت مني أم لا!«.

ثم، على ما عرفت من كيفية صلاة الأنبياء والأولياء، مع مشاهدة كيفية صلاتك وصلاة الناس، تعلم: أن الناس ينقسمون في صلاتهم: إلى غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة. وإلى من يغفل في بعض صلاته ويحضر قلبه في بعض منها، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور والغفلة وكثرتهم، وزيادة احدهما على الآخر، فله مراتب غير متناهية. وإلى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة، بل يكون

(١) صححنا الأحاديث الواردة في الصلاة على (بحار الأنوار): ١٨ / ١٦٩ - ٢٠٢، باب آداب الصلاة.

حاضر القلب في جميع صلاته، وربما كان مستوعب الهم بها، بحيث لا يحس بما يجرى بين يديه، كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين عليه السلام باخراج النصل من رجله الشريفة. وبعضهم حضر الجماعة مدة، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره. وكان جيب الخليل يسمع على ميلين. وكان جماعة تصفرّ وجوههم، وترتعد فرائصهم عند الصلاة. وكل ذلك غير مستبعد، فان اضعافه مشاهدة في همّ الدنيا وخوف ملوك الدنيا، مع ضعفهم وعجزهم، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم. حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير، ويحدثه بهمهم ويخرج، ولو سئل عمن كان على حواليه، وعن ثوب الملك، لكان غير قادر على الإخبار عنه، لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله:

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾^(١).

فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه. فان موضع نظر الله القلوب، دون ظاهر الحركات. ولذا قال بعض الصحابة: «يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيتهم في الصلاة، من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها»، فالملاحظ حال القلب لا حال الشخص. ولذا قيل: «من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة، ولا ينجو: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾»^(٢).

تنبيه

(دفع اشكال)

إن قيل: المستفاد من الظواهر المذكورة، أن صلاة الغافل ليست مقبولة إلا بقدر

(١) الأنعام، الآية: ١٣٢. الأحقاف، الآية: ١٩.

(٢) الشعراء، الآية: ٨٩.

ما أقبل عليه منها، والفقهاء لم يشترطوا إلا حضور القلب عند النية والتكبير، فكيف التوفيق؟

قلنا: فرق بين القبول والإجزاء، فإن المقبول من العبادة ما يقرب العبد إلى الله، ويترتب عليه الثواب في الآخرة، والمجزى منها ما يسقط التكليف عن العبد، وإن لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه إلى الله. والناس مختلفون في تحمل التكليف، فإن التكليف إنما هو بقدر الوسع والطاقة، فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة، إذ لا يقدر على ذلك إلا الأقلون. وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة، فلا مرد له إلا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم، ولو في اللحظة الواحدة، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه، فاقصر على التكليف بذلك. ونحن - مع ذلك - نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً، واحضر القلب لحظة، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره؟ والحاصل: أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة، وأن أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير، فالتقصان منه هلاك، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في اجزاء الصلاة، وكم من حى لا حراك فيه قريب من الميت، فصلاة الغافل في جميعها، إلا عند التكبير، حى لا حراك فيه.

فصل

(شرائط الصلاة)

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسباباً لا تتحقق بدونها.

أما حضور القلب: فسببه الاهتمام.

فإن قلت: كل احد تابع لهمه، فلا يحضر إلا فيما يهيمه، ومهما أهمه أمر حضر

فيه قلبه، شاء أو لم يشأ، فهو مجبول عليه مسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة

لم يكن متعطلاً، بل كان حاضراً فيما يهمه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لاحتضار القلب في الصلاة إلا بصرف الهمة إليها، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتيقن أن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها. وإذا اضيف إلى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة. ولكون الباعث والسبب لإحضار القلب في أمر إنما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه، ترى قلبك يحضر إذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا، بل بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على نفكع وضرك. فإذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملوكوت، والنفع والضرر، فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان واليقين. فينبغي حينئذ السعى في تقوية اليقين والإيمان.

وأما التفهم: فسببه - بعد حضور القلب - ادمان الفكر، وصرف الذهن إلى ادراك المعنى. وعلاجه ما هو علاج احتضار القلب، مع الاقبال على الفكر، والتشمر لرفع الخواطر الشاعلة بقطع موادها، أعنى النزوع عن الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها. وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر. فإن من أحب شيئاً أو أبغض شيئاً أو خاف من شيء، أكثر ذكره. فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة. ولذا ترى أن من أحب غير الله أو كان قلبه مشغولاً بعداوة أحد أو بالخوف عنه، لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم: فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله وعظمته، فإن من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه، وهذه المعرفة من اصول الإيمان. الثانية: معرفة حقارة النفس وخستها وذلتها، وكونها عبداً مسخراً مربوباً لا يقدر شيئاً من النفع والضرر. وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله، فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع، فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال، ونعوت القدرة والكمال، ولا يكون خاشعاً معظماً

له، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه.

وأما الهيبة والخوف: فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدره الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيئته فيه، مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة، مع تذكر ما جرى على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع. وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء: فسببه معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة. فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه، انبعث منها الرجاء.

وأما الحياء: فسببه إستشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتهما، وقلة اخلاصها وخبث باطنها، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته، والعلم بأنه مطلع على السرائر وخطرات القلب، وإن دقت وخفيت. وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً، انبعث منها - بالضرورة - حالة تسمى بالحياء.

فصل

(طريق تحصيل المعاني الباطنة)

اعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة، اعنى الحضور والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، هو تحصيل أسباب هذه المعاني، وقد عرفت أسبابها. وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين:

الأول - معرفة الله، ومعرفة جلاله وعظمته واستناد الكل اليه، ومعرفة كونه عالماً بذرات العالم وبسرائر العباد. ويلزم أن تكون هذه المعرفة يقينية، ليرتب عليها الأثر. اذ ما لم يحصل اليقين بأمر، لا يحصل التشمر في طلبه والهرب عنه. وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايमान. ولا ريب في كونها موجبة لحصول المعاني

المذكورة واسبابها. اذ المؤمن يكون البتة حاضر القلب مع ربه عند مناجاته، ومتفهماً لما يسأله عنه، معظماً له، وخائفاً منه، وراجياً منه، ومستحيماً من تقصيره.

الثاني - فراغ القلب، وخلوّه من مشاغل الدنيا. فإن انفكك المؤمن العارف، المتقين بالله وبجلاله وعظمته، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة في صلاته، لا سبب له إلا تفرق الفكر، وتقسم خاطر، وغيبة القلب عن المناجاة، والغفلة عن الصلاة، ولا تلهي عن الصلاة إلا الخواطر الردية الشاغلة. فالدواء في احضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه.

وسبب توارد الخواطر، إما أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً في ذاته باطناً.

والأول: ما يظهر للبصر، او يقرع على السمع. فإن ذلك قد يختطف الهمّ حتى يتبعه، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر إلى غيره، ويتسلسل فيكون الإبصار او الاستماع سبباً للافتكار، ثم يصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض. ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجري على حواسه. ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره. فعلاجه: قطع هذه الأسباب، بأن يغض بصره، أو يصلى في بيت مظلم، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته، حتى لا تتسع مسافة بصره، ويتحرز من الصلاة على الشوارع، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة، والعمارات العالية المرتفعة. ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير، سعته بقدر السجود، ليكون أجمع للهم. والأقوياء كانوا يحضرون المساجد، ويغضون البصر، ولا يجاوزونه موضع السجود، وكما ورد الأمر به، ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم.

وأما الثاني: اعنى الأسباب الباطنة، فهي أشد. فإن من تفرقت همومه، وتشعبت خواطره في أودية الدنيا، لم ينحصر فكره في فنّ واحد، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب. وغض البصر لا يغنيه، فإن ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل. فهذا علاجه: أن يرد نفسه قهراً إلى فهم ما يقرؤه، ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك

أن يستعد له قبل التحريم، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وخطر المقام بين يدي الله تعالى، وهول المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه من أمر الدنيا، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار. فإن لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجيه إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من اعمال العروق، وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن احضار القلب. ولا ريب في أنها تعود إلى مهماته، وهي إنما صارت مهمة لأجل شهواته، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق. فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند ابليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من اخراجه، فيتخلص عنه باخراجه. وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغني غيره. فإن ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر، إنما ينفع في الشهوات الضعيفة، والهم الذي لا يشغل إلا حواشي القلب. وأما الشهوة القوية المرهقة، فلا ينفع معها التسكين، بل لا تزال تجاذبها وتجادبك، ثم تغلبك وتنقض جميع صلاتك في شغل المجاذبة. ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره، وكانت أصوات العصافير تشوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير، فيعود إلى السفير بالخشبة، فقليل له: إن هذا سير الواني ولا يتقطع، فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة. فكذلك شجرة الشهوة، إذا استعملت وتفرعت اغصانها، انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار، وانجذاب الذباب إلى الأقدار، والشغل يطول في دفعها. فإن الذباب كلما ذب آب، ولأجله سمى ذباباً، وكذلك الخواطر. وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها، ويجمعها أصل واحد، وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة، وأساس كل نقصان، ومنع كل فساد. ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة، فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة. فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته، وهمة الرجل مع قرّة عينه، فإن كانت قرّة عينه في الدنيا انصرف همه لا محالة إليها.

ولكن - مع هذا - لا ينبغي أن تترك المجاهدة، ورد القلب إلى الصلاة، وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء، ولمرارته استبشعته الطباع، وبقيت العلة مزمنة، وصار الداء عضالاً. حتى أن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بامور الدنيا، فعجزوا عنه. فاذأ لا مطمع فيه لأمثالنا، وباليات سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوسواس، لنكون ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة: فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لا محالة، ولا يجتمعان. ثم جميع ما ذكر إنما هو في الخواطر المتعلقة بالأمر المهمة من الدنيا، حتى إذا خرجت هذه الأمور من القلب، خرجت منه هذه الخواطر أيضاً. وقد تكون الخواطر من مجرد الوسواس الباطنة والخيالات الفاسدة، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوى يكون لها، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها. والأمر فيها أصعب، وإن كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلة عظيمة في زوالها أيضاً، إذ مادة هذه الوسواس أيضاً، إما حب المال وحب الجاه، أو حب غيرهما من الأمور الشهوية الدنيوية. وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوسواس.

فصل

(أسرار الصلاة)

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبهات، فينبغي للمؤمن المرید للآخرة ألا يغفل عنها، فهاهى نذكرها:

أما الأذان: فإذا سمعت نداء المؤذن، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمر بباطنك وظاهرک للاجابة والمصارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللفظ يوم العرض الأكبر، فأعرض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار، مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار، فاعلم أنه يأتيك النداء

بالبشرى والفوز يوم القضاء، ولذلك قال سيد الأنبياء: «أرحنا يا بلال!»، أى أرحنا بها وبالنداء إليها، إذ كانت قرّة عينه فيها. واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل. وأحضر النبي ﷺ، وتأدب بين يديه، واشهد له بالرسالة مخلصاً، وصلّ عليه وآله، وحرك نفسك، واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة، وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وأفضلها. وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه، واختمه بذلك كما افتتحت به. واجعل مبدءك منه، وعودك اليه، وقوامك به، واعتمادك على حوله وقوته. فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

فصل

(الوقت)

وإذا دخل الوقت، استحضر أنه ميقات جعله الله لك، لتقوم فيه بخدمته، وتتأمل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته، وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سبباً لقربك ووسيلة إلى فوزك. فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا، وتلقاه بالسكينة والوقار، والخوف والرجاء، واستحضر عظمة الله وجلاله، وعدم تنهاى قدرته وكماله، ونقصان قدرك ومرتبك، وعدم قابليتك للقيام بخدمته، وقصورك عن أداء وظائف طاعته.

فصل

(آداب الصلاة)

إذا أتيت بالطهارة في مكانك، وهو ظرفك الأبعد، ثم في ثيابك، وهو غلافك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى، فلا تغفل عن لبك وذاتك، وهو قلبك، فطهره بالتوبة والندم على ما فرط، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهر بها باطنك، فإنه موضع نظر ربك. ثم إذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس، فاخطر ببالك فضائح سرّك التي لا يطلع عليها إلا ربك، وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر، وإنما يكفرها الخوف والندم والحياء، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكামنها، فتذل به نفسك، ويستكين تحت الخجلة قلبك، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الأبق، الذي ندم فرجع إلى مولاه، ناكساً رأسه من الخوف والحياء. قال الصادق عليه السلام: «أزبن اللباس للمؤمن لباس التقوى، وأنعمه الايمان، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾»^(١).

وأما اللباس الظاهر، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بنى آدم، وهي كرامة اكرم الله بها ذرية آدم ما لم يكرم بها غيرهم، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم. وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عز وجل، بل يقربك من ذكره وشكره وطاعته، ولا يحملك على العجب والرياء والتزيّن والتفاخر والخيلاء، فانها من آفات الدين، ومورثة للفسوة في القلب. فإذا لبست ثوبك، فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهرك بثوبك، وليكن باطنك من الصدق في ستر الهيبة، وظاهرك في ستر الطاعة. واعتبر بفضل الله عز وجل، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والانابة والاعاثة

(١) الأعراف، الآية: ٢٦.

ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء. ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك ما أعظم منه. واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعينك حاله وأمره. واحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك، ويتجر برأس مالك غيرك، وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله تعالى، ومعرفة عيوب نفسه، وترك ما يشين في دين الله عز وجل، فهو بمعزل عن الآفات، خائض في بحر رحمة الله عز وجل، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان. وما دام ناسياً لذنوبه، جاهلاً بعيوبه، راجعاً إلى حوله وقوته، لا يفلح إذا أبداً^(١).

فصل

(آداب المصلى)

إذا أتيت مصلاً، فاستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك، تريد مناجاته، والتضرع إليه، والتماس رضاه، ونظره إليك بعين الرحمة. فاختر مكاناً يصلح، كالمساجد الشريفة، والمشاهد المطهرة، مع الإمكان. فانه تعالى جعل تلك المواضع محلاً لاجابته، وموضع نزول فيوضاته ورحمته، على مثال حضرة الملوك، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب. فادخلها بالسكينة والوقار، ومراقباً للخضوع والانكسار. قال الصادق عليه السلام: «إذا بلغت باب المسجد، فاعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم، لا يبطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا الصديقون، فهب القدوم إلى بساط هيبة الملك، فانك على خطر عظيم إن غفلت، فاعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك. فان عطف عليك برحمته وفضله، قبل منك يسير الطاعة، وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً. وإن طالبك باستحقاقه

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣٧/٧ - ١٣٨.

الصدق والاخلاص عدلا بك، حجبك ورد طاعتك وإن كثرت. وهو فعال لما يريد. واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفرك بين يديه، فإنك قد توجهت للعبادة له، والمؤانسة به. واعرض أسرارك عليه، ولتعلم أنه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلايتهم. وكن كأفقر عباده بين يديه. واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك، فإنه لا يقبل إلا الأظهر والأخلص. وأنظر من أى ديوان يخرج اسمك، فإن ذقت حلاوة مناجاته، ولذيت مخاطباته، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن اقباله عليك واجابته، فقد صلحت لخدمته، فادخل فلك الإذن والامان، وإلا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل. فان علم الله عز وجل من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف، ووفقك لما تحب وترضى، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه، المقيمين على بابه لطلب مرضاته. قال الله تعالى:

﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاَهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾^(١).

فصل

(الاستقبال)

وأما الاستقبال، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله. وهذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يصرف وجه القلب عن سائر الأشياء إلى الله، فان الأعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة، لأجل ألا تبقى على القلب، لأنها إذا توجهت إلى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه إلى أشياء متعددة، فأمر الله بصرفها إلى شطر بيته، ليتذكر القلب صاحبه، ويتوجه اليه، ويثبت على ذلك كما تثبت الأعضاء على جهة

(١) النمل، الآية: ٦٢.

واحدة. قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت»، وهذا الالتفات يشمل التفات القلب ايضاً، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الله وغير الصلاة، فان التفت إلى غير الله وغير الصلاة، فذكره باطلاع الله عليه، وقبح غفلة المناجى عمن يناجيه وعما يقول له حين المناجاة، لا سيما إذا كان من يناجيه ملك الملوك. والزم قلبك الخشوع، فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر، ولذا قال رسول الله ﷺ - وقد رأى مصلياً يعث بلحيته -: «أما هذا، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه، فان الرعية بحكم الراعى». وفي الدعاء: «اللهم اصلح الراعى والرعية»، وهو القلب والجوارح.

وبالجملة: ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه إلى بيت الله للصلاة، أن يصرف وجهه قلبه إلى صاحب البيت، وكما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف وجه القلب إلى الله إلا بالتفرغ عما سوى الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «إذا قام العبد إلى صلاته، وكان هواه وقلبه إلى الله، انصرف كيوم ولدته أمه». وقال ﷺ: «أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟». قيل: هذا نهى عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمتة في حال الصلاة، فان الملتفت يميناً وشمالاً غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحوّل وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للمعارف. وقال الصادق عليه السلام: «إذا استقبلت القبلة، فأيس من الدنيا وما فيها، والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعابن بسرك عظمة الله عز وجل، واذكر وقوفك بين يديه، قال الله تعالى:

﴿هَٰذَا لَكَ تَبَلُّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيَهُمْ الْحَقُّ﴾^(١).

وقف على قدم الخوف والرجاء»^(١).

فصل

(القيام)

وأما القيام، فهو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله سبحانه. فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً ومتطأطأ متنكساً، تنبهاً للقلب على لزوم التواضع والتذلل والانكسار، والتبري عن التكبر والتروّس. وينبغي أن تتذكر ها هنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فلا تجعل مالك الملك والملوك أنزل من بعض ملوك عصرك، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كائلة من رجل صالح من أهلك، أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فانه تهدد عند ذلك أطرافك، وتخشع جوارحك، ويسكن جميع أجزائك، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع. وبالجمله: الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعاً، ولا يكون بين يدي الله كذلك، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره، وعدم تدبره في قوله تعالى:

﴿الَّذِي يَرْنِكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ﴾^(٢).

فتباً لمن يدعى معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه، ومع ذلك

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١.

(٢) الشعراء، الآية: ٢١٨ - ٢١٩.

يستحيى من أحد عبيده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضرر، ولا يستحيى من الله، ويخشى الناس، ولا يخشاه!

فصل

(التكبيرات)

وأما التوجه بالتكبيرات، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله، وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته. وإذا قلت: (اللهم إنك أنت الملك الحق)، فتذكر عظيم ملكه، وعموم قدرته، واستيلاءه على جميع العوالم، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار. وإذا قلت: (لبيك وسعديك! والخير في يديك، والشر ليس اليك)، مثل نفسك بين يديه، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك، ويسمع نداءك، ويجب دعاءك، وأن خير الدنيا والآخرة بيده لا بيد غيره، وأنه خير محض منزّه عن الشر. وإذا قلت: (عبدك وابن عبدك، منك وبك ولك واليك)، فقد اعترفت له بالعبودية، وبأنه ربك وخالقك ومالكك، وموجدك ومخترعك، وانت اثره وفعله، ومنه وجودك، وبه قوامك، وله ملكك، وإليه معادك، فانت منه، فلا يتركك ويرحمك، فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه، وكل امورك في الدنيا والآخرة اليه، ولا تعتمد في مقاصدك إلا عليه، فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوسواس والهوى، فتلق الفيض من العالم الأعلى.

فصل

(النية)

وأما النية فحقيقتها القصد إلى الفعل، امتثالاً لأمر الله، وطلباً لتقربه، ورجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه. فينبغي أن تجتهد في خلوصها ألا يشوبها غرض دنيوى فتفسد، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها. وينبغي أن تتذكرها هنا عظيم لطفه ومنتته عليك. حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك، وكثرة جنايتك، وعظم في نفسك قدر مناجاته. وانظر من تناجى، وكيف تناجى، وبماذا تناجى، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة، ويصفّر وجهك من الخوف والخشية.

فصل

(تكبيرة الاحرام)

واذا كبرت تكبيرة الاحرام، تذكر أن معناها: أنه تعالى اكبر من أن يوصف، أو أكبر من كل شيء، أو أكبر من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس. فانتقل منه إلى غاية عظمته وجلاله، واستناد ما سواه اليه، بالايجاد والاختراع والاخراج من كتم العدم. وينبغي أن تكون على يقين بذلك، حتى لا يكذب لسانك قلبك، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله تعالى عندك، فالله يشهد أنك كاذب، وان كان الكلام صدقاً، كما شهد على المنافقين في قولهم: إن النبی رسول الله. وإن كان هواك اغلب عليك من امر الله تعالى، وانت اطوع له منك لله ولأمره، فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك (الله اكبر) كلاماً باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما اعظم الخطر في ذلك، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه تعالى وعفوه. قال الصادق عليه السلام: «فإذا كبرت، فاستصغر ما بين السماوات العلى والثرى دون كبريائه، فان الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر، وفي قلبه

عارض عن حقيقة تكبيره، قال: يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي! لأحرمنك حلاوة ذكرى، ولأحجبك عن قربى والمسرة بمناجاتي! ^(١). فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك، فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها، وقلبك مسرور بمناجاته، وملتذ بمخاطباته، فاعلم أنه تعالى قد صدقك في تكبيرك، وإن سلبت لذة المناجاة، وحرمت حلاوة العبادة، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك، وطردك عن بابه وابعذك عن جنبه، فابك على نفسك بكاء الثكلى، وبادر إلى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى.

فصل

(دعاء الاستفتاح)

وأما دعاء الاستفتاح، فأول كلماته: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض)، ومعلوم أن المراد بالوجه هنا هو وجه القلب دون الوجه الظاهر، لأن الله سبحانه منزّه عن الأمكنة والجهات حتى توجه إليه الوجه الظاهر. فانت تدعى في هذا الكلام أن قلبك متوجه إلى فاطر السماوات والأرض، فإياك أن يكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق، إذ لو كان قلبك متوجهاً إلى أمانيه، وهمه في البيت والسوق، أو واقعاً في أودية الوسوس، أو كان غافلاً، ولم يكن مقبلاً على الله متوجهاً إليه، وكنت كاذباً في أول مخاطبتك مع ربك. فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه، وتقبل عليه في هذا الوقت، وإن عجزت عنه على الدوام، لئلا تكون كاذباً في أول كلامك. وإذا قلت: (حنيفاً مسلماً)، فاخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه، فإن لم تكن موصوفاً بهذا الوصف، كنت كاذباً، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وأن تندم على ما سبق من الأحوال. وإذا قلت: (وما أنا من المشركين)، فاخطر ببالك الشرك الخفى، وكونه داخلاً في الشرك، لا طلاق الشرك

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣ / ١٤١.

على القليل والكثير. فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم، كنت مشركاً كاذباً في هذا الكلام. فانف هذا الشرك عن نفسك، وأستشعر الخجلة في قلبك، بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع. وإذا قلت: (محيى ومماتى لله رب العالمين)، فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه، موجود لسيدته، فان عن ذاته، باق بربه، بحيث لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة، بل يعلم حياته وبقائه من الله تعالى، ولا تكون حركاته وسكناته إلا لله تعالى. فالقائل بهذا الكلام، إذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثراً، أو صدر عنه فعل: من الرضا، أو الغضب، أو القيام، أو القعود، أو الرغبة في الحياة، أو الرهبة من الموت لأمور الدنيا، كان كاذباً.

فصل

(الاستعاذة)

فإذا قلت: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ينبغى أن تعلم أن الشيطان اعدى عدوك، مترصد لصرف قلبك عن الله، حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له، مع أنه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة. وينبغى ألا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول، لتكون مثل من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله، فقال: اعوذ منك بهذا الحصن الحصين، وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا يفيد ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن. فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان، وما لم يأت بما يحبه الله. فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن، لا يغنيه مجرد القول، فليقتن قوله بالعزم على التعود بحصن الله عن شر الشيطان، وحصنه (لا إله إلا الله)، إذ قال: «لا إله إلا الله حصنى، ومن دخل حصنى أمن من عذابي». والدخول في حصن (لا إله إلا الله) ليس أيضاً بمجرد التكلم به، بل الاذعان القلبي واليقين القطعى بأن كل معبود سواه باطل، وكل شيء منه وله

وبه واليه، ولا مؤثر في الوجود إلا هو. فالمحصن بالتوحيد من لا معبود له سوى الله، وأما من اتخذ إله هواه، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله. ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة، وتدبير فعل الخيرات، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن الاقبال إلى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار، فهو وسواس، إذ حركة اللسان غير مقصودة، بل المقصود المعاني. وإذا قلت: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فانو به التبرك لا بتدائك بقراءة كلام الله، والمراد بالاسم هنا المسمى، فمعناه: أن كل الأشياء والأمور بالله، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله)، إذ المراد بالحمد الشكر، والشكر إنما يكون على النعم، فإذا كانت النعم باسرها من الله فيكون منحصرأ به، فمن يرى نعمة من غير الله، أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله سبحانه. وإذا قلت: (الرحمن الرحيم)، فاحضر في قلبك أنواع لطفه، وضروب احسانه، لتتضح لك رحمته، فينبعث بها رجاؤك. وإذا قلت: (مالك يوم الدين)، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا هو، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكة. ثم جدد الاخلاص بقولك: (إياك نعبد). وجدد العجز والافتقار والتبرى من الحول والقوة بقولك: (وإياك نستعين)، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا باعانت، وأن له المنة، إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته، وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم، واستحضر أن الاعانة لا تكون إلا منه، ولا يقدر غيره أن يعين أحداً، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب إلا من حيث إنها مسخرة منه تعالى. وإذا قلت: (إهدنا الصراط المستقيم)، فاعلم أنه طلب لأهم حاجاتك، وهي الهداية إلى النهج الحق الذي يسوقك إلى جوار الله، ويفضى بك إلى مرضاته، ويوصلك إلى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين. وإذا تلوت

(الفاتحة) كذلك، فيشبه أن تكون ممن قال الله فيهم بما أخبر عنه النبي ﷺ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين، نصفها لى، ونصفها لعبدى. يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، فيقول الله عز وجل: حمدنى عبدى وأثنى على. وهو معنى قوله: سمع الله لمن حمده...» إلى آخر الحديث. فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاك بذكر الله في جلاله وعظمته، فناهيك به غنمة، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله. وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة، فلا تغفل عن أمره ونهيه، ووعدته ووعدته، ومواعظه وأخبار أنبيائه، وذكر مننه وإحسانه، فلكل واحد حق: فحق الأمر والنهى العزم، وحق الوعد الرجاء، وحق الوعيد الخوف، وحق الموعدة الاعتاض، وحق أخبار الأنبياء الاعتبار، وحق ذكر المنة الشكر، وتكون هذه المعانى بحسب درجات الفهم، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر. والصلاة مفتاح القلوب، فيها تنكشف أسرار الكلمات. فهذا حق القراءة، وهو أيضاً حق الأذكار والتسبيحات. واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة: بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل. وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره، وهو درجة اصحاب اليمين. وبعضهم يسبق قلبه إلى المعانى أولاً، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب، والمقربون ألسنتهم ترجمان تتبع القلب. ثم ينبغي أن تراعى الهيئة في القراءة، فترتل، ولا تسرد ولا تعجل، فإن ذلك أيسر للتأمل، وتفرق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب، والوعد والوعيد، والتمجيد والتعظيم، كان بعضهم إذا مر بمثل قوله:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾^(١).

يغضّ صوته، كالمستحيى عن أن يذكره بكل شيء. وروى: «أنه يقال يوم

(١) المؤمنون، الآية: ٩١.

القيامة لصاحب القرآن: اقرأ وارق، فكلما قرأ آية صعد درجة».

فصل

(الركوع)

وأما الركوع، فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله، وترفع بذلك معظماً منبهاً على غاية عظمته وارتفاعه، وكونه أرفع من أن تصل إليه أيدي العقول والأوهام، ومستجيراً بعفوه من عقابه، وتستأنف بهويك للركوع ذلاً وتواضعاً، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك، وتستشعر ذلك وعزه، وضعفك وقوته، وعجزك وقدرته، واتضاعك وعلوه، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك، فتسبحه وتشهد له بالعظمة، وأنه أعظم من كل عظيم، وتكرر ذلك على قلبك لترسخ فيه عظمته وجلاله، ثم ترفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك: (سمع الله لمن حمده): أى اجاب الله لمن شكره، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضى للمزيد، فتقول: (الحمد لله رب العالمين)، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله، فتقول: (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت). روى (الصدوق) - رضوان الله عليه - عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع، فقال عليه السلام: تأويله: آمنت بك ولو ضربت عنقي». وقال الصادق عليه السلام: «لا يركع عبد لله ركوعاً على الحقيقة، إلا زينه الله بنور بهائه، وأظله في ظل كبريائه، وكساه كسوة أصفياه. والركوع أول، والسجود ثان. فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب، وفي السجود قرب، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب. فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه، متذلل وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين»^(١). وحكى: «أن ربيع بن خثيم، كان

(١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ٣٥٦ / ١٨، باب الركوع

يسهر بالليل إلى الفجر في ركعة واحدة، فإذا أصبح، تضرع وقال: أه! سبق المخلصون وقطع بنا». واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بتأييده وعونه، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده، فإن الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى اصول التواضع والخضوع والخشوع بقدر اطلاع عظمتهم على سرائرهم.

فصل

(السجود)

وإذا هويت إلى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والإنكسار، إذ السجود أعلى درجات الاستكانة، فممكن أعز أعضائك، وهو الوجه، لأذل الأشياء، وهو التراب، ولا تجعل بينهما حاجزاً، بل اسجد على الأرض، لأنه أجلب للخضوع، وأدل على الذل. فإذا وضعت نفسك موضع الذل، والقيتها على التراب، فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فانك من التراب خلقت، وإليه رددت. فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله، وقل: (سبحان ربي الأعلى وبحمده)، وأكد به بالتكرار، إذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار، فإن رق قلبك، وطهر لبك، فليصدق رجائك في رحمة ربك، فإن رحمته تتسارع إلى موضع الذل والضعف، لا إلى محل التكبر والبطر. فارفع رأسك مكبراً ومستغفراً من ذنوبك، وسائلاً حاجتك، ثم أكد التواضع بالتكرار، وعد إلى السجود ثانياً كذلك. وسئل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى السجدة الأولى، قال: «تأويلها: اللهم إنك منها خلقتنا»، يعنى من الأرض. وتأويل رفع رأسك: «ومنها أخرجتنا»، والسجدة الثانية: «وإليها تعيدنا»، ورفع رأسك: «ومنها تخرجنا تارة أخرى». وقال مولانا الصادق عليه السلام: «ما خسر والله تعالى قط من أتى

بحقيقة السجود، ولو كان في العمر مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل، ولا بعد عن الله تعالى أبداً من أحسن تقربه في السجود، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه، وضع حرمة بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده. فاسجد سجود متواضع لله ذليل، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد، وكون ولم يكن، وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح، فمن قرب منه بعد من غيره، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتوازي عن جميع الأشياء، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله تعالى، فهو قريب من ذلك الشيء، بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته. قال الله تعالى: ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه». وقال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: ما أطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي، إلا توليت تقويمه وسياسته، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزين بنفسه، واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين»^(١).

فصل

(التشهد)

إذا جلست للتشهد - بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة، المشتملة على الأخطار الجسيمة - فاستشعر الخوف التام والرغبة والوجل والحياء، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه، ولا محصلاً بوظائفه وشرائطه، ولا مكتوباً في

(١) صححنا الحديث على: الباب ١٦ من (مصباح الشريعة). وعلى (بحار الأنوار): ٢٦٣ / ١٨، باب السجود وآدابه.

ديوان القبول. فاجعل يدك صفراً من فوائدها، وارجع إلى مبدأ الأمر، وأصل الدين، أعنى كلمة التوحيد، وحصن الله الذي من دخله كان آمناً، فاستمسك به إن لم تكن لك وسيلة غيره، فاشهد لربك بالوحدانية، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم بيالك، واشهد له بالعبودية والرسالة، وصل عليه وعلى آله، مجدداً عهد الله باعادة كلمتى الشهادة، متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل، ومتوسلاً إلى رسول الله بالصلاة عليه، مترقباً بذلك عشرأ من صلاته ﷺ عليك - كما ورد في الخبر -، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت أبداً. قال الصادق عليه السلام: «التشهد ثناء على الله. فكن عبدأ له في السر، خاضعأ له في الفعل، كما أنك عبد له في القول والدعوى. وصل صدق لسانك بصفاء صدق سرك، فإنه خلقك عبدأ، وأمرك أن تعبد به بقلبك ولسانك وجوارحك، وأن تحقق عبوديتك له وربوبيته لك، وتعلم أن نواصى الخلق بيده، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته، وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته إلا باذنه وارادته. قال الله عز وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١).

فكن لله عبدأ شاكرأ بالقول والدعوى، وصل صدق لسانك بصفاء سرك، فإنه خلقك فعز وجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق ارادته ومشيته، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته، وبالعبادة في اداء أوامره، وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد ﷺ، فاوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمة فتحرم عن فائدة صلاته، وأمره بالاستغفار لك، والشفاعة فيك، إن أتيت بالواجب في الأمر والنهى والسنن والآداب، وتعلم جليل

مرتبته عند الله عز وجل»^(١).

فصل

(التسليم)

وإذا فرغت عن التشهد، فاحضر بحضرة سيد المرسلين، والملائكة المقربين، وبقيّة أنبياء الله وأئمة عليهم السلام والحفظة لك من الملائكة المحصنين لأعمالك، وأحضرهم جميعاً في بالك. فسلم أولاً على نبيك الذي هو أفضل الكل، وواسطة هدايتك وإيمانك، بقولك: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته). ثم توجه إلى الجميع، وسلم عليهم بقولك: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته). ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك، فتكون من العابثين واللاعبيين. وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد، لولا فضل الله في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب، وإن كان بعيداً عن درجات القبول، منحطاً عن أوج القرب والوصول. وإن كنت إماماً لقوم، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين، وليقصدا هم الرد عليك أيضاً، وإذا فعلتم ذلك فقد أدبتم وظيفة السلام، واستحققتهم من الله مزيد الأكرام. قال الصادق عليه السلام: «معنى التسليم في دبر كل صلاة: الأمان، أي من أتى أمر الله وسنة نبيه ﷺ خاضعاً له خاشعاً منه، فله الأمان من بلاء الدنيا، والبراء من عذاب الآخرة. والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه، ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات، وتصديق مصاحبتهم فيما بينهم، وصحة معاشرتهم. فإن أردت أن تضع السلام موضعه، وتؤدي معناه، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك، ألا تدنسها بظلمة المعاصي، ولتسلم منك حفظتك ألا

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٧. وعلى (بحار الأنوار): ١٨ / ٤٠٣، باب التشهد

تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم مع صديقك، ثم مع عدوك. فإن من لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاء في الخلق»^(١).

فصل

(افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه)

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لوجه الله، وإدائها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور، والخشوع، والتعظيم، والهيبة، والحياء: سبب لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنما يفيض منها على كل مصلى على قدر صفائه من كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف. والجلاء والخفاء، ويختلف ذلك بالقلة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء، ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهيمه ويكون في طلبه وإلى ما ذكرنا من ترتب الافاضة العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة، أشار النبي ﷺ بقوله: «إن العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، وواجهه بوجهه، وقامت الملائكة من لدن منكيه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلى لينشر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، ويناديه مناد: لو علم المصلى من ينجى ما التفت. وأن أبواب السماء تفتح للمصلين، وإن الله يباهى ملائكته بصدق المصلى». فإن رفع

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٨ / ١٤٤.

الحجاب وفتح أبواب السماء كناية عن افاضة العلوم الباطنة عليه. وورد في التوراة: «يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك، وبالغيب رأيت نوري». وورد: «أن العبد إذا صلى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كل صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مائة ألف». وذلك لأن العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والركوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك. وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، هكذا الراكعون والقاعدون، فإن ما أعطى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمر على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة الترقى من درجة إلى أخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: «وما منا إلا له مقام معلوم»، بخلاف الانسان، فإن له الترقى في الدرجات، والتقلب في أطوار الكمالات، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾، فمدحهم بعد الايمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً، فقال في آخرها: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، ثم قال في ثمرة تلك الصفات: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(١).

فوصفهم بالفلاح أولاً، وبوراثه الفردوس آخراً. فالمصلون هم ورثة الفردوس، وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوه بالقلب. وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح، مع غفلة القلب، لا تنتهي درجته إلى هذا الحد.

(١) المؤمنون، الآية: ٩ - ١١.

فصل

(ما ينبغي في إمام الجماعة)

ينبغي لإمام الجماعة: أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب، واقباله إلى الله، والخشوع والتعظيم، وغير ذلك من الشرائط الباطنة، لأنه القدوة والجاذب لنفوس الجماعة إلى الله، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلاً عن الله، أو واقعاً في أودية الوسوس الباطلة في الصلاة، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعاً حاضراً القلب معظماً لله سبحانه، وما أشنع به أن يكون التفات قلبه إلى من وراءه من الناس الذين لا يقدرّون على شيء من النفع والضرر أكثر من التفات قلبه إلى مالك الملك المحيط بالكل، الذي حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملوك، أو لا يستحيى من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل ﷺ، ويحل محل رسول الله ﷺ وأوصيائه الراشدين ﷺ، وينوب عنهم، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقتلهم؟ فينبغي لكل إمام قوم أن يمتحن نفسه، فإن لم تكن له هذه الصفات الخبيثة، فليؤم، وإلا فليترك ولا يهلك نفسه، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بإمامة نفسه كفرحه بإمامة غيره من أمثاله وأقرانه، بل إن كان قصده وفرحه بمجرد إقامة السنة، وإحياء رسوم الملة، فينبغي أن يكون فرحه بإمامة غيره ممن هو مرضى، والاهتمام به، أكثر من إمامة نفسه، لحصول المقصود مع السلامة عن الغوائل المحتملة، وينبغي - أيضاً - ألا يكون باعته ومحركه إلى المسجد لإمامة القوم إلا القربة ورجاء الثواب، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من حب الشهرة والمنزلة في القلوب، أو الوصول إلى ما ينتظم به معاشه، فله الويل والثبور، ويكون ممن ضل وأضل وأهلك وأهلك!

فصل

(ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين)

ينبغي للحاضر إلى صلاة الجمعة والعيدين: أن يستحضر أن هذه الأيام أيام شريفة عظيمة، وأعياد مباركة كريمة، قد خص الله بها هذه الأمة، وجعلها أوقاتاً شريفة لعباده، ليقربهم فيها من جواره، ويبعدهم من عذابه وناره، وحثهم فيها على الاقبال بصالح الأعمال، وتلافى ما فرط منهم في بقية الأيام والشهور من الاهمال. فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله، والوقوف بين يديه، والمثول في حضرته، والفوز بمخاطبته. فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة، من التنظيف والتطيب، والتعمم، وحلق الرأس، وقص الشارب والأظفار، وغير ذلك من السنن في تخلص النية، واحضار القلب، واكثر الخشوع، والابتغال إلى الله تعالى في صلاته. وينبغي أن يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز. وتفرقة الرحمة، وافاضة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول اعماله والعفو عن تقصيراته، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد، وخذلان الطرد، فتخسر صفقته، وتظهر بعد ذلك حسرته، فيفوز الفائزون، ويسبق السابقون، وينجو المخلصون، وهو يكون من الخائبين الخاسرين.

فصل

(ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات)

إذا ظهرت الآيات، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها، ينبغي لكل مؤمن أن يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها، وتكور الشمس والقمر، وظلمة القيامة، ووجل الخلائق، وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال، فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتغال بمزيد الخضوع والخشوع والهيبة والخوف، في

النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة، وينبغي أن يكون منكسر النفس، مطرق الرأس، مستحيياً من التقصير، مستشعراً بقلبه عظمة الله وجلاله. وبالجمله: حصول الخوف والخشية، والمبادرة إلى التضرع والابتهاال، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات، من شعار أهل الايمان. قال سيد الساجدين عليه السلام: «لا يفزع للآيتين ولا يرهب، إلا من كان من شيعتنا، فان كان ذلك منهما، فافزعوا إلى الله وراجعوه». وقال الرضا عليه السلام: «إنما جعلت للكسوف صلاة، لأنه من آيات الله تعالى، لا يدرى الرحمة ظهرت أم لعذاب، فاحب النبي ﷺ أن يفزع امته إلى خالقه وراحمه عند ذلك، ليصرف عنهم شرها، ويقيهم مكروها، كما صرف عن قوم يونس عليه السلام حين تضرعوا إلى الله تعالى».

المقصد الثالث

(الذكر - فضيلة الازكار - الدعاء)

اعلم أنه ينبغي لكل مؤمن أن يكثر من الذكر والدعاء، لا سيما عقيب الصلاة المفروضة. وقد ورد في فضائلهما من الآيات والأخبار ما لا يمكن احصاءه، ولا شتهارها لا حاجة إلى ذكرها هنا.

فصل

(الذكر)

أما الذكر، فالنافع منه هو الذكر على الدوام، أو في اكثر الأوقات، مع حضور القلب، وفراغ البال، والتوجه الكلى إلى الخالق المتعال، حتى يتمكن المذكور في القلب، وتتجلى عظمته الباهرة عليه، وينشرح الصدر بشروق نوره عليه، وهو غاية ثمرة العبادات. وللذكر أول وآخر، فاوله يوجب الأنس والحب، وآخره يوجب الأنس والحب، والمطلوب منه ذلك الحب والأنس. فان العبد في بداءة الأمر يكون متكلفاً

بصرف قلبه ولسانه عن الوسواس والفضول إلى ذكر الله، فإن وفق للمداومة أنس به وانغرس في قلبه حب المذكور. ومن أحب شيئاً أكثر ذكره، ومن أكثر ذكر شيء، وإن كان تكلفاً، أحبه. ومن هنا قال بعضهم: «كأدت القرآن عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة». ولا تصدر النعم إلا من الأنس والحب، ولا يصدر الأنس والحب إلا من المداومة على المكاءة والتكلف مدة طويلة، حتى يصير التكلف طبعاً. وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه أولاً، ويكأه اكله، ويواظب عليه، فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصبر عنه؟ فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت: «هي النفس ما عودتها تتعود».

ثم إذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله، وما سوى الله يفارقه عند الموت، ولا يبقى إلا ذكر الله، فإن كان قد انس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله، ولا يبقى بعد الموت عائق، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه، فعظمت غبطته، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه عما به انسه، وهذا الأنس يتلذذ به العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله، ويترقى من الذكر إلى اللقاء، قال الصادق عليه السلام: «من كان ذاكرًا لله على الحقيقة فهو مطيع، ومن كان غافلاً عنه فهو عاص، والطاعة علامة الهداية، والمعصية علامة الضلالة، واصلهما من الذكر والغفلة، فاجعل قلبك قبلة للسانك، ولا تحركه إلا بإشارة القلب، وموافقة العقل، ورضا الايمان، فإن الله تعالى عالم بسرك وجهرك، وكن كالنازع روحه، أو كالواقف في العرض الأكبر، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه ووعدته ووعدته، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك، واغسل قلبك بماء الحزن، واجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى إياك، فإنه ذكرك وهو غنى عنك، فذكره لك أجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق، ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار، ويتولد من ذلك رؤية كرمه وفضله السابق، وتصغر عند ذلك طاعتك وإن كثرت في جنب منته، وتخلص

لوجهه، ورؤيتك ذكرك له، يورثك الرياء والعجب والسفه والغلظة في خلقه، واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه، ولا تزداد بذلك من الله تعالى إلا بعداً، ولا تستجلب به على مضي الأيام إلا وحشة. والذكر ذكران: ذكر خالص بموافقة القلب، وذكر صارف لك ينفي ذكر غيره، كما قال رسول الله ﷺ: (أنا لا احصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك). فرسول الله ﷺ لم يجعل لذكره الله عز وجل مقداراً عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره، ومن دونه أولى، فمن أراد أن يذكر الله تعالى، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد بالتوفيق لذكره، لا يقدر العبد على ذكره^(١).

تتميم

(فضيلة الأذكار)

الأذكار كثيرة، كالتهليل، والتسبيح، والتحميد، والتكبير، والحوقة، والتسبيحات الأربع، وأسماء الله الحسنى، وغير ذلك. وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وانسراح الصدر، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال، فهي أفضل. ولذا صرحوا بأن أفضل الأذكار التهليل، لدلالته على توحده في الألوهية، واستناد الكل إليه. وربما كان بعض أسماء الله تعالى في مرتبته أدل، والعارف السالك إلى الله يعلم: أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه باسم.

(١) الحديث مذكور في (مصباح الشريعة): الباب ١٣٦/٥. وفي (المستدرک): ٤٠١/١، كتاب الصلاة، أبواب الذكر. وفي الموضعين اختلاف يسير، فصححناه على (مصباح الشريعة)، الموضع المذكور.

فصل

(الدعاء)

وأما الدعاء، فهو مخ العباد، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والأخبار، ولا حاجة إلى ذكرها لاشتهارها. والأدعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة إلا وقد وردت به أدعية، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها.

ومما ينبغي لكل داع، أن يراعى شرائط وآداب في الدعاء، حتى يستجاب له، ويصل إلى فائده، وتحصل لنفسه نورانية، وهي أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، والأحوال الشريفة، والأماكن المتبركة المشرفة، وأن يدعو متطهراً، مستقبل القبلة، رافعاً يديه بحيث يرى باطن إبطيه، وأن يخفض صوته بين الجهر والإخفات، ولا يتكلف السجع في الدعاء، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرغبة، وأن يجزم ويتيقن اجابة دعائه، ويصدق رجاءه فيه، وأن يلح في الدعاء، ويكرره ثلاثاً، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده، ولا يبتدىء بالسؤال، وأن يتوب، ويرد مظالم العباد، ويقبل على الله بكنه الهمة، وهو السبب القريب للاجابة، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال، وهو أيضاً من عمدة الشرائط، وأن يسمى حاجته، ويعم في الدعاء، ويبكى عنده، وهو أيضاً سيد الآداب، وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى، قال الصادق عليه السلام: «احفظ ادب الدعاء، وانظر من تدعو، وكيف تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاین بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك وما تكن فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كيلا تدعو الله بشيء عسي فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك، قال الله تعالى:

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١).

(١) الإسراء، الآية: ١١.

وتفكر ماذا تسأل، ولماذا تسأل. والدعاء استجابة الكل منك للحق، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلها - ظاهرها وباطنها - إلى الله تعالى، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة، فانه يعلم السر واخفى، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من شرك خلاف ذلك. واعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء، لكننا إذا اخلصنا الدعاء، تفضل علينا بالاجابة، فكيف وقد ضمن ذلك لمن اتى بشرائط الدعاء، وسئل رسول الله ﷺ عن اسم الله الأعظم، فقال: (كل اسم من اسماء الله اعظم). ففرغ قلبك عن كل ما سواه، وادعه باى اسم شئت، فليس في الحقيقة لله اسم دون، بل هو الله الواحد القهار. وقال النبي ﷺ: (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه). فإذا اتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء، واخلصت شرك لوجهه، فابشر باحدى ثلاث: إما أن يعجل لك بما سألت، وإما أن يدخلك بما هو أفضل منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلك^(١). وسئل من الصادق عليه السلام: ما لنا ندعوا ولا يستجيب لنا؟ فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسالون من لا تفهمونه، فالاضطراب عين الدين، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت قدرة الله، حكم على الله بالسؤال، وظن أن سؤاله دعاء، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى».

المقصد الرابع

(تلاوة القرآن)

اعلم أنه لاحد لثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لاتحصى كثرة، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله، حامله روح الأمين إلى سيد

(١) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة): الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦. وفيه اختلاف كثير عما هنا، فصححناه

على (المصباح)، الموضع المذكور.

المرسلين، فتأمل أن الكلام الصادر من الله بلا واسطة، إذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته، ومن حيث المعنى متضمناً لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام، ومخبراً عن دقائق صنع الله، وعن مغيبات الأحوال والقصص الواقعة في سواف القرون والأعوام، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس؟. وبالجمله: العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن، والأخبار الواردة فيه مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة.

أما الآداب الظاهرة، فالوضوء، والوقوف على هيئة الأدب، والطمأنينة، إما قائماً أو جالساً، مستقبل القبلة، مطرقاً رأسه، غير مترع ولا متكئ، والترتيل والبكاء، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء وإلا فالسر أفضل، وتحسين القراءة وتنزيهها، ومراعاة حق الآيات، فإذا مر بآية السجود سجد، وإذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله، وإذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى أن يرزقه، وإذا مر بآية تسبيح أو تكبير سبح وكبر، وإذا مر بآية دعاء أو استغفار دعا واستغفر، وافتتاح القراءة بقوله: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم)، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة: (صدق الله العلى العظيم وبلغ رسوله الكريم، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، والحمد لله رب العالمين).

وأما الآداب والأعمال الباطنة:

فمنها - فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه، في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة افهام خلقه: فلينظر كيف لطف بخلقه في ايصال معانى كلامه الذي هو صفة قائمة بذاتها إلى افهام خلقه، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طى حروف وأصوات هي صفات البشر، إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله إلا بوسيلة صفات نفسه، ولولا استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف، لما ثبت لسماع كلاعه عرش ولا ثرى، ولا شيء ما بينهما، من عظمة سلطانه وسبحات نوره،

ولولا تثبيت الله موسى ﷺ لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الجبل مبادئ تجليه حيث صار دكاً، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام إلا بأمثلة على حد فهم الخلق، ولهذا عبر عنه بعض العارفين، فقال: «إن كل حرف من كلام الله في اللوح أعظم من جبل قاف، وإن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن ينقلوه ما اطاقوه، حتى يأتي اسرافيل، وهو ملك اللوح، فيرفعه. فنقله باذن الله ورحمته، لا بقوته وطاقته». وايصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الانسان مع قصور رتبته، تشابه من درجة تصويت الانسان البهائم والطيور. فإن الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور ما يريد من اقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها، وكان تمييزها قاصراً عن فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه، فينزل إلى درجة تمييز البهائم، ويوصل مقاصده إليها بأصوات لاثقة بها، من النفير والصفير والأصوات القرية من أصواتها، يطيقون حملها. وكذلك الناس، لما كانوا عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صغاته، فتنزل من عرش العظمة والجلال إلى درجة أفهامهم، فتجلى في مظاهر الأصوات والحروف، وقد يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوبة فيه. فكما أن بدن البشر يكرم ويعزز لمكان الروح، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها. والكلام عالي المنزلة، رفيع الدرجة، قاهر السلطان، نافذ الحكم في الحق والباطل، وهو القاضى العادل، يأمر وينهى، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام كلام الحكمة، كما لا يستطيع الظل أن يقوم قدام شعاع الشمس، ولا طاقة للناس أن ينفذوا غور الحكمة، كما لا طاقة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس، ولكنهم ينالون منها ما تقدره ابصارهم ويستدلون به على حوائجهم. فالكلام كالملك المحجوب، الغائب وجهه، المشاهد أمره، فهو مفتاح الخزائن النفيسة، وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت، ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم.

ومنها - تعظيم المتكلم: فينبغى للقارئ عند الابتداء بالتلاوة، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أنه ليس من كلام البشر، بل هو كلام خالق الشمس

والقمر، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر، إذ كما لا ينبغي أن تمسّ جلده وورقه وحرّفه البشرة المستفدرة بخبث أو حدث، فكذلك لا ينبغي أن تقرؤه الألسنة المستخبثة بقبائح الكلمات، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدرّة برذائل الأخلاق والصفات، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس، إلا إذا كان متطهراً، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان، ولالئيل معانيه كل قلب، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب، إلا إذا كانت منقطعة عن كل رجس، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير. وبالجملّة: ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له، ليتحقق تعظيم الكلام أيضاً، إذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه، فليرجع إلى التفكير في صفاته وافعاله، ويستحضر أن المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد ارادته كل ما يشاهده ويسمعه، من العرش والكرسى والسموات والأرضين، وما فيها وما تحتها وما فوقها، وأنه الخالق والرازق للجميع، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير، ومردد بين فضله ورحمته، وبين نعمته وسطوته، وجميع ذلك لانسبة له إلى عوام المجردات، فالتفكير في أمثال ذلك يوجب استشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام. ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم إذا نشر المصحف للتلاوة غشى عليه، ويقول: (هو كلام ربّي، هو كلام ربّي!).

ومنها - الخضوع والرقّة: قال الصادق عليه السلام: «من قرأ القرآن: ولم يخضع ولم يرق قلبه، ولا ينشئ حزنًا ووجلاً في سرّه، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى، وخسر خسراً مبيناً، فقارء القرآن محتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال. فإذا خشع لله قلبه فرّ منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(١).

فإذا تفرغ نفسه من الأسباب، تجرد قلبه للقراءة، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده. فإذا اتخذ مجلساً خالياً، واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسره بالله عز وجل، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع اشاراته، فإن شرب كأساً من هذا المشرب حينئذ، لا يختار على ذلك الحال حالاً، ولا على ذلك الوقت وقتاً، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأنَّ فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة. فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك، وكيف تجيب أوامره ونواهيه، وكيف تمتثل حدوده:

﴿وَأَنَّهُ لَکَتَبَ عَزِيزٌ لَا یَأْتِیهِ الْبَطِلُ مِن بَیْنِ یَدَیْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِیلٌ مِّنْ حَکِیمٍ حَمِیدٍ﴾^(١).

فرتله ترتيلاً، وقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده»^(٢).

ومنها - حضور القلب، وترك حديث النفس، وهو يترتب على التعظيم، فإن من يعظم شيئاً، كلاماً كان أو غيره، يستبشر ويستأنس به، ولا يغفل عنه. ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب، وتفرح به النفس، ان كان التالي أهلاً له.

ومنها - التدبر: وهو زائد على حضور القلب، اذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن، ولكنه اقتصر على سماعه من نفسه، من دون تدبر فيه. والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن، قال الله سبحانه:

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ أَمَّا عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالٍهَا﴾^(٣).

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر

(١) فصلت، الآية: ٤١-٤٢.

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٤/١٤٢.

(٣) محمد صلى الله عليه وآله وسلم، الآية: ٢٤.

فيها». وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد، فليردد. ولذلك كان الأكابر كثيراً ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها، وربما يقفون عند آية مدة مديدة، وقال بعضهم: «لى في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولى ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد!»، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه.

ومنها - التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى، وذكر أفعاله، وذكر الجنة والنار، وأحوال النشأة الآخرة، وذكر أحوال انبيائه، وأحوال المكذبين، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك. فإن مرّ بآيات صفاته تعالى، كقوله:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١). وكقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ

الْسَّلَامُ...﴾ إلى آخر الآية^(٢)، وغير ذلك.

فليتأمل في معانى هذه الأسماء والصفات، لتتكشف له أسرارها المكنونة تحتها، ولا تنكشف هذه الأسرار إلا للمؤيدين في فهم كتاب الله. قال أمير المؤمنين: عليه السلام «ما أسرّ الي رسول الله ﷺ شيئاً كتّمه عن الناس، إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه». وإن مرّ بآيات الأفعال، أى الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والأرض، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والأمطار وغير ذلك، فليفهم التالى منها عظمة الله وجلاله. إذ الفعل يدل على الفاعل، فعظمته تدل على عظمته. وينبغى أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، إذ من عرف الحق رآه في كل شيء، إذ كل شيء منه وبه وإليه وله، فهو الكل في وحده، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل، وأن كل شيء هالك إلا وجهه، وإن اعتبر

(١) الشورى، الآية: ١١.

(٢) الحشر، الآية: ٢٣.

من حيث هو، إذ مع قطع النظر عن الواجب وإيجاده، لا ذات ولا وجود، بل محض العدم وعدم المحض. فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم. فإذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله، فليتأمل في تلك العجائب، ثم يترقى منها إلى أعجب العجائب، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الأعاجيب. وإذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة، فليتذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنقم لا نسبة له إلى ما في عالم الآخرة، فليتنقل من ذلك إلى عظمة الله تعالى، وينقطع إليه باطناً، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة، ويوصله إلى نعيمها ولذاتها. وإذا سمع أحوال الأنبياء عليهم السلام، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم، فليفهم منه صفة الإستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم، وأنه لو أهلك جميعهم لا يؤثر في ملكه، وإذا سمع نصرتهم في الأمر، فليفهم قدرة الله وإرادته لنصرة الحق. وأما أحوال المكذبين، وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال، فليستشعر الخوف من سطوته ونقمته، ويعتبر في نفسه ويعلم أنه غفل وأساء الأدب، واغتر بما امهل، فربما تدركه النقمة، وكذلك إذا سمع الوعد والوعيد والأمر والتهديد، فلا يمكن استقصاء ما يفهم من القرآن، لأنه لا نهاية له، إذ (لا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين).

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ (١).

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه.

ومنها - التخلي عن موانع الفهم: وهي التقليد والتعصب لمذهب، فإن ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها، والجمود على تفسير ظاهر، طائناً أن غيره تفسير بالرأى لا يجوز ارتكابه، وصرف الهمة والفهم إلى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الأمور المتداولة بين القراء، فإن قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة، ومتابعة

الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه، وإشراق المعارف الحقة عليه. قال رسول الله ﷺ: «إذا عظمت امتي الدينار والدرهم، تنزع منها هيبة الاسلام، وإذا تركوا الأمر بالمعروف، حرموا بركة الوحي». وقد شرط الله تعالى الإنابة في الفهم والتذكر، قال الله تعالى:

﴿تَبْصِرَةٌ وَدِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابِ﴾^(٣).

ومنها - التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، من الأمر والنهي والوعد والوعيد، حتى أنه لو سمع قصص الأولين، يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر. فما من قصة في القرآن إلا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته، ولذلك قال سبحانه:

﴿مَا تَنْتَبِهَ بِهِ فَوَادَكَ﴾^(٤).

فإن القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة، ونور وموعظة وبصائر للعالمين. فكل احد إذا قرأه ينبغي أن تكون قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. قال بعض الأكابر: «هذا القرآن رسائل اتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، فتتدبرها في الصلوات، ونقف عليها في الخلوات، وننفذها في الطاعات بالسنة المتبعات».

ومنها - التأثير: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حال: من الخوف، والحزن، والوجل، والوجد، والفرح، والارتياح، والرجاء، والقبض، والانبساط. فإذا سمع الوعيد، فليضطرب قلبه، ويتضاءل من

(١) ق، الآية: ٨.

(٢) المؤمن، الآية: ١٣.

(٣) الرعد، الآية: ١٩. الزمر، الآية: ٩.

(٤) هود، الآية: ١٢٠.

الخوف كأنه يموت، وإن سمع وسعة الرحمة ووعد المغفرة، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج، وإذا سمع وصف الجنة، فلينبعث باطنه شوقاً إليها، وإذا سمع وصف النار، فلتترعد فرائضه خوفاً منها، وإذا سمع صفات الله واسماءه ونعوت جلاله، فليبتطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته وكبريائه، وإذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياءً من قبح مقاتلتهم... وقس على ذلك غيره من الآيات المختلفة. ومهما تمت المعرفة، كانت الخشية أغلب الأحوال على القلب، إذ التضيق غالب على آيات القرآن، إذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشياً عليه عند استماع آيات الوعيد، ومنهم من مات بمجرد استماعها. وبالجملـة: المقصود الأصلـى من القرآن، استجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به، وإلا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة. وحق تلاوة القرآن أن يشترك فيها اللسان والعقل والقلب. فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل إدراك المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة. فاللسان واعظ القلب، والعقل مترجم، والقلب متعظ.

ومنها - الترقى: وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله تعالى، لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: الأولى: وهي ادناها، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمع منه، فتكون حاله - على هذا التقدير - التملق والسؤال والتضرع والابتهاج. الثانية: أن يشهد بقلبه، كأن ربه يخاطبه بالطفاف، ويناجيه باحسانه وإنعامه، فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والإصغاء. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته، ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه، بل يكون مقصور الهم على التكلم، موقوف الفكر عليه. كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره. وهذه درجة المقربين والصديقين، وما قبله من درجات اصحاب اليمين، وما خرج عن ذلك فهو درجات

الغافلين. وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء - أرواحنا فداءه - حيث قال ﷺ: «الذي تجلى لعباده في كتابه، بل في كل شيء، وأراهم نفسه في خطابه، بل في كل نور». وأشار إليها الإمام أبو عبد الله الصادق ﷺ حيث قال: «والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه! ولكن لا يبصرون». وروى: «أنه لحقته حالة في الصلاة، حتى خر مغشياً عليه، فلما سرى عنه، قيل له في ذلك، فقال ﷺ: ما زلت أردد الآية على قلبي، حتى سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته». وفي مثل هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة. ولذلك قال بعض الحكماء: «كنت أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، حتى تلوته كأنى أسمعه عن رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه، ثم رفعت إلى مقام فوقه، فكنت اتلوه كأنى أسمعه من جبرئيل يلقيه على رسول الله ﷺ، فعندها وجدت لذة ونعيماً لا اصبر عنه». وقال حذيفة: «لو طهرت القلوب، لم تشبع من قراءة القرآن». وذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام، بل التوحيد الخالص للعبد، ألا يرى في كل شيء إلا الله، إذ لو رأى غيره، لا من حيث إنه منه وله وبه واليه، كان مشركاً بالشرك الخفى.

ومنها - التبرى: وهو أن يتبرى من حوله وقوته، ولا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية. فإذا قرأ آيات الوعد ومدح الأخيار، فلا يشهد نفسه ولا يدخلها في زميرتهم، بل يشهد أهل الصدق واليقين، ويتشوق إلى أن يلحقه الله بهم. وإذا قرأ آيات المقت والوعيد، وذم العصاة والمقصرين، شهد نفسه هناك، وقدر أنه المخاطب خوفاً وشفاقاً. وإلى هذا أشار مولانا أمير المؤمنين ﷺ، حيث قال في وصف المتقين: «وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم». فإذا رأى القارىء، نفسه بصورة التقصير في القراءة، كانت رؤيته سبب قربه. فإن من شهد البعد في القرب، لطف له بالخوف، حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد، مكر به بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه. ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا، صار

محجوباً بنفسه. فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، كشف له سر الملكوت بحسب احواله، فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء، ويغلب على حاله الاستبشار، وتنكشف له صورة الجنة، فيشاهدها كأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف، كوشف بالنار، حتى يرى أنواع عذابها، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف، والشديد العسوف والمرجو والمخوف، وذلك بحسب أوصافه، إذ منها الرحمة واللفظ.

ومنها - القهر والبطش والانتقام: فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات ينقلب القلب في اختلاف الحالات، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة، إذ يمتنع أن يكون حال المستمع واحداً والمسموع مختلفاً، إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام منان متعطف لا يهمل.

المقصد الخامس

(الصوم)

اعلم أن الصوم اجره عظيم، وثوابه جسيم، وما يدل على فضله من الآيات والأخبار أكثر من أن يحصى، وهي معروفة مشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها، فلنشر إلى ما يتعلق به من الأمور الباطنة:

فصل

(ما ينبغي للصائم)

ينبغي للصائم أن يغض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه، أو يكره، أو يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة، ويكف السمع عن كل ما يحرم أو يكره استماعه، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات، ويكف

سائر جوارحه عن المكاره. وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة. وينبغي أيضاً ألا يستكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ، إذ ما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن ملئ من حلال، كيف والسر في شرع الصوم قهر عدو الله، وكسر الشهوة والهوى، لتتقوى النفس على التقوى، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية، وكيف يحصل ذلك إذا تدارك الصائم عند الإفطار ما فاتة ضحوة نهاره، لا سيما إذا زيد عليه في ألوان الطعام، كما استمرت العادات في هذه الأعصار، وربما يؤكل من الأطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور. ولا ريب في أن المعدة إذا خليت من ضحوة النهار إلى العشاء، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها، ثم أطعمت من اللذات، وأشبعت من ألوان المطاعم، وجمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما يأكل ليلاً، واكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو أكثر، زادت لذتها، وتضاعفت قوتها، وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راکدة لو تركت على عاداتها، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم، أعنى تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان، فلا بد من التقليل، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم، من دون ضم مما يأكل في النهار اليه، حتى ينتفع بصومه. والحاصل: أن روح الصوم وسره، والغرض الأصلي منه: التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى، أعنى الصمدية، والإقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان، وهذا إنما يحصل بتقليل الأكل عما يأكله في غير وقت الصوم، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر، من ادراك الأغنياء ألم الجوع والانتقال منه إلى شدة حال الفقراء، فيبيعهم ذلك على مواساتهم بالأموال والأقوات، فهو أيضاً لا يتم بدون التقليل في الأكل.

فصل

(ما ينبغي للصائم عند الإفطار)

ينبغي لكل صائم أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً، معلقاً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها. روى: «إن الامام أبامحمد الحسن المجتبى عليه السلام مر بقوم يوم العيد، وهم يضحكون، فقال عليه السلام: إن الله تعالى جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه، يستبقون فيه لطاعته، فسبق أقوام ففازوا، وتخلف أقوام فخابوا، فالعجب كل العجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون، وخاب فيه المبطلون، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه، والمسيء عن إساءته!»، أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك.

فصل

(درجات الصوم)

لصوم ثلاث درجات:

الأولى - صوم العموم: وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب.

الثانية - صوم الخصوص: وهو الكف المذكور، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع.

الثالثة - صوم خصوص الخصوص: وهو الكفان المذكوران، مع صوم القلب عن الهمم الدنية، والأخلاق الردية، والأفكار الدنيوية، وكفه عما سواه بالكلية، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ما سوى الله واليوم الآخر، وحاصل هذا الصوم إقبال

بكنه الهمّة على الله، وانصراف عن غير الله، وتلبس بمعنى قوله تعالى: «قل الله ثم ذرهم»، وهذا درجة الأنبياء والصديقين والمقربين، ويترتب عليه الوصول إلى المشاهدة واللقاء، والفوز بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب أحد. وإلى هذا الصوم أشار مولانا الصادق عليه السلام حيث قال: «قال النبي ﷺ: الصوم جنة. أى ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمّة عن خطرات الشياطين، وأنزل نفسك منزلة المرضى، ولا تشتهي طعاماً ولا شراباً وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله. قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: الصوم لى وأنا اجزى به. والصوم يميت مراد النفس وشهوة الطبع، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن، والشكر على النعم والاحسان إلى الفقراء، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء، وحبل الإلتجاء إلى الله، وسبب انكسار الهمّة، وتخفيف الحساب، وتضعيف الحسنات، وفيه من الفوائد، ما لا يحصى ولا يعد، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله»^(١).

تتميم

من صام شهر رمضان إخلاصاً لله وتقرباً إليه، وطهر باطنه من ذمائم الأخلاق، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام، واجتنب عن الحرام، ولم يأكل إلا الحلال، ولم يفرط في الأكل، وواظب على جملة من النوافل والأدعية وسائر الآداب المسنونة فيه، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة، بمقتضى الأخبار المتواترة. ثم إن كان من العوام، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته، وإن كان من أهل

(١) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب: ٢٠، وعلى (المستدرک): ١ / ٥٨٩ - ٥٩٠، كتاب

المعرفة، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه، فينكشف له شيء من الملكوت، لا سيما في ليلة القدر، إذ هي الليلة التي تنكشف فيها الأسرار، وتفيض على القلوب الطاهرة الأنوار، والمناط والعمدة في نيل ذلك تقليل الأكل بحيث يحس ألم الجوع، إذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام، فهو محجوب عن عوالم الأنوار. ويستحيل أن ينكشف له شيء من الأسرار.

المقصد السادس

(الحج)

اعلم أن الحج أعظم أركان الدين، وعمدة ما يقرب العبد إلى رب العالمين، وهو أهم التكاليف الإلهية واثقلها، وأصعب العبادات البدنية وفضلها، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدائها الدين، ويساوى تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين. والأخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الأخبار، والأحكام والشرائط الظاهرة له على عهدة الفقهاء، فلنشر إلى الأسرار الخفية، والأعمال الدقيقة، والآداب الباطنة، التي يبحث عنها أرباب القلوب:

فصل

(الغرض من ايجاد الانسان)

إعلم أن الغرض الأصلي من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول إلى حبه والانس به، والوصول إليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها. فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجرداً، كان انسها وحبها بالله أشد وأكثر. وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات، والكف عن اللذات، والإنقطاع عن الحطام الدنيوية، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الأعمال الشاقة، والتجرد لذكره وتوجيه القلب إليه. ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الأمور، إذ

بعضها إنفاق المال وبذله، الموجب للانقطاع عن الحطام الدنيء، كالزكاة والخمس والصدقات، وبعضها الكف عن الشهوات واللذات، كالصوم، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب إليه، وارتكاب تحريك الأعضاء وتعبها، كالصلاة، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الأمور مع الزيادة، إذ فيه هجران أوطان، وإتباع ابدان، وإنفاق أموال، وانقطاع آمال، وتحمل مشاق، وتجديد ميثاق، وحضور مشاعر، وشهود شعائر، ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات، مع كون أعماله أموراً لا تأنس بها النفوس، ولا تهتدى إلى معانيها العقول، كرمى الجمار بالأحجار، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار، إذ بمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية، فإن سائر العبادات أعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل، فللنفس إليها ميل، وللطبع بها انس.

وأما بعض أعمال الحج، كرمى الجمار وترددات السعي، فلاحظ للنفس ولا انس للطبع فيها، ولا اهتمام للعقل إلى معانيها، فلا يكون الإقدام عليها إلا لمجرد الأمر وقصد الامتثال له من حيث إنه امر واجب الاتباع، ففيها عزل العقل عن تصرفه، وصرف النفس والطبع عن محل انسه، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما، فيكون ذلك الميل معيناً للامتثال فلا يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال النبي ﷺ في الحج على الخصوص: «لبيك بحجة حقاً وتعبداً ورقاً»، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات. فمثل هذه العبادة - أي ما لم يهتد العقل إلى معناه ووجهه - أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغى إلى الاسترقاق، فتعجب بعض الناس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات، وهذا هو السر في وضع الحج، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة، أو في بعض أسرار آخر - كما يأتي - ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم، ومن قبله على خليله المعظم - عليهما أفضل الصلاة -، بل لا يزال

مرجعاً ومنزلاً لجميع الأنبياء، من آدم إلى خاتم، ومهبطاً للوحي، ومحلاً لنزول طوائف الملائكة. وقد تولد فيه سيد الرسل ﷺ وتوطأت أكثر مواضع قدمه الشريفة وأقدام سائر الأنبياء، ولذلك سمي بـ (البيت العتيق)، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة إلى نفسه، ونصبه مقصداً لعباده، وجعل ما حواليه حرماً لبيته، وتفخيماً لأمره، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمة، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، فقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق، شعطاء غبراء، متواضعين لرب البيت، ومستكنين له، خضوعاً لجلاله، واستكانة لعزته وعظمته، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت أو يكتنفه بلد.

ولاريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع، مع ما فيه من حصول المؤلفات والمصاحبة، ومجاورة الأبدال والاولاد والأخيار المجتمعين من أقطار البلاد، وتظاهر الهمم، وتعاون النفوس على التضرع والابتهاال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة، بذكر النبي ﷺ واجلاله، ونزول الوحي عليه، وغاية سعيه واهتمامه في إعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه، فتحصل الرقة للقلب، والصفاء للنفس. ثم لكون الحج أعظم التكليفات لهذه الأمة، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السالفة، فان الامم الماضية إذا أرادوا العمل لأصعب التكاليف واشقها على النفس، انفردوا عن الخلق، وانحازوا إلى قلل الجبال، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات، فتركوا اللذات الحاضرة، وألزموا انفسهم الرياضات الشاقة، طمعاً في الآخرة، وقد اثنى الله عليهم في كتابه، وقال:

﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِسِيَّيْنِ وَرَهْبَانًا وَآَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾^(٢).

(١) المائدة، الآية: ٨٢

(٢) الحديد، الآية: ٢٧.

ولما اندرس ذلك، وأقبل الخلق على اتباع الشهوات، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى وفروا عنها، بعث الله تعالى من سرّة البطحا محمداً ﷺ، لإحياء طريق الآخرة، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياسة في دينه، فقال ﷺ: «ابدلنا بالرهبانية الجهاد، والتكبير على كل شرف - يعني الحج - ، وابدلنا بالسياسة الصوم». فانعم الله على هذه الأمة، بأن جعل الحج رهبانية لهم، فهو بازاء اعظم التكاليف والطاعات في الملل السابقة.

فصل

(ما ينبغي في الحاج)

ينبغي للحاج، عند توجهه إلى الحج، مراعات امور:

الأول - أن يجرّد نيته لله، بحيث لا يشوبها شيء من الأغراض الدنيوية، ولا يكون باعته على التوجه إلى الحج إلا امتثال أمر الله، ونيل ثوابه، والإستخلاص من عذابه، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث آخر، مكنون في بعض زوايا قلبه، كالرياء والحذر عن ذم الناس وتفسيقهم لولا يحج، أو الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج، لما اشتهر من أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والإدبار)، أو قصد التجارة أو شغل آخر، فإن كل ذلك يخرج العمل من الإخلاص، ويحجبه عن الفائدة وترتب الثواب الموعود، وما أجهل من تحمل الأعمال الشاقة التي يمكن أن تحصل بها سعادة الأبد، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة، فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصاً لوجه الله، بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص، وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمة والمقصود غيره، فليصحح في نفسه العزم، وتصحيحه بإخلاصه باجتنب كل ما فيه رياء وسمعة.

الثاني - أن يتوب إلى الله تعالى توبة خالصة، ويردّ المظالم، ويقطع علاقة قلبه

عن الالتفات إلى ما وراءه، ليكون متوجهاً إلى الله بوجه قلبه، ويقدر أنه لا يعود، وليكتب وصيته لأهله وأولاده، ويتهياً لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على قرب، وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك السفر، فهو المستقر وإليه المصير. فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد لهذا، فليذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة.

الثالث - أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت، ويعلم أنه ترك الأهل والأوطان، وفارق الأحبة والبلدان، للعزم على أمر رفيع شأنه، خطير أمره: اعنى زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس، فسفره هذا لا يضاهى أسفار الدنيا. فليحضر في قلبه ماذا يريد، وأين يتوجه، وزيارة من يقصد، وأنه متوجه إلى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين إليه، الذين نودوا فأجابوا، وشوقوا فاشتاقوا، ودعوا فقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه تسلياً بقاء البيت عن لقاء صاحبه، إلى أن يرزقوا منتهى مناهم، ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم، فليحضر في قلبه عظم السفر، وعظمة البيت، وجلالة رب البيت، ويخرج معظماً لهما، ناوياً إن لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافداً إليه بمقتضى وعده.

الرابع - أن يخلى نفسه عن كل ما يشغل القلب، ويفرق الهم في الطريق، أو المقصود، من معاملة أو مثلها، حتى يكون الهم مجرداً لله، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله وتعظيم شعائره، متذكراً عند كل حركة وسكون أمراً أخروياً يناسبه.

الخامس - أن يكون زاده حلاًلاً، ويوسع فيه ويطيبه، ولا يغتم ببذله وإنفاقه، بل كان طيب النفس به، إذ انفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله، والدرهم منه بسبعمئة درهم، قال رسول الله ﷺ: «من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفر». وكان السجاد عليه السلام إذا سافر إلى الحج، يتزود من أطيب الزاد، من اللوز والسكر والسويق المحمض والمحلّى. وقال الصادق عليه السلام: «إذا سافرت، فاتخذوا سفرة وتنوقوا فيها». وفي رواية: «أنه يكره ذلك في زيارة الحسين عليه السلام». نعم ينبغي أن يكون الإنفاق

على الاقتصاد من دون تقتير ولا إسراف، والمراد بالإسراف التمتع باطائب الأطعمة، والترفع بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين، وأما كثرة البذل على المستحقين، فلا إسراف فيه، إذ لا خير في السرف، ولا سرف في الخير. وينبغي - أيضاً - أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن، لأن ذلك من دلائل قبول حجه، فإن ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمئة في سبيل الله، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد، فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب، فلا يضيع منه شيء عند الله.

السادس - أن يحسن خلقه، ويطيب كلامه، ويكثر تواضعه ويجتنب سوء الخلق والغلظة في الكلام، والرفث والفسوق والجدال، والرفث اسم جامع لكل فحش ولغو وخنى، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله، والجدال هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن، ويفرق الهم ويناقض حسن الخلق. قال رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»، فقليل يا رسول الله، ما بر الحج؟ قال: «طيب الكلام وإطعام الطعام». فلا ينبغي أن يكون كثير الإعتراض على رفيقه وجماله، وعلى غيرهما من أصحابه، بل يلين جانبه، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله، ويلزم حسن الخلق، وليس حسن الخلق مجرد كف الأذى، بل احتمال الأذى، وقيل: سمى السفر سفراً، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال.

السابع - أن يكون أشعث أغبر، غير متزين ولا مائل إلى اسباب التفاخر والتكاثر، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين، ويمشى إن قدر، خصوصاً بين المشاعر. وفي الخبر: «ما عبد الله بشيء أفضل من المشى». وينبغي ألا يكون الباعث للمشى تقليل النفقة، بل التعب والرياضة في سبيل الله، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار، فالركوب أفضل. وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشى، وساء خلقه، وقصر في العمل، ففي الخبر: «تركبون أحب إلي، فإن ذلك أقوى على الدعاء والعبادة». وكان الحسن بن علي عليه السلام يمشى وتساق معه المحامل

والرحال. وإذا حضرت الراحلة ليركبها، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخير له الدواب، لتتحمل عنه الأذى، وتخفف عنه المشقة. وينبغي أن يرفق بها، فلا يحملها ما لا تطيق.

فصل

(الميقات)

إذا خرج عن وطنه، ودخل إلى البادية، متوجهاً إلى الميقات، وشاهد العقبات، فليذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة، وما بينهما من الأحوال والمطالبات، وليذكر من هول قطاع الطريق هول منكر ونكير، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربها حيات القبر وأفاعيها وعقاربها وديدانها، ومن إنفراذه عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوداً لمخاوف القبر.

فصل

(ما ينبغي في الميقات)

إذا دخل الميقات، ولبس ثوبى الإحرام، فليذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه، وأنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة، فكما لا يلقي بيت الله إلا بهيئة وزى يخالف عادته، فكذلك لا يلقي الله بعد الموت إلا في زى يخالف زى الدنيا، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب، إذ ليس مخيطاً، كما أن الكفن أيضاً ليس مخيطاً. وإذا أحرم وتلبى، فليعلم أن الإحرام والتلبية اجابة نداء الله، فليرج أن يكون مقبولاً، وليخش أن يكون مردوداً، فيقال: لا لبيك ولا سعديك! فليكن بين الخوف والرجاء متردداً، وعن حوله وقوته متبرأ، وعلى فضل الله وكرمه متكلاً. فان وقت التلبية هو بداية الأمر، وهو محل الخطر. وقد روى: «أن على بن الحسين عليه السلام لما أحرم،

واستوت به راحلته، اصفر لونه وانتفض، ووقعت عليه الرعدة، ولم يستطع أن يلبي. فقليل له: لم لا تلبى؟ فقال: أخشى أن يقول ربي: لا لبيك ولا سعديك! فلما لبي غشى عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه». فليتذكر الملبى عند رفع الأصوات في الميقات خائفاً راجياً، أنه إجابة لنداء الله تعالى، إذ قال تعالى:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا^(١)﴾.

ويستذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور، وحشرهم من القبور، وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله، ومتقسمين إلى مقربين ومباعدين، ومقبولين ومردودين، ومرددين في أول الأمر بين الخوف والرجاء، مثل تردد الحاج في الميقات، حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا.

فصل

(ما ينبغي عند دخول مكة)

ينبغي أن يتذكر عند دخول مكة: أنه قد انتهى إلى حرم من دخله كان آمناً، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليضطرب قلبه من ألا يكون أهلاً للقرب والقبول، فيكون بدخول الحرم خائباً مستحقاً للمقت، وليكن رجاءه في جميع الأوقات غالباً، إذ شرف البيت عظيم، ورب البيت كريم، والرحمة واسعة، والفيوضات نازلة، وحق الزائر منظور، واللائذ المستجير غير مردود. وإذا وقع البصر على البيت، فليحضر في قلبه عظمته، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه، وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته، وليشكر الله على تبليغه إياه إلى بيته، والحاقه إياه بزمرة الوافدين إليه، ويتذكر عند ذلك إصباح الخلائق إلى جهة الجنة آمليين لدخولها كافة، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها، إنقسام الحاج

(١) الحج الآية: ٢٧.

إلى مقبولين ومردودين.

فصل

(ما ينبغي عند الطواف)

وينبغي عند الطواف أن يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، ويعلم إنه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش، وليعلم إن المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت، دون مجرد طواف جسمه بالبيت، فليبتدئ الذكر به ويختم به، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت. فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة، مدرجة إلى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب. وما ورد من أن البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة، وأن طواف الملائكة بها كطواف الإنس بهذا البيت، ربما كان إشارة إلى ما ذكرناه من المماثلة، ولما قصرت رتبة الأكثرين عن مثل ذلك الطواف، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم.

فصل

(ما ينبغي عند إستلام الحجر)

ينبغي أن يتذكر عند استلام الحجر الأسود، أنه بمنزلة يمين الله في أرضه، وفيه مواثيق العباد. قال رسول الله ﷺ: «استلموا الركن، فإنه يمين الله في خلقه، يضافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل، ويشهد لمن استلمه بالموافاة»، ومراده ﷺ بالركن: الحجر الأسود، لأنه موضوع فيه، وإنما شبه باليمين، لأنه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتحبب والرضا، كاليمين حين التصافح. وقال الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لما أخذ مواثيق العباد، أمر الحجر فالقمها، فلذلك

يقال: أمانتى اديتها، وميثاقى عاهدته، لتشهد لى بالموافاة». وقال ﷺ: «الركن اليمانى باب من أبواب الجنة، لم يغلقه الله منذ فتحه». وقال ﷺ: «الركن اليمانى بابنا الذي يدخل منه الجنة، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد»، قيل: إنما شبه بباب الجنة، لأن إستلامه وسيلة إلى وصولها، والنهر، لأنه تغسل به الذنوب. ثم لتكن النية في الاستلام والالتصاق بالمستجار، بل المماساة لكل جزء من البيت، طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتمسكا وتبركاً بالمماساة، ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له أنه لا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفرغ إلا عفوه وكرمه، وأنه لا يفارق ذيله حتى يعفو عنه، ويعطيه الأمان في المستقبل.

فصل

(السعى)

السعى بين الصفا والمروة في فناء البيت، يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك، جائئاً وذاهباً مرة بعد أخرى، إظهاراً للخلوص في الخدمة، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج، وهو لا يدري ما الذي يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى، يرجو أن يرحمه في الثانية إن لم يرحمه في الأولى، وليتذكر عند التردد بين الكفتين، ناظراً إلى الرجحان والنقصان، مردداً بين العذاب والغفران.

فصل

(ما ينبغى عند الوقوف بعرفات)

وأما الوقوف بعرفات، فليتذكر بما يرى من إزدحام الخلق، وارتفاع الأصوات،

واختلاف اللغات، واتباع الفرق ائمتهم في التردد على المشاعر: عرصات يوم القيامة وأهوالها، وانتشار الخلائق فيها حيارى، واجتماع الامم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل امة نبيهم، وطمعهم في شفاعته لهم، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكر ذلك، فليتضرع إلى الله تعالى ويبتهل إليه، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين. وينبغي أن يحقق رجاءه، إذ اليوم شريف والموقف عظيم، والنفوس من أقطار الأرض فيه مجتمعة، والقلوب إلى الله سبحانه منقطعة، والهمم على الدعاء والسؤال متظاهرة، وبواطن العباد على التضرع والابتهاال متعاونة، وايديهم إلى حضرة الربوبية مرتفعة، وابصارهم إلى باب فيضه شاخصة، وأعناقهم إلى عظيم لطفه وبره ممتدة، ولا يمكن أن يخلو الموقف عن الأخيار والصالحين، وأرباب القلوب والمتقين، بل الظاهر حضور طبقات الأبدال وأوتاد الأرض فيه، فلا تستبعدون أن تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة، والنفوس القادسة الشريفة، إلى كافة الخليقة، ولا تظن أنه يخيب آمال الجميع، ويضيع سعيهم، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الأهل والأوطان، فإن بحر الرحمة أوسع من أن يضن به في مثل هذه الحالة، ولذا ورد: أنه من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله لم يغفر له.

فصل

(المشعر)

وإذا فاض من عرفات ودخل المشعر، فليذكر عند دخوله فيه: أن الله سبحانه قد أذن له في دخول حرمة بعد أن كان خارجاً عنه، إذ المشعر من جملة الحرم، وعرفات خارجة عنه، فليتفاءل من دخول الحرم بعد خروجه عنه، بأن الله سبحانه قربه إليه وكساه خلع القبول، وأجاره وأمنه من العذاب والبعد، وجعله من أهل الجنة والقرب.

فصل

(ما ينبغي عند الرمي والذبح)

وإذا ورد منى، وتوجه إلى رمى الجمار، فليقصد به الانقياد والامتثال، اظهاراً للرق والعبودية، وتشبيهاً بالخليل الجليل عليه السلام، حيث عرض له ابليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حجه، فامره الله تعالى أن يرمه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله. وينبغي أن يقصد أنه يرمى الحصا إلى وجه الشيطان، ويقصم به ظهره، ويرغم به أنفه، إذ امتثال أمر الله تعالى تعظيماً له يقصم ظهر اللعين ويرغم أنفه. وإذا ذبح الهدي، فليستحضر أن الذبح إشارة إلى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الأمارة وقتلها، وبذلك استحق الرحمة والغفران، ولذا ورد: أنه يعتق بكل جزء من الهدي جزء منه النار. فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال القبيحة، حتى يصير حاله أحسن من سابقه، ليصدق عليه إذلاله الشيطان والنفس الأمارة في الجملة، ولا يكون في عمله من الكاذبين. ولذلك ورد: أن علامة قبول الحج: أن يصير حاله بعد الحج أحسن مما كان عليه قبله. وفي الخبر: أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي، وأن يستبدل باخوانه البطالين اخواناً صالحين، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

تتميم

(أسرار الحج)

قد ورد عن مولانا الصادق عليه السلام خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه، فلنذكره تيمناً بكلماته الشريفة:

قال عليه السلام: «إذا أردت الحج، فجرد قلبك لله عز وجل، من قبل عزمك، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب، وفوض امورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، وودع الدنيا

والراحة والخلق، واخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً، فإن من ادعى رضا الله، واعتمد على شيء ما سواه، صيره عليه عدواً ووبالاً، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى وتوفيقه، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه ﷺ، وما يجب عليك من الأدب، والاحتمال، والصبر، والشكر، والشفقة، والسخاوة، وإيثار الزاد على دوام الأوقات، ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع، واحرم من كل شيء يمنحك عن ذكر الله عز وجل ويحببك عن طاعته، ولب بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له، متمسكا بالعروة الوثقى، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهول هرولة فرأى من هواك، وتبرأ من جميع حولك وقوتك، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتضمن ما لا يحل لك ولا تستحقه، واعترف بالخطأ بالعرفات، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته، وتقرب إليه، واتقه بمزدلفة، واصعد بروحك إلى الملاء الأعلى بصعودك على الجبل، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة، وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمى الجمرات، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك، وأدخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم، وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعاً لعظمته، وودع ما سواه بطواف الوداع، وصَفَّ روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا، وكن ذا مرة من الله بفناء أوصافك عند المروة، واستقم على شروط حاجتك، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك، واوجب له إلى يوم القيامة، واعلم بان الله لم يفترض الحج، ولم يخصه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١).

ولا شرع نبيه ﷺ سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلا للاستعداد والاشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة، وفضل بيان السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها، بمشاهدة مناسك الحج من أولها إلى آخرها، لاولى الأبواب وأولى النهى^(٢).

خاتمة

(زيارة المشاهد)

في الاشارة إلى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد.
اعلم ان النفوس القوية القدسية، لا سيما نفوس الأنبياء والأئمة عليهم السلام، إذا انفضوا أبدانهم الشريفة، وتجردوا عنها، وصعدوا إلى عالم التجرد، وكانوا في غاية الإحاطة والاستيلاء على هذا العالم، فامور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة، ولهم القوة والتمكن على التأثير والتصرف في مواد هذا العالم، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون عليه، لا سيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية، ومحال حضور اشباحهم البرزخية النورية، فإنهم هناك يشهدون:
﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^(٣).

وبما آتاهم الله من فضله فرحون، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري قبورهم، وحاضري مراقدهم، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل والاستشفاع والتضرع، فتهب عليهم نسمات ألطافهم، وتفيض عليهم من رشحات أنوارهم، ويشفعون إلى الله في قضاء حوائجهم، وإنجاح مقاصدهم، وغفران ذنوبهم، وكشف كربهم. فهذا

(١) آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ٢١.

(٣) آل عمران، الآية: ١٦٩.

هو السر في تأكيد استحباب زيارة النبي والأئمة عليهم السلام، مع ما فيه من صلتهم وبرهم واجابتهم، وإدخال السرور عليهم، وتجدد عهد ولايتهم، وإحياء امرهم، وإعلاء كلمتهم، وتنكيت أعدائهم. وكل واحد من هذه الأمور مما لا يخفى عظيم أجره وجزيل ثوابه. وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات، وأشرف الطاعات، مع أن زيارة المؤمن - من جهة كونه مؤمناً فحسب - عظيم الأجر جزيل الثواب، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد من الشريعة الطاهرة، ولذلك كثر تردد الأحياء إلى قبور أمواتهم للزيارة، وتعارف ذلك بينهم، حتى صارت لهم سنة طبيعية، وأيضاً قد ثبت وتقرر جلالة قدر المؤمن عند الله، وثواب صلته وبره وإدخال السرور عليه. وإذا كان الحال في المؤمن من حيث إنه مؤمن، فما ظنك بمن عصمه الله من الخطأ، وطهره من الرجس، وبعثه الله إلى الخلائق أجمعين، وجعله حجة على العالمين، وارتضاه إماماً للمؤمنين، وقدوة للمسلمين، ولأجله خلق السماوات والأرضين، وجعله صراطه وسبيله، وعينه ودليله، وبابه الذي يؤتى منه، ونوره الذي يستضاء به، وأمينه على بلاده، وحبله المتصل بينه وبين عباده، من رسل وأنبياء وأئمة وأولياء.

ثم، الأخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والأئمة عليهم السلام مما لا تحصى كثرة. قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد موتي، كان كمن هاجر إلي في حياتي، فإن لم تستطيعوا فابعثوا إلي بالسلام، فإنه يبلغني». وقال ﷺ لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة، وعروسة من عرصاتهما، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده، تحن إليكم، وتحتمل المذلة والأذى فيكم، فيعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقرباً منهم إلى الله، ومودة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، والواردون حوضي، وهم زواري وجيران غداً في الجنة. يا علي، من عمر قبورهم وتعاهدها، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم

ولدته امه. فابشر، وبشر أولياءك ومحبيك من النعيم وقرة العين، بما لا عين رأت، ولا اذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم، كما تعير الزانية بزناها، اولئك شرار امتي، لا تنالهم شفاعتي، ولا يردون حوضي^(١). وقال الصادق عليه السلام: «لو أن احدكم حج دهره، ثم لم يزر الحسين بن علي عليه السلام، لكان تاركا حقاً من حقوق رسول الله ﷺ، لأن حق الحسين عليه السلام فريضة من الله واجبة على كل مسلم». وقال الرضا عليه السلام: «إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم، وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان ائتمته شفعاؤه يوم القيامة». والأخبار في فضل زيارة النبي والأئمة المعصومين، لا سيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا - عليهم أفضل التحية والثناء -، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد، أكثر من أن تحصى، وهي مذكورة في كتب المزار لأصحابنا، فلا حاجة إلى إيرادها هنا.

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة)

وإذا عرفت فضل زيارتهم وسرها، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم، فينبغي أن تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم، ومراقدهم المنورة، ومشاهدتهم المكرمة، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم، وتعرف عظيم حقهم، وغاية جدهم وسعيهم في ارشاد الناس وإعلاء كلمة الله.

فإذا قربت المدينة المنورة، ووقع بصرك على حيطانها، تذكر أنها البلدة التي اختارها الله لنبيه ﷺ، وجعل إليها هجرته، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه

(١) صححنا الحديث على (مستدرک الوسائل): ٢/ ١٩٥ - ١٩٦، كتاب الحج، ١٠، أبواب المزار وما

وسننه، وجاهد عدوه، وأظهر بها دينه، ولم يزل قاطناً بها إلى أن توفاه الله، وجعل تربته فيها.

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله ﷺ عند تردداتك فيها، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه إلا وهو موضع قدمه العزيز، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينه ووجل، وكن متذكراً لمشييه وتخطيه في سككها، وتصور سكينته ووقاره، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره، حتى قرنه بذكر نفسه، وأنزل عليه كلامه العزيز، وأهبط عليه روح الأمين وسائر ملائكته المقربين، وأحبط عمل من هتك حرمة، ولو برفع صوته فوق صوته. ثم تذكر ما من الله به على الذين ادركوا صحبته، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته، وتضرع إلى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة، ولتعظم رجاءك في ذلك، بعد أن رزقك الله الايمان، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته، محبة له، وتشوقا اليه.

ثم إذا دخلت مسجده، فتذكر أن أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حياً وميتاً، فارج الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك اياه خاشعاً معظماً، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعى الخصوع من قلب كل مؤمن.

ثم إذا أتيت للزيارة فينبغي ان تقف بين يديه خاضعاً خاشعاً خائفاً، وتزوره ميتاً كما تزوره حياً، ولا تقرب من قبره إلا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً، إذ لا فرق بين ميتة وحيه، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمناً، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك، وأنه يبلغه سلامك وصلواتك. فمثل صورته الكريمة في خيالك، جالساً على سرير العظمة بحذائك، وأحضر عظيم رتبته في قلبك، وقد ورد: أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من امته. وهذا في حق من لم يحضر قبره، فكيف بمن فارق الأهل والوطن، وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه،

واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور، إذ فاتته مشاهدة طلعه البهية، وغرته الكريمة. وقد قال ﷺ: «من صلى عليّ مرة، صليت عليه عشراً». فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه؟

وإذا فرغت من زيارته، فأت المنبر وامسحه بيدك، وخذ برمانيته، وامسح بهما وجهك وعينيك، وتضرع إلى الله، وابتهل اليه، واسأل حاجتك. وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر، ومثل في قلبك طلعه البهية، قائماً على المنبر، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والأنصار، وهو يحمد الله بافصح الكلمات واللغات، ويحث الناس على طاعة الله. واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك، ويجعلك في جواره، ويعطيك منزلاً في قرب داره.

فصل

(ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء)

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين ﷺ، تذكر أنها وادى السلام، ومجمع أرواح المؤمنين، وقد شرفها الله وجعلها أشرف البقاع، وجنة المؤمنين. فما من مؤمن خالص إلا وبعد الموت يأتي روحه إليها، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين، إلى أن يدخلوا دار كرامته العظمى في القيامة الكبرى. وقد أكد شرافتها وعظم قدرها، بأن جعلها مدفن وصي رسوله، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر، ونوح شيخ المرسلين ﷺ. فاسأل الله أن يأتي بروحك إليها، ويدخلك في زمرة المؤمنين، ويجعلها محل دفنك، لتنال شفاعة مولاك ﷺ، ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادى برهوت.

وإذا أتيت لزيارته، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله، وراع الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله ﷺ.

وإذا أردت أرض كربلاء، لزيارة سيد الشهداء ﷺ، فتذكر أن هذه الأرض هي

التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده، وأسرت فيها أهاليه وأهل بيته، فجدد الحزن على قلبك، وادخلها أشعث اغبر، منكسر الحال، محزون القلب، كثيباً حزيناً باكياً، وأحضر في قلبك حرمة هذه الأرض وشرافتها، فإنها الأرض التي في تربتها الشفاء، ولا يرد فيها الدعاء، وقد يجعلها الله يوم القيامة أرفع بقاع الجنة، فتردد فيها على سكينة ووجل.

ثم إذا دخلت الحائر للزيارة، ووقع بصرك على ضريحه المنور، ثم على ضريح أصحابه المستشهادين معه، المجتمعين في موضع واحد في جواره، فمثل في قلبك اشخاصهم، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلايا والمحن، واحضر في نفسك أبا عبدالله الحسين عليه السلام واقعاً في عرصة كربلاء. ويأتى أصحابه واحداً واحداً يستأذن منه للجهاد، قائلاً: السلام عليك يا أبا عبدالله! وهو يأذن له، ويلقى نفسه في الميدان على الجمر الغفير، فيقتل في سبيله، وإذا أيس من حياته، ينادى بأعلى صوته: ادركنى يا أبا عبدالله! وهو عليه السلام يسرع إليه كالصقر المنقض، يأخذ جثته من الميدان، ويلحقه بسائر اخوانه الشهداء. فمثل في نفسك أمثال ذلك، وجدد عليهم الحزن والبكاء، وتمن كونك معهم في تلك العرصة، وقل: يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً!

ثم راع الآداب الباطنة لزيارته عليه السلام، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة عليهم السلام، فإنه ينبغي لك أن تستحضر، عند حضورك كل واحد منهم، جلالة شأنه، وعظمة قدره، وعظيم حقه، وتذكر ما يناسب حاله، وما جرى عليه، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه، من التعظيم، والإجلال، والخوف، والحزن، والفرح، وأمثال ذلك.



هذا آخر كتاب (جامع السعادات)، والحمد لله على إتمامه، وأسأل الله أن يجعلنا من العاملين به، وينفع به جميع عباده السالكين إليه. وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه، في سلخ شهر ذى القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الألف

من الهجرة النبوية، على مهاجرها الف الف سلام وتحية.

* * *

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثانى من (جامع السعادات)

المقام الرابع

٦.....	الحسد
٦.....	فصل: ذم الحسد
١٠.....	فصل: المنافسة والغبطة
١٢.....	فصل: بواعث الحسد
١٥.....	فصل: لا تحاسد بين علماء الآخرة والعارفين
١٧.....	فصل: علاج الحسد
٢٠.....	تنبيه: القدر الواجب في نفى الحسد
٢٣.....	وصل: النصيحة
٢٥.....	الايذاء والاهانة والاحتقار
٢٦.....	وصل: كف الأذى عن المسلمين
٢٩.....	تنبيه: ذم الظلم بالمعنى الأخص
٣٢.....	وصل: العدل بالمعنى الأخص
٣٤.....	إخافة المؤمن
٣٤.....	وصل: إدخال السرور في قلب المؤمن
٣٦.....	ترك اعانة المسلمين

٣٨	وصل: قضاء حوائج المسلمين.....
٤٠	التهاون والمداهنة.....
٤٤	فصل: السعى في الأمر بالمعروف.....
٤٦	فصل: وجوب الأمر بالمعروف وشروطه.....
٤٨	فصل: عدم اشتراط العدالة فيه.....
٥١	فصل: مراتب الأمر بالمعروف.....
٥٣	فصل: معنى وجوبهما كفائياً.....
٥٣	فصل: ما ينبغي في الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر.....
٥٤	تتميم: أنواع المنكرات.....
٥٦	الهجرة والتباعد.....
٥٧	فصل: التزاور والتآلف.....
٦٠	قطع الرحم.....
٦٢	وصل: ضد قطيعة الرحم: صلة الرحم.....
٦٤	تنبيه: المراد بالرحم.....
٦٤	عقوق الوالدين.....
٦٦	وصل: بر الوالدين.....
٦٩	تذنيب: حق الجوار.....
٧٠	تتميم: حدود الجوار وحقه.....
٧١	طلب العثرات.....
٧٢	وصل: ستر العيوب.....
٧٣	افشاء السر.....
٧٤	فصل: كتمان السر.....
٧٤	تنبيه: النميمة.....

٧٩.....	تتمة: السعاية
٧٩.....	الافساد بين الناس
٨٠.....	وصل: الاصلاح
٨١.....	الشماقة
٨٢.....	المراء والجدال والخصومة
٨٤.....	تذنيب: علاج المراء
٨٥.....	وصل: طيب الكلام
٨٥.....	السخرية والاستهزاء
٨٨.....	المزاح
٨٩.....	تذنيب: المذموم من المزاح
٩١.....	الغيبة
٩٣.....	فصل: لا تنحصر الغيبة باللسان
٩٦.....	فصل: بواعث الغيبة
٩٨.....	فصل: ذم الغيبة
١٠٢.....	فصل: علاج الغيبة
١٠٥.....	فصل: مسوغات الغيبة
١٠٨.....	تذنيب: كفارة الغيبة
١٠٩.....	تتميم: البهتان
١١٠.....	وصل: المدح ومواضع حسنه وقبحه
١١٢.....	الكذب
١١٤.....	فصل: ذم الكذب
١١٦.....	فصل: مسوغات الكذب
١١٩.....	تنبيه: التورية والمبالغة

١٢٢.....	تذنيب: شهادة الزور، اليمين الكاذب، خلف الوعد
١٢٣.....	إيقاظ: علاج الكذب
١٢٤.....	وصل: الصدق ومدحه
١٢٥.....	تكميل: أقسام الصدق
١٢٩.....	تنبيه: اللسان أضر الجوارح
١٣٣.....	تتميم: الصمت
١٣٧.....	حب الجاه والشهرة
١٣٨.....	فصل: ذم حب الجاه والشهرة
١٤٠.....	فصل: الجاه أحب من المال
١٤٠.....	فصل: لا بد للإنسان من جاه
١٤٢.....	فصل: دفع اشكال في حب المال والجاه
١٤٦.....	فصل: الكمال الحقيقي في العلم والقدرة لا المال والجاه
١٥٠.....	فصل: علاج حب الجاه
١٥٢.....	فصل: حب الخمول
١٥٣.....	حب المدح
١٥٤.....	فصل: مراتب حب المدح وكراهة الذم
١٥٥.....	فصل: أسباب حب المدح
١٥٦.....	فصل: علاج المدح وكراهة الذم
١٥٨.....	فصل: ضد حب المدح
١٥٩.....	الرياء
١٦٠.....	فصل: ذم الرياء
١٦٤.....	فصل: أقسام الرياء
١٦٥.....	فصل: تأثير الرياء على العبادة

١٦٦.....	تنبيه: السرور بالاطلاع على العبادة.....
١٧٠.....	فصل: متعلقات الرياء.....
١٧١.....	فصل: بواعث الرياء.....
١٧٢.....	تنبيه: الرياء الجلى والخفى.....
١٧٣.....	فصل: كيف يفسد الرياء العمل.....
١٧٤.....	فائدة: شوائب الرياء مبطله للعمل.....
١٧٥.....	ايقاظ.....
١٧٨.....	فصل علاج الرياء.....
١٨١.....	تتميم.....
١٨٣.....	فصل: الاخلاص وحقيقته.....
١٨٥.....	فصل: مدح الاخلاص.....
١٨٨.....	فصل: آفات الاخلاص.....
١٨٩.....	تتميم.....
١٩٢.....	النفاق.....
١٩٤.....	الغرور.....
١٩٥.....	فصل: ذم الغرور.....
١٩٦.....	فصل: طوائف المغرورين.....
١٩٧.....	الطائفة الأولى: الكفار.....
٢٠١.....	الطائفة الثانية: العصاة والفساق من المؤمنين.....
٢٠٤.....	الطائفة الثالثة: أهل العلم.....
٢٠٩.....	الطائفة الرابعة: الوعاظ.....
٢١١.....	الطائفة الخامسة: أهل العبادة والعمل.....
٢١٣.....	الطائفة السادسة: المتصوفة.....

٢١٧.....	الطائفة السابعة: الأغنياء وأرباب الأموال.....
٢١٩.....	وصل: ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد.....
٢٢٠.....	طول الأمل.....
٢٢١.....	فصل: علاج طول الأمل.....
٢٢٢.....	وصل: قصر الأمل.....
٢٢٣.....	فصل: اختلاف الناس في طول الأمل.....
٢٢٥.....	فصل: ذكر الموت مقصر للأمل.....
٢٢٦.....	فصل: العجب ممن ينسى الموت.....
٢٢٧.....	فصل: الموت أعظم الدواهي.....
٢٢٩.....	فصل: مراتب الناس في ذكر الموت.....
٢٣٠.....	تتميم: المبادرة إلى الحسنات.....
٢٣١.....	العصيان.....
٢٣١.....	الوقاحة.....
٢٣٢.....	الإصرار على المعصية.....
٢٣٤.....	وصل: التوبة وتعريفها.....
٢٣٧.....	تنمة: هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق؟.....
٢٣٩.....	فصل: وجوب التوبة.....
٢٤٠.....	تذنيب: تحقيق في وجوب التوبة.....
٢٤٣.....	فصل: عموم وجوب التوبة.....
٢٤٥.....	تذنيب.....
٢٤٦.....	فصل: لا بد من العمل بعد التوبة.....
٢٤٨.....	فصل: فضيلة التوبة.....
٢٤٩.....	فصل: قبول التوبة.....

٢٥٢	فصل: طرق التوبة عن المعاصى
٢٥٥	فصل: تكفير الصغائر ومعنى الكبائر
٢٥٦	فصل: الصغائر قد تكون كبائر
٢٦٠	فصل: شروط كمال التوبة
٢٦١	فصل: هل يصح التبعض في التوبة
٢٦٢	فصل: أقسام التائبين
٢٦٣	فصل: مراتب التوبة
٢٦٥	فصل: عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة
٢٦٧	فصل: علاج الاصرار على الذنوب
٢٦٨	فصل: الانابة
٢٦٩	المحاسبة والمراقبة
٢٦٩	فصل: المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة
٢٧٠	فصل: حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا
٢٧٢	فصل: مقامات مرابطة العقل للنفس
٢٨٤	الغفلة
٢٨٥	تتميم: الغفلة موجبة للحرمان
٢٨٥	وصل: ضد الغفلة: النية
٢٨٦	فصل: تأثير النية على الأعمال
٢٨٩	فصل: النية روح الأعمال، والجزاء بحسبها
٢٩٢	فصل: عبادة الاحرار والأجراء والعبيد
٢٩٥	فصل: نية المؤمن خير من العمل
٢٩٨	فصل: النية غير اختيارية
٢٩٩	تتميم: الطريق في تخليص النية

٢٩٩	الكراهة
٣٠١	فصل: الشوق
٣٠٢	فصل: أفضل مراتب الشوق الشوق إلى الله
٣٠٧	فصل: تعلق الحب بجميع القوى
٣٠٩	فصل: أقسام الحب بحسب مبادئه
٣١٦	فصل: لا محبوب حقيقة إلا الله
٣٢٠	تكميل: الشهود التام هو نهاية درجات العشق
٣٢٢	فصل: سريان الحب في الموجودات
٣٢٣	فصل: رد المنكرين لحب الله
٣٢٩	فصل: معرفة الله أقوى سائر اللذات
٣٣٣	فصل: تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه
٣٤٠	فصل: الطريق إلى الرؤية واللقاء
٣٤٢	فصل: تفاوت المؤمنين في محبة الله
٣٤٣	فصل: الواجب اظهر الموجودات
٣٤٥	فصل: علائم محبة الله
٣٥٠	فصل: معنى حب الله لعبده
٣٥٢	تذنيب: الحب في الله والبغض في الله
٣٥٧	تتميم: الوفاء في الحب
٣٥٩	فصل: الأنس بالله
٣٦٠	فصل: الأنس قد يشمر الادلال
٣٦٣	تذنيب: العزلة
٣٦٧	السخط
٣٦٩	فصل: الرضا

٣٧٠	فصل: فضيلة الرضا
٣٧٢	فصل: رضا الله
٣٧٣	فصل: رد انكار تحقق الرضا
٣٧٥	فصل: هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا
٣٧٩	فصل: طريق تحصيل الرضا
٣٧٩	تتميم: التسليم
٣٨٠	الحزن
٣٨٣	عدم الاعتماد
٣٨٤	وصل: التوكل
٣٨٥	فصل: فضيلة التوكل
٣٨٨	فصل: درجات التوكل
٣٩٠	فصل: السعى لا ينافي التوكل
٣٩١	فصل: الأسباب التي لا ينافي السعى إليها التوكل
٣٩٢	فصل: إعتل وتوكل
٣٩٣	فصل: درجات الناس في التوكل
٣٩٤	فصل: تفنيد زعم
٣٩٥	فصل: طريق تحصيل التوكل
٣٩٦	الكفران: وضده الشكر
٤٠١	فصل: فضيلة الشكر
٤٠٣	فصل: الشكر نعمة يجب شكرها
٤٠٥	فصل: المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه
٤١٠	فصل: أقسام النعم واللذات
٤١٤	تنبيه

٤١٥	فصل: الأكل
٤١٧	فصل: لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل
٤١٨	فصل: عجائب المأكولات
٤٢١	فصل: حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الأسباب
٤٢٢	فصل: تسخير الله التجار لجلب الطعام
٤٢٣	فصل: نعم الله في خلق الملائكة للانسان
٤٢٨	فصل: الأسباب الصارفة للشكر
٤٣٠	فصل: طريق تحصيل الشكر
٤٣٤	فصل: الصحة خير من السقم
٤٣٦	الجزع
٤٣٨	فصل: الصبر
٤٤٠	فصل: مراتب الصبر
٤٤٢	تذنيب: أقسام الصبر
٤٤٢	فصل: فضيلة الصبر
٤٤٨	فصل: الصبر على السراء
٤٥٢	تذنيب: اختلاف مراتب الصبر في الثواب
٤٥٣	فصل: طريق تحصيل الصبر
٤٥٤	تتميم
٤٥٦	تتميم: التلازم بين الصبر والشكر
٤٥٩	تنبيه: القانون الكلى في معرفة الفضائل
٤٦٠	تتميم: تفضيل الصبر على الشكر
٤٦٢	الفسق
٤٦٢	المقصد الأول: الطهارة

٤٦٤	فصل: حقيقة الطهارة
٤٦٦	فصل: ما ينبغي للمؤمن في الطهارة
٤٦٩	فصل: إزالة الاوساخ
٤٦٩	تنبيه: آداب الحمام
٤٧٠	تتميم: السر في إزالة الأوساخ
٤٧٢	المقصد الثاني: الصلاة
٤٧٤	فصل: حقيقة الصلاة
٤٧٦	فصل: حضور القلب
٤٨١	تنبيه: دفع اشكال
٤٨٢	فصل: شرائط الصلاة
٤٨٤	فصل: طريق تحصيل المعاني الباطنة
٤٨٧	فصل: أسرار الصلاة
٤٨٨	فصل: الوقت
٤٨٩	فصل: آداب الصلاة
٤٩٠	فصل: آداب المصلى
٤٩١	فصل: الاستقبال
٤٩٣	فصل: القيام
٤٩٤	فصل: التكبيرات
٤٩٥	فصل: النية
٤٩٥	فصل: تكبيرة الاحرام
٤٩٦	فصل: دعاء الاستفتاح
٤٩٧	فصل: الاستعاذة
٥٠٠	فصل: الركوع

٥٠١	فصل: السجود
٥٠٢	فصل: التشهد
٥٠٤	فصل: التسليم
٥٠٥	فصل: افاضة الأنوار على المصلى على قدر صفائه
٥٠٧	فصل: ما ينبغي في إمام الجماعة
٥٠٨	فصل: ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيد
٥٠٨	فصل: ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات
٥٠٩	المقصد الثالث: الذكر - فضيلة الأذكار - الدعاء
٥٠٩	فصل: الذكر
٥١١	تتميم: فضيلة الأذكار
٥١٢	فصل: الدعاء
٥١٣	المقصد الرابع: تلاوة القرآن
٥٢٣	المقصد الخامس: الصوم
٥٢٣	فصل: ما ينبغي للصائم
٥٢٥	فصل: ما ينبغي للصائم عند الإفطار
٥٢٥	فصل: درجات الصوم
٥٢٦	تتميم
٥٢٧	المقصد السادس: الحج
٥٢٧	فصل: الغرض من إيجاد الإنسان
٥٣٠	فصل: ما ينبغي في الحاج
٥٣٣	فصل: الميقات
٥٣٣	فصل: ما ينبغي في الميقات
٥٣٤	فصل: ما ينبغي عند دخول مكة

٥٣٥	فصل: ما ينبغي عند الطواف
٥٣٥	فصل: ما ينبغي عند إستلام الحجر
٥٣٦	فصل: السعى
٥٣٦	فصل: ما ينبغي عند الوقوف بعرفات
٥٣٧	فصل: المشعر
٥٣٨	فصل: ما ينبغي عند الرمي والذبح
٥٣٨	تتميم: أسرار الحج
٥٤٠	خاتمة: زيارة المشاهد
٥٤٢	فصل: ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة
٥٤٤	فصل: ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء